

رواية

حنامية

القطاف



خامينه

القطاف

رواية

الجزء الثالث

من «بقايا صور» و «المستنقع»



وصلنا اللاذقية في نحو الساعة الثامنة ليلاً. قالت أمي وهي تضع يدها
على رأسي:

- هنا ولدت يا بني!

وقال والدي لسائق الميكروباص، الذي توقف في ساحة الشيخ ضاهر:

- إلى كنيسة «المارسابا»... هناك يسكن أخي، وهناك جميعاً.

قال السائق:

- دُلّني على الطريق... أنا لا أعرف أين تقع هذه الكنيسة..

قالت أمي مستغربة:

- كيف يا شحود؟ أنت من اللاذقية ولا تعرف الكنيسة؟

قال السائق الذي أصبح نَزَقاً في نهاية الرحلة الطويلة، الصعبة:

- أنا لا أعرف الكنائس ولا الجوامع..

قالت أمي:

- أنت تمزح!

- وإذا أقسمت لك أني لا أمزح؟.. هذه ساحة الشيخ ضاهر.. تفضلوا

اعتقوني..

قال الوالد مدارياً الموقف:

- صُلّ على النبي يا شحود..

قال شحود:

— اللهم صل وسلم عليه . قلت لكم لا أعرف كنيسة مارسابا هذه .
دلوني عليها أو تفضلوا بالنزول .

قال الوالد :

— على مهلك إذن . دعني أنزل وأتيك الطريق . .

— لماذا؟ نيته ما شاء الله؟

— لم أنه . ولكن خمسة عشر عاماً يا شحود . فكّر أنت . خمسة
عشر عاماً لم أدرس اللاذقية . ولا أعرف ، في هذا الليل ، أولها من
آخرها . دعني أعرف أين نحن . رأسي دائخ من ضجيج السيارة .

قال شحود :

— قلنا لك أننا في ساحة الشيخ ضاهر . وهذا جامع العجان عن يميننا .

— إذن تقدّم قليلاً . امش إلى آخر الساحة ، وهناك اسأل . اختمها
بالمسك يا شحود . .

— بالمسك أو بالزفت . أبو الذي علّمني هذه الصنعة . من الصبح وأنا
أتعذب . .

قالت أمي :

— الحقّ معك يا شحود . كانت رحلة صعبة . الله يجازي الذي كان
السبب . . الله يجازي تركيا التي هجّرنا . . أنزل يا عالم . . أنزل واسأل
المارة . .

نزل والدي وهو ينفخ إليه شرواله . كان طربوشه قد ارتكز على قمة
رأسه كيفما اتفق ، وكانت شرايته من أمام ، ورجلاه ، كما قال ، قد تيسّتا ،
والسّت غنّدف ، الجالسة قرب باب السيارة ، سدّته بجسمها الملحم ،
وفاض وركها عن المقعد ، وهي منصرفة إلى إتمام زيتتها ، تبصق على قطعة
طربوش بيدها ، وتدعكها على وجنتها بدل الحمرة . ووالدي الذي يبحث
عن سبب للانفجار ، يصيح بها قائلاً :

— مؤخرتك من الطريق .. العمى ! نحن أين وأنت أين؟ .. أنت بحاجة إلى سيارة وحدك ..

قالت الست غندف وهي ماضية في التذليك :

— لا تَزُقْ كلامك يا مصري .. وصلنا والحمد لله .. الآن سنفترق .. لن ترى وجهي بعد اليوم ..

صاح والدي :

— بالنقص .. ولك انقلعي .. دعيني أمرق فقط .. قومي من الباب ..

تزعزعت الست غندف، شذت جسمها إلى أمام، باتجاه الداخل، وهي تقول :

— على مهلك .. لا تَذُقْ بي من وراء ..

قال والدي وهو يحرق :

— أعود بالله .. أنت مرة أنت .. ؟ ليأخذك الشيطان .. الحق عليّ أنني جثت بك معي ..

قالت الست غندف ورأسها محشور بخلفية مقعد السائق :

— بفلوسي يا مصري .. سمعت؟

فصاحت بها أمي :

— انكتمي .. اخرمي .. دعينا نصل بسلام ..

خرست الست غندف، ولملم والدي شرواله ورائه ونزل، بينا الذين في السيارة يضحكون، وقد وضعوا أكفهم على أفواههم حتى لا يتعالى الضحك، وشحود أسند رأسه على مقود سيارته في حالة احتجاج وحرد، ورائحة الأجسام المحشورة في السيارة تفوح، وتحت السقف الواطيء، للسيارة العتيقة، الخربة تتدافع الرؤوس باتجاه النوافذ، طلباً للنسمة من حرّ تموز ولزوجته.

كنت أجلس بجوار أمي . عائلتنا تتألف من الوالدين، وثلاث أخوات وصهر، ومني، ومعنا في السيارة الست غندف ووالدها، ورجل آخر

وزوجته، ومعها طفل رضيع، وشابان فتيان وبتان، وصاحب السيارة الذي هو معاون السائق في الوقت نفسه، وفي السيارة تسعة مقاعد، وهي تحمل على الظهر أغراض كل هؤلاء الركاب، وتمتلئ، في الداخل، بأصناف من السلل والصرر والسطول والطناجر والدجاج والأشياء البيئية، وفوقها هموم هجرة بدأت ولا يعرف أحد كيف تنتهي.

كنت قد قلت لامي، في الصباح، ونحن نغلق الباب خلفنا:

- لا أريد الهجرة. اذهبوا واتركوني.
- كيف؟ نحن نهاجر لأجلك يا عيون أمك. الخوف من الأتراك، عليك وعلى أخوانك.
- عليك وعلى والدي؟
- لا. أنا ووالدك عجوزان. الأتراك لا يحتاجون إلى العجائز.
- ولماذا تخافين علي؟
- آه ماذا أقول يا بني؟ الأتراك لا يرحمون. كنا في مرسين ونعرف.
- هذه اسكندرونة. بلدنا. وطننا.
- لم يعد لنا وطن. أخذ الأتراك الناس يهاجرون. يتركون كل شيء وينجون بأنفسهم.
- أنا لا أريد أن أترك بيتنا.
- وماذا تفعل به؟ ليذهب البيت إلى الشيطان. ينهدم. ينعب فيه البوم. فقط ننجو بأنفسنا نحن أيضاً.
- وما هو الخطر الذي يتهددنا؟ هذا الذعر كله أثاره الأرمن.
- الأرمن معذورون. من لم يلق الطفرايه لا يعرف شو الحكاية، هم ذاقوها يا كبده. ذبحوا منهم في كيليكيا وحدها مئة ألف.
- ليذبحوني. لا أريد الهجرة. كيف نذهب وننترد؟
- لكنك عاقل بما يكفي كي لا تعذبني. قلت لك الخوف عليك أنت لا

علينا . تريد أن يسي الأتراك أخواتك؟ .

لم أجب، خيّل إليها أنها أفحمتني . . كانت تعرف أن هذا هو الوتر الحساس بالنسبة إلي . . لقد تحمّلت العائلة ما يكفي من الألم في سبيل أخواني، وكنت الحامل الأكبر لهمومها . . ولأمر ما، كانوا يقولون «الأرض والعرض» هذه التيممة التي هي حجة المهاجرين، والتي، في مستوى عقلية الناس، مستظّل الحجة الكبرى، ما دام العرض مبعث غيرة مجنونة . . ثم إنه، بالنسبة إليّ، أنا الذي يغار من النسيم، كان مبعث غيرة فرضية، ولأجله وافقت عل الهجرة، وركبت السيارة مع العائلة، تاركاً للدموع أن تسيل في قلبي لا عل وجنتي .

كنت صغيراً، نلت الشهادة الابتدائية عام ١٩٣٦، وعملت في المرفأ، وأجيراً في دكان لتأجير الدراجات، ثم أجيراً في دكان حلاق، وكتبت رسالة إلى ابن عمي في اللاذقية، قبل الهجرة بشهرين، أسأله ما إذا كنت أجد عملاً لو هاجرت، فاحتار في الجواب، وحسم الأمر بأن أهمله، لذلك كنت الوحيد في السيارة، تقريباً، الذي يرى الشمس صفراء على جوانب الطريق، والسماء، عل زرقتها، خرساء، وكل ما يحيط بي، وما تطلعه عيني من التافذة، حزناً حزناً صديقاً يسم أحشائي . كانوا يستعجلون الوصول، وكنت، في ذاتي، أنطوي عل أمنية خائبة في الانصل . صحيح أننا غادرنا البيت، والمدينة، وحدود اللواء، لكن السيارة كانت كالسفارة، أرضاً محايدة . إنها عالم قائم بذاته، لا هو من اسكندرونة ولا من اللاذقية، بل نقطة معلقة في فراغ، ما دمت فيها فأنا في وطن، أرض، بيت، وحين سأغادرها، أكون قد قطعت مع تلك الأشياء الحبيبة، الألفة . أكون واجهت الغربة، وذقت مرارة الحقيقة التي تنطوي عليها حتى قبل أن أجربها .

لماذا، يا رب، كتبت عليّ أن أبقي في هجرة موصولة؟ من اللاذقية إلى السويدية، ومنها إلى الأكبر، وقره أغاج، واسكندرونة، وفي كل مدينة أو قرية، نقضي سنوات، ثم يحملنا الوالد، كالزواذة الفارغة، في عنقه،

وعيشي، وعلى جوانب الطرق، في التيه الكبير، تشتد العائلة. يضعف أفرادها. كذلك ضاعت أختي البكر، ومات صبيان وبنات، وصارت الأم إلى الخدمة في بيوت الناس، وتبعته أختاني، وارتحل الوالد خائباً، وأقام خائباً أيضاً، فكان الخيبة نجمه الذي لا يريد أن يغور، حتى عرفنا، من جرّاء ذلك، الفقر، والمرض، والجوع، والذل. وحمدت الله، بعد كل شيء، أن صار لنا بيت في اسكندرونة، بسقف من القرميد الأحمر، عرضناه للبيع، في أيام الهجرة تلك، فلم يتقدم أحد لشرائه، ورفض البقال يونس نفسه أن يشتريه، ولو بأربع ليرات ورقية، فعمدنا، انتقاماً، إلى تكسير قرميده، ليلاً، وإلى تخريب حيطانه، كالفرقة العسكرية المنسحبة، والتي يعز عليها، وهي تتراجع على أرض وطنها، أن تنسف جسراً أو محطة أو مصنعا، بذل مواطنوها جهوداً مضنية في بنائها.

أنا الطفل، ابن المدرسة، حامل الشهادة الابتدائية، أجبر الحلاق، كسرت يديّ الاثنتين قرميد بيتنا. وبالفأس خربت الجدران، وقطعت التينة، كي لا أترك الأشياء للأعداء من بعدنا. كنت كمن يقطع قلبه، وكمن يخرب دورته الدموية، وعانيت، في ذلك الامتحان الرهيب، معاناة راهب يهدم ديره، ويعرف أن عليه، بعد ذلك، أن يهيم على وجهه، لا دير، لا سكن، لا استقرار، بل روح هائمة، نائمة، كالريح المولولة في الخريف، يهده التعب، ويرغب، كل خطوة، أن يتهاوى على الأرض، ويغوص فيها، رحماً جاء منها وعاد إليها، صدرأ حنوناً دفع به إلى الوجود، وما هو يستره.

أسألك الآن، هل يفكر الطفل قبل أوان التفكير؟ هل يحزن وهو في سنّ الفرح؟ وما ذلك الابهاط الذي يصيب القلب، فيكون منه على الوجه أسمى، وجوم، وكأبة تنقط من الأصابع دون أن يراها الآخرون؟ لقد كنت، طوال الرحلة، من اسكندرونة إلى أنطاكية، ومنها إلى «الأوردو» فكسب فاللاذقية، حزناً، مهموماً، مفكراً بالمستقبل الذي يتبدى جداراً أسود، لا ثغرة فيه للضوء، تماماً كما كان هذا المستقبل، المليء بكل ضروب

الزواحف، يشدُّ بالأرجل إلى تحت، والصلصال يرتفع إلى أعلى، ونحن نتخبط عبثاً في محاولة للثبات أو الخلاص.

توقّفنا في مدخل السوق التي تتفرّع من الشيخ ضاهر، باتجاه ساحة النصارى. لم يكن والدي يعرف اسم هذا الشارع، ولم يكن للشارع اسم، بل امتداد سوقي أشار لنا إليه رجل استوقفه الوالد، وقال بلهجة لاذقانية وجدتها، لأول وهلة، عوجاء معطوبة:

— من هنا دوغري. . في خطّ مستقيم، وبعد اجتياز نقطة البوليس، أمضوا إلى أمام تجددوا كنيسة مار سابا على اليسار.

لكن رجلاً آخر كان معه، أضاف باللهجة المبطوطة نفسها:

— لا يا ابن السبا. . بعد نقطة البوليس اسألوا. . لا تمضوا بعيداً. .
فانتهره الأول:

— شف هذه الآلة المزفة. . رح يا عمي كما قلت لك. .

رحنا كما قال لنا. . شققنا طريقنا في السوق، فوجدت، لأول مرة، هذه الخاصة لأسواق اللاذقية، أن الناس يتركون الأرصفة ويمشون في عرض الطريق. وكان السائق شحود لا يرفع يده عن الزمور، لكن المارّة لا ترفّ جفونهم لمدير السيارة، ولا يفسحون المجال، والميكروباس القديم، المترنّح، يشق طريقه بصعوبة، ويكاد، من أمام وعلى الجانبين، يمسّ اكتاف الناس، وهم يصيحون به:

— على مهلك!

وشحود الذي تصاعد نرقه، يشتم ويزمّر، ويتنهرهم صائحاً:

— أبوكم وأبو مهلكم. . روحوا من الطريق يا بجم!

بينما الست غندف، وقد عرفت بقرب الوصول، تزيد من تبليل قطعة الطربوش، وتدلّيك وجهها الممّعج، والوالدة تقول:

— انتبه يا سالم. . قالوا الكنيسة على اليسار. .

والوالد يوجه السائق بكلمة تتكرّر ذاتها:

— لقدّام، لقدّام يا شحود. .
وأنا أسأل الله في سرّي، أن تكون المسافة الباقية طويلة، أو أن تطول إلى
ما لا نهاية، كيلا نفارق الأتوبيس، ولا تبدأ الغربة التي أحسّها المأ في
أحشائي، وذعراً في نفسي.

فجأة، سمعت الوالد يصيح :

— ستوب!

توقفت السيارة برّجة قويّة، وإذا الكنيسة على اليسار: لقد وصلنا. زمر
شحود عدة مرات، لا لسبب معلوم، بل ربما فرحاً بالخلاص أو رغبة في
تنبيه الذين يسكنون قرب الكنيسة كي يبادروا إلى استقبال هذه «الشحنة»
الأدمية، ويساعدوا في تنزيل الحمل عن ظهر الأتوبيس، وفي تفريغ محتوياته
العجيبة من الداخل.

دخل والدي باباً يطلّ على الشارع، كانت الإنارة ضعيفة، وبالكاد
ميّزت كنيسة أخرى تقوم عن يمين الشارع، هي كنيسة الموارنة. لم تكن
السماء، رغم ليلة الصيف، ضاحكة. خيل إليّ أنها ترصد ما على الأرض
بحيدة باردة، وأن نورها أصفر كأنها مسلولة. وصقّرت باخرة في مكان ما
قريب، فأدركت أننا لا نبعد عن البحر. كان ثمة شارع يمضي في التواء
نصف دائري إلى أمام، وآخر يتجه نزولاً، من أمام كنيسة الموارنة، هابطاً
إلى حيث ترسو الباخرة وتصفر. وانفتح الباب المطل على الشارع وبدت
عليه امرأة عمّي مرّجة :

قال والدي :

— نحن ثلاث عائلات. . معنا فرشاتنا. . نستطيع أن نفردها وننام، فإذا
كان الصباح تدبّرت كل عائلة مكان إقامتها.

— أهلاً وسهلاً، الدنيا صيف، والحديقة واسعة. . ادخلوا كلكم.
دخلنا. .

كنا سندخل بغير دعوة. ليس لنا، في هذا الليل، من مكان آخر.

وكانت السيارة قد أنزلت، وأفرغت، حولتها على الرصيف. الركاب بقوا واقفين، بانتظار إشارة الوالد للدخول، والأغراض تراكمت عند قدم الجدار، وفوق الرصيف. السيارة التي جمعت حبالها في ربطة، هدرت ومضت، وعندئذ أحسست أن غربتنا قد بدأت، وأن عليّ أن أتقبل الواقع، وأحمل، كغيري، بعضاً من العفش، أنقله، إلى الداخل، وأركمه حيث يراكم الآخرون ما يحملون.

لم تكن معنا أسرة، أو مقاعد، أو أية قطعة أثاث خشبية أو معدنية. الفرش فقط، وبعض الصناديق الصغيرة، وصرر كثيرة، وطربوش الوالد، ومنديل الوالدة، وأنا في بنطال قصير، أسود، خاطته لي أمي، مع قميص قصير الأكمام، يشكّلان معاً لباس العيد البتيم. وكانت أخواني يلبسن فساتين شيت، فاتحة، معرّقة، والست غندف فستاناً بقبة كرسى وأذيال واسعة، وابنها الذي يتألف كله من مؤخرة، يرتدي بنطالاً أصفر، وليس ثمة ألوان فاتحة، لأن الوالد، قبل بدء الرحلة، أوصى بالحشمة، فتقيّد الجميع بما طلب، ولم يكن قوس اختيارهم واسعاً، إضافة إلى أنهم لبسوا أجود ما عندهم.

عبرت الباب الخارجي حاملاً فراشاً على كتفي. كان الممر طويلاً، يفتح بعد عدة أمتار عن فسحة فيها أشجار زلزخت متفرقة، وقبور رخامية بيضاء، وفيها بيتان، في زاويتين متقابلتين، متباعدتين، بينهما بضع أشجار من التين وحديقة. كانت وحشة المقبرة ترسم على القبور، الرخام، الأشجار، والجدار الدائري، الذي يفصل بين الكنيسة والمقبرة، ويفصل بينها وبين حدائق مجاورة فيها بيوت واطقة، من طابق أو طابقين. كنت أمشي في الدرب غير المعبّد بين القبور، تأخذني حيرة في أمر حلي، وأبن التي به، وأبن يمكن أن «يعسكر» هذا «الفصيل» المهاجر الذي كتب عليه، في أول ليلة ينامها خارج بيته، أن يلقي عصا الترحال في مقبرة تُنبئ، مهما كانت قديمة، أشباحاً غير مرئية، أشباحاً تقول لك إننا جيران، نحن الراقدين في المسيح، كما تقول أمي، وأنتم الذين سترقدون على اسم

المسيح، بفعل هجرة فرضها عليكم تأمرين غرباء.

انتهى نقل الامتعة إلى داخل المقبرة. بذلنا جميعاً جهوداً طيبة، وجلست النساء يتسامرن، يتساءلن عن الأحوال، والظروف، والهجرة. وتعدّد الشائب الذي كلّه مؤخرة على رخام قبر، كأنه يستلقي على فراش وثير، وأخرج الجميع ما تبقى من زواداتهم لطعام العشاء، فوق ما أخرجت امرأة عمي من حواضر البيت، ونادتني أُمّي للعشاء فرفضت. كنت بغير شهية. امتزجت، الآن، كآبتي الشخصية بكتابة المقبرة، وخيل إلي أن القبور قيمنة، في كل لحظة، أن تنشق ويخرج الموت، بأكفانهم، أشباحاً بيضاً. في أيديهم جاجم، وفي أفواههم زمامير، ومن عيونهم الوقبية يطلّ ظلام كهوف حجرية مات سكّانها من مئات القرون.

كان والدي ينتظر أخاء الذي لم يره منذ أربعة عشر عاماً، وكانت امرأة عمي، القوّة بما يكفي لمجابهة كتيبة، تغتصب الترحاب بنا اغتصاباً. لقد توقّعت، منذ بدأت الهجرة من اللواء، أن تأتيها مهاجرين، لكنها لم تتوقع أبداً أن تأتيها ومعنا هذا الجمع المتنافر أزياء وسمات. كانت تمزج مع والدي على طريقتها:

— ويعد، يا مصري، لقد عدت..

— والعود أحمد كما يقولون.. لكننا عدنا مرغمين.. الهجرة يا امرأة أخي.

— وماذا فيها يا مصري؟.. أنت مهاجر أبداً.. كم بلداً عرفت منذ غادرتنا؟

قالت أُمّي:

— لا تسأليني يا سلفتي.. سالم لا تلتصق مؤخرته بأرض.. خلق لك يرحل..

— ولكن ما ذنبكم أنتم؟

— أسأله..

— هذا ما أراد الله..

قالت أُمّي:

— سبحانه وتعالى . . أنت لا تعرف سوى أن تلقى المسؤولية عليه . .

نرفض والدي :

— ولكن على من نلقىها إذن؟ قولي أنت . . أليس كل شيء بإرادته؟

— الله لا يريد الشقاء لعباده . .

— المسيح قال : لا تسقط شعرة من أجسادكم إلا بإذني . .

— دع المسيح جانباً . .

— لماذا؟ لأنني أقول الحقيقة؟

قالت الست غندف :

— أنت دائماً تقول الحقيقة، ودائماً تنساها .

عندئذ وانت الفرصة ليتحرش الوالد بها . كان يناكدها، يكرهها، أو يخيل لوالدي ذلك . وكانت تنهأ عن كرهها . ماذا فعلت المسكينة؟ فيجبها الوالد : «سكنين برقبته هذه البقرة التي ينام طفل في صدرها» . تجيب والدي : «عيب يا سالم . . كلنا مخلوقات الله . . من غير غيره بشكله فكأنه يعير الله في خلقه . . أليس هو، تمجد اسمه، من خلقها على هذا الشكل؟» .

لكن الست غندف، بين دهشة أمي ولعنتها، كانت ما تفتأ تنحشر بوالدي كيفما تحرك . . يشتمها، بضربها، بطردها، وهي مقبلة عليه، لاصقة به، كأنما تستعذب كرهه، أو تراه على وجه يغيب عن الوالدة، ولامر ما، لعلها مؤخرتها المترجرجة، كنت أمقتها، إضافة إلى أنها ضاحكة أبداً، دون سبب، تمازح الآخرين بغير مبالاة، وتتصايب أمام الوالد .

مرة واحدة أبصرتها من النافذة تجلس على الخوان في بيتنا، وتكشف عن فخذهما قائلة لامي : «أليس حراماً ألا يمسه رجل منذ وفاة المرحوم؟» وقالت أمي مازحة بدورها : «انقبري . . صرت عجوزاً وعينك رفيعة، ألا تشبعين من الرجال؟» فقالت وضحكتها تملاً وجهها الطفح : «الموز، يا أختي، فاكهة لا يشبع منها»، وغمزت بعينها غمزة معبرة أثارت اشمسزازي .

لذلك قال والذي الآن، في رمز لم يفهمه أحد سواه:

- انتهى، قد يزورك الليلة عفریت .
- قالت الست غندف:
- العفریت لا تنطلي له في المقابر .
- بالعكس، العفریت هو الذي يسكن المقابر .
- قالت امرأة عمي:
- عدم الموازنة . الزناكم بين القصور لأن يتشا .
- فاطمتها والذي:
- وأين تدعين هذا العدد؟ لا عليك . المقرة، يظن الأخير .
- قال الوالد:
- الأول أو الأخير، لا فرق . المهم أن نعيش .

قالت غندف:

- وأن سكر .
- السكر له وقته . بعد التعب، بعد السفر . إذا وجد السمك .
- وإذا لم يوجد أيضاً .

صاح بها الوالد:

- كبت إنا لم نجد تهليلين ي .
- معاذ الله . أنت الشرب على فعله .

قالت الوالدة:

- على حبة ملح .

استعد الوالد بالله . كانت قوتة الوالدة عني التي أثارته أكثر غندف لها حساب . هي فاجرة لكنها تخاف . أما الوالدة فإنها تهليل أية فرصة للغمز منه . ماذا تريد؟ بعد هذا العمر كله؟ تريد أن تحلقه من جديد؟ إنه يسكر، يسكر على سن الرمح، وماذا في السكر؟ لولا والدنعة، يقول، ذات هنا، لا يزيل الغم سوى الشراب . متى تفهم زوجته هذه الحكمة؟ السج نفسه قال: وقيل من الخمر يفرح قلب الإنسان ألا تؤسرين إنا بالمشيح؟ ونقول

الوالدة: فحسب الله... هو قال إن قليلاً من الخمر لا يخالط الدين... أما
 السكر؟ أنت تسكر حتى تفقد الوعي، حتى تطرح أرضاً...، وسمعتها مرة
 تقول له: وأنت تسكر حتى تنزل في شروالك، وعندك ضعفها... رنت
 الصلعة على خدّها رنباً مرجعاً. أحسنت بها صلعة على خدي، عل
 لثني، ووقفت في وجهه صارخاً: «لماذا تفعل بها؟» قال مبالاً إلى الشهدة:
 «أما سمعت ما قالت؟» ورغلت الوالدة وهي تكي: «قلت الصحيح...
 أنت تشرب حتى تنزل في شروالك... مث مرة فعلت هذا، فنهض الوالد
 ومطى وهو ينتم: «أعوذ بالله من شرّ حواء، ثم ملتفتاً إليها: «سأسكر...
 سأبول في شروالي... هذا أنا... عجبك وإلا لا؟».

لم يعجب الوالدة، لكنها كانت مضطرة إلى السكوت... سكنت...
 دعت عليه في سرّها... والثوى حنكي من الحنق، لكنني لم أستطع شيئاً...
 أصرب والدي؟ أكثر الأحلام إبلاماً هي الأحلام التي أرى فيها نفسي وأنا
 أنصوب معه... إنه يعدّ بالإفلاق عن السكر، لكنه لا يفي بالوعد. إدمانه
 بعليه، والعمر يمضي، كما تقول الوالدة، ولا فائدة من إثارة الفضائح...

هذه المرة، أمام امرأة عبي، رغب الوالدان عن الشجار. استعاذ الوالد
 بالله وسكت، ولأنت الوالدة بالصمت. وأدركت امرأة عبي ما عليها أن
 تفعل، دخلت المطبخ، أخرجت زجاجة عرق، وجاءت بالكؤوس فائلة:

— يا الله يا مصري... خذ لك كأساً ولا نواخذني... كان عليّ، منذ
 أحضرت الطعام، أن أفكر... اللعنة على النسيان...

قال الوالد في دلال كليب:

— اللعنة على العرق... لن أشرب...
 — أصر الشرب... بعد هذه الرحلة وهذا التعب... أنا أيضاً سأشرب كأساً
 صغيرة معك...

قالت غندف وهي تمّد يدها إلى الزجاجة:

— معك حق يا أختي... الكأس نخلو ولو كنا في مقبرة... سأصيب كأساً

مثلك . . العرق يفتح الشهية .

قال الوالد وقد تراخى :

— تشربين سماً . . تاكلين مثل بقرة ، وتربدين فتح شهيتك أيضاً ؟

ضحكت الست غندف وقالت :

— شهيتي للطعام مثل شهيتك للعرق . . نحن من طينة واحدة . .

في هذه اللحظة أطل عمي من المدخل . . كان يصيح وهو يتقدم نحونا :

— أهلاً، أهلاً . . زمان يا أحبائي . . زمان والله . .

نهضنا جميعاً ، والدي الذي لم ير شقيقه منذ أربعة عشر عاماً ، أمي التي

تكن مودة خاصة للعم ، الذين حضروا معنا ونزلوا ضيوفاً في المقبرة إلى أن

يطلع الضوء ، وزوج وأولاده ، وأقبل العم يعانق الوالد وهو يبكي :

— يا كافر . . ألا تقول إن لك أخاً؟ . . أربعة عشر عاماً ولا تزورني . . لولا

المهجرة . .

عانقه ، غمره بين ذراعيه ، قبله كثيراً ، قبل الوالدة ولما جاء دوري

صاح :

— أمذا هو اينكم؟

وقالت الوالدة :

— إنه وحيدنا . . شمعة من الله . . كل شبر بنذر يا سلفي .

— ما شاء الله ، ما شاء الله . . صار شاباً . . ولكن لماذا هو نحيل إلى هذه

الدرجة؟

أخذني عمي في حضنه ، كان مشتاقاً حقاً وأخذني في حضنه . كان يبعدني

عنه قليلاً ، ويتفرس في ، ثم يدنيني منه ، يشدني إلى صدره ، وهو يهتف من

العجب :

— ماذا صنعتم للولد . ؟ وجهه مثل بروة الصابون . . الخاتم يدخل في

خصره . . كيف ذلك وهو في سن الشباب . . غير معقول . . أكاد لا

أصدق عيني . .

قالت أمي :

— هذا حظنا . . بعد ثلاث بنات جاء . . بعده ولدت خمسة أولاد ولم يسلم منهم أحد . . وحيد يا سلفي . . هذه قسمة الوحيد . .

قال عمي :

— ولكنه بالغ النحف . . كأنه يأكل مال الديرة . . يجب أن يتغذى . . لا بد أن نعرضه على طبيب . .

— أنا داخلة عليك . . كلما رأيته غاص قلبي في صدري . . أخاف عليه . . خوفي عليه يكاد يقتلني . . أخوك لا يبالي . . لا يفكر إلا في نفسه . .

قال والدي :

— فكّرت كثيراً فماذا نفعلني التفكير؟ . . خلقته هكذا . . منذ ولد وهو ينوس . . لولا سر الله لكان لحق بأخوته الذين توفوا . .

قالت امرأة عمي :

— الشرّ بعيد عنه . . لا تقل هكذا . . خذه إلى طبيب . . أعطه مغويات . .

كانت أمي قد طففت نيكبي ، كلام العم نكأ جرحها . . فعلت لأجلي كل ما تستطيع ، كنت مريضاً بفرط الحساسية . أذبل مثل ورقة زهر . . كان مرضي لا ينفع فيه دواء ، جرّبت الوالدة كل صنوف التغذية . . كنا فقراء . . كان فقرنا أسود . . كانت مدينتنا فقيرة ، وحيّنا فقيراً ، وكنا أفقر من في الحيّ ، وكانت الوالدة تعمل خادماً ، وكنت أرى كلّ ذلك وأتحسّر . . تحرق الحسرة قلبي فتزداد حساسيتي وأذوب كشمعة أمام نار ، ولم تكن الوالدة تستطيع شيئاً حيال الفقر ، ولا حيال مرضي الناشئ عن عواطف بهظها فقرنا ، وقد ارتاحت الوالدة للهجرة ، عسى أن نجد في اللاذقية خيراً . . وأن تبذل حالتنا ، وتحسّن صحتي ، لكنني أنا لم أكن أشاركها ارتياحها . . كان هذا اليوم ، وهو الأول على هجرتنا ، قد أرمضني إلى درجة البكاء الآخرس .

قام والدي بمهمة التعريف بين الذين معنا وبين شقيقه ، كانت الست

عذوق ما توالى واقعة صانحتها عني وهو يشتم صانع الأخرى على
أبها عني كنه مؤخرة مستلباً على الشر، ولأن عني على دعوة من الإيمان
والنظر، فقد نهاه عن فعله:

— لا يجوز يا بني، الشر مقدس، حرام أن تدوسه أو سام عليه.

قلت أنت عذوق

— لكنت شتم في الشر

— مع ذلك لا يجوز... غير غيوت الإنسان برفقه جسده في الشر أمراً
روحه...

صالح والذي بالحق

— أقعد يا بني، لقد شتمت يوماً طوال الطريق

يعني الذي كنه مؤخرة وهو يترك عني. سألت عن طعام الغنم،
كان أكلوا في دعوة أن واقعة لا تجد في البيت من آخر ما يكفبه. وقد
عملت عند حبال، ثم نجراً، ثم عملت معادياً في كوتوبيس بسافر من
السكرتيرة وفريق أرمو. كان يأكل نكاح من بكته، ويشكل بالسة
لست قدف، عتاً لعل، كان نسياً أن يحسها بته، لولا أنها خلقت غير
مالية، وهي تأكل ما لا يفل عن أيتها، ولديها جرحان جاععان ألداء فيها
ولسانها.

حدثت السرايين البيت والقرية في نسخة أمام المطبخ، وكانت الآن
رسم الكبار فقط. لقد أكل الصغار وأجروا، وعني الذي بعث طيحا في
الكاربو. يعود مشاعراً من الشغل. وعالاً لا يأكل في بيته، وهو يشول إن
رائحة الطبخ تقطع شهيته. ومع ذلك، في ليلة كهذه، ليلة صليبة صافية،
رائحة هو رائحة، وهو، شعش، وثمانية عودة الأبح العائت، فقد رغب العثم
في الأكل والشرب، بعيداً عن برجة الطائفة

لحللوا حول طبق اللحم، لست قدف رمت بمعزيتها على الحصى
ولرمت أمام اللابطة، دون أن تنظر إليها دعوة. هي جائعة، وعطش.

وقد رآه يوصيها بالسلامة، وتحدث من حلقها، بعد هذا كله، أن تأكل
وتشرب، ولديها القدرة على المنافسة، وتحدث من نفسها استحابة لمناسبة
الوالد في السكر، لما إليها فقد قهرص إلى حالها، غير مكتسرة بنظرها
الوالد الذي رأى في سلوكه وقاحة ليس هذا أوان زجره عليها.

قالت نمة، على اللقطة، رجاحة عرق كبيرة، والذي تستعبد بالله من
روية استقاء، ولقد لفتت نظر عمي إلى أن قد حادوا لحداً للترويح عن النفس
بكتفي، لكن الوالد استهزأ.

- عمي الرجاحة - سحر لن تكرر بها قلها -
وقد العم

- للشرب القيلة بأكثر ما تستطيع - له من القراني - أربعة عشر عاماً.
أربعة عشر عاماً يا ناعم ولا خير منك - بهذا كنت مشغولاً عمي فقول
هذه المدة؟

قال والذي بعد جرعة طيبة:

- لا تسكر يا أخي - لو حكيت لك كل ما مرّ معي لشاب رأسك.

قالت عمي:

- ومن المسؤول عن كل ما لقينا من عذاب؟

- الزمن يا حرمة.. الزمن دولاب، لا عمك ولا خالك..

- الزمن دولاب صحيح.. لكن ما أصابنا كان من يدنا..

قال عمي:

- ما صار قد صار - لا تأسفوا على شيء فأت.. الحمد لله على
السلامة.. بصحتكم.

شربوا صحة العم، وامرأة العم، والخاضرين، وكان الوالد، وهو يكثر
من الشرب، يخرع أحياناً، ولم يفته، وهو يفعل ذلك، أن يشرب بصحة
والذي. قال عنها كلمات طيبة أيضاً. وكان عمي يعرفها، يعزها، بقدر
كرمها وطيبتها وتضحياتها، فأنها الكأس وهو يقول:

— بنت أصل .. يرحم البطن الذي حملها ..

قال الوالد :

— هي طيبة لولا ..

ضحك العم :

— لولا أنها تنهاك عن السكر ..

— السكر؟ معاذ الله .. عن الشرب كله .. إذا ذهبت إلى الكنيسة اتهمتي
أنني كنت في الحمار ..

تكررت الست غندف بالضحك، فاندلقت كأس الوالد إثر ارتطامها
بصحن حرّته على طبق الفش، وكان هو ينتظر هذه المصيبة لتكمل ليلته،
لذلك نهض وهو يقسم أنه لا يجلس إلى مائدة عليها امرأة، وغاب عمي في
ضحك معافي، قائلاً لوالدي :

— هذا أنت .. كأنني لم أفارقك يوماً واحداً ..

وفي ناحية أخرى، بين القبور الرخامية، البيضاء، المستلقية كأكفان
مستطيلة، يتمدد داخلها أموات فارقوا الحياة لتوهم، كان يتكلم «العفش»
الذي جثنا به من مدينتنا البعيدة ..

وفي ختام السهرة التي انتهت حوالي منتصف الليل، فردت النساء
الحضر، وفتحن الفرشات عليها، واستلقى الجميع حيث وجدوا مكاناً،
يسندون فيه رؤوسهم، سوى غندف، التي حملت وسادة وبساطاً وأعلنت
أنها متنام بعيداً، لأنها لا تستطيع الرقاد إذا سمعت شخيراً، وسوى الوالد
الذي خرج مغاضباً ليقوم بجولة على البحر، قبل أن يأوي إلى فراشه ..

أذكر تلك الليلة جيداً، كان القمر، في تلك الساعة المتأخرة، قد
توسط، تقريباً، السماء الصيفية، البلورية، وصبّ من قرصه الفضي نوراً
باهراً على الكائنات. لم يكن فرحاً ولا حزناً، كان يتكلم مع الجميع بلغة،
ويكلمني بلغة. أحسسته منيراً، جميلاً، بدرأ، على نحو أخاذ. كان، ليلة
أمس، على مثل سطرعه هذا، ونحن في اسكندرونة، مدينتنا التي فارقناها.
خيل إليّ أن القمر هاجر معنا بدوره، وأنه يجنّي إلى حدّ أنه لحقني في تلك

الدرب الجبلية، المشجرة، المتعرجة، الطويلة، في الرحلة التي أمضيناها،
والتي استغرقت نهاراً بطوله. كنت أحسب أن القمر لن يأتي. كنت حزناً
لأنني فارقت، ولأنه لن يأتي، لكن القمر أتى، صار هنا كما كان هناك، شمع
نوراً فضياً كغلالة بيضاء لعروس من الجن. غمر كل شيء، أنضاء كل
شيء، وبدا سطح كنيسة مار سابا القرميدي الأحمر قديماً، هراماً، يذكر
بكنيسة القديس جاورجيوس في مقبرة بلدتنا، ويقع صامتاً، ساكناً، فوق
بناء من الطراز العثماني، ضخماً بجدرانه، بارداً بأحجاره، معزولاً عن
الأبنية بتوحد، متميزاً بقبته التي تتدلى منها ولا شك ثرياً ضخمة كما هي
الحال في جميع الكنائس.

في حال كهذه كنت نهياً لأحاميس مذية. كان، في مدينتنا اسكندرونة،
شاب يدعي فريد يني. كان ابناً لصاحب مطبعة، هي الوحيدة في المدينة،
وكان فريد متعلماً، وحسباً يقولون في حيننا، كان متبحراً. لا يرى إلا شعره
منفوش، وتحت إبطه كتاب، وهو سادر النظرات، يمشي وحيداً، على غير
هدى، وقد تضاربت الأقوال حوله، فمنهم من قال إنه مجنون، ومنهم من قال
إنه مسلول، لكنه، فجأة، خطب في سينما روكسي، وهاجم الفرنسيين،
فاعتقل وسجن في حلب حيث مات.

أنا أيضاً، لأنني حزين، مولع بالقراءة، نحيل، حَسَّاس، كانت والدتي
تخشى عليّ مصيراً كمصيره، خاصة بعد أن اشتركت، ذات يوم، في مظاهرة
ضد الفرنسيين. ومن عجب أن خشية أمي انتقلت إليّ، فتصوّرت أنني
ساجن أو أصاب بالسل، ولادفع العدوى، نسخت كلمات من الإنجيل،
جعلتها في ما يشبه الحجاب، وعلقتها في رقبي. كان إحساسي المرهف
بتصاعد ليغدو مرضاً، ولكم عانيت، ولكم كتب عليّ أن أعاني، من رهافة
إحساسي هذا، حتى بت على ما يشبه اليقين، أنني سائر إلى إحدى حالتين:
الموت أو الجنون.

في تلك الليلة الأولى للهجرة، وبفعل قهر داخلي ذي سطوة لا تدفع،
رقت أحاسيسي، شفت، انقلبت إلى داء عصابي، تمنيت معه، وأنا في

المقبرة، أن أرقد فيها كجميع الرافدين، فلا أنهض أبداً، ولا أواجه عالماً غريباً علي، ومدينة مجهولة مني. لقد كنت إناءً بلورياً تنعكس عليه الألوان التي تحيط به. ولسوء الحظ، كان لون الموت هو اللون الطاغوي في ما حولي، وقد جفاني النوم، وتباطأ تنفسي، وأصابني، تلك الليلة، أرق شديد.

لقد هدمت كنيسة مار سابا الآن، وشيّدت مكانها الكلية الأرثوذكسية، ورفعت القبور، وسوّيت الأرض، وغدت باحةً للكلية. وقد رأيت، بعد سنوات، هذا التحول بأمّ عيني، ووجدت المصلّين، بعد قدّاس يوم الأحد، وبأمر من المطران، يشرعون معاولهم، إشارة البدء في المشروع الجديد، مشروع الكلية. ذلك أنّ المقبرة كانت مهجورة قديمة، لم يعد يدفن فيها أحد. وكانت القبور قد درست، ولم يبقَ منها سوى الكبيرة، الرخامية، لأصحابها الأغنياء، الذين رحلوا بدورهم، ولم يعد أحد يذكر من كانوا أو كيف كانوا.

تقلّبت على فراشي طويلاً، كنت بحاجة إلى النوم، وكان النوم، كعادته بعد كل إرهاق عصبيّ، يجفوني، لذلك كان رقادي خفيفاً، طافياً، تكفي النسمة، إذا اشتدّت وحركت الأغصان حولي، كي توقظني، لكن النسمة حين توقظ إنساناً، تبعث فيه شعوراً بالراحة، أين أنا منه وقد استيقظت على حركات مربية، وهمس خائف، صادر عن والدي والست غندف.

للوهلة الأولى لم أتبيّن ما كان يجري على مقربة مني وراء قبر رخامي مرتفع. خيّل إليّ أن ما سمعته عن الحياة في المقابر صحيح، وأن سكان القبور قد خرجوا، في ضوء القمر، يستطلعون أحوال الناس، ويتسامرون كما تقول الحكايات. لكنني ما أن رفعت رأسي، وأطللت من فوق القبر، حتى رأيت والدي يتهامس والست غندف، وهما في وضع مريب. ولقد أثارني المشهد، الذي كان الأول من نوعه في حياتي، أثارني إلى درجة الارتجاف، فكرهت غندف هذه، وكرهت والدي، وتعتيت أن يغيب القمر، وتسود الظلمة، حتى لا أرى أيّاً منها.

والديّ أنقذتني من هذا الموقف. أفاقت وصرخت. كان صراخها

مكتوماً، فيه غضب وسخط، ودمع، وكان على كتامته، كافياً للتنبيه، وعلا
بكاؤها في تلك الليلة المنذورة للهجرة والحزن، علا، واستمر، ونطاول، ولم
يعرف به أحد، لأن الوالدة، ومنذ زمن بعيد، اعتادت أن تأخذ الألم
لحسابها الخاص، وتسكت.

أفقت باكراً. كان الآخرون يغطّون في النوم، مبشرين بين القبور والأشجار، مستسلمين لأحلام وردية أو كابوسية. كان الفضاء، من حولي، مضاء بنور أبيض، يميل، مع حمرة الشفق، إلى أرجوانية تتبّع على الأبنية، وشيء ما، كالبهجة، يشع في كل شيء، وبرودة منعشة، تشعرك بها النسائم، وقبة عالية، بعيدة، ماسية، موشحة، بسحب متفرقة، ذات أشكال غريبة، تنشأ، وتشكّل، ثم تتداخل، وتمحي، لتنشأ، من جديد، وتشكّل وتمضي مع الريح.

هذا يومي الأول في اللاذقية، كانت المراثيات، في ضوء النهار، تبدو جديدة لعيني، وكانت الكنيسة، والمقبرة، والحديقة، والبيوت، تأخذ شكلها الحقيقي، وتبعث في نفسي راحة، فيها من النوم أثر، ومن الشعور بالواقع أثر. لقد أيقنت، الآن، أن اسكندرونة صارت بعيدة، وأني في اللاذقية، ولا فائدة من الحسرة، ولا من الأسف، وأنّ عليّ، منذ اللحظة، أن أعيش واقعاً جديداً ومدينة جديدة، وأتخذ أصدقاء جدداً، كما عليّ، فوق ذلك، أن أتعرف إلى هذه التي ستكون مدينتي وأرضيتها، وأعتادها، وأحبها أيضاً.

لم أكن، ذلك الصباح، أدري أنّ اللاذقية ستكون أحبّ المدن إلى قلبي، وأثرها في نفسي، وأنّ سأعيشها، وأقرأها، وأنفسها، وأعشقها، وأكتب

عنها، وأنها ستكون المدينة التي أفارقها، كلما فارقتها، على كره، وأن اسمي سيقترن باسمها، وكلماتي ستستمدّ نسغها من ضوئها، وفيئها، وشمسها وغيمها، وأن مقبرة الفاروس فيها، ستضم رفات أعزّ الناس عندي، وأنا أنا أيضاً، ذات يوم، سادفن فيها، كما أرغب، وكما أوصي، لو احترمت رغبتي ونفّذت وصيتي.

لقد زال عني كابوس الليل بزوال الظلمة، وبانتهاء رعدة الكره، حينها رأيت أبي يتهاشم مع غندف. انتهى ذلك الشعور الاليم الذي انتابني. ومع كل الإشقاق الذي أخذني على أمني، والتوجّع لدموعها، بدت الكائنات، هذا الصباح، مقبولةً مني، محابدةً بالنسبة إليّ.

كان والدي ينام بعيداً عنا، نوماً عميقاً، فيه شخير، من فعل السكر، وغندف التي انفردت عنا، أول الليل، عادت ونامت إلى جانب ابنها الذي كلّه مؤخرة، وأمي المسكينة المفجوعة أبدأً بزوجها، والتي تحدّثت فجيعتها ليلة أمس، تغفو مع الصباح، وأنا الوحيد الذي أفاق مبكراً، كأنما رنّ في أذني منبه، وقد عادت إلى ذاكرتي، بلجاجة، الصورة البشعة للهمس المثير، الذي سمعته وحاكمته، محاكمة ظالمة لا إنسانية، متأثراً بجوّ التعاليم الدينية، والكنيسة، وطهارة الأم، وكل تلك البيئة الفاضلة التي وفرتها، داخل البيت، لي ولأخواتي.

كنت راغباً عن الآخرين، حريصاً على ألا يراني أحد منهم. كان ذلك استمراراً للشعور بالأمان إذا ما اختليت بنفسني. فقد كانت الوحدة ملاذاً لي، ولكم طوّفت، في البيت، والشارع، والمدرسة منفرداً، منذ كنت طفلاً، وفي حالة كهذه فقط كنت أحسّ بالطمأنينة، والراحة، والعذوبة، وينفّس المجال لعالمي الداخلي، أن يستعرض، يتأمل، ويبيّن نفسه على مهل.

غسلت وجهي من صنوبر الماء أمام المطبخ، بللت شعري جيداً. زاد انتعاشي، تنامت قدرتي على مواجهة العالم الخارجي. ارتدّيت بنشاطي

وقميصي، وانسللت من المقبرة، متجهاً إلى المدينة. مجتازاً ذلك الشارع الذي يمتد إلى «نقطة البوليس» في حي النصارى، ويستطيل حتى ساحة الشيخ ضاهر، والذي سأعرف، بعد ذلك، أن اسمه شارع فيصل. كان هذا الشارع يتقاطع، في حي النصارى، وعند «نقطة البوليس» تماماً، مع شارع آخر، يمتد من القلعة إلى البحر، عرفت، كذلك، أن اسمه شارع فرنسا، عندما سكناً حي القلعة.

سرت متميلاً، متملياً، دون غاية، دون هدف، ودون رغبة بالكلام مع أيما إنسان. وقفت عند نقطة البوليس، بعد مروري بدار البلدية القديمة، فانفسحت الرؤية أمامي عبر الشارع المهابط إلى البحر. هكذا شاءت المصادفة، ذلك الصباح، أن تصنع لي مفاجأة. صحيح أن البحر لم يكن يبين، من حيث أقف، وأن أشجار المنشية تحجبه، لكن رجلاً كان يقف هناك، أفادني أن الشارع يقود إلى البحر، وأن عليّ، إذا أردت بلوغه، أن أمضي باستقامة حتى أصل المنشية، التي يقع الكازينو في طرفها.

في انحداري، عبر شارع فرنسا، صارت «نقطة البوليس» - وهي عبارة عن مضطبة خشبية يقف عليها شرطتي السير - ورائي، ولفتني، إلى اليسار، سينا أمبير، وعلى واجهتها إعلان لفيلم «دموع الحب»، وبعد قليل، رأيت مبنى مصرف سورية ولبنان، وعلى يميني، كان مكتب المحامي اليكسي مرقص، وبعد ذلك بيت سعادة، الأبيض، بطابقين، وحديقة، وباب حديدي أوحى إلى برهبة غير مبررة، ثم بساتين، إلى أن بلغت دار الندوبية، وواجهتي، في الصدر تماماً، المنشية، وعلى طرفها جامع البطرنة، وفيها المقهى الذي يحمل ذات الاسم.

عندما أطللت على البحر أحسست بنداوة في قلبي. كان ذلك الأزرق الصامت، المرتعش تحت أشعة الشمس المنكسرة، يمتد بعيداً، راحلاً بالنظر إلى مدى لا محدود. كأننا هدم، لأجلي وحدي، كل السدود والحواجز التي حالت، في المدينة، بيني وبين إرسال النظر إلى بعيد، إلى غيوم الأفق الذي تكاثفت عنده سحب بيض، لها شكل خريطة مبعجة الجوانب. كان، ثمة،

جدار حجرى، بصطفق عليه ماء البحر، عند نهاية المشية، وكانت المياه الزرقاء، قد خلقت لنفسها جونا هناك، وفي الجون رقيب في الدرك يستحم عارياً، مستغلاً خلوة الحديقة والشاطئ من الناس. وعند اتصال الجون بالبحر، رست فلانك صيد صغيرة، وإلى اليسار صخرة كبيرة، مرتفعة، تعدية، يمكن الوصول إليها عبر جسر صخري ضيق، وراءه فسحة صخرية عليها آثار أوراق وخضرة وأشياء مما يخلقه المتزحون عادة.

وقفت فوق الجدار الحجرى المتساوي مع سطح الحديقة، والذي يسبح رقيب الدرك عند قدمه. كنت، في البحر الصباحي، وعند طلوع الشمس على البحر، وأمام الزرقاء المنبسطة كأنما على سهل، مفتوناً كأنني لا أعرف البحر، أو كأنني فارقت منذ دهور. أنا أعرف أن اللاذقية ميناء، وأنها على المتوسط، وأني سأعيش البحر فيها كما كنت أعيشه في اسكندرون، لكن سرعة وصولي إليه، وإطلالتي الصباحية على رحابته، ورجيل عيني على سطحه، ومعابني تكسر موجاته الكسل على شاطئه، كل ذلك أحدي بعيداً، لفتني بثوب أبيض من البراءة والطهر واللذة، فطاب لي الوقوف حيث أنا، مما أخرج رقيب الدرك وجعله يخرج من الماء ويرتدي ثيابه الملفاة على صخر قريب بسرعة.

بعد ذلك ارتفعت الشمس. سقط غمر من أشعتها الذهبية على الماء، وراح يتراقص، معطياً للزرقاء لون الزمرد، وانطلقت، شيئاً فشيئاً، حركة الحياة، وعلى شرفة الكازينو وقف رجل في ثياب النوم. مرتدياً معطفاً صيفياً، وتقاطر الزبائن على مقهى البطونة، وأطلت الحديقة، من ورائي، خالية، وفي السماء الشاهقة، الماسية اللون، حمى الضوء وذاب واتخذ لوناً طحينياً.

فكرت في البحر. إنه بحرنا أيضاً. نساءلت: «هذه المياه، تذهب، نحي، تنفل، تسافر أم تبقى مكانها؟» فكرت في الموجة: «هل هي ذاتها التي ترتطم على الصخر، وتعود إلى البحر، وتشكل الماء نفسه، أم أنه ماء آخر، لموجة أخرى، ترتطم فتزند، وتعود إلى اللجة التي جاءت منها؟»

فكرت في نفسي: «هل أنا ذاتي الذي كنت، قبل أن أكون، وكتب عليّ، كما كتب على الآخرين، أن أموت ثم أحيأ ثم أموت وأحيأ في سلسلة من الحيات والميتات التي لا تنتهي؟».

كنت قادراً، في وقتي تلك، أن أرى وأفكر معاً. الرؤية تبعث على التفكير، والتفكير ينشط الرؤية، والخيالات، وأحلام اليقظة، والمفهوم التي تنبت من تحت الأظافر، وهذا الفضاء الشبيه بإناء كبير، ونحن في جوفه، أسماك صغيرة تضطرب، فمتى ينكسر جامه وتحرّر جميعاً؟ نساءلت: «لو خرجنا جميعاً من هذا الإناء الفضائي، ألا نصبح في إناء فضائيّ آخر؟ ومنى تستطيع السمكة الصغيرة التي هي أنا، أن تحطم جميع الأنبة الفضائية وتحرّر منها؟ أليكون الموت، إذن، هو هذا التحرّر، وهو المغدى لماز ينكرر إلى ما لا نهاية؟».

الصباح الأسيان، والفضاء الماسي، والبحر الأزرق، وخضرة الحديقة، مضافاً إليها حزني التابع من سريرة طفليّة، وتوفي الملحاح لمعرفة ما سيكون عليه الغد، وماذا ينتظري في المدينة، وأين نسكن وماذا نشتغل، كلّ ذلك حفر في ذهني أنحادي من التفكير المضني. ومن عجب أنه كان تفكيراً آمراً، وهبته نفسي بكلّ إرادتي، ومضيت مع ريمه المندفعة بسرعة قصوى حتى غبت عما حولي، ولم أفطن لنفسي إلا والشمس تحرقني، والحديقة قد امتلأت بالناس، وبالفتيان الذين وقفوا مثلي، يرنون إلى بعيد، وتتعلّق أبصارهم باللجة التي لا يعرفون عنها إلا القليل.

كان عليّ أن أعود ولو كسارهاً. ذلك أن أمي التي لا بدّ أنها استيقظت وافقدتني، ستكون نهباً لقلق مفترس بسبي. إنها لا تعلم من أمر سريقي إلا ما تراه على وجهي الناحل من سهوم لا تبلغ ملاطفاتها أن تدفعه عني. وهي التي استيقظت وسمعت الهمس المريب، لا تعلم أنني استيقظت مثلها وسمعت ما سمعت، وكان الفارق بيننا أنها بكّت، وأنا حبست دموعي في حجّرين اتقدّ فيها أثرون صيرّ الدمع بخاراً. لقد نفّست بالدمع عن كربتها، أما أنا فقد كبّت ما بي، وشغاملت على نفسي وقمت بهذه الجولة، واغتسلت،

ولوفي الأمانة، في بحر اعتدت أن اغتسل فيه وأغسل متاعبي وآلامي .

على باب المنشية كان يقف سوداني يبيع الفستق . ليس من ميناء، في هذه الدنيا، إلا ولها سودانيون يبيعون الفستق . إنهم أصفياء البحر ومن أحبيته . وهذا الفستق الذي يبيعونه ليس إلا تعلقة للمكوث على الشاطئ . ومن الحق أنهم مهرة في تحضير فستقهم إلى درجة أنني لا أمر بهم إلا ابتعت شيئاً من بضاعتهم ، ومن حسن الحظ أن بضعة قروش كانت في جيبى ، فاشتريت فستقاً بقرش ، ورحت أندوفه في طريق العودة ، سالكاً الطريق التي جئت منها ، دون أن أحيد عن الاستقامة التي أفضت بى إلى «نقطة البوليس» ومنها انعطفت إلى يمين ، حتى بلغت كنيسة مار سابا .

كانت أمى على باب الدار تنتظرني ، كانت ملهوفة قلقة ، وقد ضمتني إلى صدرها وقالت :

- أين ذهبت يا حبيبي ؟
- - قمت بجولة حتى البحر . . .
- هل نمت جيداً ؟
- - نمت جيداً جداً .
- ولماذا نهض باكراً ؟
- - نهضت بعت نوماً .

تفرست في وجهي وقالت :

- ما أظن . . أنت لم تنم جيداً .

أكدت لها :

- نمت جيداً ، وفي الصباح الباكر استيقظت وقمت بجولة في المدينة ، وتزهرت على البحر .
- أعجبتك المدينة ؟
- - ليست سيئة .
- كنت تفضل إسكندرونة ، أليس كذلك ؟

- وانت؟
- أنا مثلك.. اعتدت حياتنا هناك.. ولكن ماذا نفعل؟.. الحجرة كتبت علينا.
- وهل مستقر الآن؟
- إن شاء الله.. أعمامك هنا، والأقرباء هنا، ولن نغادر اللاذقية..
- وإذا رحل الوالد؟
- تأملتني بإشفاق:
- أنت خائف؟
- قليلاً..
- لا ليس قليلاً.. أنت خائف، وأنت متضيق.. لم تنم جيداً، ربما لم تنم ابداً.. اعرفك، ولكن، يا ولدي ماذا نستفيد من الزعل؟ الحجرة تمت، نحن الآن في اللاذقية، غداً نبحث عن بيت، لن نبقى في المقبرة.
- وهذه البقرة؟
- ابتسمت أُمِّي رغماً عنها. ابتسمت بعسوية، لكنها لم تفلح تماماً في أن تخفي عني ما كان من والدي وغندف ليلة أمس. تراهها أدركت أنني استبظلت وسمعتها؟ تقدّر الألم الذي تسبب به؟ وهي، عندما أفارق والدي في الصباح، كيف نظرت في وجهه؟ وغندف هذه، البقرة المبقعة، أما خجلت من البقاء؟ تراهها هربت قبل أن يفتقروا؟
- قالت أُمِّي بطيئتها:
- لا تنفس عليهما.. إنها أرملة.. وهي مسكينة، بعد كل شيء..
- لا تذكرني اسمها أُمامي.
- لن أذكره.. انسها ما شئت.. بعد قليل ستغادرونا.. ستبحث عن بيت، ولن نراها..
- لا أريد أن تزورنا..
- لن تزورنا.. ساطلب منها ألا تزورنا.. (وبعد صمت) ولكن مَنْ لها،

في هذه الغربة ، غيرنا؟ لا تكن حقوداً . المسيح منحنا المغفرة، وطلب منا أن نغفر لمن أساء إلينا . كن مسيحيًا، مسيحيًا حقيقيًا يا بني .
والآن تعال . ادخل . يجب أن نسطر . عمك ذهب إلى عمله في الكازينو، وامرأة عمك سألت عنك . . قلقنا جميعاً لغيابك .

دخلنا البيت، كانوا قد جمعوا الفرشات والخصر . . كرموها فوق أحد القبور . أغراض كل من جاء معنا على انفراد . غندف تلوك شيئاً ما .
تأكل . . لا يهتمها سوى أن تأكل، قالت أمي إنها ستذهب للبحث عن بيت، طلبت مني أن أغفر لها، أن أكون مسيحيًا وأغفر لها . أخفقت . أخفق الروح الذي في داخلي . نظرت إلى غندف بحقد وكره . والذي أدرك من هيئتي أنني لست على ما يرام . أطرق ولم يرفع رأسه إليّ، أعرف هذا الأب، يرتكب الإثم ويندم، كأنه يجد لذة أخرى في الندم . أنا لا أستطيع أن أحقد عليه، أو أن أحقدي لا يطول، تعذبت من أجله، وبفعله، مثلما تعذبت أمي . سأتعذب أيضاً، إنه لا يستطيع إلا تعذيبنا، لكنه يبدو وكأنه لا يريد ذلك . مغلوب على أمره . الندم يصرخ في وجهه طلباً للصفح، أمي تصفح . ماذا تفعل؟ إنها مسيحية حقيقية، لكنني أنا، وما سمعته أمس، وماضيه الطويل في السكر، والنرحال، والماخورية، كل ذلك إثم رهيب، وأنا لا أقوى على مغفرة كل هذه الآثام؟ الله يغفرها، من أجل ذلك كان هو، وكانت رحمته التي تسع الكون . أما الإنسان . وأحاسيسي المرهفة، فإنها لن تكون، ولا تسمع أن تكون، غفورة إلى درجة لا تطبقها . ومع أن والذي دافع عن نفسه، وقال إن الموقف لم يتعدّ الكلام الهامس، فإن أمي لم تصدقه، ولم تصدق أنها كانا يتسامران فقط .

أفطرت قليلاً . شربت فنجاناً من الشاي مع قطعة من الخبز . أمي ألحت، رجت، توسلت أن أكل أكثر، لم تكن لي شهية . حاولت، كرمي لها، أن أتابع الأكل، لكن اللقمة كانت جافة في حلقني . جفّ رضائي .
لارضاب يبلل المضغفة . كانت امرأة عمي تراقبني، اندفعت في بعض التصائح، ووجهت لوالدي بعض الشتائم مداعبة، لكن والذي لم يرد،

أعرف أنه، اليوم، وربما غداً وبعده، لن يردّ، يعيش إثمهُ، وهو حين يفعل ذلك، يدفع من سكوته ثمن إثمهِ. لكنه مضطّر إلى مرافقة الوالدة، بحثاً عن بيت.

كنت قد طلبت من أمي أن تبحث عن بيت بأسرع ما تستطيع، لا لأن وفادة بيت عمي قليلة الحرارة، ضئيلة الحفاوة، بل لأنّي أريد أن يكون لنا بيت، وأن أمارس فيه، كما هي عادتي، الوحدة التي صارت جزءاً من حياتي.

بعد الغداء خرجت إلى المدينة مرة ثانية، سرت، كما في الصباح، إلى «نقطة البوليس»، وانعظفت يمينا، مصعداً إلى حيّ القلعة، على طول «شارع فرنسا». لم أكن أدري، في تجوالي هذا، أننا سنسكن حيّ القلعة، وأن أيامنا فيه مستغرق الحرب العالمية الثانية بطولها. بلغت أقصى الشارع، استدرت عائداً فيه، مزعماً أن أمضي حتى البحر، ما دام الشارع يوصل إلى هناك، لكنني رأيت فجأة، في حيّ النصاري، ابن خالي، وكان قد سبقني في الهجرة مع أهله. احتضنته، عانقته، كدت انطنط من الفرح لمرأه، فهو عدا كونه قريبي، ورفيق مدرستي، فإنه ابن بلدتي، إسكندرونة، ومهاجر مثلي من اللواء.

كانت والدته تدعى ظريفة، وهي، كما تزعم، من أصل أرمني، لأنّ جدّتها لأُمها، كانت أرمنية، ولما كانت السلطات الفرنسية قد نقلت أرمن إسكندرونة في بواخرها، إلى حيث يشاؤون من مرافق سورية ولبنان، فإن امرأة خالي ذهبت إلى مختار الأرمن وطلبت الهجرة معهم: قالت إنها أرمنية، وأن أمها تدعى «زارتوي»، وأنها مقطوعة، وتطلب السفر مع زوجها وأولادها في إحدى البواخر. الحّت؛ أصرت، ويبدو أن المختار، الذي كان يمنح أوراق السفر لكل أرمني في اللواء، قد أشفق عليها، أو أنها استثارت حميته الأرمنية، فمنحها شهادة، وأوراق سفر، وعادت، مساء أحد الأيام إلى حي «الصاز» تقول لسكانه:

- أنا مسافرة على باخرة ..
 - أنت تمزحين ولا شك .. البواخر للأرمن فقط ..
 - وأنا أرمنية .. أرمنية أباً عن جد ..
 - يا داهية! قالت أمي، في وقت الشدة عرفت إلى من تلتجئين .. أمنت
 سفراً مريحاً، مجانياً، بينما نحن ننتظر رحمة الله .. عافاك .. هكذا تكون
 النساء.

تعانقت المرأتان، كان العناق، في أيام الهجرة تلك، سرعان ما يستثير
 الدموع، وكان الوداع يجري كل يوم. بل يجري عدة مرات في اليوم.
 وقالت امرأة خالي للام:

- سنسافر إلى اللاذقية .. لأجلكم اخترنا اللاذقية .. الستم ذاهبين إليها؟
 إذن نسبقكم، وعندما تصلون يجتمع الشمل .. هناك لنا أقرباء، نحن
 أيضاً.

في مساء يوم السفر، جرى حزم الأغراض، وتطوّعت أمي بإعداد
 العشاء. وعلى المائدة شرب الرجال كأس الوداع، وغنّت امرأة الخال،
 بصوتها الحلو الحزين، أغنية تركية تستدر الدموع:

«أمان دكتور، جانم شقتي دكتور، دردمایر شاره»^(١).

لقد انطبعت تلك الليلة، والأغنية الحزينة، وحرقة الوداع، والدموع،
 في غيظتي. كنا، تلك الأيام، نحسب ألا لقاء بعد، وأن الفراق سيكون
 أبدياً. ذلك أن اسكندرونة كانت كل دنيانا، وكنا نظن أننا سنضيع في بلاد
 الشام، وأن هذه البلاد واسعة بشكل لا يحد، وأن اللاذقية بعيدة،
 وسيكون علينا أن نتنظر أعواماً حتى يلقى بعضنا بعضاً، لهذا فقد كان
 سروري كبيراً بلقاء ابن خالي، وقد مرّ بخاطري كل ما جرى لنا، وذكرته
 به، وضحكنا.

(١) «آه أيها الطبيب: ألا دواء لعلتي».

كنت مثليفاً لمعرفة متى وصلوا، وهل كانت الرحلة مريحة؟ وأين
يسكنون؟ وكيف الحال الآن؟ وقد أجابني أنهم لم يجدوا صعوبة في السفر،
وأنهم يسكنون حيّ القلعة، وأنه يعمل في مكتب المحامي الكسي مرفص،
وفعلاً رأيت حانة مفاتيح تتدلى من حزام بنطاله القصير، وفيها عدة
مفاتيح، أحدها مفتاح المكتب ولا شك. هناك على هذا التوفيق، تمنيت له
ولأسرته النجاح، طلبت منه أن يسير بي إلى أمه، بينما طلب هو مني، في
المقابل، أن أخذه إلى أمي التي هي عمته.

كانت الصدمة، حين قادني إلى البيت، شديدة. لقد كانت لنا، هناك،
في اسكندرونه، بيوت خشبية، وأحياناً قصبة عشوة بالطين، منفردة،
متباعدة، أمامها حدائق صغيرة، وأشجار مشرة، والشمس تشرق من نافذة
وتغرب من أخرى. كانت بيوتاً في فلاة، وكانت معها الحرية، والشمس،
والرياح، وكل ما يهب الصدر القدرة على التنفس، ويهب صاحبه الطاقة
على مواجهة بؤس الحياة بنوع من شعور بالتشرد. كنا غجرأ هناك. لكننا كنا
غجرأ سعداء. أما هنا فقد كان بيت خالي عبارة عن غرفة واحدة، في قبو
للأخوين شومان، وكانت هذه الغرفة القبوية مستطيلة، معتمة، رطبة، لا
نوافذ لها، ولا تدخلها الشمس حتى بمرآة عاكسة.

قالت امرأة خالي التي قبلتني وبكت بغير تحفظ على أيامنا الماضية:

= ما كان أحملها من أيام يا بني!

= أنا أقول كذلك أيضاً.

= وأمك؟

= أمي تشاركني شعوري لكنها لا تتكلم. لا تريد أن تزيد في أساي.

= وأبيك؟

= كما تعرفين..

= فرح برؤية أخويه؟

ماذا أقول؟ فرح أم سكر أم ارتكب معصية؟ إنه غير مهال. تغيير

الأماكن، والمدن، أو الوجوه لا تأثير له عليه. يعيش حاضره فقط. أبي لا يذكر الماضي، لا يتحسر عليه، لا يترك لأحاسيسه، إذا وجدت أن تعبّر عن نفسها. لكنني أشك، بل أوقن، أن لا أحاسيس له، والدي ابن ساعته. إذا وجدت العرق، والمرأة، والرغيف، فعلى الدنيا السلام.

قلت:

- فرح والدي برؤية أخويه..

- وانت؟

- كنت حزينا حتى رأيتمكم، وكنت غريبا حتى اجتمعت بكم.

عادت تقبلي:

- لكم أنت حساس يا ولدي!

كان ذاك وقت الأصيل، كانت بقعة من الشمس في باحة البيت. ضقت ذرعاً بفضاء الغرفة العاري، المعتم، النائح نواحاً أخرس. خرجت إلى الباحة. كان فيها بعض النساء. كانت الدار القبوية تتألف من عدة غرف. وفي كل غرفة تسكن عائلة. كانت غرفتهم تستعمل لكل شيء، بما في ذلك الطبخ والغسيل والطعام والسهر والنوم. وفي باحتها رأيت عجوزاً طاعنة. باهتة، عتيقة، ثمل بشرتها، بفعل السن، إلى سواد، وتبدو بشعرها كأنها امرأة كهف، وكان هناك أطفال، ودجاجات، وموقد فوقه طنجرة، وبخار يتصاعد.

قلت لامرأة خالي:

- بكم هذا البيت في الشهر؟

- بليرة ونصف..

- أما كان بالإمكان استئجار بيت بغرفتين؟

- ثلاث ليرات؟ إنها كثيرة.. نحن مهاجرون.. اسمنا المهاجرون، ولا ينادوننا بغير ذلك هنا.

- هل العثور على بيت صعب؟

- قل على غرفة . . إذا وجدتم غرفة فأنتم محظوظون . .
- لا بأس أن تكون غرفة . . لكن ليس مثل هذه . .
- لن تجدوا أفضل منها . .

قالتها واثقة، عن تجربة. كانت قد بحثت طويلاً. كان حي الصاز، على ما فيه من فقر وبؤس، مفتقداً الآن. كانت تحن إليه، تحن لا كالشهي، أو المشتاق، بل كالتأسف. ذلك «النعيم» الذي كنا فيه قد زال إلى غير رجعة. لقد أعطيتني، أنا الذي لا أحتاج في نظري إلى مزيد من السواد، شحاراً. كان كل ما في البيت، والدار، والوجود، يكتسي شحاراً أراه وحدي، وأنا لم له المأصامت كئيباً.

وكي نتأكد مما قالته، كان، علينا، أبي وأمي وأنا، أن نبحث، في اليوم التالي عن بيت. قررنا ذلك في المساء، غندف أدركت أن عليها أن ترحل فرحلت. كل من جاء معنا تدير أمره بطريقة ما. نحن لم نكن على عجلة من أمرنا، إلى حد يبرر أن نقلق منذ اليوم الأول لوصولنا. جاء عمي الآخر في المساء ليرانا. كانت دموعة، منذ دخل البيت، تسيل على وجنتيه وتنسرب فتضيع في شاربهِ الأسيب، وتجاوِذ وجهه المكسّو بشعر أهدل حلاقته. كان عمي هذا هو الأكبر، وكان الأحنّ، لكنه، كوالدي، لم يكن ناجحاً في أيما عمل زاوله. كان معمارياً، وعنه أخذ أبي، في ما بعد، شيئاً من هذه المهنة، لكن هذا العم ما بنى بيتاً في مدينة. كل عمله كان في القرى، وكان يبني بيوتاً للفلاحين، لكن تلك البيوت التي بناها شكت من اعوجاج ما دأبها. كان يحمل خيطاً، وشاقولاً، ولديه «مسطرين»، غير أن عدته التي قد تخدع الذين لا يعرفونه، سرعان ما تنكشف عن نقص في مهارة صاحبها. وهكذا كانت مهنته تدرّ عليه قليلاً، بل قليلاً جداً، وكان يعيش من هذا القليل هو وزوجته وولده الذي تبنّاه، أما ابنه الكبير، الوحيد، فقد تطوّر في الجيش، وكان يجيد الفرنسية، ويرطن بها كالفرنسيين.

بكى عمي منذ رآنا، ربما كانت المناسبة تقتضيه ذلك، أو كان الدمع

يبحث في صدره أصلاً. تساقطت دموعه فبللتنا حين قبلنا. وبعد ذلك لا شيء. كان فقيراً مثلنا، وكان يسكن غرفة أشبه بالقبو هي أيضاً، في زاروب يقال له العنابة، وقد أصر، ذلك اليوم نفسه، أن يأخذني إلى بيته، وأن يقدم لي بعض رؤوس الصبار، وكلما تذكر بعدنا عنه، أربعة عشر عاماً، رجع إلى ذرف الدموع، وهو يقول:

- تشردتم كثيراً يا أحبائي.. أبوكم رحل بكم لا أدري إلى أين..
قلت له:

- والدنا لم يستقر بنا في مكان.. كان كثير الإفلاس كثير التنقل يا عمي.
- هذا ما أراده الله..

- الله لا يريد التشرد لعباده..

عندئذ قال وهو يمسخ دموعه:

- لا تعترض على حكمة الله..

- أية حكمة هذه؟.. الله لا علاقة له بها.

- حكمة لا ندرها نحن البشر..

- ولماذا كتبت هذه الحكمة علينا وحدنا؟

- لتجربتنا..

- تجربتنا طوال أربعة عشر عاماً؟

صاح بي:

- قلت لك لا تعترض.. هذه مشيئة الله.

قلت:

- استغفر الله.

كان عمي قد عمل، هو وزوجته، في مدرسة إنجيلية. ويضغظ من القسيس، ومدير المدرسة، صاراً انجيليين، لكن المذهب البروتستاني الذي اعتنقه، لم يتفق في حالتين: منعه من الشرب، ومن نقل أخبار غير صحيحة، لا رغبة في الكذب، أو استغاثة له، بل لأنه كان يصدق أي خبر، ومهما كان غريباً، لمجرد سماعه.

وفي الليل جاء والدي والدي إلى بيت عمي ، وافقنا معه ، أن يسأل لنا عن بيت ، لكنه ، في الصباح نسي ما اتفقنا عليه في المساء ، فكان علينا ، نحن أصحاب الحاجة ، أن نطلع شوكتنا بأيدينا ، وأن ننطلق في ضحى اليوم التالي ، باحثين عن بيت مهما يكن موقعه أو شكله .
كنا نظرق الأبواب فيسألوننا :

- ماذا تريدون ؟

- بيتاً للإيجار .

- من أين أنتم ؟

- من إسكندرونة .

- يعني من المهاجرين . .

- أي نعم . .

- مع الأسف . .

- ولكننا سمعنا أن لديكم بيتاً للإيجار .

- عدلنا عن تأجيره . .

نذهب إلى بيت آخر ، وآخر ، وثالث ، ورابع ، ونجد الجواب نفسه تقريباً . كانوا لا يريدون تأجير بيوت للمهاجرين من اللواء . الكلمة وحدها كانت تفرعهم ، وما كنا قادرين على الكذب ، ولا مصلحة لنا فيه ، ولو أجزنا لأنفسنا أن نكذب فستكشف كذبتنا ، ومع ذلك كانوا يضطروننا إلى مقارفة هذه المعصية .

ثلاثة أيام من الدوران المستمر دون نتيجة . لقد رافقت والديين طوال هذه الأيام . ومشيت معهم في حرمتموز ، ومثلهم وقفت على الأبواب ، كشحاذين فقراء ، نقرع باباً باباً ، ونعيد السؤال ، فيعيدون الجواب ، دون أن نحصل على غرفة تؤوينا ، غرفة مهما تكن مواصفاتها ، شريطة أن تكون رخيصة ، بقدر ما غمك من نقود ، وهي شحيحة ، لا تزيد عن ليرتين في الشهر ، وبعد ذلك نكون قد اشتغلنا ، ويكون الله قد فتحها في وجوهنا .

لأمر ما ، شاء الله ألا يفتحها في وجوهنا ، أمي قالت هذا ، وفي البيت ،

حين عدنا إلى المقبرة، قالت لي على انفراد:

- غداً نذهب وحدنا .

- دون الوالد؟

- دونه .

- لماذا؟

- لأن الله، بوجوده، لن يوفّقنا إلى بيت .

احتججت . . صحيح أنني لم أكن على وفاق مع الوالد، وكنت أعرف معايه وأثامه، لكن مسألة العثور على بيت رخيص، في مدينة صغيرة، وبشروط ما نحمل من نفود قليلة، كانت مسألة فقر، ولا علاقة لله بها. كنت، أنا نفسي قد أدركت هذه الأشياء قبل الهجرة، منذ أن اختلطت بالعمال، وقرأت الكرايس مع سبيرو الاعور^(١) وتردّدت على بيوت «المشبهين» الذين يبشّرون بالثورة على الفرنسيين ويدعون إلى تأليف النقابات. الحقيقة أنني لم أكن، في تلك السن، وأنا أليس البنطلون القصير، ثورياً، لكن الثوريين، في الحقي، كانوا قد التقوا بي، باعتباري الكاتب القارئ الوحيد فيه، ولأن «فراستهم» قد اكتشفت في مادة خاماً صالحة للتبشير بما يحملون من آراء.

لقد هاجر آخرون من اللواء، وجاءوا مدينة اللاذقية نفسها، واستأجروا بيوتاً سكنوها. نحن فقط، وقبلنا بيت خالي، والآخرون الذين من أمثالنا، كنا نطرق الأبواب فتغلق في وجوهنا. إننا نريد غرفة، نريد مأوى، نستر فيه أنفسنا، لكننا كنا فقراء، وإذن فالمسألة واضحة، هي الفقر. كنا فقراء في اسكندرونة، فسكنّا حي المستنقع، بين الأفاعي والزواحف، وكنا فقراء هنا، بل أشدّ فقراً، لذلك كان علينا أن نجد حياً مائلاً. وحتى لو وجدناه . فإننا لا نملك ما نبني به بيتاً أو كوخاً، فكيف ونحن لم نعثر، في اللاذقية، على هذا الحي، ولا نعرف إلا الأحياء الشعبية، نلوب بين دورها، لعلنا

(١) اسبيرو الاعور، أحد أبطال رواية «المستنقع».

نقع على بيت رخيص، على غرفة في بيت، على قبو، على كوخ ريشا نتدبر أمورنا.

شرحت كل هذا لامي. أفهمتها أن الفقر سبب شقائنا، فكان جوابها: ونصيب!، اختبأت، كعادتها، وراء الحطّ، هذا الذي يلعنه الفقراء، ويتعزّون بذلك. كنت أعتبر إصغاء الوالدة إلى أقوالي، تقدماً تحقّقه على طريق فهم أفضل لمصدر شقائنا، ولم أنشبت بأن الله لا علاقة له بالموضوع، ما دامت أمي لا تستطيع، ولا تحرّو، أن تعفي ربا من هذه المسؤولية، فهي في آخر المطاف، امرأة متديّنة، كلمة الخوري عندها بألف من كلماتي، أنا ابنها الغالي كما تقول.

هذه الأيام الثلاثة من البحث عن بيت، ملأتني حقداً على الحياة الشوهاء التي نحياها. تذكرت معها، اسكندرونة. هناك كان المتظاهرون ضد فرنسا، المناضلون ضد الوضع الاجتماعي القاتم، المطالبون بالحقوق. وكنت أعرفهم، وأحبهم، وأثق بكلماتهم، وأنطوي، معهم، على أمل في أن كل شيء سيتغير، إنما هنا، في اللاذقية، فإنني لا أعرف أحداً منهم، ومن حديثي البسيط مع ابن عمي، استنتجت أن كل تلك الأفكار التي عرفتها سابقاً، وعشتها بجاذبية سحرية، لا يوجد منها شيء هنا، ولم يسمع بها أحد، فكان اللاذقية في قطب آخر، وكان لا عمال فيها ولا فلاحين، وكان «الطيبين» لم يمروا بها، ولم ينثروا بذارهم السحري في أرضها.

تغذّينا، في اليوم الأول لبحثنا، عند بيت خالي. لطمت أمي خديها وهي ترى يؤس الغرفة التي يسكنونها، وفي اليوم التالي ظلمت تلطم، لكنها، في اليوم الثالث، ثمت غرفة مثلها فلم تتحقق أمنيتها. كنا نخرج من بيت عمي في الصباح، وننتقل في الأحياء، ونبقى، أحياناً بغير غداء، كي لا نرجع والحية محصولنا المر. وكنت، حتى عندما نعود في المساء، أرفض الطعام، وأندرع بحجج مختلفة كي لا أقترّب من المائدة، خجلاً من بيت عمي، أو انتفاءً لشهيتي، حتى ازددت نحولاً، وغارت عينا في وقبهما من الجوع والفقر، ولت نفسي لأنني لم أنشبت بالبقاء في اللواء، ولم أفلح باقناع

أمي وصرفها عن الهجرة. وفكرت، نعم فكرت، أن أعود أدراجي،
فأستل عبر الحدود، راجعاً إلى بيتنا، ذاك الذي بقي وحده ليخبر عن
حكايتنا مَنْ يأتون بعدنا.

كنت أخرج في المساء، وأطوف في المدينة على غير هدى. فإذا عدت
نظرت إلى القبور، وحسدت من فيها، لأنهم ماتوا واستراحوا. «الموت،
كنت أقول في نفسي، صعب، ولكنه، كما تعلمت من قراءتي، النهاية
المحتومة، وما دامت النهاية محتومة، طال زمانها أم قصر، فلماذا لا نحل
الآن؟ لماذا لا تأتي اليوم، قبل الغد فاستريح؟ من المؤكد أنه كان باكراً،
باكراً جداً، على فتي مثلي أن يفكر على هذا النحو، لكن فرط حساسيتي كان
يدفعني نحو اليأس، طالما أنني، في ظروف الغربية، وانقطاع الصلة
بالمناضلين، ما كنت قادراً على الاندفاع نحو الأمل، وتحويل اندفاعي إلى
عمل مجد. إن ذلك سيصير يوماً، لكن هذا اليوم، في بدء رحلة الغربية
والشقاء، كان في مطاوي الغيب، ولعل المحنة هي التي قربته. لكن محنة
عائلتنا، التي وعيتها منذ وعيت الوجود، كادت تقضي عليّ، جسدياً
وعقلياً، لكن رومانتيكية الفتوة هي التي حمتني، فانا كما أعرف أن اليأس،
أعرف، صباح كل يوم، أن استنبت الأمل من اليأس نفسه، وبهذا اتعلل،
وأعيش.

طفنا خلال أيام ثلاثة الأحياء الفقيرة كلها، أما الأحياء الغنية فلم
نقربها. ماذا لدينا فيها؟ عم سنسأل هناك؟ آية وجوه معرّة من الرافة،
ستطالعنا ونحن نعرض، لا فقرنا وحده، بل هجرتنا أيضاً؟ «الفقير، كما
تقول أمي، يحن على الفقير، أما الغني فيشمت، كنا في بلوانا، بغنى عن
الشماعة، تضاف إلى قائمة المكدرات، لذلك نجبن أن نطرق باباً لبيت يبدو
عليه اليسر، وتحاملنا على أنفسنا كي لا نسقط إعياء أمام العتبات، أو
نجلس على أتما درج، لبناية كبيرة، واليد على الحذ، كالعامل العاطل في
صبيحة عيد. طوفنا، طوفنا، وأحياناً سألنا شربة ماء، وإذا
صادف ومرنا بأناص نعرفهم، سبقونا في الهجرة، أو كانت لنا بهم معرفة في

الماضي، نقبل دعوتهم لتناول القهوة، وللحديث عن المصيبة التي نحن فيها. كان هؤلاء الناس يتألمون لحالنا، أو يفتحون لنا قلوبهم ويتحدثون بدورهم عن آلامهم، وكنت لاحظ أن المدينة الصغيرة، الجميلة، فقيرة من الداخل، بانسة، تترنح من شكاة لا تفل عن شكاتنا.

هذه الأحاديث، التي دارت، والتي تكررت في كل حي، سمحت لنا أن نعرف عن حياة المدينة ما كنا نحتاج في معرفته إلى شهور أو أعوام. ومن تلك المعارف أن بضع أسر اقطاعية هي التي تحكم المدينة مع غيرها من أسر ثنائها إقطاعاً وثروة عقارية. الصناعة لم تكن موجودة، وباستثناء معمل التبغ، وكان معروفاً بالريجي، لم تكن في اللاذقية أيما صناعة. وتحدث الذين تكلمنا معهم، عن امرأة جميلة، بالغة الجمال، هي زوجة (...)، تأمر وتنهى في المدينة، على الناس، لا على زوجها وحده، أو أسرهما وحدها. قالوا إننا قوية الشخصية، فائقة الجاذبية، بالغة التأثير، وأنها وحدها، لو قصدها، يمكن أن تسعى لي بعمل ما، ما دمت أقرأ وأكتب. لكننا لم نفصدها، بموقف حازم مني، ويرفض بات لكل رجاء من الوالدة. كنت على يقين أن الطلب سيذهب هباء، إذا لم تكن لهذه السيدة مصلحة في السعي لي عن عمل. وما هي هذه المصلحة؟ أن تخدم أمي عندها؟ لا، إن ذلك لن يصير، وأمي التي خدعت في إسكندرونة، لن تكون خادماً في اللاذقية أيضاً.

الطريف في الأمر أن هذه السيدة التي تحكم عائلتها، ولها نفوذ في المندوبية، ولها سطوتها في كل مكان، لم تكن المرأة الوحيدة المشهورة في المدينة. كانت، ثمة، ثلاث نساء لهن شهرة أيضاً، كل في دائرتها، أو في حيها، الأولى وتدعى «أم يانكو» ومركزها حي القلعة، ولقد رأيتها فأنكرت ما هي عليه من تبرج أخرق. كانت تظلي وجهها الأبلق، المدور، بمساحيق فائقة، وتكثر من البودرة حتى لتخال أن الوجه، بما فيه من نتوءات، ومن جيبن يتصل بالشعر، ومن ذقن مفلطحة، قد مرحت بكلس أبيض. حتى العنق نفسه، وكان عنقاً غليظاً، لامرأة كانت على ملاحه ذات يوم، دهن

بياض كلي، على نحو ما يكون المهرج في السيرك. وعلى الوجنتين، في دائرة واسعة، تبقع الاحمر الرخيص الصارخ في احمراره، وفوق الشفتين طلاء قرمزي، كثيف، يعطي لشفثها السفلى حجماً يزيد في ضخامتها. وكان شعرها اصفر، أو يميل إلى الصفرة، طليعة أو صباغاً، وتحت عيان جاحظتان، واسعتان، يتحرك فيهما بؤبؤان حركات قلقة، وتغيتها أنف كبير الفتحتين، يفترس، بشنانه الغضروفية، المعالم الأخرى، ويجور عليها.

وكان ابنها يانكو أبرش، ورث عن أمه بياض البشرة، وله فم مفتوح أبداً، وشفتان تنفرجان عن لثة انحسرت عن جذور أسنان تبدو كبيرة، منفرة، وله عيان مدوّرتان، فوقهما جبين عريض، يعلوه شعر رمادي، خالطه الشيب ولم يشتعل فيه، وقامة لا بأس بها، سوى أن الكتفين مهيضتان، فكأنما ثقل غير منظور بيهظتها، ومن المؤكد أن في هذا الابهاط أثراً من أمه، التي يقال إنها قضت حياة حافلة، وهي الآن قزادة متقاعددة، أو هكذا يشاع، تجلس من الصباح إلى المساء أمام بيتها، متحرشة بالمرأة، ولا سيما النساء اللواتي كنّ يتجنّبها.

أم يانكو هذه ابتسمت لنا منذ رأتنا ندخل حيّ القلعة، من زقاق بيت البيطار، وأدركت من سؤالنا أننا غرباء. الواقع أن المرأة احتفت بنا، سألتنا عن حالنا، دعتنا إلى بيتها الشبيه بالوكرك، لكننا لم ندخل. من المؤكد أن شكلها، تبرّجها، نظرتها الفضولية، كلّ ذلك دعانا إلى الحذر، وإلى اجتناب الدخول. ولما عدنا، مساء، إلى بيت عمي، وقصصنا ما جرى معنا في يومنا، ضحكت امرأة عمي وهي تسمع أننا ضادفنا «أم يانكو»، أمام بيتها، كالعتاد، لا سيما في الصيف، وقالت:

- هذه امرأة مشهورة.

سألتها أمي:

- بماذا؟

ضحكت وأجابت:

- بالتقوى!

- وتستخدم بيتها في ما لا يرضي الله؟

- نعم.. الذي لا يرضي الله ولا العبد.

- وكيف يسكنون عليها في الحي؟

- وماذا يفعلون بها؟ جربوا أن يضايقوها فصمدت، وتعاركت معها جاراتها

فغلبتهن بفجورها وسفاهتها، إنها، عند اللزوم، تهاجم حياً بمفردها،

ويكفي لسانها البذيء لبوسخ سمعة آية امرأة شريفة. أم يانكو مشهورة

في القلعة، ولا يمكن أن يُذكر الحي إلا مقروناً بها.

- أليس لها عائلة؟

- لها يانكو وحده.. وقد كبر المسكين، ولا أحد يحرق أن يزوجه ابنته.

وبسبب أمه، وزنختها، وتعبيره بها، أصبح شبه معنوه، مع أنه، في

الشباب، كان سورياً مستقيماً، وطيباً أيضاً.

لطمت أمي على خدّها وقالت، إذ تذكرت شيئاً كانت قد نسيت. ففي

حي القلعة، حين كنا نطوف بحثاً عن بيت، قالت لنا أكثر من امرأة:

«اقصدوا أم يانكو» ولم نفهم ما وراء هذا الكلام من غمز بالمرأة، وهزء بنا.

وقد أسفت الوالدة لأن الزمن جار علينا إلى درجة أنهم يدلّوننا على بيت

مشبه كهذا، غير أنها، سرعان ما أشفقت على أم يانكو، فاستطردت: «ألا

يجوز أن تكون المسكينة ضحية؟ ألا يفترى الناس عليها لأنها فقيرة؟ من

جهتنا لم نر منها إلا كل مودة، لقد كانت، بالنسبة للواتي قابلناهن، امرأة

لطيفة، كريمة، دعتنا إلى بيتها، كما دعت المجدلية يسوع ذات مرة».

رفضت امرأة عمي منطق الوالدة. قالت:

- أم يانكو قَوّادة..

وأصرّت الأم:

- «من كان منكم بلا خطيئة فليترجمها بحجر».

ثم استدركت:

- حاشاك يا سلفتي.. أنت ست الحراير..

المرأة الثانية منطقتها غريبة، وتدعي «ن» والمرء لا يحتاج، مع هذا الاسم، إلى دليل. مجرد أن تلفظه، إذا كنت راغباً في الاهتداء إليها، يفودونك إلى الحي، وربما إلى بيتها بالذات. كانت «ن» غير معنية بمرضاة الخالق. كان المخلوق كل همها، فهي توجه عنايتها إليه، وتتقدم بخدماها إليه، من توفير امرأة، إذا كان الطالب راغباً في الزواج، إلى ترشيح خطيبة، وجمع رأسين على وسادة واحدة، إذا كان شاباً يريد عروساً، إلى الغناء على الموق وتديهم لقاء ما تبسر، أقله كلمة طيبة، أو غبرة مبعثها الشهامة، أو التطوع إذا كان الميت من الحي، أو جاءت دعوة من أهل الفقيد.

كانت شجاعة. إذا وقعت في فم الزاروب، تعذر على أحد اختراقه. وكان نصف شجاعتهما في لسانها، ونصفها الآخر في قوتها البدنية، فإذا أمسكت رجلاً من صدره، شالت به عن الأرض، أو ضربت به الجدار. وقد تلجأ إلى طرحه أرضاً، والويل له إذا ناجزها عن بُعد، فقاموس شنائها ضخم إلى حد لا يصدق، وإذا لم تجد من تجرب به مفرداتها، حولتها نحو أولاد الزاروب، والأم التي تناصر ولدها، وتتصدى لها، نصيبها الضرب، والسباب، ونف الشعر، ثم الركل بالقدمين إلى أن تستجير، فإذا لم يكف هذا كله، طالتها بلسانها حتى تعود إليها نادمة مستغفرة.

إنني أذكر هذه المرأة، بوجهها المستدير، الواسع، الطفح شيئاً ما، وعينيها اللوزيتين، السوداوين، وجشها التي هي أقرب ما تكون إلى جثة لبوة، وزنديها العامين، الملحمين، وصدرها الذي يلعب عليه خيال، ومؤخرتها المقنطرة وراءها، فهي تموج، في مشيتها، على الجانبين، وتفتح، في حال التعب، كأفمى، وتقرأ الفنجان، وتزعم أن قراءتها لا تخيب.

لم تكن منبوذة كام يانكو، ولا مهانة من أحد، وجميع الأبواب تفتح لها، وهي عذبة الحديث، ذربة اللسان، حاضرة النكتة، ونكتها، غالباً، بذينة، تحكي عن مسائل الجنس الحكايا، وتعرف أسرار المدينة كلها، لكنها لا تبذل نفسها، ولا تنم، أو تشي، وفي وسع قاصدها أن يطمئن إلى

مساعدتها، إذا اقتنعت به أو وجدت سبيلاً لهذه المساعدة.

مأثرتها الكبرى كانت في الغناء على الأموات. إنها نذابة قلّ نظيرها، والميت الذي تزينه هي، كالعريس الذي تجلوه غيرها. إنها، بعد كل شيء، تعرف أن تشارك، وجدانياً، في الحزن، وربما تأثرت لفقد شاب، فنسيت أنها نذابة ماجورة، وتلبّست دور الأم، هي التي لم تعرف الأمومة، فأخذت تنوح، وتندب، وتغني غناء حزيناً، رقيقاً، موجعاً، يستدرّ الدمع. كان في صوتها شجوة حماسة، وفي إنشادها تطريب منجع، فانت لا تستطيع، حين تسمعها، أن تحبس دمعك، وحين تصرخ أوف، تكاد تنتزع الأفتدة، وكثيراً ما تسببت في إغواء أم الميت أو اخته أو زوجته. أما الرجال، وحتى أكثرهم رصانة وقاسكا، فإنهم يتعدون عن مرمى صوتها، كي لا يذرفوا الدموع كالنساء. ومهما حاول سامعها أن يقاوم، فهو يستسلم إذا ما غنت موالاً، أو غنت «يا غزالي» أو رجت أهل الفقيده أن يسمحوا لفقيدهم بالمبيت عندهم «هذه الليلة» هذه الليلة فقط..

المرأة الثالثة هي «هـ» ومنطقة نفوذها وسط المدينة. كان أخوها، الخادم في الكنيسة، يتفادى الاحتكاك بها، ويمارس إحساساً بأنها ظهيرة له في الملثمات. لذلك فهو ينطلق في خدمة الكنيسة من موقع قوة، وينطلق في لذائذه بشعور الإنسان الذي له من يحمي ظهيرة، ومن يشهر لسانه دفاعاً عنه فيخرس جميع الألسنة.

وقد اشتهرت، عدا جبروتها، أو بسببه، بأنها وتنزل الخيال عن ظهر حصانته وأن لها في ذلك أساليب ليس أقلها قوة الساعد، وهي، من هذه الناحية، شبيهة بـ«ن» سوى أن هذه أكثر ملاحظة منها، فالست «هـ» عاطل عن الحمال، وتشبه الرجل بشاربها، ومثله، إذا كان دفوة تسير في الحي، فتمشي سطوتها بين يديها، ليراها الجميع ويؤدوا لها التحية والاحترام.

كانت بدينة، خا شكل برمبل، ينتهي برأس صغير، نسبياً، ورجلين ثخينتين، ريلتاهما مدورتان، معضلتان، كأنما مارست رياضة رفع الأثقال بها. فإذا حطت فإنها تغط الأرض بكل ثقلها، وبخطوات وثيدة كخطى

الفيل، ونمضي وهي تهلج في مشيتها، مستأنية، متأملّة، كأنها تقوم بجولة تفقدية لرعيّتها.

ولقد عجبت وأنا اسمع كل هذه القصص، عن شجاعة هؤلاء النساء. كبرن في نظري. تمثّنت، بيني وبين نفسي، أن تكون أُمي على مثل هذه الشجاعة، وأن تتخلّى عن ضعفها، لا تحياه والذي وحده، بل تجاه الناس، والمدينة، والدنيا، وأن تكف عن ذرف الدموع التي لم تحصل من ورائها على شيء، ولم يفتح لأجلها باب، ولم نُفَرِّ بيت نستقرّ فيه.

من جهة أخرى، زادت غربيّ وزاد نفوري. أسفت، بغير تحفّظ، على تركي الاسكندرونة، تلك المدينة التي للشجاعة فيها معنى آخر، ووجهة أخرى. هناك كان الناس يتظاهرون ضد فرنسا، ويعملون السلاح في مقاومتها وهم عمال نقابيون، لهم أفكارهم، وقناعاتهم، وقد جذبهم النضال السياسي، بينما يجذب الناس، في هذه المدينة، الخلاف على النفوذ وعلى قوة هذه المرأة أو تلك، ولهم، في العمل الوطني، نضال ضد فرنسا، لم يبلغ ما بلغه في إسكندرونة من عنف واستمرار.

اغتممت لأنّ أحداً لن يفهمني هنا، وأن أحداً لم يسمع بالأفكار التي كنت أؤمن بها، ولأن المفهوم النقابي لا وجود له، والنضال في سبيله عدم، وليس من أثر للوعي العمالي، وليس ثمة، بين عمال الريجي، وهي الشركة الوحيدة الموجودة، من احتفل بأول أيار.

فكرت بكلّ ذلك تفكيراً ملحاً، موصولاً، وشعرت باستحالة أن يصير ذلك يوماً، وأن تعرف هذه المدينة كيف تهتمّ بما هو خارج المنافسة على الزعامة، أو بما له قرابة بفكرة العدالة الاجتماعية، وأن أعثر فيها على «الطيّين» الذين عرفتهم في مدينتي.

وقعت في اليأس. كان ياسي بحجم عمري، وحجم تجربتي، كان ياساً طفولياً، لم يلبث أن تبدّد، ولم تلبث الحياة أن حفلت، هنا أيضاً، بالطيّين، وانتشر الوعي النقابي، وبرز النضال ضد فرنسا، وضد الاقطاع، ولأجل

العدالة الاجتماعية، وفي غمرة مقاومة عنيفة ضد فرنسا وزلمها، تألفت
بعض النقابات، وكانت مفارقة كبيرة، أن السيدة «هـ» حصلت على بطاقة
عضويتها النقابية، بعد ذلك بأعوام، باعتبارها من العاملات في شركة
الريجي!

حصلنا أخيراً على بيت في حيّ القلعة. استأجرنا غرفة في دار قديمة خربة، يستأجرها عجوز اسمه شعبان، له زوجة أصغر منه سناً، تدعى زهرة، مهترئة العينين، تتلمّس الطريق بيديها، لأنها ترى نصف رؤية. لقد تزوج شعبان ستره لأخوته، فهو، كزوج، توقّف عن فاعليته منذ زمن بعيد، وهي، رغم قابليتها النسيّة بعد، فإنها على حال من القذارة، ووراثّة الثياب، وتذراف العيون، وانحناء الظهر، واصفرار الأسنان، بحيث أن أحداً لا يجازف بالنظر إلى وجهها، ناهيك بأن يرى هذا الوجه قربه على الوسادة.

كانت الدار في زقاق يتفرّع من شارع فرنسا، عند دكان المختار، ونتجّه نحو حي العويّنة، مقابل مقهى يزبك. ولم تكن دارنا بعيدة عن الدار التي استقرّ في إحدى غرفها بيت خالي سوى خمسين متراً، وهي مثلها قبوّة، رطبة، معتمة، تشبه الغرف الأخرى التي لا نوافذ لها، ولا فتيد، من الباحة التي تغطّل عليها، سوى في إنارة عتباتها. أما من الداخل، فإن الساكن يحتاج إلى ضوء في النهار، وإلى مدّ رأسه من الباب لاستنشاق الهواء. ولم يكن في الدار ماء، وفي تأمين حاجتنا منه، للاستخدام أو الشرب، علينا أن نخصي إلى شارع فرنسا، وأن ننعطف إلى يسار، فنسير قليلاً حتى نبلغ زقاق كنيسة مار تقلا، الذي يقع صنبور الماء العمومي على مدخله.

غرفتنا كانت إحدى ثلاث غرف في الطابق الأول، ومن سوء الحظ أنها كانت أشد الغرف سوءاً، فهي محيطة بطرف متقدم من جدار الدكاكا التي تحتلها شعبان وزهرة، ولا يراها الداخل لأنها احتجبت في ركن شمالي شرقي، ولها باب يحاذي نافذة عليها شباك حديدي، وكلاهما لا يفتحان في البكرة ربيع العرفة، ونضى الأربع الثلاثة معتمدة.

وضعنا تخمين خبير، في زاويتين متقابلتين، ووضعنا الصناديق الوحيدة التي نملكها تحت النافذة، وفي الصناديق حوائط، مع بضعة كراسي خشبية مقلدة، وهذه هي كل الممتلكات التي أتناها بيننا الأول بعد الهجرة.

بكت أمي يوم سكننا هذه الغرفة، لم تفتح زهرة في إقاعها أن البيت ملائم، وأنه للسميت فقط، وبمكنا، في النهار، أن نقضي أوقافنا في الباحة. لم يكن ثمة مطبخ، كان هناك جدار منهدم، في قاعه سرحاض لا يمكن أن نكتشفه دون ضوء، وإلى جانبه، في غرفة جد صغيرة، نسكن فلاحه عجزو، ندعى أم صفر، تعمل خادماً في البيوت، ويقوم صفر، وهو ابنها الوحيد، بنقل الماء إلى الجيران وأهل الحي، ونسكن الغرفتين المحاورتين عائلتان قرويتان، الأولى مؤلفة من أب وأم وطفل، وكنا ندعوهما أبا جميل وأم جميل، والأخرى تضم زوجين من الضواحي، هبطا المدينة حديثاً.

الطابق الثاني يرقى إليه بدرجة مسور بحاجز خشبي، والدار كلها بناء قديم الطراز، والباحة نصفية مكشوفة، تطل عليها غرف الطابق الأعلى، ومنها تطلّى النفايات المساقطة، والتراب الذي ينحله السقف. مع ذلك كنا نشعر بشيء من حسد، لجيراننا الذين فوق، فهم قادرون على تنسم الهواء، والاستمتاع بالشمس، بينما نحن محرومون من النعمتين، إضافة إلى ثغرة باب الدار، الذي يفتح على الزقاق، ويجعلنا في باحة الدار، حيث نضطر إلى الطبخ والإقامة في النهار، عرضة لالطاف المارة.

قالت أمي، وهي تشعل شمعة وتغرق بخوراً في الغرفة:

— اللهم اجعله مسكناً مباركاً.

وقال والذي :

— نحن لن نتزوج فيه، حين نشغل، منتقل منه.

ولم تعلق أحوالي بشيء. كان واضحاً أن هذا البيت سيكون بيتنا إلى أمد بعيد، وأن علينا أن نعتاده ونعتاد رطوبته وعتيمته، وأن نزيد في حيرة الأم، وقائتها، فالكثيرة السورية التي تندفعها أحيرة، نقتطعها من لقماتها، ومن المتعللين، في اللاذقية، أن تعود الأخوات إلى الخدمة في بيوت الناس. كان هذا، في مدينتنا هذه، مستحباً، فالخادم تدعى «صانعة»، وسبعتها مدعاة للريبة، ولم تكن العائلات، حتى أشدها فقراً، تقبل بأن تخدم فتاتها في بيوت الآخرين، ولم يكن لنا من حيلة للعيش، سوى أن نشغل الأم، والأخوات أيضاً، في الريجي.

بعد استقرارنا بيومين، جاءنا كيس طحين من عمّتنا التي تسكن المدينة نفسها. كانت حانها ميسورة، وكان ابنها البكر يعمل في مكتب «دولاكي»، وهو فرنسي متقاعد، يشتغل مدنياً في اللاذقية، وقد سبر، لأول مرة في تاريخ المدينة، «أوبنكرأه» بينها وبين حلب، إضافة إلى أن المكتب وكيل لشركة الطيران الفرنسية.

ووضعنا مسألة عملي موضع البحث منذ دخلنا البيت الجديد. تناقشنا، أُمّي وأنا، عما يمكن أن أشغل. كنت لا أجيد أيّاً مهنة، والشهادة الابتدائية التي أحملها لا تؤهلني لشيء، وبنيتي ناحلة لا تصلح لأيّ عمل جسديّ. كنت أرغب أن أعمل مثل ابن عمي. كان هذا يعمل في التبغ المدخون مع شقيقته، وكان عمله في فرع «شركة الامبريال»، ودوره أن ينقل التبغ المدخن، وأن ينقّيه من الأعشاب والعيدان، والنفائات. لهذا كان العاملون معه يرتدون ثياباً عتيقة، ممزقة، تستبدل آخر النهار، ولا يمكن العودة بها إلى البيت، لأنها تغدو سوداء، مزينة، بسبب ما يفرز الدخان من قار. كذلك كانت أجسام العاملین سوداء، ملوثة بالقار، باستثناء الفم والعينين، وكان العاملون يصفحون صابوناً يغسلون به وجوههم وسواعدهم قبل الانصراف. وفي البيت يغسلون بالماء الساخن، وهذا وحده فقط كان

قليلاً بإعادة اتصالهم إلى لونها الطبيعي. أما الأجرة فهي أربعة قروش
للعمالة، وستة للرجل، والأحداث تعرفه خاصة

لم يتفق حدي بالعمل مع ابن عمي في المدخون. كان السبب الثاني
أن العمل محدود، وطالبه كثيرون، وهو عمل موسمي، يقدم أشهر
الصيف فقط، ونحن وصلنا اللاذقية في أواخر شتاء حتى كان موسم
المدخون في نهايته. لقد كانت هذه هي الضربة الأولى التي ألقاها، وقد
تأملت من جرأها، وعدت إلى البيت حزينة، فحاولت أني مملوطة،
وقالت إن الله سيقبها في وجهي، ولا بد أن يوفر لي الرزق كما يوفر
لغيري.

لكن امرأة عمي، دون مراعاة لمشاعري، تكلمت بهذا الاقتراح:

— لماذا لا يبيع الخراف، تسوله من الأولاد؟

صوت الأم على صدرها:

— جرات يا سلفي؟

— وماذا يعني؟ كل الأولاد يبيعون الخراف والساكنة أو الأشياء الثمينة.

— لكن والدنا ابن مداحس، يعمل السرقية.

— مرحبا سرقية، ألي بعمل مثله.

— أنتك بعمل في المدخون.

— كله عمل، المهم الحصول على الرزق.

هست والدمع الفكرة. حبيت أمها ورقتها. أما لو كنت رقتي من
أولاً لم أكن ولداً كنت في الخامسة عشرة من عمري، وثانياً يبيع
الصنف يحتاج إلى صوت جهوري، ومن سوء الحظ أن هناك عادة في صوني،
ثالثاً كنت وحيداً، وكان جديراً بأنني أن يمشوا لي عن عمل لائق، وأخيراً
بمضوني معه، ورأى يبيع الصنف وقف على الأبنام والتشديد في الأرقه،
وبعد ما سبب به عند عرقه، ضربة قوية، كان من جرأها ألي سقطت
مريضة، وتست في دموع حزينة، ضلقة، ألي.

في يوم الجمعة، استعملت في متجر ديلافي، كنت مثابة أذن، أفضي
جميع الكتب، وبتك العلم، وأردت على القرائة، وكلفت الأمور تنظيمه،
لولا أنه، في الثاني من أيلول ١٩٣٩، أعلنت الحرب العالمية الثانية،
ودخلنا فرنسا، فدخل السيد ديلافي، وهو كان متقاعد، إلى الخدمة
المسلحة، وبذلك انقطع العمل وحدث بطلاً من حنقه.

في هذه الأثناء كان والدي قد ربح عملاً، كان عملاً غير مألوف منه، ولم
يفكر يوماً أنه سيترمه، لكن الحاجة اضطرته إليه فقبله، ملتجئاً بمعنى
الذي كان يعمل في المشتق الكنج بصلفته. كان عمل التوالد مازموناً،
يعمل الضحون، طوال فترات النهار، وفي الليل، والمصباح البكر، يساعد
عني في الطبخ، ومشتق الفصل والمطاط، وشارك في اكتسب الأرض وجمع
التوالد والكرواسي، وإعادة بعد المسح والتنظيف، لكن هذا العمل سريعاً
ما انتهى بانتهاء الصيف، فعاد التوالد بطلاً أليفاً، وعندما تعيش على
الكفاف، فليكن على شاة لا تعرف ماذا سيكون حاله في

كنت، بعد تركي العمل في متجر ديلافي، وبعد الدلاع الحرب العالمية
الثانية، أنزلت شعوراً، وانحط في عيني كأي ثورت أروما. لقد أدركت
ما هي صعوبة أن يكون أنت حيث عازلاً عن العمل ومورد الترويق
مقطوعاً، وأن يفرح ليس الضحور الذي بعث به عشتا، وأن تعود، في
صعوبة وضعنا، إلى حال من اليأس المدمر.

أحب أبي، في هذه الأيام الشقية، حרות اللادقة معرفة ستكون
معبداً في السطيل. كنت انطلق صباحاً من البيت، دون إبطار، دون
كلية، وأضفي إلى الشوارع ضارباً فيها على غير عدى. اخترق في نحوالي ما
قبل الظهر، أحياء الشخصيتين والصلية والموازلة، حتى أبلغ المشتاق
الوطني. ومن هناك أواصل السير إلى عمود القديسة الكسندرة، وأشرف
على الرأس الصخري الذي يطل على البحر، فأقف، أو أجلس، وأتابع
حركات التوارم فوق الترح، وأبعت بحرطري بعيداً إلى اللجة، كأنما
أظفرها هناك، أو أفضله في القبة، وكثيراً ما وجدت لو أن مريحاً غيراً

ياخذني. كنت أفكر بالسفر، واللقاء نفسي بين ذراعي المجهول، ولشدة ما أنا مشوق إلى الرحيل، كنت، لدى مرور أية باخرة، أتقبل نفسي راحلاً فيها، أقوم بالعمل داخلها، مهما يكن نوع هذا العمل، مسافراً هكذا بغير هدف، دون أن أفكر بالعودة ثانية. هذه الأمنية في الرحيل ستعيش معي، بعد ذلك، العمر كله، ولعلها استقرت في ذاتي منذ تلك الأيام البعيدة، فانا ما زلت أحيا على أمل الرحيل، دون أن أحدد إلى أين. يكفي، أقول في نفسي، أن أوان الضياع، زمن التشرد، وقت الهجرة إلى المحيط أو إلى القمر. وما هذه الأفكار إلا رجوع أفكاري حين كنت أجلس على الصخر، عاطلاً عن العمل، خاوي البطن، فارغ الجيب، أتشبث بالبقاء حيث أنا، كيلا أرجع إلى البيت، وأنظر في عيني أُمِّي الحزبتين، وفي عيون أخواتي الفارغة. غير أنني كنت أعود مضطراً، لأنه وقت الظهر، وينبغي أن أكون في البيت، نقياً لقلبي أُمِّي، وتطميناً للعائلة بأنني ما زلت حياً، ولم أنتحر باللقاء نفسي في آية هاوية.

ولم أكن أسأل عن طعام، كنت أعرف أنه لا طعام، وأن كسرة خبز، وحبات من زيتون، هي زاد اليوم، كما كانت زاد الأمس، وما قبله، وكانت أُمِّي تجهز للتسرية عني، فتخترع قصصاً عن الفرج، وكلاماً عن الرزق، وتذكرني بكلمات الإنجيل: «لا تكونوا كمن لا رجاء له...».

لكن هذه المواعظ لم تكن تزيد سوى في إثارة نغمتي على الدنيا. إنني في النقطة التي أعني فيها ما يجب أن أكون، إلا أن هذا الذي سأكونه ما كان ممكناً بسبب هزالي، وعندئذ كانت تتفجر نغمتي غضباً على الزمن الذي أراد لي أن أكون نحيلاً إلى هذا الحد، وعلى الأب الذي أنجبني بهذا الضعف، وعلى أُمِّي، على أُمِّي وآسفاها، التي عاجتني في صغري وحالت بيني وبين الموت. كنت مخطئاً على نفسي، قليل الحيلة في أمري، فاقد الثقة بإمكاناتي، فإذا كان بعد الظهر، خرجت من البيت لأذرع نصف المدينة الثاني، مجتازاً حي العوينة، إلى الشيخ ضاهر، ومن هناك إلى حي الأميركان، فالبحر، حيث أمشي على الشاطئ حتى السجن، وأصعد من

هناك إلى عين أم إبراهيم، فأبلغ البراري وأتوغل فيها، تندفع قدمي في الطريق، وغالباً في الفلاة، بينما مئات الأفكار، ومن أشدها قنماً، تطوف في رأسي، وتطنّ أصدائها في أذني.

لماذا البراري لا سواها؟ لماذا البحر؟ لماذا الشوارع الخلفيّة للأحياء الشعبيّة؟ ماذا كنت أجد هناك؟ ما هي الأفكار التي كانت تملي عليّ تطوافي هذا، وهي محمولة في الرأس، بينما في الصدر هم ثقيل؟ ربما كنت، في ابتعادي عن الناس، أفكر في الناس، أفكر بنفسي من خلاهم، أفكر فيهم من خلال نفسي. القاسم المشترك بيننا هو الحياة الشقيّة، الخالية من البهجة، المحتاجة إلى أدن مقومات الغيش الإنساني. كنت أمرّ، وربما كلّ يوم، في خروجي إلى الفلاة، بمقبرة الفاروس، هذا الدير القديم الدارس الذي جاءه المعرّي يوماً، وفيه أطلع، من الرهبان، على أطراف من الفلسفة اليونانية، وأنعم لديهم بحسن الوفادة. إنه أشبه بالرابية، وكان رابية مرتفعة، سبيت بالفاروس، وهي كلمة يونانية تعني المنارة، وكان مرأى مقبرة الفاروس، يلتقي في روحي المهابة لا الخوف. ما كنت أخاف القبور، أو الشواهد. وكان يحلو لي، أحياناً، أن أمرّ بينها وأقرأها، وكنت أحسد الراقدين فيها، وأسأل في كثير من الأسى: «ما الفرق بين الصمت هنا، والكآبة الصامتة هناك، في المدينة؟ وكيف يحيا الناس هذه الحياة الرتيبة، المتصلة، المملأ بالشفط، دون أن يفكروا بالانتحار، وبالاتحار الجساعي؟» لقد كنت، آنذاك، قريباً جداً من فكرة الموت، وكان البكاء، وأنا أجلس على حافة قبر، يريح أعصابي، لكن الدمع كثيراً ما عصاني. كان يقف في خائي ويغرقها. يتحرّر في المآقي دون أن يندرف منها، وكنت أخفي عن أمي، وعن أهلي، وكذلك عن ابن خالي، حين اللقاء، ما أنا فيه من حزن، وما يخالجني من شجن، وكيف أهرب من البيت وأطوف في الشوارع والأحياء. كنت أستشعر، بيني وبين نفسي، ضعفاً مشيناً في موقفني هذا من المدينة والحياة، وكان أجدر بي أن أطرح كلّ ذلك الاكتئاب، وأمدّ لساني للفقر، لولا أنّ نشائي كانت بانسة، وكانت جمليتي العصبيّة من الرهافة

بحيث لم يبق بيني وبين التلف إلا القليل.

ولقد أعارني ابن خالي كتاباً يتحدث عن اللاذقية. كان كتاباً تاريخياً وجده في مكتب معلّمه اليكسي مرقص، وقد فرحت به فرحاً غير قليل، وحملته معي حينما طوّفت. كنت أقرأه على البحر، وفي البرية، وتحت أشجار الزيتون مقابل مدرسة بوقا الزراعية، وفي مقبرة الفاروس، ومنه، عرفت عن تاريخ اللاذقية أشياء كثيرة كنت أبحث لها، في فراغ أيامي، عن مواقع جغرافية في المدينة، حتى صار ذلك هوايتي، فإذا قرأت عن الطابيات مضيت إليها، وإذا أطلعت على تاريخ القلعة، صعدت إليها عن طريق جامع المغربي، وكنت أقارن بين ما كانت عليه اللاذقية، حين كانت تحمل اسم رامبشا، وبينها الآن، فقد تطوّرت من قرية صغيرة مبنية على تَلّ صخري، تابعة للمملكة الأوغاريتية، إلى مدينة، فتحها نيكاتور، قائد الإسكندر الكبير، وزارها المتنبي، وفيها حيّ الأسكلة. الذي هو حيّ الميناء، وقد اشتهرت بتجارة التبغ، وكانت له شركة رئيسها إبراهيم آغا أبو بلطه، ومقرّها في خان بيت مرقص، مكان المندوبية الآن.

لم أكن، حينذاك، أدري أنني سأكتب يوماً. كانت هذه المعلومات، وما عرفته عن جغرافية اللاذقية وتاريخها، أشياء للتسلية، وقد نهتني أمي عن كثرة القراءة، في ضوء فانوس الكاز، وخافت على عيني، وكانت ما تفتأ تقول:

— حرام عليك، يا بني، أنت تضع وقتك ونظرك.

وكنّت أجيبها:

— وفي ضائع على كلّ حال.. أم تظنّني أنني أشغله بالصياغة؟

— وعيناك؟

— أسلم ما فيّ عيناك.. إنني أقرأ على ضوء القمر..

— وماذا تقرأ؟

— تاريخ اللاذقية..

— للاذقية تاريخ؟

- لكل شيء تاريخ . .
- غريب . . ومن يكتبه؟
- الكتاب . .
- مثلك أنت؟
- أنا؟ لو كنت كاتباً . اسمعي يا أمي، لماذا لا أعود إلى مهنة الخلافة؟
- فكرت أمي وقالت:
- تريد ذلك يا حبيبي؟
- بل أتمناه . . لقد بدأت بتعلم هذه المهنة فلماذا لا أكملها؟ من الغد أبحث عن بقليلي أجيراً عنده.

لكنني، في الغد، كنت في طريقي إلى قرية «ح» لأعسل مع عائلتي في جمع الزيتون. كان هذا أول لقاء لي مع ريف اللاذقية، ولم تكن هذه القرية التي يملكها بيت «ف» تبعد كثيراً عن المدينة، ودورنا فيها دور الناطور، فأصحاب كروم الزيتون، خشية أن يسرقه الفلاحون، يستأجرون نواطير من العائلات الفقيرة، تقيم كل عائلة في طرف من الكرم، تحرسه ليلاً نهاراً، مقابل واحد بالعشرة مما تجنيه من الزيتون عندما ينضج في الحريف.

الذي رشحنا لهذه النظارة يدعى «أبو نعمة» ولقبه المطعون، وكان يعمل محاسباً، يقوم بتقنين الزيتون المرسل إلى المعصرة ويسجل عنده الأرقام، يقدمها، مساء كل يوم، إلى الشوباصي، وهذه كلمة تركية معروفة أصلها «سوياشي» أعني رئيس المياه.

جرى ذلك بيسر شديد، فبعض العائلات، من معارفنا، يقوم بهذا العمل كل عام، ينظر كروم الزيتون الكثيرة المنتشرة في ريف اللاذقية، وقد سمع المطعون بهجرتنا وفقرنا، فعرض علينا أن ننظر الزيتون كسوانا. كانت النظارة قد بدأت منذ مدة، لهذا تخصصنا بنظارة «البورة» التي يجمع فيها الزيتون المقطوف خلال النهار، ويوزن بعد تعبته بالشوالات، وثاني الجمال فتحمله إلى المعصرة.

قال مصطفى إقبال: أن غنى الغرير دون ثقله، وهذا ما فعلناه. استدان
 الوالد، لا أغري، من، حصص الغرير، الشربيا بها كيا من الطحين، وهذا
 كل مزونة، وأن، بعد الطهر، بعبه مطير، وضعا فيها بعض الحاجيات:
 فرشاة صغيرة، وساطين، ومطهرة، وملاعق، وشيشة من الشرع الذي
 أحضرناه معنا من إسكندرية، وبعض الطير أمسا، بعبه من عجوز، يسير
 القوي، وسربا بوزنه، في أول رحلة إلى الأرياف بعد الهجرة.

الواقع أن والدة رافقت على مفضل، وافقت لأنه لم يكن لنا خيار،
 فحين خاطبونا من العمل، وليس لنا مورد، وانظار الفرج ظالم، ولنا أمتعة
 بالعائلات الصغيرة المثلثة. عبر أساء، بما سبق وعاشنا من الشدة في الريف،
 لا سيما في قرية الأكبر، قبل استقرارنا في المدينة، كما كمن لدغ من حجر،
 ولا نريد، ألولا نريد البوالة، أن تكون اللذعة الكلبة الخالقة، عينا
 لغضب، ما دام العمل قريبا، في قرية نعد في الطواحي. وما دام ذلك لن
 يدوم سوى شهرين إلى ثلاثة وينتهي بانتهاء موسم الزيتون، ثم إن الحاجة
 للذهاب إلى الحميم لا إلى الريف «رحته»، فالزواج هنا مؤقت، وسيكون لنا
 العشر، بعدا متوقفا على قننا، واجتهادنا، وأفضل ما نقوم به عائلته، نعد
 حبس القصر، أن نجمع الزيتون، إضافة إلى حراسة الوالد التي لها أجرها
 المستقل، وهو أمر بسيط، لا يذكر، لكنه أفضل من لا شيء.

مع ذلك قالت الوالدة وهي تبكي:

— أرجو، يا سالم، ألا يكون هذا الخروج للعمل في الزيتون بداية لشدة
 جديد.

قال الوالد:

— وكيف يكون لشدة؟

— لا أغري، لكنني أخاف التجربة، المحكوم بالإعدام بخلاف من جز
 الحين.

انتروالدي، سريع النزق، وقال:

- إذاً نظري هناك، وافتح الكواليتا للزيج .
 - أما كان بالإمكان أن تجد عملاً مع أهلك في الكازينو؟
 - ومطلقاً أفعل ؟ ما زلت أبحث ؟
 - ومطلقاً فيه ؟ كله عمل .
 - أنا في ميسي .
 - ستعود إلى بيع المنك ؟
 - بعد عودتنا من الريتون .
 - يعني نعود إلى بلعة إستكفرومة ؟
 - فصاح .
 - وما لها هذه الغيرة ؟ ألم نعيش مع بيع المنك ؟
 - نحن الخادمة في بيوت الناس .
 - على العاقلة أن تصبور .
 - لكننا هنا لم نجد . لن أرسل بناتي للخادمة في اللادقة .
 - قال الوالد مدبراً .
 - لدينا الوقت لبحث هذا الأمر . أنا مثلك لا أريد . دعينا نذهب لجمع
 الزيتون ، وحين نعود يفرجها الله .
 ذهبت كلها طلت الوالد ، كان خروجاً من المذبة أشبه بالزيج ، وكنت
 نعى ما ماريحون . فالأرض السبية غدت بعيدة الآن . والحجر الذي كان
 في موضعه نظراً قد غرقته يد قاتلة فالدفن السقط بين الشوك والعلث .
 الشمس قبل أن تستأ في القبة الزرقاء العالية ، والقصر التوهج لشخص
 أطرب يد أعلى ورساً . ومن حول ، ونحن نبع الطير المحمل بأمتعتنا ،
 كانت المذبة تحلق في عيون ساردة ، فتأتي نظراتها وتشتت على جسمنا .
 كانت الآلية ، والشرقات ، والآلية ، والأرضة ، والدكاكين ، وعثوباتها ،
 والصحابة . وزناهم ينظرون إلينا ، وكانت في عيونهم نظرات تساؤل داكنة ،
 محايدة ، لا قتالية ، كأنما هي نظراتهم وجنارة قر ، وخلقتها جمع قليل من أهل
 العفيد .

كان النعش عملاً على الطنبر، وكنا نحن المشيعين، وأقرباء الميت، وما كانت دموع، ولا شعور محلولة، ولا ثياب سود، لكن الموكب، في صمته، وإطراقة السائرين فيه، وانكسار نظراتهم، والوجوم الذي يلفهم، يعطي الرحلة طابع التشيع، ويجعل خروجهم من المدينة باتجاه الريف، مثل خروج الجنائز باتجاه المقبرة، مع فارق واحد، هو أن الميت له قبر، والمقبرة لها مكان، والمشيعون يعرفون أنهم سيعطون عزيزهم للأرض، في حفرة معينة، ويعودون، بينما نحن لا نعرف الريف، ولا القرية، ولا طريقة النظارة، أو كيفية جمع الزيتون، أو طول الرحلة، ومدة الغياب. كنا خمسة أشخاص مسلمين للقدر: الوالد، الوالدة، أختي الكبيرة، أختي الصغيرة، وأنا، وكان في استسلامنا نوع من الخطو القلق، في عتمة تقود إلى مجهول، وكلّ منا ينطوي على شعور بالإهانة، بالمرارة، بالكراهة للعبون الحجرية المحذقة بنا، ويتجلّد كي يتحمّل وخزها، منتظراً بشوق، ونفاد صبر، تلك اللحظات التي نخلف فيها المدينة وراءنا، ونلقي بأنفسنا بين ذراعي الريف، ونخل بيننا وبين الشمس والهواء والخضرة، ونرى أمامنا، على مدّ النظر، الفضاء الرحب، والدنيا التي تستحمّ بشمس الأصيل.

خرج الطنبر عن الطريق العام. تبعناه، مضى في درب وعرة، تبعناه أيضاً. وبعد أن دخل بين أشجار الزيتون، تلتفتنا إلى وراء. دارت عيوننا فيها حولنا. كانت المدينة قد ابتعدت. كُفّت عيونها الحجرية عن دقّ نظراتها في أجسامنا. مرة أخرى، بعد سكّنى المدينة أعواماً طويلاً، نجد أنفسنا في الريف. ونلقى الريف يتعوتنا برفق، وتقوم، من اللقاء الأول، ألفة بيننا، ويتبدّل شيء ما في الجوّ المحيط بنا: الشمس نصبح أبيض، والهواء أبرد، والضوء أقلّ كثافة، ولزوجة البحر تنأى، وحوار ما، صامت. مربع، مفرج. يقوم بيننا وبين الكائنات، ثم يقوم بيننا وبين أنفسنا، ويتخطى ذلك إلى الكلام، ولا صوت بين أحدنا والآخر، فنشعر بالخرية، بالخفة، بالخطئة، ونفارقنا مسيرة الجنائز والمشيعين. ونأخذ، شيئاً فشيئاً، صفة الرحلين في طلب عمل، ملحقاً، مأوى، وندخل في ثوب الطبيعة، ونحسه

طازجاً، نظيفاً، مبهجاً، كأنما استحممتنا، لثونا، في ماء بارد لينبوع على الطريق، وتواصلنا مع الله والملائكة وصار قدرنا أقل جبهة وقتاماً.

كان «الطبر» يسير في المقدمة، وراءه الوالد، فالوالدة، والأختان، وأنا الحق بهم على مبعدة، حريصاً على ألا أكلم أو أنكلم، قانعاً بهذا الانخلاع من المدينة، واضرب من عيونها الثعبانية، والارتقاء الروحي في فضاء واسع، والاسترخاء بعد طول توتر، بفعل الهجرة من اللواء.

هنا، في البرية، لا أحد يملك قصرأ أو كوخأ. نحن والآخرون سواء. وهنا لا أحد يملك عملاً كبيراً أو حقيراً. الدونية التي فرضتها المدينة على مشاعري انتفت. أنا أعرف أن هذا الانتفاء لن يطول، فنحن، في الحقيقة، لسنا إلا أجراء، لكن مسافة الطريق، بين اللاذقية وقرية وح، أعطتني إحساساً بالشخصية، كما أعطتني المسافة بين إسكندرون واللاذقية إحساساً بعالم مستقل داخل الأتوبيس الذي نقلنا. إن هذا الإحساس بضالة الشخصية، وأحياناً ضياعها، سيظل يلازمي في المدن الكبيرة، وليست إلا الألفة في هذه المدينة أو تلك، هي التي خففت من هذا الانعدام للكيان، وحقت بعض التوازن الذي بفضل عشت، وتلاءمت بعد سنوات طوال من الإقامة الدائمة.

كانت الأم، وهي تسير خلف الوالد، ما تفتأ تنقلت إلى وراء. كان بها خوف دائم زرعه الغربة، والتشرد وفقدان الضمائية، وأحسب أن هذا الخوف انغرس عميقاً في ذاتي، وهو الذي كان وراء مشاعر الانتفاء، والتوجس، والقلق، والاكتئاب التي أحس بها، وهو الذي صار مع الأيام إعياء نفسياً، كافحت ضده عسري كله. لقد كانت حربي مضاعفة. مع مجتمعي. ومع نفسي، وكثيراً ما اندفعت في المعركة الخارجية، ضد فرنسا والاقطاع، ونجحت في أن أكف الخوف، وأمثلك الإقدام والحماسة اللازمتين للنضال والكتابة، ملفياً بجسدي دون تفكير بالعواقب، لكن حربي ضد نفسي، ضد إعيائها، وخوفها، واكتئابها، فقد كنت أنتصر فيها مرة وأهزم أخرى، لكن الحرب استمرت. وإن الخوف، داخلياً، موازياً

للظلم خارجياً، ولعلهما اندغما في واحد تعدّبت في مقاومته عذاباً لا يطلق.

خوف الأم كان على العائلة، انبثق مرة وإلى الأبد في ليالي السويديّة، حين كان الأب برحل، ونظّل في البستان، وسط اللصوص والحيوانات المفترسة، وهي، الأم، من أول الليل، تغلق الباب، في الكوخ الطيني وتضع وراءه بعض الأعمدة، وتظل متوجّسة، موسوسة، متوقّعة في كل لحظة أن يطرق الباب، أن يفتح، أن ينقب الجدار، أن تفتح كوة في السقف، وأن يأتي منها اللصوص ويخطفوا أحد أولادها، أو ينجح ضبع ما في كسر الباب والدخول علينا فينشب أنيابه فيها وفينا.

لذلك كانت مروّعة دائماً تدور بنا، وحولنا، مستطلعة، متفكّدة، سائلة ربّما أن يدفع عنها الغائلة، ويحمينا من الأذى الذي لم تكن تعرف، أو تلك، طاقة الثوب عليه، فهي تدرأه بالأدعيات، والندور، والخذر والسهو، وكل الدفاعات السلبية التي في تناول يدها، معبّرة عن خوفها بلسانها الواجب الذي ما ينفك يتضرّع، يستغيث يتشفع، وبالصلاة، عند المغيب، أمام المسيح المصلوب، أو أمام العذراء، ونحن وراءها وهي تضع منديلاً على رأسها، وترفع يديها إلى ربّها، في خشوع كامل، صائحة: رب، يا يسوع، يا مريم، استروني، لا تفجعوني، احموا صغاري هؤلاء الذين ليس لهم في هذا القفر سواي.

وكان خوفها من المجهول بتضاعف وهي في الريف، وبلغ عليها إلحاحاً مرضياً، وقد خيل إليّ أنها اليوم، ونحن نسير وراء الطنبر، قد عاودها خوفها المرضي، فهي تحسب حساب الليل، وما فيه من ظلام وربة وأعداء، وتفكر بالكوخ الذي سنقيم فيه، والكرم الذي سننظره، وأشجار الزيتون التي تتحوّل في العتمة إلى أشباه، لا تلبث أن تنقلب إلى وحوش ولصوص تنقض علينا ونحن في الغلاة.

كانت تغلّت إلينا، وهي غشي مجارية الطنبر في سيره، وتوقّف إذا قصّرنا، فتحثنا على السير، أو تقول شيئاً مفرحاً، بغية إزالة الوحشة التي

نحسّ بها، أو تسأل، هذه الأخت أو تلك، عن الأشياء التي جلبناها معنا،
وتشير إلى أشجار الزيتون قائلة:

— ما أنقل حملها المبارك.

ويرد الوالد:

— الموسم جيّد ما شاء الله.

— سيكون علينا أن نجمع كمية جيدة.

— الكرم أمامنا، ونحن وشطارتنا..

قالت أختي:

— سأكون الأشطر بينكم.. غداً ترون..

قالت الأم:

— أنت دائماً الأشطر يا حبيبتي..

— أما أخوك، أضافت الأم، فسينبر^(١) لنا الزيتون.

قلت لأفرح أمي:

— سانبِر وأجمع أيضاً..

قال الوالد

— سأنتقي لك مرواطاً^(٢) متيناً وخفيفاً.. وسأساعدكم في النهار، حين لا

تكون هناك نظارة على البورة.

قالت الأم:

— سنتساعد.. الله بارك بالكثرة.. ما دام القلب على القلب فإنّ العذراء

معنا..

بعثت هذه الكلمات الانتعاش في القافلة الصغيرة. أحسنا، الآن،

أننا على ما يرام، وأن الرحيل إلى الريف ليس فاجعاً كما خيّل إلينا.

وشدّدت كلمات الأخت من عزائمنا، فغداً خطونا أوسع، أوقع، أجراً،

(١) نبر الزيتون ضربه بالمرواط ليهرّ على الأرض.

(٢) المرواط قضيب طويل من التوت أو غيره.

وتبسم أحدنا للآخر، وتبسم الكون من حولنا، فكان أصابع غير مرئية قد
 مست أفئدتنا، فهي الآن مشرحة، منطلقة، مندغمة مع ما حولها، والنور
 الذي يشع من الشمس المائلة باتجاه البحر، قد أضاءنا من الداخل، رسم
 علينا تعويذة المسرة، والفضاء الرحب قد رحل بنا عبر الأمداء الخضراء من
 حولنا، والرياح الخفيفة، الرهوة، ريح المساء، في الحريف هذا، قد أحيت
 ما ذبل من أوراقنا، فاحضر شيء ما فبنا، والتمع، كما أوراق الخور، في لونه
 الفضي، وتشكل، مع ذهب الأصيل، فصار مبنا للوحة عنوانها: «قبل
 الغروب.. في الريف»..

حتى البغل المعجوز، الذي يجزّ الطنبر، استشعر بهاء الأصيل، وتمتع،
 على نحو ما، بالبرودة، وبالجوّ الذي ينبئ بالراحة ويسبقها، فانطلق على
 رسله، وكفّ صاحبه عن الصباح، والتلويح بالسوط، ومزّت عصافير
 صغيرة، سوداء المناقير، فوقنا، منطلقة من الساحل إلى الجبل، تحوم في
 الفضاء، راسمة أشكالاً جميلة من الدوائر والمستطيلات، مزققة وهي تنقل
 بين شجرة وأخرى، ودغل وآخر، وبدا في البعيد، على خاصرة الربوة
 المغطاة بخضرة الزيتون، دخان منبعث من تنور، وجاء عواء كلب يعود مع
 القطيع إلى القرية، وهفت علينا رائحة خبز تنوري شهية، فخالطها رائحة
 القطيع الذي مربنا، وتقاطعت في السماء الصافية تواسيح ضياء، وهبطت،
 شيئاً فشيئاً، سكوناً على قلوبنا.

وصلنا أجمة حور، اجتزنا ساقية على كنفها حديقة فيها برتقال، وفيها
 بيت ريفي جميل قال الخوذي إنه ملك بيت «ف». أشار بسوطه إشارة
 شملت الجهات الثلاث التي أمامنا قائلاً: «كل هذا ملك بيت «ف». كانت
 ثمة، حيث أشار بيمينه، أراضٍ لا حد لها، تتخللها بعض الروابي، وكلها
 مغطاة بأشجار الزيتون الخضراء اللطيفة، التي تتدلى أغصانها من شدة
 الحمل وكثافته، وكانت التربة، من تحتها، محروثة، وأثلامها ظاهرة،
 والشوك فيها كثير، وبينها شجرات تين، أعطت ثمرها، ولم يبق عليها منه
 سوى حبّات قليلة، ضائعة بين الأوراق التي مع احتفاظها بالخضرة أخذ

اللون الأصفر بيرقشها.

طالعنا مفرق تمتد منه درب مساعدة نحو الرابية ذات البيوت الفلاحية القليلة، وبينها «قناق»^(١) للسادة أصحاب القرية، بقرميد أحمر، وطابقين، وواجهة حجرية، وباب عريض، صالح لمروور الدواب، في الفتحة الموجودة على أحد مصراعيه، كما هو صالح، إذا فتح على سعته، لدخول سيارة أو عربة حنطور. وقد ذكرني، فوراً، بباب البستان الكبير، الذي عملنا فيه أجراء عند السيد خريستو، عقب هجرتنا من قرية الأكبر إلى قرية «قره أغاش» في ضواحي إسكندرونة. فقد كانت ذكرى ذلك الباب، وما يفتح عليه من حوش كبير، وما فيه من بيوت، وأحصنة، وبقر، مائلة في ذهني، تحكي عن طفولتنا الشقية في ذلك البستان الذي يجاور القبرة الفرنسية.

رؤية القناق بعثت في شعوراً بالانقباض. ليس لأنها ذكرتني ببيوت السادة الذين خدمنا عندهم فقط، بل لأن تصوّري كان قائماً على أننا لن نلتقي سادة في هذا الريف، وسبخل بيننا وبين الأرض والزيتون، وأن بهاء الطبيعة لن يسيء إلينا منظر يذكر بالفارق الاجتماعي بيننا وبين الآخرين. حسبت أننا سنسكن البيوت على الرابية، أو حوش السيد، وأنا سنكون تحت أنظارهم ليل نهار، وأن الوالدة والأختين سيشتغلن، كره أخرى، خادما، وأن العزلة التي أرغب فيها، بعيداً جداً عن الناس، لن تتوفر لنا، وهذا ما ألقى ظلاً من الخيبة على صورة الريف كله، وما جعلني، لدقائق، أعود إلى تلك الحالة الأسيفة التي كنت عليها في المدينة.

غير أن الخوذي سرعان ما قال لنا وهو يؤشر إلى القرية:

— من هنا مفرق «ح»-

سألت الوالدة:

— سنمرّ بها؟

(١) القناق: القصر الريفي.

أجاب الوالد:

— لا شغل لنا فيها.. إنما نحن نواظِر زيتون، وسنبقى في الكرم..
نحرس البورة..

توقّف الطنبر ريثما سألتنا عن المكان الذي نقصده، وبعد لحظات عاد
الوالد قائلاً:

— من هنا.. من هذا الدرب الضيق بين الزيتون.. وصلنا.. البورة في
قلب هذا الكرم..

عرج الطنبر على الدرب الضيق، مخترقاً صفوفاً كثيفة من أشجار الزيتون
الهرمة. كنا نتبعه على مبعدة مؤطرين برائحة زيتية، وبكيفية خاصة
للغروب، وبزقزقة العصافير، وكلّها من الدوري، تنطلق في حركة صحابة
بين الأشجار، باحثة عن مبيت، مترددة في الانتقاء، هائجة فرحاً كخلية
نحل في الربيع، وحرافص تطير أمامنا، وشيء ما، كالحسيس، كالمهممة
الخفية، كحركة تنفس، تنصاعد من الأرض، فيما الظلال الطويلة،
المشابكة لأشجار الزيتون تفرش نفسها بساطاً تدوسه الدواليب الحديدية
للطنبر، وتطأه أقدامنا، في سيرنا البطيء، المستطعم، باتجاه البورة حيث
سيكون علينا أن نبيت، وأن نحرس الزيتون المكوم بياذر عليها.

كان الوالد يتقدّمنا، الأم بقيت بيننا، ساد صمت فيه توقّر، كان التوقّع
بعكّر ابصارنا الراحلة عبر الكرم. هذه هي أرض الحجرة الجديدة، هنا
سنقيم، وننظر، وننبر الزيتون، ونجمع حباته، بأصابع فتيّة، رشيقة غير
معتادة على الانغراس بين المدرات والشوك، لكنها عجيبة أن تفعل، وعلينا
أن نتقبّل واقعاً لا حيلة لنا في دفعه، ومن الأفضل أن نتلاءم معه، ونحبه،
ونعيشه بغير تذمر، أو نكد يزيد من الشقاء الذي تكابده العائلة الصغيرة في
حياتها الريفية الجديدة.

في فسحة من الأرض، خالية من أشجار الزيتون، سُويّت على شكل
باحة، كانت البورة التي نقصد. لم تكن كبيرة جداً، وليس فيها أبة تسوية

ترابية، والعشب النامي على حوافها كان يابساً، وثمة، على جوانبها خيستان أو ثلاث، وفي وسطها يرتفع الزيتون الأخضر، المرقط بحبات سوداء، كجبل، أو كتائب رملي، تفوح منه رائحة زيتية حادة، ويتنفس حرارة منبعثة من جوفه، يُحسها من يقترب منه، حتى إذا دسّ يده داخل الزيتون، أناه ما يشبه اللهب الهين، وهذا هو السبب، كما علمنا فيما بعد، في حرص العاملين على البورة ألا يتأخر نقل الزيتون إلى المعاصر، لئلا يتأكسد الزيت الذي في حباته، وتسود الحبات أكثر فأكثر بفعل هذا التأكسد.

توقف كل من على البورة عند وصولنا إليها، ردّوا تحية الوالد، برفع أيديهم إلى رؤوسهم، حيثهم الوالدة بلطف شديد، بينما التزمنا، شقيقتاي وأنا، القسست، وهرعنا، منذ توقّف الطنبر، إلى إنزال أمتعتنا من فوقه، ونقلها إلى فيء زيتونة معمرة، بانتظار أن يبت في مصيرنا، وتحدّد لنا الإقامة، ونعرف تحت أية خيمة سنسكن. كنا ما نزال نمارس شعوراً بالغربة. وكان الجوُّ كله، في القرية، والبورة، والنظارة وجمع الزيتون غريباً علينا، وكان الوالد قد ذهب إلى الوكيل يستفسر منه عن الترتيبات التي علينا اتخاذها، قبل أن تغرب الشمس، وكان الوكيل، الذي يشرف على القبان، منهمكاً بالعمل، وقد اضطّر الوالد إلى الانتظار، وخلال ذلك أشعل سيكارة، بينما عادت الأم إلينا، ووقفنا جميعاً حول أغراضنا، نختلس النظر إلى ما حولنا، يلازمنا شعور بأننا في العراء، وعطّ الأبصار، وأن من الأفضل الإسراع بدخول أية خيمة، حتى نشعر بالاطمئنان قليلاً.

أعطونا شادراً لتنصبه في الجهة الفارغة، التي علينا أن نحرسها. كان المكان على حافة البورة، في سفح رابية. وقد هرع رجلان لمساعدة الوالد، وانطلقا يسويان التربة، تحت زيتونة ضخمة، سوداء الحب، واندفعنا لإزالة الأحجار، من الأرض التي يمهّداها، واقتلاع الشوك، وإزالة الأعشاب، ولم يستغرق ذلك كلّهُ إلا قليلاً، ثم رأينا الرجال بفردون الشادر، ويربطونه في الزيتون من أعلى، ويدقّون أوتاداً من الجوانب، وبعد ذلك شدّوه بالحبال وفرشنا حصيراً فيه، وشرعنا بنقل أمتعتنا إلى داخله.

ثم كل ذلك بسرعة، وبعد ضوئه داخل حيثما التفت إليه، فالتفت
بالراحة، وطلب الولد فجأة من الفهود، وأوضح للوالدة أن عليه أن
تعمل تارة صغيرة هذا العرس، فخرجت أمع عيونه الرجوع إلى
ولادة الشعر، ووجدت متعة في ذلك، فقد فتحت جانبا إلى العمل، وإلى
العمل العضوي، وكان منظر النار، في الليلة، يضيء، وهذا هو السبب في
أنه أحببت شدة، حقا، صور، وفيرت، بعد معاناة الحياة التي أتت
منها الرجوع، أن أحفر الأرض لأصبح متوقفا، وحدث ثلاثة أشخاص فحدثت
الوالدة، وأتممت هذه الشعر، وألفت عليها العبدان، فظهر إلى والدة
متسلا، ومتشعما، وأخرجت الأم بركوة الفهود، فترأت الفرحا على
لسانها، كأنها لم تكن تتوقع أن يكون كل شيء على ما يرام بهذه السرعة،
وأن نجد الترحيب من الوكيل، والمعونة من الرجال، وتصبح لنا حبيبة،
ويكون عملنا في البيرة وما حولها

الآن استعدنا العافية، كانت عافية نفسية، وكنا بحاجة إليها، لتتحلص
من شعور الطاقة المفقودة، والتي لعدم، والاكساي كان علينا أن نصح
نحن من جديد، ونملك إرادة حياة التي فقدنا كثيرا من مقوماتها في صغرتنا
وفقرنا ولحزنا في أحياء المدينة بحثا عن بيت نكس، صلو الال في وسعنا
أن نكتب على ظهر العمل، وكان في هذا الكتب اقتضت كسبه، لكن
الأخبر كانوا مثلا، وقال الله، بالنسبة إليها، أن بعد موضوعا لرؤوسنا،
وخصلا لأبدنا، وأن يكون على يقين، منذ أن بدنا أن للفتنة ضلوت
مزمكة، وأن ما يتوقف عليها نجاحنا هو الجهد البدني، ودرك أن نتاح في
الأمر، كان العزم بقدرنا ونفهم، ولقد زدنا أن ياتر العمل منا وقبولنا
لولا أن الوكيل، الذي شرب فبهوله معنا، تصحنا بالشرية حتى الصباح،
وقال للوالد:

— أنت تفر معي على البيرة، حراسنك، عدم المواجهة، في قف
البعاء، والعائلة حرة في أن تفقد الساحة التي تزيدها من الكرم،
وتسوف أرحمتها، غدا، إلى منطقة كسبة العمل بهذه القوة، وسنسير

الأمور على أحسن ما يكون .

قالت أمي :

— نحن لا نعرف كيف نشكر الله يا أبا نعمة .

وقال الوالد :

— نحن هنا بفضل مساعدتك . وستكون عائلة واعية .

— ليسوا مطمئنين ، الحراسة هنا شكلية . هذا ملك بيت وف ،

والشبهه ، أبو استكنو ، يقطع ظهر من يجروا على الاقتربات منها .

سالت أمي لكي تطمئن علينا :

— إذن لا خوف من الحرامية .

قال أبو نعمة :

— الحرامي ، يا أمي ، يمكن أن يدخل طرف الكرم خلسة ، ويمسك حفنة

من الزيتون الأخضر ، ياكنها ، عدم المواجهة ، مع عياله ، أما السرقة من

السرة فمعني السطر . ونحتاج إلى سلاح ، وإلى رجال . فمن يجروا على

الإقدام عليها ؟

وقال الوالد :

— تحسب الرزق دأشراً ؟ إذا قلت بيت وف ، قلت الحكومة ، فمن يجروا

على سرقة الحكومة ؟

قال الوكيل وهو يصطحب المطلوبة :

— الجواصة هذه موكلة . إذا دخل السراي ارتفعت تحت الكلدانة .

وقال رجل يقف إلى جانبه :

— هذا هو العز .

قال الوالد :

— ولا عز بيت سمرق إذن ؟

— أي سمرق هذا ؟ قال الوكيل ، أقول لكم بيت وف ، هذا يعني ، عدم

(١) دأشراً : ذليلاً

المواحدة، محمد، وهما، وسام، والملاك. قل هذه القرى قسم

سألت القردة مستعربة

- وقالها ريتوناً

- الزيتون يعطي هذه الأحقاد - غناج الإنسان إلى أسود كئي يقطعها

شيئاً - والبقا أراضي فلاحه، مخصصة للحبوب، وللقمح خاصة

قالت القردة

- المعطي هو الله

- نبارك الله - سأله وأعطى - قال لهم خذوا

كنت الله في طرف مختلفة، السبع، ولا التكلّم. كنت لهم قنطرة على

الكلام بوجود الآدم كذا لتسهم الواحد، وكان ذلك، لم يجرى، ومنه

وجنونا، يعني العدا، قطع الراف، إخراج العائلة. لقد كانت الواحد

السطر إلى سوسة من طرف حزن، فكرت حشري، والرحمة طرف

العائلة، وفام في عني ما يشبه الصراع بين ما أسمع وما أسمع. فحنت

بيت هذه ملوكاً، أفراد، قوي مكانة، قيمة، متفلة، وتصورت الحيوان

وهو حمار. بهذا الخطر، الأرض، لكني ذكرت أن القردة السابعة، في كل

هذه الملكية، قد كتبت هذه السهولة.

نظمت إلى الحكمة. نشدت الوحدة لأنكم قد سمعتم. تركت العائلة التي

تصغرنا الوكيل. أي من حزب بيت «أ» الوكيل من حزب بيت «ب».

أرجال الذين يعملون على الثورة يتسبون، مثلهما، إلى عائلات، كل عائلة

حزب، والكتلة الوطنية تجمع عائلات، ومقابل بيت «أ» وبيت «ب» هناك

بيوتات، الأحزاب، وفلت في ذلك يعني - «أنت من كئي حزب يا ولد»

وأجبت على تساؤلي - «أنت لست من هذه الأحزاب، لأنك لن تكون والله

أنتي من هذه العائلات. أنت لم تصح عضواً في أي حزب، تعرف شيئاً

واحد؟» فربما تحفل سرورية، إنك هي عضوة، والإقطاع حثيث قريسا، إنك

هو عدو، وبغلاً، اللائقون الكبار ضد الفقراء، بلان هم أعداء البطام

وهذه الأدمار عرفت في إسكندرية وقالوا لك إن ما حراً هناك. لكنت،

في اللاذقية، لم نفع له على أيها الكر.

كانت الشمس قد لمحت، كثرة الجوز، صارت له طراوة خاصة، عذبة،
وتغطت الأرض بالحاء والكتة، وثقت السبل الرائحة طيبة، وبعتت الحصىرة،
التي تروى على منظر، شمساً حلتاً في الجوز، وفي طرف الأفق، في المكان
الذي رحلت إليه الشمس، كانت عذبات قمرية، وفي الفتحة السحابية،
سماط كبير، سماري، مقعر، والنور الذي يسيل، يجلي مكانه للنعمة.
لست لا أستطيع، في تلك لحظة، أن أرى كيف أن الليل يولج في النهار، لكنه
يعمل، ويصور أشجار الزيتون، وأنت تنظر إليها من الرابية، سقفاً لا حيداً
لست، سقفاً من الأشجار الرصاصية، الداكنة، المشددة في صفوف لا
تنتهي، وأظلمة تلتصقاً رويداً رويداً، وفي ما في السبل العالية، يرقب
الأرض، ويحمي نظيره، نصي، في الأبعاد، في الأعالي، وسكنة رائعة تغمر
لشجر، في الجراس الحمال، كالواقف في الأديرة، ترون وتقترب، قاصدة
البورة لنقل الأحمال الأخيرة من الزيتون في هذا اليوم.

أنتم بؤس الإنسان لو يسى نفسه في وقفة ما مع الطبيعة، في مساء
صيفي، والثنية من حوله انتهت، والفصيص يتكلم من داخله، كأنما يتأخى
القد، ويبحث عن أجنة الأثير للهالات لم تحسج لها الفصيص بعد. هذا
التوجد يكون حين لا يكون في الحياة طمأنينة، أنت حائف من شيء ما،
لعله فقدان العمل، أو السكن، أو القلعة، أو الثوب، أو هدية العيد، أو
الغربة، أو الله، ساطة، الشعور بالفراغ، أو تقدم العمر أو الموت. لكنك
أيضاً تشعر بالقلق لسبب مجهول، وعندك يكون لقلقك سبب مرضي،
منشؤه الحساسة المفرطة.

في تلك الليلة الصيفية، الأولى في قرية «ج»، وعلى صورة الزيتون،
صارت غريبة بالنسبة إليّ حين التحلل أو عوسجة الشوك. كنت متوخداً،
معرفة، موصولة مع النلا الأعلى، في شفافية بهية، لا أريد معها شيئاً، ولا
أفكر في شيء. كل ما في الأمر أن اندبنة بهظني، وهنا، على هذا المرتفع،
أريد لتريح أن تدخل جوفي وتظهرني، أن تسقط كل الأوراق الذابلة قبل
الأول، كي تابت حول الضلع أوراق جديدة، خضراء، نظرة، طازجة،

فإنما لأن القدر أفضت عن العمل بينهم كثير، وعزيمة حديدية، فألفه، لشدة
 حواري إليه، أريد أن أكتبه، انقطع، أنفلاً به جوتي ووراني وحبي، أريد أن
 أعبه حيا لنظري على معاً بالحياة والنشاط العمل العمل العمل ما
 أعيد هذه الكلمة وأقديها، وما أحيها حين تكون عاطلاً، وما أشد عاقبتها
 حين تكون في قلب المعركة لتحقيق ذلك على نعم ما .

كانت الزينة التي أقد عليها لطل على شروم الزينون من كل عهدة .
 كانت مرفاً بالنساء لما أعتها، لكن الأرض، من الجهات الأربع، محبوبة
 بالاشجار، بحر من الورقة الدالة، نرا به رؤوس نحابة رصاصية كأنها
 الكوم وسط محيط ساكن له .

العرف التي سألني بضي، منذ القدر، في هذا المحيط . تلك فرحة
 مضجرة، وانتظار أن أعتها لعل، استعدت نوازل . قلت في نفسي : وهذا
 قد صار لي عمل أخيراً . فكوت بالندى، بالعالم، بالبحر، بالطلعة،
 وبخبرات في بحر الأساطير التي قرأتها . كانت هذه الأساطير تطوى على
 عتبات هذه الإسناد . وكانت هذه العتبات تسرج من الحكم بعدم
 الموت، أو عدم الموت، أو الحسن الاقتراف، أو القبح إلى تلك بعد، يوث
 فيه القبح بعيداً عن وطنه . لقد عشتها، من خلال القراءات، وأحسنت لها
 فيها من نسوا بالقدر، لكن الحرمان من العمل على النعم الذي كانته في
 اللامتناهية، وما أله في نفسي من شعور قاتل بالفرح، كان أقوى تلك
 العتبات في نظري . لذلك كرهت الراحة، ولم في أختها، وباركت حمالة،
 التي جعلت أدم يخطو، . ويوطئ معها إلى الأرض، حيث العمل والكفاح .

فكرة العتبات دحناً بمساعدة من سطح الزينة . كان ذلك دخان ناز
 أعتها الواقعة على طرف البوابة . كان وعدها، في عشر النساء، بضي
 نظمة فقط تشغل على سطح البحر، ومن حولها الظلمة كهوف، على
 حوائها تكسر الأوبار التي تختل في شعرات الموج نوراً مبطية . تلك اللوحة
 في عتاة الليل، والدخان المتصاعد منها، والفقر المرفوعة على الموقف،
 واستعداد العتبات الموثون، كل ذلك وضعني، مباشرة، في قلب الرضا . لا

قوية جداً، لا يموت، لا مائتة، غابة ونبوت من الحياة الأطراف، ونحن
وسطها، مضعة رجال، ويضع لسان، وقلب، وقافلة مقيمة، حمالاً وكعبة،
تحت طعنها، والرجال يملأون لغزات كثيرة بالزيتون، ينقلونها إلى القنان،
ثم تحمل على الحمال التي ما تلقا بين أعتاقها قهقراً الأجراس النحاسية
الصغيرة، الصغيرة في هذه المساء، كأنما نساء تير يدعرو رجالة إلى صلاة
المغيب التي تشترك فيها الأرض وما عليها.

كل هذا ملائي بهجة خلوة، أواب عن قلبي شيئاً ما كالدعوى، كان يتفجع
على الخلد فيض السام ويهيج نفسها، قلبي مضعة لحية تحررت من أسرار
الضهر، اعتسلت بالصبايون وتطهرت بالزيتون، روحي غدت طليعة،
شمس يني تسبح الدم يسبح في المعروف عبداً الدرة كلها، ربما سرود وجهي،
ورقة نهلت أساري، ليس لدي مرأة، لا مرأة في هذه الغابة، قد تكون
لدي أختي واحدة صغيرة، لكنها غرض سائي خاض، أنا رجل برغم أنني
أزدي بظلاً قصيراً، ليس لدي السطال الطويل، لا أملك ثمنه، الوالدة
تعرف، لاحظت ذلك، لكنها لا تملك هي الأخرى، هذا زمن الصيف،
الصيف المذوق، الحمام لا يقف على الزيتون، رأيت الدرع، والزورور،
والعصافير الصغيرة، لكني لم أر حماماً، لو وجد لكان هديله يأتي من بعيد،
كان شحوة، يملأ الخمر، ولشارك في صلاة المغيب، كان مسجد كالنفس،
واستراح من تعب النهار، واستسلم مثل هذه الضيقات الرائعة، وطار حاملاً
غيتي إلى بعيد، إلى امرأة أحسها ولا أعرفها، أريدها ولا سبيل إليها.

لماذا فكرت بذلك، في وفتي تلك على الآية؟ لقد استيقظ المراهق الذي
في حسني صباه، أنا فرح، أن من الطبيعة، المرأة رمز الطبيعة، عواها،
لذلك هي الفرجة، وهي فرحتي اشتقتها، تحبها وتحبها عليها.

كنت، في تلك السن، أعرف المرأة في الحلم فقط، في النهار أعود إلى
الواقع، أدرك عزو حلو حتى أن ليس من امرأة في هذا الوجود عيني، أنا
قريب إلى حد الإملاق، بالنسبة إلى درجة العاسة، وليس لي أن أحلم،
حقيقة، حبيبة، لكن الليل ما يكاد يقبل، حتى تعنادي أحلام داعرة،

وحتى تسيطر الأنثى على مشاعري، فيستيقظ بها ما كان مكبوتاً. وكان كل هذا طبيعياً جداً، ما دمت في سنّ العاطفة المشبوبة، وما دامت عواطفني، جوارحي، تشتهي المرأة، وقد تكتفي منها بنظرة، بابتسامة، بكلمة، إذا لم يكن ثمة إمكان للمزيد.

غير أن الأيام، ولا سيما خلال شهور الهجرة، أقنعتني أن ما أتمناه سراب بالغ الخلية. وشيئاً فشيئاً انطويت على اعتقاد أن المرأة، بالنسبة إليّ، بعيدة، وربما غير موجودة، ولم تخلق بعد، وأن عليّ أطراح كل تفكير فيها.

هذه المشاعر عذبتني. كانت تعيش في ذاتي، تلوب ساغبة في جسدي، تناديني بأصوات ذات ضجيج صامت. كانت تفترسني منذ أن أضع رأسي على الوسادة حتى يغلبني النوم. وما هي، الآن، وأنا أقف على الرابية، تهاجمني في اليقظة أيضاً، فماذا أفعل؟

التجأت إلى العقل، بذلت قوة إرادية خارقة حتى يسيطر العقل. قلت في نفسي إن الحب سيصير يوماً. ستكون هناك امرأة، وسيكون هناك حب، لكن ذلك كله بعيد، وأن عليّ أن أنسى، وليس مثل العمل وسيلة للنسيان.

طوّفت بالرابية. هذّأني قليلاً ريح المساء. رحت أناجيها: أيتها الريح! بلّغني الحبيبة المقبلة سلامي. أنت تريدني، ولكنك لا تستطيعين. أنت، حتى الآن، لم تحملي أيّما امرأة إليّ، فمتى، يا عزيزتي، تحمليها إليّ؟ ولم تجب الريح. هل تعرف ولا تجيب؟ القدر يمنعها أن تجيب؟ كل شيء له أوانه، مكانه وزمانه، له مشيئته، قراره، حكمته. القدر قمر أزرق، مثل أوراق الزيتون هذه البانعة. القدر أبيض، كالقمر تماماً، صامت كالصخر، ملتهب كالنار، يسقط نيزكاً، شهاباً، شظية كونية، ويصيب. إنه يدمر أحياناً، يخرب كل ما قبله، ويصنع ما بعده. قبل القدر باطل، بعده حق. وكالأله، يحتاج إلى نذور. . يدي خالية. لا نذر عندي أقدمه. أجمع له باقة من الزعتر؟ رزمة من الأزهار البايسة؟ غمراً من سنابل الزيتون؟ أنا أعرف

أن كل هذا غير مجد. أفهم أن قدرتي طفل أخرس. أدرك أنه لن يوافيني، ولن يكون لي حبيب في البقعة أو المراهقة. إنني فتى، بينطال قصير، عتيق، وقميص أزرق، مرقع، ووجه شاحب، ضامر، وشفتين واجفتين، وفي حال كهذه، فإن الحب بظل إحساساً دفيناً، يراد العاطفة المتناغة، ويتدفقاً على حنين مراوغ.

اشعلوا مصباح اللوكس. شمع نوره في محيط البورة، تركّز حول القبان، حيث الوكيل يقوم بجرد حساب النهار. كانت الجمال قد حملت بالزيتون، وركب الجمال حماراً وسار في المقدمة تنبعه حيواناته الصحراوية الاليفة. كانت أجراسها ترن وهي تُغَبّ بين صفوف الزيتون. ثم ابتعدت، وتلاشى رنينها، وعادت السكينة تلفنا، لا يقطعها سوى فحيح المصباح. وطقطة أعواد الزيتون في النار، وكلمة من هنا وأخرى من هناك، بينها العاملون على البورة يفجئون بيدر الزيتون يرفوشهم، كي يتنفس، وتسرّب الرطوبة إلى أعماقه فلا يفسد، ولا يسودّ من الحرارة.

إن هذه العملية التي تتكرّر كلّما حملت الجمال، كانت تحمل معها رائحة زيتية حادة، لم تكن قد ألفناها، لكنّها، مع نسمات المساء، كانت تفعم الجوّ بعطر خاصّ، مبارك كما قالت الوالدة، وترتفع أعلى فأعلى، كأنها مادة أثيرية تنشقها السماء، وتعبها مع أنفاس الأرض المتصاعدة بحركة ديبية، يحسها المرء ولا يراها، لكنه لا يملك نفسه من الافتتان بها، والخشوع للترنمة الجماعية المنطلقة من الجهات الأربع، ابتهالاً بالمغيّب الذي ما يزال وشاحه الأرجواني على الأفق الغربي.

كانت الوالدة، فيما الطنجرة على النار، والاختان تُوقدان تحتها، قد عمدت، بإذن من الوكيل، إلى انتقاء وعاء صغير من الزيتون الأخضر الذي ورد متأخراً إلى البورة، وجاءت بحجرين كبيرين، أملسين، وشرعت برصّ الزيتون وتخليته، ليكون لنا أداما. إنها ابنة الريف، تعرف قانونه: «من خير الأرض يأكل الذين يعملون فيها» وكانت تعتبر نفسها، منذ وصولها، عاملة في الأرض، وقد أحضرت معها من المدينة جرّة فارغة لذلك، وكانت

مسرورة بعملها، تقول وهي ترصّ الزيتون وتلقيه في طست مليء بالماء :

- ما شاء الله . . زيتك كثير المبارك .

ولما لم يكن من أحد قربها سوى ، فقد التفتت إليّ وتابعت :

- هذا الزيتون يقطع واحداً من عشرة . .

قلت في نبرة غير متوقّعة :

- لكن جمع العشرة ليس بالأمر السهل . .

- إذا نحن اجتهدنا كان ذلك سهلاً . .

- نعطي التسعة لناخذ الواحد . .

- وماذا في ذلك يا حبيبي؟

- ظلم . .

توقفت عن رصّ الزيتون ، وبجديّة وطيبة رجّعتني قائلة :

- لا تنفّوه بما لا يليق أمام الوكيل .

- لكنني أقول الحق . .

- أنا أصدقك . . تحسّبي لا أعرف؟ ولكن من يسمع للحق . . ؟ أنت ، يا

حبيبي ، ابن مدرسة . . لكن الذي في الكتب غير الذي في الحياة . . كم

مرة عليّ أن أقول لك ذلك؟ أنت تشقي نفسك دون فائدة ، هذا الذي

تقوله عن العدل لن يصير . .

- سيصير يا أمّي . .

- من فمك لأبواب السماء . . لكن الكلام عليه ، ونحن نعمل في ملك

الأسياء ، ليس في مصلحتنا . . وأنت عاقل . . أنت عاقل بما يكفي كي

لا تقطع رزقنا . . اليس كذلك؟

- ربما . .

قلتها وابتعدت . أمّي غير مخطئة ، لكنني أنا الآخر ، غير مخطيء ، أنا

أحب أمّي ، أفديها بروحي ، ولن آتي بما يكدرها ، لكن إلام السكوت؟

وكيف يعرف الناس ما لهم وما عليهم؟ الخوري يقول: مكتوب في الإنجيل

«اعط ما لقيصر لقيصر» ، وأمّي شديدة الايمان بالخوري وإنجيله . هذا كلام

المسيح تقول. لكن الآخرين. الذين سمعته في إسكندرون، والكرابيس التي قرأتها، تقول أعط المال لصاحبه. وقلت لهم: «من هو صاحب المال؟» قالوا: «الذين يعملون في جمعه». إذن نحن نجمع الزيتون، ونحن أصحابه، لا أولئك الأسياد أصحاب الفئاق الكبير في قرية «ج».

سأسكت على مضض. سأمضغ المرارة. لقد كانت رحلة حياتي، ورحلة فهمي، غير متكافئتين.

من إسكندرون، وشفاء حارة المستنقع، والظلم النازل بعمال البحر والسكك الحديدية، إلى الاحتلال التركي واستلاب حق العرب في اللواء، إلى الهجرة والنوم في المقبرة، ثم الطواف كالتسولين في أحياء اللاذقية، إلى هذا الريف وجمع الزيتون، سلسلة من حلقات الاستثمار والظلم والاعتصاب، وأنا، على صغر سني، أعني كل هذه النوازل، وكرمي لأهلي عليّ أن أسكت. تقول أمي «اللاذقية غير إسكندرون»، هذا، كما يبدو، صحيح، ولكن لماذا الأمر كذلك؟ أنكون اللاذقية مدينة بغير حياة؟ دون تملل؟ لا ترى شقاء عمال الميناء، والريجي، وعبودية الفلاح في الريف؟

إسكندرون! يا إسكندرون! يا مدينة الرفض. يا رافضة الاحتلال، ومقاومة الأتراك، والتمرد على الوضع الاجتماعي البائس، يا مدينتي الحبيبة، أيتها الغافية الحلوة المستلقية على شط الخليج، يا من تعلّمت فيك، لا القراءة والكتابة وحدهما، بل الاحتجاج على الاحتلال والظلم والاستغلال أيضاً.

جلست مهموماً أمام موقد النار. طلبت من الاختين أن تدعاني وشأن. رجوتهما أن تَجَلَا إليّ مهمة إضرام النار تحت الطنجرة. أحسست بالمرارة، بالكآبة، انتفت نفحة الرومانتيكية التي عطرّني في الغيب. الغروب، الآن، صار إلى ظلمة. ليل الليل، سجا، وفتون الرابية، والكرم، والبورة، والنار في الفلاة، ورنين أجراس الجمال، وكلّ بهاء الطبيعة تراجع إلى وراء. أفسدته بتفكيري المسبق بالعمل، هذا الذي أنا جائع اليه، لكنني مدرك كم فيه من استغلال. لقد ألمني تصوّري أنه

سيكون علينا، من الصباح، أن نثير الزيتون، ونجمعه من بين المدر والأشواك، وغلاً به السلال والأكياس، ونحمله إلى البورة شأن هؤلاء الفلاحين التعساء، ليكون لنا واحد من عشرة، قيمته لا تكفي لإطعامنا في هذه البرية التي علينا أن نعيش فيها شهوراً، ثم نجمع حوائجنا وننحدر إلى المدينة وليس بين أيدينا ما نسدّ به رمقنا.

انتهت أمي من رصّ الزيتون، نضج الطعام. مدّت حصيراً، فتحت شرسفاً، دعنا إلى العشاء، كان الطعام مجدّرة. كان لذيذاً في هذه البقعة المنارة باللوكس، وكان البصل سائغاً، شهياً، والماء الذي في الجرة طيباً، وكانت جلسة الوكيل معنا للعشاء، وامتلاء الأم بالسعادة لهذه اللقطة الكريمة، والظلمة المعلقة بأهداب الفضاء من حولنا، كلّ ذلك طمأن قلبي.. لكن ذلك الشعور بالطمأنينة لم يدم، إذ سرعان ما سنعنا، في الدرب الآتية من جهة القرية، وقع أقدام، وتلفتنا جميعاً، ثم لم يلبث الوكيل أن صاح:

- أبو اسكندر..

وهبّ جميع من على البورة وقوفاً..

كان ذلك القادم هو الشوباصي الذي ترتجف خوفاً منه مفاصل الفلاحين والعاملين في أملاك بيت «ف» كلّها.

كان أبو اسكندر رجلاً طويلاً، مليشاً، دون كرش، فهو، في السنين، يحافظ على قامته لم تل منها السنون. وكان عريض المنكبين، رجب الصدر، له ساعدان ينتهيان بكفتين ضخمتين، مما يعطي لبنيته ضخامة في العظم، ومثانة في التركيب، مع وجه ضحري، فيه عينا ياشق، وشارب كثيف أبيض، تحت طربوش عليه لفة، وغناز تحته سروال أبيض، وحذاء كبير، أسود، مغبر، وكل الهيئة اللازمة لجبل انتهى دون أن يعرف البطال.

اعترف أن حضوره أفسد جو الألفة العائلية الذي أحسنه في المساء، ونحن نتناول عشاءنا. كان والدي قد حدثني عنه نقلاً عن الذين عرفوه. ومع كل لا مبالاة الوالد، ومشاكسته، وانتفاء حاسة الخوف، أو الرهبة، عنده، فقد ترك الملعقة، والطعام، كما فعل الوكيل، ونهض لاستقباله. وحين ألقى تحية المساء، بصوته الأجلج الحارج من بين شاربيه، وتقدم نحو البورة، كان الفلاحان اللذان يعملان عليها، قد تركا الحيز والزيتون، ووقفاً جامدين على مبعده منه، وكف كل منهما على صدره تحيياً.

لم يحفل بنا، نحن العائلة الصغيرة، الوحيدة، على البورة، مع أن الوالدة نهضت لتحيته، وانتظرت إشارة منه، فلما لم تصدر، عادت فجلست، وطلبت منا أن نتابع عشاءنا. أما هي فقد كتفت عن تناول الطعام بينما انصرفنا أنا إلى مراقبته، وقد داخلني خوف لا أدري سببه،

كرهت معه أبا إسكندر هذا، ورغبت، لولا الفضول في رؤية ما يجري، وما سوف يقوله، دخول الخيمة والنوم باكراً.

كانت في يده عصا جبلية غليظة، وفي كتفه بندقية، وقد طلب، دون أية مراعاة للمائدة التي نحن حولها، أن يؤق باللوكس، فحمل إليه فوراً. طاف في البورة، حول بيدر الزيتون، وأرسل عصاه في قلب البورة، سابراً حرارة الزيتون، ثم لاحظ أن ثمة بقايا زيتون على حواف البيدر، من أثر تعبئة الغرارات، لم تجمع وتُعدّ إلى مكانها، كما أن الفلاحين العاملين، أهملوا فتح الزيتون للتنوية والاستبراد بالليل، فصاح بأحدهما:

- تعال «ولاء»^(١)

تقدّم الفلاح الذي اسمه بونس، غير متوقع، هو البريء، المجتهد، أن يُتهم بأي تقصير، لكن أبا إسكندر، وجد في العمل تقصيراً، فرفع عصاه، ودفع بظرفها، في ضربة قوية، صدر الفلاح الذي تأوّه وتراجع إلى الوراء مذعوراً.

- بخرب بيتك.. تأكل وتشرك الزيتون يتلف؟ أنتم لا تساهلون ثمن أكلكم.

قال الفلاح:

- يا معلّمي..

صاح به بصوت جهوري، غاضب:

- علم في جنباك.. حيوان.

- لا تظلمني يا معلّمي..

- تستحقّ الطرد..

- وماذا فعلت؟

- تجلس والزيتون بين الأقدام؟

(١) «ولاء» لفظة دارجة للاستهانة بالمخاطب.

- وهل أكل على الواقف؟

كان الفلاح الآخر، واسمه عزيز، قد ركض بفتح الزيتون برفشه، ويجمع ما تثار من حبات قليلة حول البيدر، والوالد يقف قريباً، يده وراء ظهره، وفي عينيه نظرة تساؤل عما إذا كانت هذه المعاملة ستسري عليه أيضاً. لم يتدخل بين الشوباصي وفلاحه. كان قادراً أن يسرر فعلة الشوباصي بسبب من إعجابه به، إضافة إلى أنه يعتبر نفسه ابن مدينة، وليس ثمة مبرر للتدخل في شأن لا يعنيه. غير أنه، أمام فسوة الشوباصي، نجمد في مكانه، وترك الوكيل يدور حول هذا الأخير، حاملاً اللوكس، وهو يشرح عمل اليوم، والكميات المجموعة، والتي أرسلت إلى المعصرة، ويطلب بزيادة الغارات والجمال، حتى يمكن نقل المحصول في يوم جمعه بالذات

قال الشوباصي بلهجته الصارمة:

- ولماذا أنشأنا البورة إذن؟
- لكن نقل الزيتون في اليوم نفسه إلى المعصرة أكثر فائدة؟
- وماذا تفعل به هناك؟ تتركه في الغارات حتى يتلف؟
- ولماذا يتلف ما دامت المعصرة موجودة؟
- للمعصرة طاقة معينة..
- في هذه الحال آسف..
- الأسف لا يجدي.. أنت غشيم..
- قالها والتفت إلى والدي:
- وأنت؟
- ويعد أن قاسه بنظرة جارحة من رأسه إلى قدميه أضاف:
- ماذا تفعل؟ لماذا تقف ويداك وراء ظهرك؟

نهضت الوالدة من فورها. توقفتا نحن عن الطعام. وضعنا أيدينا على قلوبنا. لم نكن نقدر أن الشوباصي سيأتي من الليلة الأولى لوصولنا. لم يدر في خلدنا أنه على هذه الخشونة، وأنه سيحاول إهانة الوالد أمام الوكيل

والفلاحين وأمامنا. كانت الوالدة مستغفرة للتدخل، لا لنصرة الوالد، بل للتوسل طلباً للرحمة، لأننا لم نباشر العمل بعد. كانت غريزة الخوف هي التي تتحكم في تصرفاتها، وتأتي ردود أفعالها على شاكلة هذه التصرفات، صادرة عن خوف مزمن لا حيلة لها في درئه أو التغلب عليه.

أحسست أن اللقمة بيست في فمي. صارت زملاً. صارت شوكتاً من الذي كانت تأكله الجمال بانتظار تجميلها. لم يعد ثمة لعاب. غدا كل شيء تراجيدياً الآن: القسوة، ضرب الفلاح، السخرية من الوكيل، التحرش بالوالد، الجزع من أن يهين الأم. هكذا امتلأت بالقهر. نزل القهر إلى معدتي وصعد إلى دماغي. زاد في سوءه أنه مقرون بالعجز. أنا لا أستطيع أن أتكلّم، الوالدة نهتني عن الكلام. وحتى لو أباحت لي فإن سيطرة الشوباسي أحدثت ما يشبه القشعريرة في جسمي. وبين سؤاله وجواب الوالد، مرّت لحظات مكهربة، مرعبة، بغيضة، ثقيلة عليّ. لو ضرب والدي لوقفت إلى جانبه ودافعت عنه. لذلك تقدّمت خطوات متوقّعة شراً، كلاماً ساخراً أو مهيناً، لكن الوالد أجاب بلا مبالاة:

- أنا هنا حارس يا أبو اسكندر. . .

قال الوكيل:

- الحارس الجديد. سالم المصري. وهذه عائلته. . .

عندئذ فقط التفت الشوباسي نحونا. قال بنبرته الصارمة نفسها:

- مساء الخير يا אחتي!

أجابت الوالدة وهي تتقدّم منه:

- يسعد مساءك يا أبو اسكندر. .

- تعرفين اسمي. . .

- حدّثنا عنك زوجي.

قال الشوباسي ملتفتاً إلى والدي:

- ومن أين سمعت عني؟

- من الناس. . من الذين يعرفونك. .

- وماذا قالوا لك؟
- ما رأيته الآن . .
- احذر إذن . .
- قال والدي بلامبالاة نفسه:
- الحذر لا يجني من القدر . . عشت ورأيت، من مرسين إلى إسكندرونة إلى اللاذقية . .
- هم . . فهمت . . تريد أن تقول إنك غير سائل . .
- أنا رجل فقير . . مهاجر من اللواء . . جئت مع عائلتي لنعمل . . أنا أسأل خاطرك . . لكن دون ذلك لا حق لأحد عليّ . . حاسبني إذا قصرت . .
- قالت الوالدة وقد تقدّمت خطوة باتجاه الشوباصي:
- حاسبنا إذا قصّرنا . .
- انتهرها الوالد:
- دعي الكلام للرجال . .
- قال الوكيل:
- ستكلم ونحن نشرب القهوة . .
- قال الشوباصي:
- المصري لم يعزّنا على القهوة . .
- وقال الوالد بغير ملاطفة:
- أنت لم تترك لنا مجالاً لدعوتك . .
- قال الشوباصي وهو يخلع البندقيّة من كتفه:
- بسيطة . . ستقابل كثيراً . .
- قرفص والبندقيّة في حضنه، لم يفرد وجهه، لم ينسم . . وبنيّة تهديد أضاف:
- المصري معذور . . لم نتعارف جيّداً . .
- قال الوالد وقد أحسّ ببيرة التهديد:
- أنت ضيفنا على كلّ حال . . ونحن في حمايتكم . .

.. حباية الله أقوى ..

.. بعد الله يأتي العبد .. كنهًا لعبد الله .. وأنت يا أبو اسكندر القوي بها هنا .. أنت تأمر ونحن نطيع ..

أخرج أبو اسكندر حطة الشح ونفث سيكارة علفيته ، ثم دفعها بأفواه
الوالد ..

.. تعال لفت سيكارة ...

لم يرفض الوالد حسنة سبعل .. كان أكثر حيرة .. لقد قل ما أراي ،
نوريته شئت نفسه .. احتلمها الشوراضي .. كان داعية صوفي أنه ذلت عجز ..
ولم يكن الولد ، في حيرته ، لامبالاته ، مثاليته ، شجاعته اللاإرادية ،
أقل منه قدرة على أن يكون ذنباً عند التروم ، وهذا ما فهمه أبو اسكندر ،
فترك للأبام أن تحف من عصبية رجل لا يملك شيئاً ، ولا يستطيع أن يؤذي
في شيء .. سرى أن يقول له : «خذ من حيث أيتك» وقد أدرك أن الولد
قمرين بأن يعود بالبرودة نفسها التي أت بها .

يا رب كم أحبت والدي ، وكلم كرهته ، وكلم أحبته كره الأخرى ! أحبته
لغده الجسارة التي تشقى عقوبة فيه .. كرهته هذه السلبية في الوجدان .. كنت
أعرف ألا أمل فيه ، وأنه لن يتوقف عن الرحيل والسكر والعشق .. وأنه
خاسر دون أن يكثر خسارته ، دون أن يفسد بها .. أو يقدّر تبجحها قبل
وقوعها .. كان نوعاً من المعصية عبر المسؤولة .. لم تكن بدلية ، ولم يكن فافداً
لأنني من مفكاته العقلية ، لكنه كان يتصرف بحسب .. وكان يشقى لدى
الملاحظة الدقيقة ، أن جسونه غير مسؤول ، لأنه طبيعي فيه .. فهو عقله ،
أصله ، فطرته ، ولم تنجح كل التحارب .. كل الخيالات ، كل نوبات الندم ..
في أن نظوره ، أو تذلل من هيبته سلوكه .. ولأنني نقيضه في هذا ، وأحمل
كل موزوت أمني من الغيبة ، وحسن المسؤولية فقد كرهته .. ثم لأنني أرغب
أن أكونه في شجاعته ، فقد أحبته في مواقف الشجاعة ، وقبيلت لوزرع الله
في صدري قلباً كقلبه ..

هذه الليلة لمحت بالذي لم يقل شيئاً حارفاً، لم يدفع الظلم عن الصراح. لم يجره نهديد الشوريصي. لكنه، في كتمانته القلبية، أظهر أنه يعرف أمثال الشوريصي. وأنه لا يكثرث بهم. لم يسكت، لم يفتضح، لم يفتح إلى السعير. كان كما يجب أن يكون الرجل أمام الآخرين. لا سيما أسرته. ولقائه. فوق وهي. يتصرف تصرف عامل من المدينة، عامل حقيقي. يعرف أنه لا يحس شيئاً في مقاومة استبدادية السيد أو وليه. ما دام لا يملك شيئاً.

اكتفى بأن نادى والذي:

.. أعذي لنا القهوة..

جعلت أقرب لثقبه الضميرين، والمعروف الرقيق المدرة في ظاهرها، ومع تلك مسكارة عذبة، منبهة، ناركاً للوكيل أن يتكلم. وللشوريصي أن يصمي بأداء. ويتصرف بلبقة حواسه إلى رؤوف هذا الخراس المفترض أمامه. والذي فكر ثم وضعه. فأوبه. كسر شوكة في أقرب فرصة لتأخر.

دارت الضهوة. ترشفتها الرجال الثلاثة. عادت الأم البيا، أمام الخيمة، وحدها جالساً على الحصير. كان الحق. الآن. قد عدا لطيفاً جداً. والحووم البعيدة أرسلت ضياءها إلى الأرض. وحشرت كثافة العتمة وصيرتها نسيجا داكناً شديداً. ساعدة للتيحال الضحكة على رؤوس أشجار الزيتون أن تتخذ في حالات سود. ساحة في فضاء الريف الهادي. السائل إلا من عواء أضاء لوى. أو باح الكلاب، أو حشنة زواحف في الأغشاب والأشواك الغريبة. الأمر الذي أفرج الشقيقتين، فدحنا الخيمة حشبة الأفاعي والمقارب.

أنا والأم وحدهما بقيا جالسين في ما يشبه النمل، انشغل عن نور اللوكس المعلق في رتبة فوق الرجال. كان والذي قد بدأ يتحدث. كان يعرف أن يتحدث. كان قاضياً بالقطرة. وشاربه النبي لا تعد. جعلت له مذبحاً لا يبعد من القصص. تحدث عن خدمته العسكرية في بر الأناضول.

وعن هربه الدائم وما لاقى من أهوال . كان صوتاً من الماضي ، نقلة
ارتدادية في الزمن ، صادفت هوى في نفس الشوباصي ، الذي لم يلبث أن
طلب الفرارات الفارغة ، وجلس على واحدة منها ، بينما جلس الوكيل
والوالد على غرارة أخرى مقابلة ، وظلّ الفلاحان مقرّصين على مبعده من
الحلقة . كان الشوباصي يصغي باهتمام ، وقد امتصّت حلاوة الحديث كلّ
الصلف الظاهري فيه ، فاندفع بضحك باقتصاد ، متدخلاً في القصّ ، متتبّعاً ،
معقّباً ، راضياً ، ناسباً نفسه إلى منتصف الليل ، حيث نهض وهو يقول :

- تأخرنا . . خطفتنا الحديث . .

نهض الجميع لنهوضه . . كذلك فعلت الوالدة . وقد اغتبطت بغير حدّ ،
حين استدار نحوها قائلاً :

- قهوتك طيبة يا أختي . . دائمة . .

وقالت الوالدة بصوت فيه طيبة وزلّقى :

- شرفتنا يا أبو اسكندر . . حياتك الدائمة . .

ووات الأريحية أبا اسكندر فقال :

- غداً هو يومكم الأول . . لا تنقيدي بالصفّ . . الحفي الشجرة الحامل . .

انبروها جيّداً ، وبعد ذلك تعادون على اللقاط . . ستسرّن أصابعكم . .

وانتم وجهدكم . . هذا إذا لم يتشاطر عليكم المطعون (الوكيل) بالقبّان .

قال الوكيل الذي فهم الإيماء :

- ولو . . نحن تربيّتكم .

وقال أبو اسكندر وهو يغيب بين أشجار الزيتون :

- تصبّحون على خير . .

فرددنا جميعاً :

- وانت من أهله . .

في الفجر استيقظت على رنين أجراس الجمال . أفاق الوالد قبل وخرج .

كان من عادته أن يفيق باكراً، ويشرب سيكارة في فراشه، ثم أخرى بعد أن يغسل وجهه. هذه العادة لازمته طويلاً، وكان يحلو له أن يمدح عادة الافاقة باكراً، واستقبال الصباح قبل طلوع الشمس، ناسباً إليها عماد كثيرة، منها أن الصحة تصبح جيدة. ولقد كنت اعتزم أن استيقظ باكراً، وأخرج إلى الطبيعة وهي تنمطى في سريرها قبل النهوض، وأن أعلين الشروق، واستمتع بهائه، وأسمع تسايح القبرات في الفلاة التي يقول والذي إنها نصلي لله على طريقته. كذلك سمعت أمي في المساء تقول لأختي إن علينا أن نهض باكراً، وأن نهجم على العمل قبل أن تحمى الشمس ويشند الحر. ولقد نهضت بالفعل في اللحظة التي كانت فيها أمي تهم بالنهوض، فطلبت مني، برجاء لا يرد، أن أشعل لها النار، كي تعد القهوة للرجال.

خرجت من الحيمة في غيش الصباح. بدا الرجال على البورة كاشباح. كانت الجمال تتميز بياكلها الضخمة العالية، وكانت أجراسها ما تفتأ ترد، وهي ترعى العشب والشوك على الخواف، وكانت حركات شفاهها، وهي تقضم وتنشط، تشبه خشخشة مناجل الحصاد وزحف الشناغل. شممت مع هبوب نسائم الصباح، رائحة فطراية، ممزجة برائحة قفص الزيتون. كان الفلاحان يونس عزيز يغرفان برفشيها من البيدر ويملآن الغوارات، وكان صوت الوكيل، على القبان، يبرطم بما لا أدري، والوائد يحاول مساعدة الرجال في الوزن والتحميل، والفجر الحلو يطلع أبيض، كأن فتحات خفية في الأمداء البعيدة ترزّه على شكل ذرات اثيرية، تقاذج الغيش وتخلوه في استضاءات لا يدري المرء كيف تصير، ويهجه، في الوقت نفسه، أنها صارت. وكانت رفرفة أجنحة تعلو بين أشجار الزيتون، وخسوار أبقار وثغاء أغنام من جهة القرية، وزقزقة عصافير تتقاطع في الفضاء، من جهة المشرق، ودبوك تصيح مؤذنة بالصباح.

كان الماء بارداً، منعشاً، وقد اغتسلت بهمة، وفرح، وصبيت على رأسي كمية منه، ثم أشعلت النار، وأضرمتها دونما حاجة لذلك سوى التلذذ بمراها. راقبت الوالدة وهي تطهو القهوة، واللهب يضيء وجهها الكهل

ويعطي لملاحه قسماتها طيبة مضاعفة، ولم ألبث أن صعدت الرابية، ومن قمتها أشرفت على امتدادات كروم الزيتون، ورأيت تيجانها أشبه بالقبب الصغيرة الرصاصية، في صفوف متطاولة، والغصون مثقلة بأحائها والأوراق الخضراء، الفضية، تسمح، في هذه الفتحة أو تلك، لحبات الزيتون الخضراء والسود، أن نبين وأن نتلقى في لمسات مزهرة، أشعة الشمس الأولى، فتألق كعناقيد عنب رقيقة وطويلة، وتبسم على استحياء للسما الذي تنور في كل لحظة، وهي تشرق برغم الطبقة السديمية التي تترامى كتوشيحاح تزين النفة العالية. يا إلهي! ما كان أكبر الساء وأعلاها، وأحفلها بالعظمة والشيوخ الذي بدا لي أنه وحده الجدير بالتأمل، كأن ليس في الحياة من كبيرين، سوى الأرض والسماء، وسوى البحر الذي نسبته، وسرعان ما استدركته واستغفرته على خطيئتي المعينة.

بعد قليل لحقت بي أمي. كان وطؤها خفيفاً، كأنها تخشى أن تزعج الأديم، وقد ليست تنورة واسعة، عتيقة، وانتعلت خفّاً، وربطت على رأسها منديلاً، فبدت على أتم استعداد لمباشرة العمل الذي كانت مثلي تتحرق إليه. كانت تتأمل أشجار الزيتون بأكثر مما تتأمل الفضاء. كان ههنا هذه الأشجار التي على عطاها يتوقف رزقنا، وحين رأيتي مأخوذة بما حولي، غافلاً عن وقع أقدامها، سادراً بما لا تدري من أشياء تترامى لي في الأفق البعيد، المتكور في قوس طويل منحني على البحر، داخلها قلق أن أكون، كما لاحظت دائماً، مجذوباً إلى عوالم سحرية تخاف عليّ منها. لم أنمالك نفسي. فعانقتها حين بلغتني. كنت أجد رائحة الأمومة في عنتها، وكانت رائحة زكية تشبه البيلون^(١) المطيب، وكان إحساسي، رغم فتوتي، أنني ما أزال صغيرها الذي كنته، وكانت هي تأتي أن تنظر إليّ إلا على هذا الأساس، مما يعطيني الطمأنينة، كأنني عاجز، وكأنها حاميتي، وهذا ما دفع بي كثيراً إلى الخوف عليها، والخوف من فقدانها، وتخيّل جسامة المأساة في

(١) ترابية حلبيه توضع على الشعر عند الاغتسال.

حياتي لو حدث ذلك لاسمع الله .

قلت لها وأنا أغمرها :

- يا حبيبي . .

قبلتني وقالت :

- لماذا أنت هنا؟ هل أفطرت يا حبيبي؟

هزرت رأسي بالنفي . عاتبته بنظرات حنون . . قلت :

- ما أجل كل هذا . لقد كانت فكرة رائعة أن جئنا إلى هنا . .

- هل تشعر بالتحسُّن؟

- بتحسُّن كبير . . نسيت ما مرَّ معنا في المدينة خلال الشهور الماضية .

- كنت هناك فلناً ، شاحباً . . ما الذي ضابقت في اللاذقية؟

- الغربة والبطالة . .

- وكذلك البيت . .

- كنت أحس فيه أنني أختنق . .

- لاحظت ذلك . . أنت نَحْنُ إلى بيتنا في إسكندرونة . . ذلك الكوخ . .

- كان بيتنا حقاً . .

- ومع ذلك كان صغيراً . .

- كان جيبلاً على كل حال . . كنت أشعر فيه أنني على ما يرام . . كان كوخباً

كسائر الأكواخ ، لكنني كنت أحس فيه أنني في بيت أبي . .

- وفي اللاذقية؟

- أحس أنني في بيت شعبان وزهرة . .

- ذلك العجوز المسكين؟

- أنا أيضاً أراه عجوزاً مسكيناً . . ما ذنبه إذا كان قد استأجر هذه الخرابة

وأجرها للآخرين؟ إنه ، على كل حال ، يريد أن يريح قلباً كي يعيش ،

وهذه المسكينة زهرة .

- تشفق عليها ، اليس كذلك؟

- الفقر هو الذي دفع بها إلى بيت شعبان ولا شك . . هذا العجوز الفاني لم

يعد فيه ما يفيد امرأة . . الزمن اضطرها إلى الاستقواء به، ومعاشرته
كرهاً، في سبيل اللقمة . . يا لقدارة الدكان التي يسكنانها . .
- لا تذكرني بها، أرجوك . . أنا لا أستطيع شرب كأس ماء من يد زهرة . .
- وأنا لا أقوى على النظر في وجهها .
- هذه خلقة الله . . ماذا تفعل؟
- لو تنوَّق عيناها عن السيلان . . وتلك الأسنان الصفرة، والشباب
الرتة . . يا إلهي ! كم من شقاء على هذه الأرض !
- أنت مهموم لذلك؟
- وماذا تصوِّرين؟
- لننل ذلك كله . . تعال . . أشرقت الشمس . . علينا أن نأكل شيئاً
ونغضي إلى الكرم . .

انحدرنا عن الرابية . اقتلعت رجلي من ترابها بصعوبة . كنت، ثمة،
على ما يرام . . لماذا تذكرت شعبان وزهرة؟ وما الفرق بين هذين البائسين
وكل أولئك البؤساء في المدينة؟ وما الفرق من هذه الناحية، بين إسكندرونة
والدلاذقية؟ لا فرق سوى السوي السوي . . في إسكندرونة يعون يؤسهم
ويقاومونه .

أفطرنا خبزاً وزيتوناً أخضر، الفلاح يونس أعطانا ملء وعاء صغير منه .
كان الوالد قد قطع مرواطين من شجرة التوت عند مفرق القرية، وأذن له
الوكيل أن يمضي معنا، يدُلُّنا على العمل، ويعود لحراسة البورة . سرنا رتلأً
صغيراً . تقدَّمنا الوالد . حملنا معنا زجاجة ماء، سلتين، طبقين من قش،
وشوالاً . . كنا قافلة صغيرة، في غابة الزيتون الكبيرة . وكانت الشِّبَرَات تطير
مذعورة لوقع أقدامنا . وعصافير الدوري تنقل من شجرة إلى أخرى،
فكرت ببندقية صيد، بفتح حديدي أنصبه كما وأنا صغير، ثم أطرحت
الفكرة سريعاً . لمت نفسي، كنت غير قادر على صيد هذه العصافير
الصغيرة، الملونة، الحلوة، وقد سألت والدي حين أسرع وحاذيته :

- ألا توجد حساسين هنا؟
- هذه تنوجد في الجناثن . . هنا الدرغل . . وقد يوجد الحجل في المرتفعات
الجبليّة.

وقالت أختي :

- لو عندنا حسّون في قفص . .
- أنا لا أحب الأقفاص والعصافير سجيّة فيها .

وقالت الأم :

- وأنا كذلك . . ما ذنبها، المسكينه، أن نجسها ونرغمها على الغناء؟
قال الوالد :

- لكن صوت الحسون حلو . .

قالت أختي الصغيرة :

- ولكنك لم تأت لنا ولا بحسون صغير . .
- سأتيك بواحد . . وربما باثنين . . العصفور يتسلّى برفيقته .
قالت أختي :

- سأكون سعيدة عندئذ . . أنا لن أؤذي الحسون . . ساحمل إليه الماء
والطعام . . ولن أرغمه على الغناء .
قال الوالد :

- الحسون يغني لنفسه . . لا يستطيع إلّا أن يغني . .
قالت الوالدة :

- ربما يغني شوقاً إلى أمه . . للعصافير أمهات أيضاً . . لكن ليس لها أب .
فكرت في نفسي : «هل ذلك لأنّ الأب غير ضروري؟» .
كنّا نمضي دون قصد، نتبع الوالد . نبحث عن مكان ملائم . ولم يكن

الوالد على خبرة كافية، بينما الوالدة، التي تحدثت إلى أحد الفلاحين ليلة أمس، فهِمت منه أن علينا أن نبحث عن الزيتونات الفتيات. هذه تكون حاملة، غير عالية، ومن السهل نبرها. أخبرها أيضاً أن الجهة الغربية جيدة، وعلينا أن نبدأ منها. لكن الوالد رفض إرشاد الفلاح، قال لنا إن الزيتون الصغيرة تعطي زيتوناً صغيراً، قليلاً، بخلاف الزيتون الكبيرة، التي تعطي وحدها ما يملأ شوالاً.

كنت أحسّ، كلما ابتعدنا عن البورة، براحة نفسية. معنى هذا أننا وحدنا تماماً. عالم خاص بنا. غابة زيتون، ظلال لا نهاية لها، سكون عميق، وعائلة بمفردها، ليس لأحد من سلطان عليها. كان الإحساس بالوحدة في البرية يملأني بقدسية سماوية. نحن والله، الله من فوق، ومن مساواته، ينظر إلينا. ليس لأحد أمر علينا. نعمل ما نريد، ندوس حيث نريد، ننام أو نستيقظ. نرتاح أو نعمل. كل شيء لنا، لا أحد يحدجنا بنظراته، لا سوط، لا بندقية، لا صوت، ولا خوف. أمنا رئيسنا. ما أحل أن يكون لمة مجتمع الأم رئيسه، في حال كهذه ينتفي الظلم، ينتفي الخوف..

انتقينا بقعة صالحة. كانت أرضها غير مفلوحة. تشبه أرض البورة. لا أثلام، لا مدرات، ولا أشواك. عشب يابس قليل، وتراب ناعم، ممهد، وكومات صغيرة من التربة التي أخرجها خلد ما هنا وهناك، وفي، وزيتونات مثقلات.

اقترح الوالد أن نبدأ من هنا، ولم تمنع الوالدة. كانت تريد أن نبدأ، كانت مثل أبيّ منا، مشتاقة إلى العمل، إلى الشعور بانتفاء البطالة، وإلى العافية النفسية التي لن تأتي ما دام الفكر مشغولاً. كانت أجسامنا متصلة، وليس سوى التعب الذي يبعث فيها النشاط من جديد، التعب المبذول في عمل نافع ذي مردود.

تناول الوالد مرواطاً وتناولت الآخر. لاحظته كيف يضرب أطراف

الاجمة الفضية للزيتونة. يضربها بشكل مائل، بحيث يشق المرواط الحب وينبره. كانت الضربة تبعث، في سكون الغابة، صوت النديف، وسمع بعدها، هرب مطرني للحب الذي يشبه الحرز الأزرق. لم البث، أنا الآخر، أن رفعت مرواطي وضربت. كانت ضربتي أخف، أقل جدوى، لكنهما مع ذلك، أسقطت حباً كثيراً، وحين همت الوالدة باللفظ صاح بها الوالد: «دعي ذلك إلى حين الانتهاء من نبر الزيتون كلها» فاطاعت. أما أنا فقد أثارني نبر الزيتون وزخات الجيوب المتساقطة، والأوراق الخضراء والفضية المختلطة بها. ابتعث ذلك في داخلي فرحاً غامراً، فصممت أن أتولى، بعد عودة الوالد إلى البورة، وباعتباري ذكراً، هذا العمل العضوي الذي لا تحسنه النساء. فكرت، من جهة أخرى، بطريقة أفضل لجمع الزيتون، خطر لي إحضار شرشف، وفتحته تحت الزيتون، فيتساقط الحب داخله. في هذه الحال لا يكون علينا سوى ضمه وإفراغه في الكيس. هذا الاكتشاف ازدهاني، عرضته على الوالدة من فوري فقالت:

- الفكرة جيدة، لو كانت التربة، تحت أشجار الزيتون، ممهدة.. أما عند وجود المدر والشوك فإن الشرشف يتمزق لا محالة.

- ولماذا لا تمسك به من أطرافه، تحت الشجرة، ثم تنبرها فوقه؟

- لأن ذلك غير عملي.. فنحن لا نستطيع الوقوف تحت الزيتون المتساقط، كالبرد، وإلا فُج رؤوسنا، ثم أن الشرشف يتملص تحت ثقل الزيتون المتجمع فيه أو يتبعج.

- وماذا لو أتينا بحصيرة؟

- الذي يتساقط فوقها سيكون أقل مما يتساقط خارجها..

- لنجرب..

- انظرن أن الفلاحين، والذين يلقطون الزيتون لم يجربوا، ولم تخطر لهم أفكارك يا بني؟

كان الوالد قد غادرنا. نبر لنا ثلاث زيتونات وعاد لحراسة البورة. شرعنا

بلفظ الزيتون، كان ينشر في دائرة واسعة من حوالي كل شجرة. وكان علينا أن نعدّ من الطرف، حتى نطقت الأرض جيّداً، ولا نلوثك ووجهنا حتى نبتون واحد. ذلك أن الشويامي سيأتي للرقابة والكشف، وقد يأتي أحد من طرف أصحاب الكرم. ووعا جاء السيد الكبير نفسه، وفي حال اكتشاف الحذر أو الضياع أو عدم الطاقة، سيعبر ذلك فلة أمانه، وسيطريوسا من النورة والعمل كله.

قلت:

- لكنّ أحداً لم يأت.

فكانت الولادة الطيبة، الأمينة، المخلصة في صمتها ومثلها.

- إذا كان السيد لا يرانا فإن الله، من سمائه، ينطلق إلينا.

سألت اختي الصغيرة:

- هل يمكن أن أرى الله لو نظرت إلى السماء؟

- سأعطيك الله... هذا كفر لا نعودي إليه... الله حاضر دائماً، يرأس ولا نراه...

- من أين ينظر إليه؟

- من فتحة في السماء...

نظرت الأخت فلم ترفتح في السماء، وعندئذ سألتني:

- وأنت... هل ترى فتحة كما تقول الأم؟

قلت:

- الله لا ينظر من فتحة في السماء... يرانا دون فتحة...

- أم لا تكذب؟

- أمك تردّد ما تسمعه من الخوري.

- والخوري لا يكذب...

عزوت كتي. لم أنقل الوصفة. كنت أشك بكتيب من الأسماء والأعمال. كتي لم أكن أمك الصحيح الكافية قد حضر ما أسع. إضافة إلى أنني لا أريد أن أسيء إلى أمي. كما قد فوجئت وجعلنا لفظ الزيتون بأصابعنا لما فعل الحاجة بالفتح. وكانت الكف اليسرى سرعان ما تقوى. وعندك بقربها في الوعاء الذي أضعه. حتى إذا أملا الوعاء أو غدا في السلة. كانت لعمامة تلك. وثنا لفرص وظهورنا محبة. وسقط. خطوة إثر أخرى. على الوضع نفسه الذي نحن عليه. وتون إحلال. قامت. بيتنا ماضية. دخلنا شبة ماضية. فالت فيها. في الزيتونة الأولى. كتي. وفرت في الزيتونة الثانية. وقالت أمي:

- عذري الله. لم علمنا هذه الزيرة فسبح عشرة شوات في اليوم.

- ونحصل. في هذه الحال. على شوال كامل من الزيتون. ٩

- هذه حصتنا.

أسماء للشجة الأجر غرسني. رغم كل شيء. الزيتون التي نزرعها بساط الزيتون تحت شجرة ما بينه الطبل الكبير من الحب. أحياناً يكون ثوبه الورق بالعماء. وأحياناً فيه بعض السواد. لكن الورق الزيتون. في حاله. تكون حصرة بالعماء. وشدة الحب. كان الزيتون المهرور بشكل. على الأرض. كوتات صغيرة. نحتفها بارج. لأنها حاضرة. ولما عد على مل. الوعاء. سرعة. لكن الأم قالت إنه قد يكون بين الحبات بعض الورق. أو بعض العشب. أو يكون بينه قليل من التراب. وهذا لا يجوز. لأنه غش. ويؤذي الزيت في المعصرة. فيغدو عكراً.

حاولنا شكلاً آخر للعمل. يقوم على احتقان حب الزيتون. بالراحتين. ثم نغيبه من العشب والورق والتراب. فوجدنا صعوبة في ذلك. كان أسير. وأفضل لنا. أن نلثق الزيتون حبة حبة. وهذا ما نصحتنا به الوالدة التي عملت قبلاً بجمع الزيتون. لكن العودة عن الابتكار الذي بلغات إليه الأخت أفزدها الأمل في الفوز من جديد. وكان بمثابة إحباط لها. وهذا ما

أفقد المباراة راحتها، خاصة وأني حُرِحتُ منها، ساء على قلب الوالدة، عني
أثير زيتونة جديدة، بعد أن أوشكتنا على الانتهاء من الزيتونات الثلاث التي
نُزَّرها الوالد.

إن قلب الوالدة هذا جاء فرحاً ليس لأنه يسمح لي بالحرارة،
وبالرياضة، وبفرصة سر الزيتون، وسماع هريزه الحُرزي، بل لأن ظهوري
من الفرصة والانحاء، راح يؤذي عدد الحفويين حبل إلى أن التكلين قد
نصبرونا، فيها نؤذي. وقد سكنت عن ذلك، عني لا أقصص نفسي أمام أمي
وأختي، وحتى لا يسك التعب علي، أو أعدي الأحرار شعبي ومللي
السريعين.

حلت مرواطي وبدأت العمل، كنت أُنسِقُ الزيتون من حوائليها، لكن
فمنها نحتاج إلى تسليق الخدع، وهذا ما ضاعف من فرحي، إذ أعدي إلى
أيام الطفولة السابقة، يوم كنت أنسِقُ الأشجار مع أترابي، بحثاً عن أفران
العصافير، في الأعشاش الصغيرة، في لشجار الدلب والخود والكبلا في
حديقة المنشية، في مدينتنا إسكندرونة.

أجرت سر الزيتون الأولى وأنا أشعر بنوثير ونقلص في عضلتي
الساعدين. لم يكن السر رياضة. كان عملاً شاقاً بدا لي، في البدء،
رياضة. أخذته على أنه كذلك وفرحت به، لكن الاستمرار أزعجني، فكرت
في الاستعفاء، غير أن سؤالاً سق في ذهني: مَنْ ينوِّي هذا العمل؟ بعد
الوالد، أنا الرجل في العائلة. صحيح أنني نحيل، ضعيف النية، لم أخلق
لعمل شاق، غير أن هذا لا يعفني من العمل، فإذا لم أثير الزيتون، كان
على الوالدة، أو الأختين، أن يتولين عوصاً عني، أو كان علي أن أُنادي
الوالد، فأواجه قضيفة مدوية، لا أمام الوالد وحده، بل أمام كل من
يعمل على البورة من الرجال.

كبرت وبدأت بالشجرة الثانية. كانت فتية، ناضرة، مثقلة بالزيتون،
وكانت دائرتها واسعة، وغلتها كبيراً، يحتاج إلى زبد قوي، فأضمرت أن

أشهرها واشهر حج. أعود بعد ذلك إلى لقط الزيتون، أجمعه ريشاً النقط
 الماضي، ريشاً نعت الخروف الملتصقة في كفي من جراء الضغائن التي ظهرت
 في الراحة اليمينية كذلك التويت، إذا ما كان عليّ أن أبشر النير في اليوم
 التالي، أن أحضر حرفة أربط بها راحتي، وبذلك أنفي ما أصابني اليوم.
 كنت أعمل وأفكر، ألهرب عرواطي حوالب الزيتون، بحركة ألبة تصدر
 عن جسد يعرف وأحبه ويقوم به. أما عقلي فكان يرحل إلى بعيد، وتعمل
 عبقلي في استرجاع ومضات الذكرى، وفي التساؤل عن معنى هذا الكون،
 وسبب محي الإنسان إليه، وموعد مغادرته دون أن يفهم لماذا جاء ولأي
 سبب راح.

كان تساؤلي ينحدر، ينشعب، يخلل لفظة دوائر يمر من إحداها إلى
 الأخرى دون أن يتوصل إلى معرفة ما كنت أريد، وهو سرّ الوجود، السر
 الذي يشرح لي قصر الأعمال وطولها، انغلاق العمة والخمران فيها، شفاء
 أصفي الموصول، وشفاء العمال والفلاحين الدائم، نعيم الأسباط، وأصحاب
 المال، سر الملكين الذين يتحكمون بالباشرين من أمثالنا، وعيشنا الزرقي
 تحت وطأة فقر عديم الرحمة.

كذلك كنت أعطي، أحياناً كثيرة، نصي للذكريات، وعندئذ أعيش
 الماضي، أستعرضه يوماً وشهراً وعاماً، وأبحث عن وجه أليف، وصديق
 وفي، وفناء التقينها ذات يوم. ثم أخرج عن إسكندرية وحيّ الصاير،
 وأحاديث البحارة، وثغرهم على ما هم فيه من حرمان بقودهم إلى الموت،
 وانتفاضات المدينة، ومطالب العمال، والنضال ضد فرنسا، والمظاهرات
 التي تقوم، وترقب قيامها بفرح ونفاد صبر.

لقد كنت مسكوناً بالأفكار وما أزال، وكانت أفكارني في تلك الأيام،
 بحجم عمري وسذاجتي، وإذا استعبدتها الآن أضحك منها، لكنني لا أنكر
 أبداً أنها كانت صادرة عن ثوب إلى العدالة الاجتماعية، وما برحت كذلك.
 هكذا. وأنا أثير الزيتون وأجمعه، كنت مستغرقاً في أفكارني، وعندما

كنت أنبر إحدى الزيتونات جابني ضجيج غريب، كريمة، ورابت جسماً غريباً، أسود، طويلاً يتركز في الغلغال، ومنذ رأي انحل كالجيل الشخين، وتدلى وهو ينلع برأسه نحوي، منضنضا بلسانه ذي السيلتين، ثم التفت على جذع الشجرة، وانساب على الأرض، أسود طويلاً، بارداً، قبيحاً، غنيماً، فالقيت بالمرواط ورحت أصرخ، فأراً بأنجاه الوالدة والأختين، اللواتي التفتن ورأين الحنش، فخن بدورهن وولّين الأدبار مذعورات.

هذا الصلّ المخيف أذكره جيداً. كان الأول من نوعه الذي تقع عليه عيناى، لم أكن قد رأيت صلّاً أسود بهذا الطول، الشخن، الحجم، وهذه العدوانية في العينين السوداوين، المحاط بؤبؤهما بدائرة بيضاء أو صفراء، مما أعطاها سعة أكبر، وأدخل الرعب إلى صدري على نحو أشدّ. كانت عينا الصلّ وهيتين، وكان بدنه الأسود، اللامع، الفقري، يبدو كأنه مدهون بالزيت، وقد أشرب بعنقه، وترك لسانه يخرج طويلاً، ثم دار قربنا وانساب بأنجاه التخيم. مرة أخرى. قبل أن يغيب حدق فيّ، كأنه يستعدّ للثوب عليّ، فصرخت وفررت وأنا أرتجف، ولم ألتفت إلى وراء حتى صرت على مبعده منه، ومن سوء الحظ أنني تركت المرواط من يدي لشدة خوفي، ولم يبق لي ما أدفع به عن نفسي لو انسل الحنش ورأني، راغباً في لدغي أو إيذاي.

انشأت الأم، حين استعادت روعها، تصرخ بي:

.. لا تخف!

لكنها، هي، كانت قد خافت. وكانت الاختان قد هربتا، وفي طريقيهما انقلبت سلّة الزيتون وتبعثر ما فيها، والأم التي وحدها، سبق لها ورأت حنشاً، تناولت حجراً بكلتا يديها، ورفعته فوق رأسها، عازمة أن تجبه الصلّ، وأن تقتله دفاعاً عنا. وخلال الدقائق التي مرّت على هذا الوضع، لم أعرف كيف وقف هذان الخصمان، هذان العدوان، وجهاً لوجه. كانت الأفعى السوداء، المخيفة، الزاحفة، تدافع عن نفسها بعد أن أصبتها،

ربما، بالمرواط، وكانت الأم التي تسمّرت في مكانها، رافعة الحجر إلى أعلى، مفادية عنا بجسارة لا أدري كيف وانتها.

كل ما وعيته، من تلك اللحظات الرهيبة، أن الأفعى، التي كانت في وضع الاستعداد، متلعة العنق، مشرعة اللسان، جاهزة للتأين، كفت عن الوثوب باتجاه الأم. ربطت ثمة، في أسفل الزيتونة، تنتظر، لقد خافت. أنا لم أر الخوف في عينيها، لكنني قدرته تقديراً، لقد خافت، وهذا طبيعي. كل إنسان، كل حيوان، يخاف إذا أنت واجهته، لكن الأم، بدافع الغريزية، دافعت عنا وعن نفسها بجسارة نادرة. رفعت الحجر واستدارت إلى الأفعى، دون أن تلوي رأسها. كانت مستقلة، تشهد المساء، بغير كلام، على أنها، في الذود عن أبنائها، قادرة على منازلة ليرة لا أفعى فقط. السماء، على كل، كفت عن الاختبار، أو عززت إلى الأفعى أن تمضي لشأنها. لقد تمّت، في لحظات، فدية عمر. الأم فدتنا، والأفعى فهمت. أدركت ضد من تقاثل، قد تكون، هي الأخرى، أمّاً، ولهذا رافت بنا. انسابت في خطّ حلزوني، طويل، وهي تتماوج. وتلمع تحت الشمس، لم تسلق أيما شجرة، ولم تهرب، بل انسربت رويداً رويداً، كالآمن، كالخارج من معركة متكافئة، وغابت في دغل من الشوك، ولم تعد ترى، ومن المشكوك فيه، كما قالت الأم، أن تعاود الكرة باتجاهنا، فالنوع الأسود من الأفاعي، نوع الأحناس هذا، ليس مؤذياً، أو عدوانياً، إلا إذا هاجمه، والأم رفعت الحجر ولم تضرب، لم تهاجم، أعطت الأمان لخصمها، أفسحت له مجال الانسحاب، وبذلك انتهت المعركة.

خجلت حقاً من الأم، كان خجلي واضحاً، أما هي فلم يظهر عليها أيما زهو بموقفها، ولم تلمني على موقعي. كل ما فعلته أنها نادتنا، وأفهمتنا أن هذا النوع من الأفاعي غير سام، وأنه يأكل القوارض، وأن علينا، إذا رأيناها في شجرة، أو دغل، أو حتى في الطريق، ألا نخاف، أو نهرب، بل نتوقف، ونقول لها:

- اذهبي يا مباركة!

رفضت هذا المنطق، قلت لأمي :

— الأفعى ليست مباركة . .

قالت الأم :

— الأفعى حكيمة . . سليمان قال في أمثاله : كونوا ودعاء كالخاسم ، حكيما كالأفاعي .

— سليمان لم يكن مشرداً مثلنا، يجمع الزيتون في البراري .

— سليمان كان حكيماً، كان أمراً على الإنس والجن، وكانت ثيابه جميع الحيوانات .

— ولكن الأفعى خبيثة، تنسل وتلدغ، وقد ذمها الشعراء . ونعنها الله، بسبب إغوائها لحواء .

— أنا لا أدري . . يجوز . . أنت ابن مدرسة وتعرف أكثر، ولكن الأفعى مخلوقة أيضاً . .

— لكنها مخلوقة تقتل الإنسان . .

— والإنسان يقتلها .

قالت أختي :

— سواء كانت مباركة أو غير مباركة، فأنا لا أستطيع رؤيتها . . ما كنت أحسب أن في أشجار الزيتون أفاعي . . لن اقترب من غلغال أيما شجرة قبل نبرها . .

قالت الأم :

— الأفعى لا تؤذي إذا لم تؤذ . . أخوك، يا بني، ضربها بالمرءط، ومع ذلك ذهبت في حال سيئها . . هيا، نحن لم نغالب شوالاً بعد، أين وعودكم؟ أمس كنتم تقولون سنملا عشرة شوالات .

قاطعتها أختي :

— لفاظ الزيتون صعب كما يبدو، لم أكن أنصوره بهذه الصعوبة . . اعطوني يا أُمِّي : الشوك أدمى رؤوس أصابعي .

أدركت الأمّ، الآن، أن حماسة الأمس اصطدمت بواقع اليوم. كانت، هي أيضاً، تتألم، كان ظهرها يؤلمها، وكانت تتجلّد، كيلا تشكو، أو نقول ما يوهن همّتنا، اقترحت أن نستريح قليلاً، أن نشرب بعض الماء، كي نزول الرعبة التي بعثتها الأفعى. وكما لو أنها أخذت التعب لحسابها، أو أنها تريد أن تضخّي نيابة عنا، فقد تركتنا تحت شجرة الزيتون، حيث نحن، وحملت السلة وذهبت إلى الشجرة المنبورة نلقط ما نحتاج من زيتون. كانت عاداتها أن تتقدّمتنا دائماً، أن تعمل أكثر، وأصعب، وأن تدع لنا أن نراها، وأن نخجل من تكاسلنا أو استرخائنا. وقد أقلحت، هذه المرة أيضاً، في جعلنا نهض، حياء منها، ونذهب نلقط الزيتون معها، شاعرين بمكابرتها، كي ننحز ما هو مقرّر علينا اليوم، أو نصفه على الأقل. لقد صمّنا في الصباح أن نجني ما يملا عشرة شوالات، وما هو الضحى، ولم نغلا شوالاً بعد، وكلنا اشتدّ الحر، استشعرنا ببطء حركتنا، ثقلها، وأحسننا أن جمع الزيتون، على هذا النحو المضني، ليس لعباً، وأن علينا أن ننقل واقعنا، ونتجلّد مثل الأمّ، ونستأنف العمل..

نيرت زيتونتين أخريين. تحمّلت بغير ما واجهني من صعوبة. كنت أستريح، دقائق، وأهدأ قليلاً، ثم أعود إلى شيق الشجرة بالمرواط، وأنطلق نحو الأمّ الدؤوب، المتكسّرة رأسها دون كلمة، كأنها فهمت ضرورة احتمال الشقاء وأدعنت لها، وباحتمالها هذا، كانت تدفعنا إلى المزيد من المثابرة، في صمت يلفّنا، كأنما نسينا أنفسنا، وصارت بيننا وبين الأرض لغة خرساء، وصار النقاط حبات الزيتون ذاباً نمارسه كالطقس، ما دام علينا، ونحن في هذه الفلاة، أن نأكل خبزنا بعرق جبيننا، وأن نمضغ لقمتنا الغمسة بالدم. وهذه الأشياء لم ثقلها الوالدة، لكننا فهمناها من صمتها، من ثقلها، هي التي عملت طويلاً، وكثيراً، في سبيل إطعامنا وكساننا، وكبي توقّر لي بعض الفرووس للذهاب إلى المدرسة، لقد كان عليها، وهي حامل، ويطنّها إلى حلقها، أن تقعد على طست الغسيل، من الصباح إلى المساء، وأن نتخدم أسبأداً كثيرين، وعمرها الذي تقضى في شقاء موصول، قد أهلها للراحة

الآن، ولكن لا مناص، ما دمنا، في هجرتنا هذه، ما نزال نحتاج إلى عملها ودعمها، وما دام الوالد لا يكسب ما يكفل لنا حياة بسيطة، نقرم على الكفاف.

جمعنا ما تساقط تحت شجرة أخرى. صار لدينا ملء شوال من الزيتون. انتصف النهار، كان قائظاً جداً، ولم تكن الزيتون تفيء فيشاً ظليلاً، لأن الشمس، في سمتها العالي، أخذت تسكب على الأرض دسماً من الماء المغلي، يتبخّر ويتحوّل، عبر الفضاء، إلى ضوء ذراته جهرات من جهنم. أخذنا نلهث. انتهى الماء الذي معنا. اقترحت عليّ الوالدة أن أذهب وأملأ الإبريق من الجرة الموجودة على البورة. قالت إننا سنتغذى حيث نحن، ونواصل العمل بعد ذلك. امثلت لها. ذهبت، ملأت الإبريق، لكنني، في طريق العودة، رايت، فجأة، أفعى تخرج من دغل الشوك وتنساب في حركة جريئة أمامي. لقد أخرجها الحرّ من جحرها، لم تكن سوداء، كانت رقطاء مخيفة، وحين أحسّت بي، تحركت باندفاع، وانسلت على الثراب تاركة وراءها خطاً متعرجاً. كانت تنسل وتلعب بعنقها، ورأسها المفلطح، بعينيها المرعبتين، يترصّدي، أنا الذي أسير حاملاً الإبريق، وليس في يدي حتى عصا يمكن أن أضربها بها فيما لو هاجتني. رعبني، هذه المرة، كان أقل، ليس لأن الأفعى مرقشة، رفيعة، بل لأنها انسابت وأنا على مبعدة منها. كنت حافياً، وكان مقدراً أن أدوس، في كل خطوة، على جحر أفعى، أو أن تثب أيّ أفعى، من أيّ دغل شوكي، وتلدغي بغتة، لذلك توقفت مشدوهاً، حائراً فيما أفعل. ومع كل رباطة جأشي، كان بدني قد اقتشعر خوفاً. لقد خفت على نحو ما، لكنني تماسكت فلم أركض. تسسّرت حيث أنا. ورحت أراقب الأفعى، التي هي من نوع «عقدة الجوز» وهي سامة جداً.

حين اختفت الأفعى تماماً، على مسافة بعيدة عني، تابعت سيرتي، سالكاً طريقاً آخر، متجنباً أن أمرّ قرب الدغل الذي لطيت فيه. لقد غيَّض مرأها كل رومانتيكية الحياة التي تخيلتها وأنا على الرابية عند غروب شمس

أمر، حيث لم أفكر بالأفاعي. صحيح أن هذه الزواحف المرعبة كانت في الظن، ولكن ليس من اليوم الأول، وبهذه الكثرة، وفي الأشجار وعلى أديم التربة الحارقة. فكرت وأنا أسير بالطريقة التي يمكن بها معالجة لدغة الأفعى فيما لو حدثت. شغلني ذلك جداً. كنت أعرف أن على الملدوغ أن يربط العضو الذي لدغ، ولكن من أين لنا الرباط؟ وكان على الرجل السليم، والأفضل أن يكون شيخاً مجرباً، أن يمتص السم ويصقه. وقد تنفع، كما سمعت من الوالدة، دجاجة توضع مؤخرتها على الجرح، فتمتص السم بحركة تنفّسها. إن هذه الوسائل البدائية، كانت هي الإسعاف الأولي، وهي غير متوفرة، ونحن، في هذه البرية، في هذا الفقر، في كرم الزيتون الذي يعمّ بالأفاعي، والعقارب، نسير حفاة، وأيدينا التي تعمل في الأرض، معرضة في كل لحظة إلى لدغ الزواحف السامة. لقد كان الموت، على هذا النحو، ينتظر كل فرد منا. وإذا كنت لا أبالي بنفسي، فماذا لو كان الملدوغ أمي أو אחتي؟ ماذا أستطيع، عندئذ، أن أفعل؟ كيف أدع هؤلاء العزيزات للموت على هذه الصورة البشعة؟ وماذا ينفع، لو قتلت الأفعى بعد لدغ أيّ منا؟ إن الموت، على هذا النحو الكريه، يترصص بنا في كل خطوة، تحت أية صورة، أيّ دغل أو شجرة زيتون. ونحن نعرف ذلك ونخاطر. يا لشقاء الفلاح الذي يخاطر، في كل يوم، بحياته، في سبيل أن ينتج الخير هؤلاء الأسياد الذين يستغلّونه على هذا النحو الرهيب!

لقد حسبت، في اسكندرونة، أن العامل وحده هو المستغل، وها أنا أكتشف، في هذا الريف أن الفلاح أشدّ منه بؤساً. إن عليه، في سبيل أن ينتج خيرات الأرض، أن يدفع الكثير من صحته وعرقه وتعبه ودموعه أيضاً.

هذا الإحساس المضيئ بصعوبة الحياة، ملأني نغمة عليها. رفضتها، كنت في السرّ والوضع اللذين يعلانني أرفض الحياة وما فيها من شقاء. لكنّ ما هو أدهى، أن على، ما دمت أعيشها، أن أتقبلها، وأن أكافح، بطريقة ما، كي أخفّف عن عائلتي ما تعاني.

لقد راودتني، تلك الأيام، فكرة الانتحار. ومن عجب أن هذه الفكرة ظلت تراودني طول حياتي، لكنني، مع ذلك، لم أنتحر. لم أملك الشجاعة الكافية لذلك من جهة، ولأن الأفكار التي أحمل حنتي من المغامرة من جهة أخرى.

رغبت، لشدة قهري، ألا أعود إلى أمي في الكرم. جلست على جذع زيتونة وأنا أفكر بما نحن فيه. كنت أمضغ قهري الذي أشاع المرارة في فمي، وبغبر كلام، رحت أهتف: ويا للحياة الملعونة، لو وقع للآم، للاختين، للوالد نفسه، أي أذى، سيكون ضربة قاصمة لنا، وستنوء العائلة الصغيرة المهاجرة المشردة تحت وطأة مصيبة داهمة!.

تناولنا غداءنا تحت زيتونة هرمة. أكلنا خبزاً وزيتوناً وبصلًا. كان الطعام طيباً. كان غيره في المدينة، وكان الخبز من بقايا ما حملنا معنا من المدينة، وعلينا، هذا المساء، أن نخبز من الطحين الذي جلبناه معنا. وقد وعدتنا الأم، إذا نحن واطبنا على العمل، بالاجتهاد نفسه، أن تطعمنا خبزاً طازجاً على الصبح، مع سبي، من الزيت، وأن تطبخ لنا برغلاً ببندورة.

قالت الاخت قدسية:

— لكننا أكلنا، ليلة أمس، برغلاً بالعدس.

— البرغل، يا حبيبي عمود البيت.

قالت الاخت وهي تمضغ رغيفها:

— ليس لنا بيت ولا عمود..

— ليكن.. البرغل عمود الخيمة.. ماذا عندنا، إذا لم نطبخ برغلاً، مما يستند القلب؟

— ولكن البرغل كاد يقرع في بطوننا..

— نعمة على كل حال.. أنظروا غيرنا، الفلاحين مثلاً..

— ما لهم، الفلاحون؟

— لا يجدون البرغل نفسه..

— وماذا يأكلون؟

- لا أدري . . أمس، وأنت على الرابعة يا بني، جاء الفلاح بونس وقال لي : ماذا تطبخين؟ ولما أخبرتة : مجردة، أجاب : هذا أكل الأوامم . .

سألته :

- وأنتم؟ ماذا تأكلون؟

«تهد . . قرفص إلى جانبي هزبلاً معروفاً، وظلّ يشابعني وأنا أعمل . عرفت منه أنه أب لثلاثة أولاد، بنتين وصبي، وأن بنته في المدينة، تعملان خادمتين عند بعض الأغنياء، مقابل ليرة في الشهر للبنات الواحدة، وأن الصبي يرعى القطيع للسيد . إنه مرابع، يأخذ ما يجني، لكن الربع الذي يأخذه لا يصل إلى بده أو بيته، فهناك الدريّة، وشغل السخرة، وإنشاة الشواصي، وهناك الفائدة على كل ليرة يأخذها على الحساب، منذ الشتاء إلى أن يكال الحبّ على الببادر، ثم هناك صاحب الدكان، في القرية المجاورة، يعطي الفلاحين على الحساب، من الكبريتة إلى زجاجة الكاز، ويسجل كلّ ذلك في الدفتر، ومهما كان الموسم جيّداً، يبقى للحنوقي شيء في ذمّة الفلاح، يبقى له دين يُدَوَّر إلى العام المقبل وتنكأ هذه الديون، ومعها الفوائد الجديدة، وحين يعجز الفلاح عن الدفع، يستعين الدائن بالدركي للتصصيل، فتباع المواشي، ويخّر الفلاح إلى المخفر، وقد يرسل إلى السجن إذا لم تنفع سباط الدرك على رجله، وهو مرفوع فلقة بواسطة بارودة . . السيد لا يتدخل في هذه الحال لإنقاذ فلاحه . الدركي، خدام السيد، والسيد زلمة المستشار، وهذا لا أدري لمن يتبع، وحين يمرض الفلاح، أو يتبطل، أو يسجن، تُطرد عائلته، لأن معيّلها لم يعد موجوداً، ولم يعد يعمل مرابعا، بينما الزرع يحتاج لمن يشتغل فيه، فيؤقّ بغيره، وتلقى حوائجه هو في الطريق» .

سكتت الأم ونحن جلوس حولها . أرادت أن تفرحنا فأحزنتنا، رغبت أن ترسم الفارق بيننا وبين الفلاح، فإذا هو فارق بسيط . يقوم على طبخة البرغل التي هي أكل الأوامم، ماذا يأكل الفلاح إذن؟ قالت الأم : «الفلاح عزيز أكّد لي أن بعض فلاحي الجبل يأكلون الحشيش . لم أصدقه، أقسم،

قال إنه رأى فلاحاً يرعى الحشيش مع أولاده كالبهائم. طبعاً هذا غير صحيح. أنا رايت الفلاحين، كنت في قرية «الأكبر» في برّ أرسوز، ورايتهم هناك، حال الفلاح، في كلّ أريافنا واحدة. قد تميّز، هنا أو هنا، بوجود الخبز، أو الماء، أو المسكن، وهو غالباً كوخ من طين، لكن من حيث الأساس، كلّ الفلاحين مرابعون. الفلاح يا عيني، لا يسمّى فلاحاً إلا للآزدراء. في غير ذلك يقال له «مربع». نحن أيضاً عملنا مرابعين، في برّ أرسوز. كان والدكم، إضافة إلى الزراعة، يعمل إسكافياً، ومع ذلك كنا لا نجد كسرة الخبز إلا بصعوبة. . كنا نستدين، فتراكم فائدة الدين، ونستدين لتسديد الدين، فتزداد الفوائد، ولم يجد أبوكم من حلّ سوى الوسيلة التي يلجأ إليها الفلاحون: وضع أختيكم خادمتين عند اثنين من موظفي الحكومة في إسكندرونة.

سألت الأخت الصغيرة:

— وأين هما الآن؟

— الكبيرة ماتت.

— ماتت؟

— نعم ماتت. قالت الأم وهي تحبّف دموعها بمريلها. .

قالت لها أختي:

— ولماذا البكاء الآن؟ أما كفّاك، منذ رحلت، وأنت تكيبن؟

— يا حرق قلبي عليها. . كانت صبية جميلة. .

سألت أختي الصغيرة:

— وأين ماتت؟

— في إسكندرونة. .

— وكيف ماتت؟

قالت أختي:

— لم تمّت لكنها رحلت. .

— إلى أين؟

انتهرتها:

— أف... لماذا تكثرين من الأسئلة؟... ماتت أو رحلت... كله سواء... المهم أنها لم تعد موجودة...

وقالت الأم من بين دموعها:

— أي والله، يا حرقه قلبي، لم تعد موجودة...

كنت أعرف حكاية هذه الأخت. لقد اتفقنا، دون اتفاق، ألا نذكرها، الفنا أن نرى الأم تبكي عليها، كانت تذكرها دائماً، لكننا، نحن الأولاد، كان عزمنا علينا أن نقول شيئاً.

أخلدنا، نحن الأربعة، إلى الصمت. تغطى الصمت ثقيلًا فوقنا، زادت الكآبة ثقلاً. قصة الفلاح قادت الأم إلى الاستطراد، كانت تعرف هذه الحياة جيداً. عاشتها. غرزت، مثل الفلاحين، في وحل الشتاء، وحين يكون المطر، والرياح، والغيوم السود تحجب السماء ببطيئة كثيفة، كان الخوف يهبط علينا، مع الليل، وعند نضوجه يغدو هماً يتغلغل الصدور الواجفة من جوع ويرد. الطبيعة، هذه المنحة الإلهية، تصبح عدوًّا للفلاح، عدوًّا يلاحقه بالمطر والوحل والزمهرير شتاءً، ويلاحقه صيفاً بالحر والذباب والمرض. حتى في الربيع، حين تنفتح البراعم، وتنزّين الورود، يكون الفلاح في خشية على الموسم، وفي قلق من كبسات السيد ونكده، ومن أعمال السخرة، في شق الطرق، أو قضاء الحاجيات. وفي الحريف، حين الغلال على البيادر، تلاحقه عيون المرابين، وتصادر حصته، تسديداً للديون المتراكمة. الفلاح ابن الطبيعة، يعيش الطبيعة، لكنه لا يحس بجانبها النهمي. يغتاله العمل الشاق، اللانساني، ويخنقه الزعل، وتتجمع عليه صنوف الشقاء، خارجة إليه من بطانة سوداء حتى في الأشياء الملونة. وأمّي، الفلاحة في الأصل، التي هاجرت وعملت في الأرض، وعظمت السكك الحديدية، وبيوت الأغنياء، والتي، في الأرياف، قاسمت الفلاحين جوعهم وخوفهم ودموعهم، كانت قد نسيت عادة الفرح، فإذا كان لها وقت للراحة، مثل هذه المصيفات التي جلسنا فيها نأكل خبزنا الباس، مع

جأت الزيتون التي تنافس بها، كانت نعتها الذكريات، وترجمها إلى دائرة الحياة السعيدة التي عاشتها.

جاء الأب ومعه حمار دون سمر^(١)، حمار على الزلط كما يقولون، وقد استعاره من فلأخ حمار زيتونة إلى الثورة، حل العمل أن يأتي ويحمل عليه ما جمعا من زيتون. كان جالسا هو الآخر، وجلس معاً قليلاً في القليعة، فطبع نصف ريف مع الزيتون، واستمع إلى الوالدة تنقص عليه حكاية الخنش، في طعنا الزيتون، وقصة الأفعى التي صادفتها وأن أعود من الثورة حاملاً الماء. كان من طبع الوالد ألا يخاف، لقد أمضى حياته في أعمال المراق، والمزارع والبناء، وظف في القرى كثيراً، ورأى من الأفاعي، سوداً وبيضاً، ما لا يحصى، وهو لا يفهم كيف أنسا، أمام حشرات صغيرة كهذه، يخاف لعلها، إضافة إلى فقدان حاسة الخوف هذه، أراد أن يبحث فيها الشجاعة فقال:

— الحية لا نعصر إلا الذي يؤذيها، أنتم تسمعون الزيتون ولا تعطاردون الأفاعي، وهي تعرف ذلك ولن تؤذيكم. انهوا، احرصوا عند رؤية حية ما، أن تدعوها تذهب بسلام.

قالت الأم:

- لكننا خفاة، والأفعى موكلة بالأكعاب..
- من قال هذا الكلام؟
- لم يغفل الله خفوا، حبر أغوتها الأفعى، وطردت من الجنة، أنت تسحقين رأسها وهي تلدغ كعبك.
- ومن الذي قال هذا؟
- هذا كلام الإنجيل..
- في الإنجيل لا يوجد مثل هذا الكلام.
- كنت أنا الذي قلت لأمي، فالتفت إلي مستنعدة، وسألني:

(١) السمر، عظمة الدابة، وهو من حلق وجذات.

— اليس هذا كلام الإنجيل؟

— ليس كلام الإنجيل. قرات ذلك في كتاب والتعليم المسيحي.

قالوا له:

— الأفعى لا تلتقي إلا لم تأكل. ما نأكل ما نعطش إلى التوبة، وأنتم تعبدون

إلى العمل. هالوا المروءة كي أمير لكم ريشة أو اثنين.

نهضت الأم إلى العمل فتعائما. بدأنا، بعد الظهر، عمل الشوال الثاني. فكرة ملء عشرة شوالا كانت خيالية، من نسج حاسة خيوطها عكسوية. حتى الظهر لم نأكل سوى شوال واحد، ومعنى هذا أننا سنكون شيطيين. نحدين، إذا ملأنا ثلاثة شوالا. لقد اكتشفنا أن حساب السوق لا ينطق على الصندوق، وأن ما كنا نطعمه لبعاء، هو عمل مجهود، يتقوس فيه الظهر لشدة الانحناء. وتتصلب الركب وتغدو غير مطاوعة للفرقة، لا سيما بالنسبة للأم التي بلغت سن الكهولة. طلبنا منها أن تسريح، أختي هي التي اقترحت هذا، لكن الأم رفضت، أصرّت على أن نعمل بدأ بيد، وقصّت علينا بعض ذكرياتها تسلية وتشجيعاً، فاستعدنا، بسرعة، لباقتنا، وشرعت نعمل بهمة جيدة، مماثلة للهمة التي بدأنا بها صباحاً. وفيما كنا نعمل، دندنت الأم بأغنية فتبعناها، ووجدنا ذلك مسلياً، مبهجاً، فأخذنا به، مكتشفين أن الغناء، وخاصة بصوت الأم، حلوه حنون، وأنه يصرفنا عن التفكير فيما نحن فيه، وينسينا التعب الذي هذنا. لكن أختي الصغيرة زعفت زعفة رعب قاتل. ولم تقو على الوقوف، بل ألقت بنفسها جانباً، وأخذت تزحف، على أربع، وهي ترتحف من الخوف.

— ماذا؟ - صاحبت الأم - ماذا جرى يا حبيبتى؟

— حبة!

— أين؟

— تحت التراب!

ابتعدنا عن الموضع الذي أشارت إليه. كانت ثمة مدرة كبيرة، ونعتمها نلعني الأفعى، طلباً للرطوبة، وهي تلتفت مثل كعكة، وتشرّب برأسها

فقط . قالت الأم إن علينا أن نتعد، وأن نترك الزيتون إلى غيرها، لكن
أختي رفضت، لأن الأفاعي كثيرة، ويمكن أن نجد أفعى تحت كل مدرة،
وعلياً ألا نبالي، فإذا انسابت الأفعى تركناها. لا تؤذيها حتى لا تؤذيها كما
قال الوالد.

أمام هذه الشجاعة، والإرادة في البقاء وجمع الزيتون، أحسست، بدفع
من مشاعر الفتوة، أن علي أن أمثل دور الرجل، وأن أقتل الأفعى . كان
المرواط في يدي، وقلت للأهل ابتعدوا، ثم دفعت رأس المرواط في المدرة،
فإنسلت الأفعى وهي تشرتب، وركضت الاختان خوفاً، بينما هجمت أنا
على الأفعى التي حاولت الهرب وهي تتلع بعنقها. ضربتها على ظهرها،
ضربتها بقوة، انكسر لعنقها المرواط، فتلوت الأفعى التي انكسرت إحدى
فقراتها ولم تعد قادرة على الانسلال، وهذا ما شجعتني على ضربها ببقية
المرواط الذي في يدي حتى أجهزت عليها، ثم سحقته رأسها سحقاً جيداً،
فيه نوع من الانتقام، التشفي، الخوف من انبعاثها ثانية. ولما أتممت قتلها
قلبتها، وقلبت المدرة التي بقرها، خوفاً أن تكون ثمة أفاع أخرى، أو أن
يكون للأفعى المفتولة فراخ صغار، لكن الأم، وهي تسمع أبي أنوي، لو
وجدت صغار الأفعى، أن أقتلها أيضاً، قالت متوسلة بلطف:

— لا تقتل الصغار يا بني . دعها تذهب في سبيلها.

— ولكنها أفاع . .

— مع ذلك يجب ألا نقتلها . . حرام القتل، ولا سيما للصغار، الله لا
يرضى بهذا.

— الصغار أيضاً قادرة على اللدغ . .

— ليس الآن . . حين تكبر، الصغار لا يؤذون أبداً.

لم نجد صغار الأفعى، لهذا لم تكن ثمة مشكلة، لو وجدتها لقتلتها.
كنت أقتلها بدافع الخوف ليس إلا . أنا أيضاً أحب الصغار، ولا أريد لها
الاذى، لكن الأفاعي متكبر، ستغدو سامّة، وربما، بعد شهر، هي نفسها
التي تلدغ أحداً منا. الأفعى لا يؤمن جانبها، كبيرة كانت أم صغيرة، وفي

قتلها درء لخطرهما، لكن الأم رفضت جميع حججي، ولم أشأ أن أخالفها، لكنني، بيني وبين نفسي، كنت قاسياً على مثل هذه الزواحف، حتى لا تأخذني شفقة عليها. لو كان جرو كلب، صغير قطه، أو كانت صغار دبة أو أسود، كان مفهوماً أن ترأف بها، وأن تأخذها، ونطمعها، ونربّيها، أما الأفعى فهي مخلوق بغيض، تنسرب في عمودي الففري برودة عند مرآها، وليس قتلها لوجه القتل، بل لدفع الأذى، لعقل الخوف الذي في داخلي.

جمعنا الزيتون من تحت الشجرة وانتقلنا إلى أخرى، كنت قد سبقت الأهل ونبرتها، لكن الأشياء مرّت بسلام، ولم نجد أيما أفعى في الأشجار أو على الأرض.

طاب لنا العمل في الأصيل، مالت الشمس عن سمتها، خفت الحرارة، صار في الوسع تنسم الهواء المسائي المنعش، وغدا انعكاس الظل يوحى بتلك الأهالة الغروبية المقبلة، هالة الوداع، بين السماء والأرض، والفراق بين الثور والطبيعة. الآن ستغمر الظلمة الكائنات، وهذه الكائنات التي ستلتفع بالليل، وتبرد، ستفتح على نحو آخر. لقد كان الأصيل، بالنسبة إليّ، فرحة كاملة، وكان بالنسبة إلينا، في ذلك العمل الذي نباشره، بشيراً باقتراب الراحة، وبذهيئة الضياء التي توشح الموجودات، منسجة على مهل، ملونة كشبكة نورانية، يجرّها القرص الكبير وراءه، ويمضي بها إلى البحر، حيث يدعنا نشاوي، من خمرة تحسّ ولا تذاق، تسلّمنا، شيئاً فشيئاً، إلى ذلك الخشوع الابتهالي للمغيب، تتلوه سكينه، وسجود للنفس، وصلاة ترفعها السريرة، وراحة للجسد، والفكر، وعودة إلى البورة. ثم إيقاد النار والخبز على الصاج، وطهو طعام المساء، وتقديم جني اليوم من الزيتون إلى الوكيل، والشعور المعافي، المتولد عن عمل كان في وقته صعباً، مرهقاً، لكنه، الآن، وفي المحصلة، أصبح غلة، هي المكافأة العذبة كأعطية السماء.

بلغ الزيتون الذي جمعناه ثلاثة شلالات ونصف شوال. قالت الوالدة وهي تلتقط آخر حبة منه، وتنصب ظهرها واقفة:

— كفى! الحمد لله..

أصاقت وهي تجمع أشياءنا استعداداً للعودة:

— ليس بسيطاً ما حمى يا أولاد.. إذا داومنا على العمل، بالتوتيرة نفسها.

عدنا إلى اللادقية وقد حصلنا على مردود جيد. استريحوا الآن، حدوا

نفساً. ويمكن، عند الرجوع إلى الحيمة، أن نتعصروا..

قالت أختي:

— لا داعي للعصرونية، مادما استعشيت باكرأ..

وسألت الصغيرة:

— ماذا لدينا للعشاء؟

— سأطبخ منزلة الدافحان.. ونستطيع أن نأكل معها الفليفلاء الخضراء

والبصل، وسيكون لدينا الريشون.. حشر الصاج طيب، لا سيما وهو

سخن، حتى ليؤكل دون إدام..

فركنا ألبينا من غبطة. ما كان صعباً أصبح سهلاً. أعطينا برهانا..

اجتزنا الامتحان بنجاح. كان علينا أن ننظر الوالد لتحصيل ما حمى من

ريشون. وقد داخلني زهوٌ غير قليل لأنّي قرّرت شراء الوالدة على نسر الريشون

وقتل الأفعى. مارست، في ذاتي، شعوراً بالسعادة. لم أعد ذلك الطفل

الصغير في ريف السويدية، أو ذاك الصبي في ريف أرسوز. أستطيع الآن

أن أقيم منظرية على طرف الكرم وحدي. هذا لن يحدث طبعاً. لكنني

أستطيعه. لم أعد ذلك الخواف، الذي كنته. طلبت من والدي وأختي أن

يذهبن إلى البورة، وأضى مع الريشون ريشاً يحضر الوالد راحلة لنقله.

دندنت بأغنية حين صرت وحيداً. أخذت أقطع المنطقة جيئةً وذهاباً.

احتفظت بالمرواط المكسور الذي قنلت به الأفعى. ضربت به الأرض عدة

مرات. مرّغته بالتراب لإزالة أثر الدم عنه، قرّرت، عند العودة إلى البورة،

أن أقطع غصون البغص وأصنع منها عصياً ليوم الغد، تهلّلت وأنا أسمع

أجراس الجمال قادمة من بعيد، كانت أشبه بالتواقيس، في دقاتها الموزونة،

الرئانة، التي تبعث على الذكريات في سجو المساء، أو عند المغيب الخلو،

الذي صار الآن مكتئباً، ولم يبق إلا أن تسحب الشمس آخر ذبونها وتسبح في البحر الذي طالما رصدت غطسها فيه.

طلب مني الوالد، ونحن على البوابة، أن أسجل في دفتر صغير مقدار ما حبت من زيتون في يومنا. وضعنا الزيتون على القفاز، شوالاً بعد آخر، وسجلت الرقم في دفثري. ذهبت إلى الخيمة لأغسل وجهي ويدي. كانت البوابة في ساعة المغيب تلك، تغل بضجيج غير مألوف، كل الذين يحرسون كروم الزيتون، حملوا إليها ما جئوا في يومهم، كانت هناك نساء أيضاً، حملن أكياساً من الزيتون على ظهورهن ورؤوسهن، جئن من مسافات بعيدة وقد هدقن التعب. لكن المضطعون، بدلاً من وزن الزيتون، راح يثرثر معهم. كان يتكلم، يضحك، يزن، ويسجل في دفتره، لكنه، كما قال الوالد، استبقى بعض الصبايا فترة أطول، هذا التصرف لم يعجب الأب، كان مستعجلاً، يريد الانتهاء من التسجيل وجمع الزيتون من حوالي البوابة. ولم أعرف سبباً لاستعجاله، أنا الذي وجدت مسرة في رؤية الناس، واقتربت منهم، أسمع ما يقولون، وأصغي إلى ملاحظاتهم عن العمل والوزن، الدغمت في الجو الخلو، جو الكثرة الذي يساعد على تصعيد الفرج من الصدر. لكن الوالد ما لبث أن اقترب من الوكيل وهمس في أذنه شيئاً. لم أفهم ما كان يريد، غير أنني، ذلك المساء، أدركت أن الوالد ذهب إلى حمارة القرية، وأنه شرب كأساً على الواقف، وأحضر بطيخة ليشرى بها مع الوكيل.

أنساء الآن: هل كانت حواسر والدي راداراً يهديه، أين ما ذهب، إلى موقع الحمارة من الجهات التي يكون فيها؟ هل يشم أنه رائحة العرق على هذه المسافات البعيدة، فيسير، هو التعب من عمل النهار، مشتاقاً كأنه ذاهب إلى لقاء حبيب؟ ترى لو واعدته امرأة، على هذا البعد، هل كان يسر إليها، وسط هذا الليل، وبين غابة الزيتون، دون أن يخشى زاحفة أو قاطع طريق أو وحشاً؟ أحسب أنه، في سبيل العرق والمرأة وحدهما، كان يفعل ما فعل. أنا لم أر لسانه يفرج، أو لعابه يشط، عند ذكر العرق والمرأة،

لكنني أجزم أن ذلك يصبر. هو قادر، كالرئيس، أن يغامر ضد العاصفة. قادر أن يجابه وحشاً، أو يأكل أفعى حية، أو يخرج في الليل، ويواجه بندقية مسددة إلى صدره. وهو لا يبالي بشيء في سبيل كأس أو امرأة، في هذه الحال يفعل ما لا يفعل، لكنه في اليوم التالي، يندم بنفس الإحساس العميق والصرامة الحادة، اللذين مكرأوزن بهما.

إنه مدمن حقاً. لا بد أن يشرب، لا بد أن يعشق. لا بد أن يرحل. ثم لا بد أن يندم، ولكن الندم يأتي متأخراً، يأتي ليعيش فيه حالته في السكر والعشق ثانية. بعد ذلك ينسى، يعاود ما كان فيه، دون أن يابه لإضاعة عمل أو مال أو سمعة، ودون أن يشكر، هو الأب، بمسؤولية أبوته. وبغير أن يتساءل هل أكلت زوجي وأولادي أم ناموا على الطوى. إنه حارس الزيتون على البورة، لكنه، دون شعور بأنه يخون واجب حراسته، قادر أن يبيع البورة والزيتون الذي عليها، أو يهبها لأبنة عاهرة، في سبيل قضاء ليلة معها. إن جسارة قلبه، ولامبالاته الكاملة بالعواقب قيمته تدفعه إلى ضرب الوكيل، والتصدّي للشوفاصي، ومهاجمة السيد، ثم لا يكثر بما يقع، ولا يتالم والقيد في يديه، فالسجن لا يكسر شوكرته، والظلمة لا تزعجه، والنوم هنا، في بيته، أو هناك، على رأس جبل، سواء بسواء. لأنه في الحالين، يغط في النوم معافى، ويضحك ضحكاً معافى أيضاً. ومن عجب أنه ليس أبته، ولا فيه بلادة، ولا يغضي على ضيم، ولدى أول كلمة لا تروقه، يندفع إلى مشاكسة قاتلة، يزهق فيها روحه، أو يضرب بما في يده، من العصا إلى السكين إلى المسدس.

كنت، وأنا أراه يسلك طريقاً مظلماً، في غابة الزيتون، أعرف إلى أين يذهب. لو فلاحته وأثمه، وواعده مقابل أن يعطيها حتى نهار كامل، من حق السيد أو من حقنا، لفعل بغير تردد. أسمر، جميل، شهبائي إلى حد العار، تتدلى شفته السفلى المكتنزة، وتقطر غلثة، وفي عينيه وميض نخاله وميضاً في عيني أفعى، وحين يقرر أمراً لا يتراجع عنه.

أدركت الوالدة أنه ذهب إلى الخسارة، قالت لي ذلك فلم أصدق. محال.

نحن في البرية، وفي كرم الزيتون، وعلى مثل هذه الحال من الفقر والتشرد، وهو يذهب إلى هناك، إلى كوخ ضائع في الريف، ليدفع آخر ما معه، وليستدين، ويشرب، ويعود متسلطاً، يجرّ الذيل نهباً، كأنه السيد على السيد، بل سيد الكون بأسره. وكنت أنساء: ما الذي فيه ليتحمل هذا الشرب؟ وما الذي فيه ليغري النساء؟ وآية صبرة يحملها في شفتيه ويديه وجوارحه؟

لم أَلَمْ على عشق النساء في هذا الريف. أنا أيضاً كنت، تلك الليلة، وفي اليوم الأول لتواجدها على البورة، واليوم الأول الذي قتلته فيه الأفعى، على غاية من الاسحاح الروحي، وإذا لم أُنشئه الحمرة، فقد انتهت المرأة. فتفتحت حواسي الموروثة عنه في فتون المبكرة. كان في وجهي عينا أفعى، وميضها، وكمن من مرة متفوق في النساء. في حباتي المقبلة «لا تنظر أنت في عيوننا» وأسأل: «لماذا؟» ويجيب: «هكذا! في عيونك دعوة إلى الخطيئة». ولقد ارتكبت الخطيئة، أحبتها، عرفت النساء، وكنت، كوالدي، قادراً أن أحب حتى قسيحي الوحيد، في سبيل امرأة، ولهذا ربما غفرت لوالدي رخصته أمام المرأة، ولكنني أبداً لم أغفر رخصته أمام العرق.

طوّقت في البورة وما حوفاً. صعدت الرابية، عشت سجدو الليل، أكلته، شربته، أشعلت فوانيس النجوم، طافت بي رؤى الصبايا اللواتي حملن زيتونهن إلى البورة، تنشفت شهوة الليل، بحثت عن شعرة الصبرة في جسدي لأقتلعها، لكن شيئاً من كلّ ذلك لم يجيد.

كنت صغيراً، وفقيراً، وكان وقت امتلاكي للمرأة باكراً بعد.

لم أدرك ماذا كان يعنيه أبو اسكندر بقولته: «لا تتشاطر عليهم في الوزن»
إلا حينما راقبت عملية التقبين. كان المطعون، وكييل القبان، يزن على
هواه، ولمصلحة السادة، بضربات من القبان تطفف الميزان وتسرق
الفلاحين. تأتي الفلاحة بكيس الزيتون فتضعه على القبان، ويمدّ يده،
بخفة إلى البيضة، فيحركها سريعاً، ويفتل مغلاق القبان وهو يصيح:
- ثلاثون كيلو. . غيره. .

تغلق الفلاحة في القبان، وبيضته التي وقفت على رقم لا تعرف أن
تقرأه، ثم تراقب يد الوكيل الذي يدير المغلاق، وتفرغ فاهها من دهشة. .
يكون كيس الزيتون قد هَذَا هَذَا، وهي تحمله على ظهرها من مسافات
بعيدة، فإذا الوزن، عند التقبين، يعطي رقماً لا تفقه منه سوى أنه رقم
صغير، وحين يسجل في ورقتها تعلم أنه لا يساوي نصف تعبها.
نقول الفلاحة:

- والله قليل يا مطعون. . ثلاثون كيلو فقط؟

يتوقف أبو نعمة عن الوزن، يرفع رأسه ليراها بعينيه الزنبيقيتين من تحت
قبة القش، صائحاً بها:

- وكم تريدبن؟ القبان، يا أختي، لا يستحي منك ولا مني. . أما وزنت
الزيتون أمامك؟

- لكنّ زوجي، أمس، قال لي إن الكيس كان يزن خمسين كيلو على الأقل.
- وكيف عرف زوجك المحترم؟ يده قَبَان؟
- يعرف من رفع الكيس على ظهري.. نطلقت الدم حتى أوصلته، وبعد ذلك لا يزن سوى ثلاثين كيلو
- أنا، يا אחتي، لا وقت عندي للأخذ والعطاء.. هذا هو الزيتون، وهذا هو القَبَان..
- لكنّ زوجي..
- يقاطعها صائحاً:
- فلقّيتي بزوجك.. لماذا لا يتفضّل جنباه ويأتي بنفسه ليرى القَبَان؟ أم أنه جعلك دابةً تنبرين الزيتون، وتجمعيته، وتحمليه إلى هنا، وهو قاعد يفرك..
- وبلي.. لماذا تثقل في الكلام؟
- خجلت؟ كان الأولى أن تشكريني على أنني مشيتك بسرعة. قَبِنت لك دون أن أدعك في الصف، أنا أعرف أن أولادك في البيت ينتظرونك، وأن أمامك عملاً كثيراً، من حو التنور إلى الخبز إلى الطبخ إلى.. أظنك فهمت..
- عيب يا أبو نعمة.
- لا عيبة في الحلال يا אחتي.. وإلا من أين هؤلاء الأولاد؟ ما هو شغلهم في الليل؟ من العشي تنامون.. ثم بظ يا أولاد؟
- وماذا نفعل إذا لم يكن لدينا زيت كاز، وأننا نتعب في النهار، وننام باكراً كي نستيقظ باكراً، ومن جديد، من مطلع الشمس حتى مغيبها نعمل في أراضينا الخواجة؟
- هكذا إذن أنت تنذمرين، غير راضية من وضعك، تريدان أن نجلسي في البيت ويأتيك كل شيء إلى عندك؟

- لم أقصد هذا . . لا أريد القعود في البيت . لكن العمل من الصباح الباكر إلى ما بعد مغيب الشمس يهدّنا، إننا نعمل جائعين، وليس على ظهورنا ثياب .

- هذا من كسلكم وقلة تدبيركم، أنتم، كما أعرف، كما هو الواقع، خنازير . .

وتحتج امرأة أخرى قائلة:

- وبلي كيف تقول هذا؟ كيف تشبهنا بالخنازير . . نحن بشر . . من بني آدم .

- أنتم من البهائم . .

- حتى البهائم عندها ما تأكله . . أما نحن . .

ويقاطعها ساخراً:

- ماذا أنتم؟ . . ألا تأكلون وتشربون؟ ومن فضل من هذا؟ أليس من فضل السيّد . . هيا . . اخربي . . غيبي عن وجهي . .

وتعود المرأة الأولى إلى الكلام قائلة:

- ما نقوم به تعجز عنه البهيمة . . وبعد كل تعبنا تشتمنا . . ثم تعتدي علينا، وقبّانك هذا غير مضبوط . .

- يا بنت الكلب . . هكذا يتكلّمون مع الوكيل . . تهميني في ذمتي . . لولا انشغالي لاشبعتك ضرباً . .

- ولماذا تضربيني . . أنا أدافع عن حقّي، أنظلم من الحالة التي نحن فيها، من كثرة الشغل المفروض علينا . من شقائنا وتعاستنا .

- لو كان زوجك هو الذي يقول هذا الكلام . . لكان حسابي معه عسيراً .

- زوجي يشقى كما أشقى، وأولادنا في شقاء أكبر، لا مدرسة، لا حذاء، لا كساء، وهم يعملون في الأرض منذ ولا دتهم . . فماذا نفعل؟

- أنت تعرفين ما يجب أن تفعلينه . هذا شغلك . أنا أعرف ما يجري فقط . تظنّيني لا أعرف حياة الفلاحين؟ أنتم كالدجاج، تنامون من المغرب . .

- وماذا لدينا في الضيعة حتى نسهر يا أبو نعمة؟ نأثرو؟ سينا؟ نحن نتعب النهار كله ، ونأكل كسرة خبز في المساء وننام كالقتل .

- وماذا تفعلين قبل النوم؟ قولي . . أم تحجلين؟

- الحياء واجب . الله أمر بالسرة . . أنت تقبّل لنا أم تستجوبنا . . انتبه . . حولك صبايا . .

ويضحك المطعون وهو يرفع قبعته القشبية لتهدية صلته قائلاً:

- الصبايا تعرف أكثر مني ومنك . . لم يعد أحد غشياً . . وإلا كيف تتزوج بنت الأربعة عشر؟

وتدخل الفلاح يونس في الكلام قائلاً:

- تتزوج لأنها تتزوج . . هذه عادتتنا . . إذا تزوجت البنت باكرأ تصون نفسها عن الفحشاء .

- لم نقل شيئاً . . تتزوج يعني تتزوج . . لم يعد أحد غشياً هذه الأيام . . لا تضطري إلى الكلام على المكشوف .

ضحك بعض الواقفين، وعبس بعضهم الآخر، وتابع المطعون كلامه:

- أنا لست غريباً عنكم . . ولست ضدكم . . أراكم كل يوم، وأرى الحاجة في السنة مرة، من أقرب إليّ إذن؟ ثم هذا هو القبّان، اقترب . . تعال . . اقرأ الرقم الذي تقف عنده البيضة .

- لو كنت أعرف القراءة ما كنت فلاحاً على البورة .

- ماذا تعرف إذن؟ اللتّ والعجن؟ تذميم الآخرين . .؟ هذه آخر مرة أسمع فيها كلاماً حول القبّان . . أنا صاحب وجدان . . صاحب حق . .

وماذا ينوبني من اللعب بالميزان . . قل أنت . . ماذا ينوبني؟ ماذا يدخل
إلى جيبي . . أنا لا أخذ الزيتون ليبي، من القبان إلى المعصرة . . قلبي
معكم، قلبي عليكم، وقلبيكم على الشيطان . . تفو . . جنس عاطل . .
هاتي زيتوناتك يا بدور . . ضعهم على القبان . .

كانت بدور هذه فتاة في مقتبل العمر، ناهضة الصدر، جميلة العينين،
مكورة الأرادف، وقد سمعت ما دار من حديث، فغطت وجهها بتدليلها،
لتحجب ابتسامتها، وراح المطعون يروزها، بتفحصها إلى درجة التعرية،
ويصيح بها:

- قذمي . . انحنى على الكيس وجلسه على القبان . . لماذا أنت جفلانة؟
- هه . . الكيس جالس، ماذا أفعل يا ويل؟
- نحن نشغل أوناكل هوا؟
- نشغل يا أبو نعمة . . الكيس على القبان . .
- اربطيه . .

انحنى لتربطه، أو تصلح من وضعه، فاهتبل المطعون الفرصة ليغرز
عينيه في صدرها. كان يعملق وقد التمعت في ناظرية شهوة جنس فاجرة،
وفيها هي تربط الكيس وقف وتطلع إلى رذفيها، ولز عليها، ودار من حولها،
ثم وزن الكيس وقال لها همساً:

- هذه خمسة كيلو زيادة لأجلك . . سمعت؟ أنا أسرق الخواجة . .
- أخونه . . ألعين والده بالسر، ولماذا؟ كله لأجل عينيك يا مقصوفة . .
- وأنت . . هل بلغت سلامي لوالديك . . قلت لأهلك إنني سأزورهم . .
- أين تبرين اليوم؟ وحك أم أهلك معك؟

فصاح فلاح من الواقفين:

- طولتها يا أبو نعمة . . هل تحكي حكاية مع بدور . . حصار الليل ونحن
ننتظر . .

- وماذا إذا انتظرت؟ .. أنا أدقق في القبان يا حبيبي، لا أريد أن تدخل زيتونة واحدة في ذمتي ..
- ولكنك تشلف القبان بضربة واحدة مع هذه، وتظل تماحك مع تلك .. ونحن على نار ..
- النار في بلمومك .. صَلِّ على النبي ..
- اللهم صَلِّ وسلم عليه ..

قالها الفلاح بتقوى صادقة، بينما عاد المطعون إلى بدور يسألها في أي كرم تعملين؟ سأمّر عليك غداً .. أريدك أن تجمعني لي سلّة من العطون للحواجة .. أوصاني عليها اليوم .. أريدهم عطونات على الكيف .. من أيديك الحلوين .. لا تسألي عن الوقت .. في المساء أعوض لك أتعابك ..

كان والدي، في حال كهذه، ينزّ الشيطان من أنفه. أصغى إلى ما تقوله بدور، أضمر أن يكون هو لا المطعون في الموعد .. هناك، في الكرم، تحت آية زيتونة، يمكن أن تستسلم إليه، إن لم يكن غداً فبعده .. إنه أحقّ بها .. إذا عارض المطعون ضربه بآية أداة. جعله مطعوناً حقيقة. إلى الفرد بكل نصائح الأم عن التزام حسن السلوك، مع الحواجة والشواصي والوكيل، إنه حسن السلوك على كل حال. وهل الحديث مع امرأة، تحت زيتونة، فيه إخلال بحسن السلوك؟ إذا كان المطعون يطبخ لنفسه فلن يدعُ يأكل طبخته بمفرده. أما إذا قاسمه فيها، ودعاه إلى القسة طيبة، مع هذه أو تلك، فإنه سيرفض. سيتظاهر بأنه لا يرى ولا يسمع، سيقضي، ويدع الأمور تسير على أحسن ما يرام، أما إذا عاكسه المطعون، فسيثيرها فضيحة.

وكان المطعون، من جهته، يلاحظ تسكعات الوالد حوله، يتضايق، يقول له:

- أنت، يا مصري، خليك بعيداً .. على أطراف البورة.
- أنا أساعدك .. لا أريد أن يتكاثر عليك الفلاحون ويغشوك ..
- من هذه الجهة لا تخف .. أغش والدكم.

- وماذا كنت تقول للحرمة ؟
- أعوذ بالله .. اسمع .. نحن هنا نشغل .
- كويس .. إذا كان هناك شغل نشغل .. ولكن هذا لا يمنحك من التحرش بالنساء .. ماذا كنت تقول للحرمة ؟
- قلت لها جلّسي الكيس على القبان .. ماذا في هذا ؟
- فيه أنك تريد أن ترى صدرها .
- أنا ؟ .. اسمع .. إذا عدت إلى هذا الحديث .. لن تبقى على البورة ..
- وأنت لن تبقى سالمًا .. لن تنجو من يدي ولو استنجدت بالحكومة نفسها .
- ولكنك لا تفعلها .
- ما هذه التي لا أفعلها ؟ .. ضُربك .. تصرف ضدي تَر ..
- أنا أقول إنك لا تفعل تلك الشغلة مع فلاحه .
- وما بها الفلاحه .. أليست امرأة ؟
- أعوذ بالله .. تريد أن تخرب بيتك ..
- بيتي ؟ أين بيتي ؟ هذه الخيمة ، وهذا السهر ، وهذه السرقة .. نحسب أني لا أراك ؟ أنت لا تقبّل على المضبوط ، تطفّف الوزن ، تأكل على هذه خمسة كيلوات وعلى تلك سبعة وعلى الثالث عشرة ، تفعل السبعة وذمتها ، لكن هذا لا يدخل في حساب الخواجة .. إنه يدخل في حساب الخاص .. مع كل جمال تُرسل إلى المعصرة كيساً باسمك .. أراك .. أراقبك .. إذا وقت ضدي فسا عرف كيف ..
- هس .. هس .. لا ترفع صوتك .. ماذا تريد .. ؟ أمس .. وقبله ، وقبله ، زدت في الوزن لكم .. نفعتكم ..
- لا تنفعنا .. زَن بحق الله .. لنا ولغيرنا ..

- أنا أزيد لكم .. أراعي مصلحتكم .. وأنت أيضاً راعٍ مصلحتي ..

- وبدور ..

- ما بها؟

- وزكّية؟

- من هي زكّية هذه؟

- لا أعرف .. ولكنني أحذرك ..

لقد سمعت كلّ ما دار عن بعد، كنت أرغب في تأديب المطعون الذي يسرق نعب الفلاحين، فإذا لم يكن التأديب فالزجر على الأقل، وما هو والذي ينهض لهذه المهمة. لكنني شككت في براءة نوابه، والذي لا يكثرث للحق بل للمرأة، وسيكون تنافس بينه وبين المطعون. لكنّه تنافس معروف النتيجة، فالوالد هو الذي سبّريح، ولو دفع ثمن ذلك بقاءنا على البورة.

كان المطعون قصيراً، بديناً، أصلع تقريباً، عيناه مساويتان، وفي أسفل ذقنه طعجة كأنّها حفرت بسكين ذي نصل حادّ. ولم تكن به علامة فارقة سوى صغر كفتيه، واستدارة رأسه كبطيخة، وتعلبية حركاته، التي لا تؤمن على شيء. وقد راقبته وهو يعمل. ويتحدّث، ويطوف في البورة. وكرهته لا أدري لماذا. ربما كان ذلك عائداً إلى أفعوانيته، فهو يلطي دائماً تحت قشّ الأشياء، وميله إلى أذى الناس، وخاصّة الفلاحين، أشدّ من ميل الشواصي إلى إرهابهم.

كان هذا، الشواصي، قاسياً، واضحاً في قسوته، كان نائباً للسلادة في هذه الكروم والأراضي التي عمل فيها الفلاحون، وهم أن يعتصر أكبر قدر من طاقتهم، ويسلك إلى ذلك طريقاً مختصراً، الضرب بالعصا أو الكرياج، وحبس الفلاح في القيو، تحت القنّاق أو طرده من القرية نهائياً، لكنّه لا يلجأ إلى الثعلبية، ولا ينتهك نساء فلاحية، ولا يقبل رشوة أو ملاطفة من أحد. إنه يقتل عند اللزوم، وقيل إنّه قتل بعض الفلاحين فعلاً، وفي كل مرّة كانت تحفظ وقائع الجريمة على اسم مجهول، لذلك فإنّ حظوته، عند الأسباد، كبيرة، وهيته عند الفلاحين مرعبة، غير أنّه لا يلدغ كافي. كان

من هذه الناحية غمراً، يمزق ضحيته بأنبيائه ولا تأخذه شفقة بأحد، ويظوف كل تلك الأنحاء وحده، ليلاً نهاراً، معتدلاً بقوة، وهذا هو الفارق، بين صراحته ومباشرته، وبين غموض المطعون ودسه الدائم .

على كل حال، فقد كان الوالد من صف الشوباصي، وكان معجباً به، ويكره المطعون ويناكده منذ الأسبوع الأول لوصولنا. أما أنا فكنت أنفر من الاثنين، اعتبرهما أداتين في يد الأسياد، أرى إليهما كجلادين، وكانت سرقة المطعون لحقوق الفلاحين تثيرني أكثر من مغازلته لبذور أو زكية، وأعجب خال الوالد. الذي لا يسكت على ضيم، كيف لا يهجم ما ينزل بالفلاح، بمثل ما يهجم إغواء المطعون لبذور أو غيرها.

ربما كنت الوحيد في العائلة، وعلى البورة، الذي انتبه إلى الصراع الخفي بين والدي والمطعون على امرأة، وأوجس من ذلك شراً. وكنت أترقب أن بتطور التنافس إلى عدا، ندفع نحن ثمنه، بانقطاع رزقنا الذي يشكل موردنا الوحيد.

وما كنت، في ذاتي، على أدنى شك بأن الوالد سيفوز. ولهذا رحت أراقبه. وراح هو يلاطف بدور، ويحوم حولها، ويدافع عنها، بينما كان المطعون ترشاراً لا أكثر، خوفاً. والوالد يدرك ذلك، ويضعه تحت إبطه، لا لأجل الزيادة في الوزن، بل لأجل العرق والمرارة.

كان العرق هو الدواء الوحيد الذي يسكن انفعال الوالد. كان مدمناً إدماناً مريضاً، ولكم نصحته الوالدة أن يقلع عنه ونحن في هذا الريف، ولكم قلّبت على الله أن يصرفه عن هذا الداء، غير أن رجاءاتنا، السوالدة وأختها، ذهبت أدراج الرياح.

كانت زجاجات العرق تظهر في الليل، تُغضرها الوالد لا نادري من أين، ولا يدخلها الحبيبة بل يخبئها في أدغال الزيتون، هنا أو هناك، لكننا نعرف أنه قد شرب من رائحته، من ارتقاء شفته السفلى، من عينيه اللتين يثابري فيهما هذه الزجاجات خاضع. وفوق ما كان يشرب وحده، كان يجلس

في الليل، مع المطعون ويشربان، وبعد أن يسكر الوالد، يغيب بين أشجار الزيتون، قاصداً قرية ما، مكاناً ما، ويتركنا قريبة للقلق والهم، أما المطعون فكان ينتشي فقط، وفي حال كهذه يرغب في الحديث إلينا. وملاحظة الشقيقة التي تعددته بنظرات زاجرة، فيدرك أن وقعتته سوداء معها، فيقلع عن ذلك حاصراً محاولاته بالفلاحتات، اللواتي كان يسرقهن، يستغلهن، ويسطو على من يجد لديها رغبة في ذلك.

وكان من عادة الوالد، حين يشرب أن يظل صامتاً مصغياً، يستمع إلى قصص المطعون راغباً في تصديقها. لم يكن، من جهته، يتحدث عن مغامراته وسكره. كان يعيش الحالتين دون أن يذكرهما في قصصه الكثيرة. يرى ذلك عيباً، يراه خروجاً عن المألوف. . كان من عادته التستر على مثل هذه الأمور. فوق أنه كان يرفض أن يعترف بأنه يسكر، وأنه، في سكره، يهوي إلى درك يابأه الرجل. كان يريد أن ينسى، كالبحار قماماً، لحظة ضعفه هذه، كيلا يعادوه الندم، هذا الذي يثقل وجدانه، دون أن يستطيع التخلي عن الفعل الذي كان مصدره.

وكانت الوالدة تصيح، من حيث نجلس أمام خيمتنا، ناصحة إياه بالكف عن الشرب، ويحببها بأنه انتهى. دون أن ينتهي، ودون أن يترك في الزجاجة قطرة واحدة. ففي جلسة انسجام كهذه، والمطعون يروي قصصه المشكوك في صحتها، كان يحلو للوالد أن يسهر طويلاً، سبياً وأن السهر شرط في وجوده على البورة، لكنه، من حين لآخر، ينتهر المطعون، يعربد في وجهه، فيحاول هذا أن يسايره، خشية أن يناله بأذى.

في قلب إحدى هذه السهرات الخلوة، سمع إطلاق رصاص في أحد جوانب الكرمل. أعقبه لغط وضجة، فقال الوالد وهو ينهض، متلحاً بعصاه:

- لا بد أن حادثاً قد وقع.

- لا حادث ولا ما يحزنون. . اجلس. .

- لن اجلس. . هيا بنا. .

رفض الوالد الجلوس . . كان رصاصاً حقيقياً هذا الذي سمعه . وكان
يخشى على البورة ، وعلينا ، فصاح بالمطعون :

- هيا . لماذا أنت جالس غير مبالي ؟

قال المطعون :

- لأنني لم أسمع شيئاً .

قال الوالد :

- أنا سمعت . . هذه أول مرة يطلق فيها عبارتي في الكرم . . لا بد أن
حادثاً قد وقع ، وعلينا أن نتبه ، أن نذهب إلى حيث وقع الحادث .

تصاغر المطعون وازداد قصراً ، كان يدين ، تخال أن رقبته غير موجودة ،
وإن الرأس قد ركب على الجذع مباشرة ، بينما ساقاه التحيلتان لا تتناسبان
مع ضخامة جذعه بأي شكل . وبعد أن ثأب قال :

- مالنا ولهم . . ذعهم يطلقوا النار . . نحن مسؤولون عن البورة فقط .

- ولكنه كرمنا . . والحراس ، في طرف منه ، أطلقوا النار . .

- لعلهم رأوا ضيعاً . .

- لنذهب ونز الضيع إذن . .

- وهل تسرك رؤية هذا الحيوان النتن ؟

- يسرن أن أرى ما يجري هناك . .

كانت كل من في البورة قد خرجوا . الوالدة والأختان وأنا ، والفلاحان ،
واجبال الذي بات ليلته على البورة بانتظار جماله التي تأتي صباحاً . لقد
تحرك الجسيم إلا المطعون . رفض الذهاب بإصرار وقال :

- دعونا في مكاننا . . إلى جهنم بما هناك . . المثل يقول : اللهم حوالينا ولا
علينا .

ضحك الفلاحان ، وقال عزيز :

- لكننا نحن هنا ، في الكرم . . يعني علينا وليس حوالينا . .

- سدّ بوزك أنت .. تترك البورة وتذهب، وإذا أغاروا عليها في غيابنا؟
- من يجروُ على ذلك؟
- لا أدري .. هل هذا الرصاص على الفاضي؟
- قال الفلاح يونس ساخراً:
- فوّصوا على الضيع يامعلمي ..
- سدّ بوزك أنت أيضاً .. على الضيع طبعاً .. وعلى مَنْ تظنُّ؟ من يسرق زيتوناً على أمّه؟ وكيف تكون السرقة والإنسان لا يرى إصبعه .. إذا كانت هناك عصابة، عدم المواخذه، فالخطر على البورة .. سأبقى على البورة .. انتظروا .. ساحضر الفرد^(١).
- دخل خيمته وأخرج فرداً صغيراً يكاد لا يرى .. كان الفرد غمره سبعة، لا يصيب لمسافة مترين، ومع ذلك كان المطعون يتباهى به .. وقد شكّله في زنّاره، وقال للوالد:
- اجلس .. إذا صار هجوم على البورة تصدّيت بمفردي لهم ..
- لن يقع هجوم على البورة ما دام فردك في يدك .. مع ذلك يجب أن نذهب ..
- أنا لن أبرح البورة ..
- أعطني الفرد فأذهب وحدي ..
- أنا لا أتخلّ عن فردي لابن امرأة ..
- شزّره الوالد بنظرة وقال نزعاً:
- أبق الفرد معك .. لكن عليك أن ترافقنا ..
- لن أغادر البورة ..
- أنت حرّ، سأذهب وحدي .. يجب أن أذهب، أنا حارس هنا ..
- أنت حارس على البورة .. انتبه .. في حال الهجوم على البورة سأحملك المسؤولية ..

(١) الفرد: المسدس.

انتشر الوالد :

- أيا متبذلة هذه؟ تطحن في التوبخ . التوبة سالمة، أي بخرها بعد .
- عينا ما . إذا كان جعاً سألني به للفرجة، وإذا كان بعداً .
- أيتها بك . إذا كان جعاً ربا كانت حبابه . وهذا تكلم من مسجود، أي
القبول . أمود بك . يا حبيب . أسبح . أو كسر إلى الشواهي .
- في له حلات في الحرم . قال له من ليلي أن يحضر لكواش^(١) والزعانف
وسبح . سألتهم من كملك .

قال الوالد نالده الصبر :

- يعني أن نذهب .
- قلت أن نذهب .
- نالده الوالد بعدة وعطى عشرين أجرة الزبائن . كان يعني مسرعاً . وقد
أنت أن عاب في الظلمة، ومثلك أرسل المظنون، وإذا كنت الكلبة .
- حشري^(٢) .

فالت الأم خاتمة :

- يا ويلي . . كيف حشر نفسه في شيء لا يعنيه؟
- وما حشري؟ الأم . إذا كان أحد لاجئاً وراء الزبينة، يشاء من ظهره .
- علق . ويضع على الأجر، ويحاشى ما يعطونه في هذا القيتل . الحواري .
- عني . حشري . إذا نفع ٣ شيء . نالده يا حشري .
- نالده الأم :

- يا سالم . يا سالم .

- عني أو السعد أم نفع . كان الوالد قد اتعد، ومثلك قال المظنون .
- نالده على كفة . سبغ صبر . أنا صحت . هذا خاتمة . حتى لو
هذا حالاً فهذا مخالفة . نالده التوبة حنحة منكبة . إذا كان هو لا

(١) المازنون : البندفة، كلمة تركية .

يسأل: لا يعرفه الأصغر، إذ يقدم في ملكه الفدك، لم يعرف قبل
 الآن، فأن يعرف على شيء، جذاً... الخافض، عدم المواجهة، لا يترك
 مسطحة... ولقد جسد، في التلقين، مشاعراً، فركضت في قيل
 لا تملأ، فأن قيل فأن تصف، إذ أحد جازياً في البرابوت،
 ركضت في منطقة أخرى، رأيت جازياً، ألقته اليد، ففكرت منقاة
 ففكرت فأن إله لا يستطيع التدخل في منطقة غيره، لا يترك أن يترك
 حرمة البرابوت التي هو فيه، بحوله، نجته، أعاني، لو لم أكن
 جازياً فركضت معك... أنا وأنا جازياً، ولي هذه المنطقة، فإن
 المسؤولية تقع على إله أركها... سأكتفي بإطلاق الصلوات... معاً
 أطلق هذه صلوات... صلوات الصلوة من بعد... ألقها من
 المشاعر، التي تهت بهتة، إذ يستطيع أحد أن يفرقه... كان الصلوات،
 راسخ القلوب والظام، ولا ما معنى النظام؟ ما معنى الاضطراب الطام
 بالشرط والدرك؟

أحدث الأم يعني لم تجد

لا أخرى... لم أكن جازياً، ولا أحد من الملكة مارس هذا الشيء.
 أن أخرى... القانون هنا واضرب على صدره؟ النظام هنا (وضرب على
 صدره ثانية) وقد كتبه، القيلة، نظاماً، مسئولياً، ولولا هذا روحك
 لكانت بالقيلة... كان جذاً أن أكتب بالقيلة... حتى لم اضطررت إلى
 سحب القود، لم اضطررت إلى إطلاق النار.

جذعت الأم

وعل... كيف أطلق النار؟ قتله؟

قتله... نعم قتله... أنا لا أريد التكلّم عن نفسي... أنا، يا أختي،
 مشرقي... أنا ضد القود، قد... ج... ج

أحد كلام؟ قتله لأنه خالفك ولعبت أخرى خذت؟

أقتله ولا التحمل مسؤولية... أنت أختي، هنا، وكثير المواجهة؟

- أنت وكيل القبان، وكيل الحسابات، لكك لا تستطيع أن تفتله . . الرب لا يسمح . . وانت، أنت لا تفعل هذا . . أرجوك . .

- لا تترجيني . . الرجاء لا يقع . . إذا دارت في رأسي، وكان القانيون إلى جانبي، فلنني أفعل كل شيء . . زوجك، يا اخني، تمادى . . تمادى كثيراً . . هل عرفت ماذا فعل أمس؟

- ماذا فعل من غير شر؟

- تدخل بيبي وبين بذور، تعرش بها . . زوجك ونسونجي^(١)

- أنا لا أصدق . . زوجي يحب السكر، لكنه لا يركض وراء النساء .

- ماذا؟ تسترّين عليه؟ لقد فعلها هنا، على البورة، وأمام عائلته، وبوجودي . . وفي دائرة مسؤوليتي . . لا . . لن أسكت عن هذا بعد اليوم، لن أسمح له . . وإذا تمادى أكثر، عدم المؤاخدة، شكوته إلى الحواجة وأبعدته عن البورة . . وجعلت تعبكم يضيع . .

- يا شخار رأسي، لا نقل هذا . . أرجوك . . استجبرك . .

- لا تستجيري . . لن أقبل رجاء بعد اليوم . . يكفي . . قلت بكفي، يعني يكفي . . هذا الفرد لم أجلبه من بيت أبي، الخواجه بذاته أعطاني أباء . . قال لي: «أطلق النار ولا تخف . . المحافظ مثل الخاتم في إصبعي» .

- وانت لن تطلق النار، اليس كذلك؟

- سأطلقها . . نعم سأطلق النار عند اللزوم، وإلا لماذا أحمل هذا الفرد؟

كانت الشقيقة التي ورثت عن والدي الجسارة، تسمع وهي تبسم . كانت حركة المضغون نوعاً من تمثيل مسلّ بالنسبة إليها . كان تهريجاً يريد أن يستمر حتى يعود الوالد . إنها تعرف، كما تعرف الأم، أن الوالد يسكر، يرحل، ينشرد، يرغب إذا رأى امرأة، لكنها كانت تعرف أيضاً أنه لا ينفذ

(١) نسونجي : زير نساء .

للتهديد، ولا يصبر على ضيم، ولو سمع ما يقوله الوكيل لحمله وطمره في بيدر الزيتون.

أخيراً بعد صبرها كما يبدو، فخرجت من وراء الأم وقالت للوكيل باستهزاء كامل:

- أنت ستطلق النار؟

- اسكني يا بنت. ادخلي الخيمة. لا أريد، عدم المؤاخذه، تدخلًا في شؤون الرجال.

- أنت تهدد بفردنا من البوة جميعاً. تخوف أمي المسكينة. أين هذا الفرد الذي تشهور به^(١)؟

- الفرد في مكانه. وأنا لا أتحدث مع النساء!

- ولكنك كنت تهدد أمي..

- نعم.. هددتها. وماذا تريد من حضرتك؟

كانت في يدها عصا تنكس عليها، رفعتها. تقدمت وهي تقول:

- أين الفرد؟

أجفل الوكيل. رفع عصاه. ناحت الأم. ركض الفلاح عزيز، وتابعت الأخت تقدمها وهي تقول:

- أعطني الفرد..

- ماذا؟

قالت باستهزاء وهي تمد يداً ثابتة إليه:

- كي لا تقوّص والذي حين يعود!

- أنا لن أعطيك أي فرد.

(٢) تشهور: تتجمع مع حركات تهديدية.

- إذا لم تعطني الفرد أخذته بالقوة.
- أنت تأخذين الفرد بالقوة؟
- أو تطلق النار علي؟
- أنا أطلق النار على امرأة؟
- أنت رجل .. رجل خطير .. أنت لا تفعلها مع امرأة .. تريد رجلاً مقابلك .. وبعد قليل يأتي والدي ونرى .. ستكونان رجلاً لرجل .. والدي أيضاً لا يضرب النساء .. والدي يضرب رجلاً مثله ، وأنا أخاف أن تقوّسه ، أخاف جداً ، أنحلّ من الخوف ، لذلك أعطني الفرد .. أو أعدّه إلى الخيمة .. هيا!
- وإذا لم أعطك الفرد ولم أعدّه إلى الخيمة؟
- عندئذٍ أجعل الشوباسي ، والخواجة ، والحاضرين ، يروون قصة طريفة عنك ..
- لا تهديني .. اسمعي ، أنا لا أؤخذ بالتهديد .. المطعون لم يأخذه ابن امرأة بالتهديد ، المطعون يؤخذ باللين ، بالكلمة الطيبة .. قولي كلمة طيبة وأنا أترك الشرّ جانباً.
- أعطني الفرد إذن.
- وإذا أعدته إلى الخيمة؟
- نعود أصحاباً كما كنّا .. نعود عائلة واحدة كما عشنا حتى الآن.
- ولن تقولي لوالدك شيئاً؟
- لن أقول له شيئاً ..
- اسمعي ، أنا لا أخاف من والدك ولا من غيره ، ولكنني أريد أن أكسر الشرّ ..
- هذا واضح .. أنت لا تخاف .. ولماذا الخوف؟ اذهب إلى خيمتك .. دُع والدي بحانها .. كفّ بلاءك عنها ، سمعت؟ هذه آخر مرة أسمع منك

تهديداً . نحن، هنا نعمل بعرق جبيننا . الميزان في يدك، ويدك وما
تطول، . واعتباراً من الغد سأراقب القبان . أنا نفسي .

ابتسم المطعون:

- هوه . هوه . لم تصل الأمور إلى هذا الحد . لن أهددكم . أنا
أهددكم، ومن أنتم؟ عظمي ولحمي؟ عمك من يكون؟ زوج خالتي . .
تحسيني أنسى القرابة؟ تظنني لا أعرف من هو أبوك . . وكيف كان في
إسكندرونة، وقبلها في مرسين . . يا أخي، ابتك لا تعرف القرابة التي
بيننا (هى، هى، هى) لعن الله الشيطان . . لم نسمع ولا طلقه
واحدة من جديد . . معنى هذا كل شيء على ما يرام . . والمسألة
سليمة . . سيعود المصري بعد قليل . . العمى وكيل يقوِّص الحارس؟
من سمع بهذا . . والدك، يا بنتي، أخي . . سترين الآن، سترين حين
يعود أننا إخوة . .

عاد الوالد بعد قليل . . كان يضحك، ويهز برأسه، فوقف المطعون،
وتقدّم نحوه، وصاح معطياً لنفسه وضع خطورة مبالغاً فيه:

- خير . . خير . . ماذا جرى؟

ضرب الوالد يداً بيد وهو يقول:

- يا عيب الشوم . . حسبناها معركة، حسبناهم أطلقوا النار على
لصوص . .

- وعلى من أطلقوا النار إذن؟

- على ضيع . . (قالها وهو يواصل الضحك).

صاح الوكيل:

- أما قلت لكم إنه ضيع؟

زوى الوالد بين حاجبيه، أغمض عينه الواحدة علامة انهزم،
والاستخفاف والغضب:

- أيّ ضيع هذا يا مطعون؟ جئت . . ؟ ما دخل النواطير في الضباع في هذا الليل؟

صاح الوكيل نافذ الصبر:

- قل لنا إذن، ماذا هناك، عل من أطلقوا النار؟

قال الوالد وهو يدفد شفتيه علامة الأسف:

- أطلقوا النار يا حضرة الوكيل على فلّاح؟!

- فلّاح؟

- نعم فلّاح . . من «ح» نفسها فتأمل! كان الفقير يمرّ بالكرم، وخطر له أن يمرش حفنة زيتون لأولاده .

- يعني يسرق؟

- وهل هذه سرقة؟

- وما اسمها إذن؟

- فشرة . .

- كيف فشرة؟ وابن هو الفلّاح الآن؟

- في الطريق . . قيّده وساقوه إلى البورة . . ثلاثة نواطير، وجفت مصوب إلى فلّاح أعزل، فهل يرضيك هذا؟

- يرضيني؟ نعم يرضيني . . يسرق ونقول له عافاك؟ لولا سهر النواطير لضاع الكرم، أين هذا الخنزير؟ أين ابن الكلب هذا؟

قالها وشرع يروح ويغي . . الوالد قرفص قرب البورة يلفّ سيكارة، وظلّ الوكيل يمشي، يقف، يتكلّم، يؤشّر بيديه، أصبح مستثّاراً، خبر السرقة استثاره، وزاد في استثارته أنهم قبضوا على اللصّ، وساقوه إلى البورة .

أخرج المطعون قضيب رّمان من الخيمة، وفام بحركات مسرحيّة

عنترية، والوالد يروزه، ينظر إليه من طرف عينه، حتى إذا لم يعد لديه مجال للصبر صاح به:

- مالك يا مطعون؟ تذهب ونحني كالدجاجة التي في مؤخرتها بيضة، اهدأ، اجلس، ماذا ستفعل بهذا الفلاح الفقير؟

- أنا لن أفعل أي شيء، حين يصل سأطلب من النواطير ربطه بالزيتونة، تقييد جذعه إلى جذعها، وحين يصل الشوباصي يرى رايه فيه، أنا مسؤول عن البورة فقط. هو المسؤول عن الكرم، وعن الضيعة، وعن الزراعة كلها، والويل لمن يقع في يديه، سيمتني لو لم تلده أمه.

- ومن أجل ماذا؟ حفنة زيتون؟

- ليكن.. الحفنة مثل الشنبل، وهذا مثل البيدر.. السرقة هي السرقة. من يسرق يعاقب، سترى الآن ماذا يفعل أبو اسكندر به. سيضربه حتى الموت، وبعد أن يشفي غليله منه يسلمه غداً إلى الدرك، ورأساً إلى السجن، وهناك، في بيت خالته يعرف أن الله حق، يترن.

- هكذا إذن يا مطعون؟

- وماذا تظن إذن؟ الدنيا سائبة؟ مال بيت فـ؟ داشر؟ ولماذا النواطير والوكيل والشوباصي؟ لماذا يدفعون لهم أجورهم؟ والدرك لماذا يعلفونهم؟ أليس لمل هذه الأوقات؟

- وما دخل الدرك في القضية؟ فلاح كان يمر بالكرم..

قاطعه:

- أرجوك لا تستخدم عبارة كان يمر بالكرم.. أنا أسمعها منك، الليلة، للمرة الثانية. الفلاح، عدم المواخذة، لم يكن يمر بالكرم بل قصده، تسأل إليه ليلاً ليسرقة. هذه جنابة موصوفة، عن سابق تصور وتصميم.

قال الوالد يهدوء وتأنيب:

- وما هي هذه الجناية الموصوفة؟ وما معنى موصوفة، وعن سابق تصور وتصميم... نكلّم بالعربي.. تريد أن تعاقب هذا الفلاح الفقير، أم تفلّخ القضية كأنّ شيئاً لم يكن؟

- ما شاء الله! قال حارس قال.. أنت حارس ونقول هذا الكلام؟ كيف، بالله عليك، نفعل إذا جاء فلاح غداً وسرق البورة أمام ناظريك؟

- سرقة الزيتون عن البورة شيء، ومرش حفنة زيتون للأولاد الجباع شيء آخر.

- كلّ واحد. السرقة هي السرقة أينما وقعت.. لقد سرق.. وقُبض عليه، وهناك شواصي، وحكومة.. ليكن هذا كلّ في علمك..

- كثر الله خيرك.. شهم والله!

- تعرّض بي؟

- استغفر الله.. من يجرؤ على التعريض بالوكيل؟

- لا تستغفر الله على الخطأ. الأصل ألاّ تخطيء.. أنت، يا مصري، صاحب مشاكل. أعرف شقيقك، حذروني منك، ومع ذلك قبلت بك حارساً.. انتبه، أنا لا أستطيع، عدم المؤاخذه، أن أحميك كلّ الوقت.

- وأنا لا أحتاج إلى حمايتك..

- إذن ضبّ لسانك.. دعه في حلقك.. لا تتدخل بما لا يعينك.. وهذه المرحلة التي عملتها الليلة لا أريدها أن تتكرّر. حين لا تكون السرقة على البورة فلا دخل لنا. أما إذا كانت على البورة فعندئذ أظهِر مرجلتك.

- العقوب يا جناب الوكيل..

- لا تستهزئ.. هذه السخريّة المسمومة لا أريدها.

- أنا أقول العفو... من يجرؤ على سرقة البورة ورجل مثلك موجود عليها؟
- تنتقص من شجاعتي؟ أنت، يا مصري، لا تعرف من هو المطعون
بعد... لا أريد الكلام على نفسي، عيب على الإنسان أن يمدح نفسه،
أما عندما يحدّ الجحد... اسمع... لولا أن استعجلت بالذهاب لكنت
رأيتني أخرج الفرد والقمة... أجعله جامزاً للإطلاق... وإذا اقترب ابن
امراة يلقي مصيره.

قالت أختي التي كانت تسمع الكلام:

- منذ ذهابك يا والدي وهو يشهور بفرده... احذر فقد يطلق النار عليك.
- علي؟ قال الوالد بسخرية (ومتوجّهاً إلى الوكيل) حقاً تطلق النار علي؟
- عندما يكون هناك موجب لا تردّد...
- مثل ماذا؟

- كأن تنهاون في الحراسة، أو تنهاون مع اللصوص... قد لا تصل المسألة
إلى حدّ إطلاق النار، ولكن إذا اقتضى الأمر، انتبه أقول إذا اقتضى
الأمر.

قال الفلاح عزيز:

- الوكيل يفعلها... أي نعم، يفعلها...
كان الوالد يدرج سبكاره، فلم يرفع رأسه بل قال:
- العفو منك يا مطعون... ولكنني، إذا أخرجت الفرد ثانية، سأضعه
هنا...
قالها وأشار إلى مؤخرته...

استثارت حركته الضحك من حوالبه، بينما أربد المطعون. تغيّر لونه.
ملأه الغضب، وعوى بغير داع:
- هذه قلة حياء...
- هذه قلة حياء...

نهض الوالد . ركضت أختي ووقفت في طريقه . أزاحها، تقدّم بهدوء،
بأن الشر في العقدة بين حاجبيه، لكن المطعون تراجع، وصاح بالفلاح
عزيز:

- انظر ماذا يفعل؟ أنت شاهد . . سأخرب بيته إذا مدّ يده عليّ.

وما كان الوالد ينوي ضربه . أراد إخافته فقط، فتراجع حتى صار على
باب خيمته، منكشأً، متضائلاً أكثر مما هو في الواقع . وفجأة ضحك
الوالد . قال وهو يخرزه بعينه:

- لن أضربك . . أنت لا تستحق ذلك . . يا ضياع الضرب فيك . . أما إذا
تلفّظت بعبارة مماثلة مرة أخرى فسترى!

لم يجب المطعون بشيء، كان الفلاحان عزيز ويونس حاضرين، وكان،
على أطراف البورة، بعض الناس . وقد استيقظ الخوف في ذات المطعون،
ركبه وسواس من النوع الذي يعتاده إذا هدّده أحد، لذلك أخذ إلى
الصمت.

وحين تراجع الوالد إلى وراء، خرج هو من الخيمة، وتوجّه بالخطاب إلى
أمي:

- ليس كرمي له، بل كرمي لكم، اعتبر ما كان كان لم يكن، أنا، بعد كل
شيء، لا أخون الخبز والملح . أنا هو الوكيل لا زوجك، ومن الآن
فصاعداً سأجعله يعرف هذا، وأعامله كعزيز ويونس تماماً، دون اعتبار
للقرابة البعيدة التي بيننا.

قالت الأم ملطّفة الجو:

- زوجي لا يقصد شيئاً . سمع صوت الرصاص فذهب ليرى ما هناك،
وهذا لا يستدعي كلّ هذا الغضب منك.

- ماذا؟ لا يستدعي غضبي؟ ولماذا أنا وكيل هنا؟ تظنّين أن الوكالة جاءتني
بسهولة . . هذه حصيلة أعوام من العمل والتفاني والثقة التي نلتها

بوفائي وإخلاصي ..

- نحن نعرف هذا . نحترم وكالتك . لا نخالف تعليماتك . . بماذا نأهلهنا؟
قل ، حاسبي إذا اقترفت ذنباً .

- أنت طيبة . أشهد بالله أنك طيبة ، ولم تبدر منك بادرة سوء ، أما زوجك ؛
وابنتك ، فلهما حساب عندي ، وياله من حساب عسير . . حين يؤون
الأوان .

في هذه اللحظة علت ضجة من بعيد . كان النواظير الثلاثة ،
وزوجاتهم ، وأولادهم ، يسوقون صخر الفلاح مقيداً ، وقد ركض بعض
الفلاحين من هنا وهناك ، وحاول بعضهم تسوية القضية ، كيلا تصل إلى
البورة أو يسمع بها الشوباصي . لكن الناطور الذي أطلق النار رفض ترك
صخر وأصر على تسليمه إلى الوكيل .

كان صخر الفلاح طويلاً ، بارز العضلات ، معافي البنية ، في عينيه
جسارة ، وفي وقفته نوع من التحدي الذي زاد في رهبة المطعون ، وجعله
يزعق بأعلى صوته :

- يا ابن الكلب ، تسرق زيتوننا؟ قل لي منذ متى وأنت تسرق؟ ، وكم شوالاً
ملأت حتى الآن ، ولمن بعت الزيتون المسروق؟

قال صخر الفلاح هادئاً متماسكاً :

- أنا لم أسرق أيّ زيتون ، لامن كرمكم ولا من الكروم الأخرى . أنا
مرايع عندكم ، وقد تشققت كفاي من العمل في فلاحه هذا الزيتون ،
وكننت ماراً بالكرم ، فخطر لي أن أقطف حفنة لأولادي الذين يعيشون
على خبز الشعير الأسود اليابس .

- اخرس ، أنت كنت تسرق . . أما فلاحه الأرض فهي من واجبك ولك
عليها أجر .

قال صخر :

- أيّ أجر هذا يا مطعون؟ .. إنه لا يطعمنا خبزاً .. نحن حفاة عراة
نساّدم بالحشيش . إننا لا نعرف الشبع ، حياة الكلاب أفضل من
حياتنا .

قال المطعون :

- على فرض أن ما تقوله صحيح .. فهل يبرّر هذا سرقة الزيتون ليلاً؟
- قلت لك ما كنت أسرق .. مصادفة مررت بين الزيتون وقطفت مقدار
حقنة ، فهل هذه سرقة؟

قال الناطور الذي أطلق النار عليه :

- وكيف تكون السرقة إذن؟

- تكون باغجوم على الكرم ، وقطف الزيتون بالقوّة .

قال المطعون :

- لو كان لديك سلاح لهاجمت البورة نفسها .

قال الفلاح بحقد :

- يا ليتني فعلت .. هذا الزيتون المكوّم هنا ، من حقنا ، من تعبنا ، من
عرق جباهنا .

- والأسياد؟ وأصحاب الكرم؟

- يبقى لديهم ما يكفي ويزيد ..

كنت أفق في الحلقة التي وضع صخر وسطها . . والبنادق مصوّبة
إليه . كان جميلاً ، بعينه السوداوين ، ولامبالاته بكل ما ينتظره من
عقاب ، لقد سرّني مرّاه ، أسعدتني كلماته . كانت كلمات مما سمعتها في
إسكندرونة . وتعبيراً عن إعجابي ركضت وأحضرت له طاسة من الماء ،
فشرّبها كلّها ، حين أدنيتها من شفّتيه .

قال لي :

- تسلم يداك .

عندئذ انتهرني المطعون :

- من أمرك بجلب الماء له ؟

- أحضرته من تلقاء نفسي .

- لو فعلها غيرك لأريته كيف يتجاسر على ذلك .

قال الوالد :

- ولكن الرجل عطشان . . وهو تعب ، وربما جائع ، فهل نتركه يموت لأجل حفنة زيتون ؟

- هذا ليس شغلك . . اهتم بما يعنيك ، إذا تساهلنا مع سارق حفنة الزيتون ، نجعل الفلاحين يطعمون فينا . . يسرقونا وعيوننا مفتحة ، العدل ملح الأرض ، من يسرق يعاقب ، ونحن نعاقبه لأنه سارق .

فكرت بالعدل الذي هو ملح الأرض ، وهذه العينة منه ، وتساءلت : من الذي يعرف العدل ويطيقه ؟ القاضي موظف في السلطة ، والسلطة بيد الأسياد ، والعدل ، إذن ، غدقهم ، ولمصلحتهم ، وليس للفقراء والمضطهدين من أمثالنا .

أخيراً طلب المطعون تقييد صخر إلى شجرة زيتون غليظة الجذع . أوصاعهم بشده اليها جيداً . فعلوا ما طلبه منهم ، أوثقوه بالحبال ، ولم يصرخ أو يتأوه أو يحتج ، ظل قوياً ، شجاعاً ، متماسكاً ، وفي وجهه تعبير ساخر بكل ما يجري .

بعد ذلك أخرج المطعون قضيب الرمان من الخيمة . كان الآن متعطشاً للانتقام ، للإرهاب ، لإدخال الرعب إلى قلوب الحاضرين ، ومن أجل ذلك ساطه بضربة على خاصرته ، تبعها بضربة أخرى على فخذه ، وانهال ، بعد ذلك على جسمه كله ، ولم يوفر حتى وجهه . وصخر صامت ، لا يصرخ ، لا يتأوه ، لا يئن ، ولم يقل إلا عبارة واحدة :

- ستدفع الثمن يا مطعون . . .

ولم يكثر أحد بما قال صخر، عدّوا كلامه تهديداً عابراً، صدر عن
الم وجروح ملتهبة في الجسم الإنساني الذي أصبح الآن مدمى كله .
وفجأة وصل الشوباسي . وصل الرعب الذي لا يقاوم . أوقف
المطعون عملية الجلد وهرع للترحيب به . قال :

- أمسكنا بهذا السارق بالجرم المشهود .

سأل الشوباسي وفي وجهه يتشهى غضب قاتل :

- ومن الذي أمسكه ؟

تقدّم الناطور الذي أطلق النار وقال :

- أنا يا أبو اسكندرا

- وما هي كمية الزيتون التي سرقها ؟

- ليست كبيرة . .

وقال الوالد :

- مجرد حفنة يا أبو اسكندر .

غير أن الملاحظة لم ترق للشوباسي ، فحدّجه بنظرة صارمة ،
وأجاب بهجاء :

- أنا أسأل الناطور لا أنت . ابق ساكناً .

امثل الوالد للطلب . أغلق فمه وابتعد . فعل ذلك على مضض . كان
يعرف أن الشوباسي غير الوكيل ، وأن الشجار معه سيؤدّي ، لا محالة ، إلى
الموت أو مغادرة البورة .

بعد هذه الكلمات ساد صمت تام على البورة ، كأن الرعب قد حلّ
عليها . ومع أن الفلاحين عزيز ويونس كانا يتألمان لربط صخر بالشجرة ،

وجلده بقضيب الرمان، فإنها أثرا الصمت، وذهبا فوقنا على الطرف الآخر للبويرة.

الكلمة الآن للشوباسي. هو الذي يحكم في الموضوع. توقع الجميع حكماً قاسياً لا رحمة فيه. لكن الشوباسي، لإطالة عذاب صخر والحاضرين، لزم الصمت، وراح يلفّ سيكارة وهو مطرق مفكّر.

أنهى لفّ سيكارته. أشعلها، شربها كلها، ثم نهض وسار بخطى وثيدة، راسخة. غنيفة، حتى واجه صخر، ودغما كلمة، صفعه بكفّه الضخمة صفعة استنفرت الدمع من عينيه.

- كلب، قال، تشتغل عندنا وتسرقنا، أين الأمانة لمن يؤويك ويطعمك؟ رفض صخر الكلام. اكتفى بنظرة تكثف فيها حقد حارق كالناو. إنه لم يسرق. ما فعله لم يكن سرقة، كان إداماً قليلاً لعائلته، وكان هذا من حقه الذي لا يعرف طريقة لاسترداده.

وكان الشوباسي، بخلاف الوكيل، يكره اللجوء إلى الدرك، يميل إلى تأديب الآخرين بنفسه، وكان ينزّ غضباً وهو يرى الفلاح «السارق» أمامه، لكن هذا الفلاح كان قد تمزّق جسمه، وجرت الدماء من وجهه وعنقه ويديه، وقد سبقه إلى ضربه المطعون.

مع ذلك كان عليه أن يثبت، هو لا المطعون، أنه كتلة الرعب التي تنتقل من مكان إلى آخر. وهذه الكتلة هي هنا الآن، أمام سارق ضبّط بالجرم المشهود. كان عنقه من نوع آخر، كان عنفاً تكفي فيه النظرة، الحركة، الكفّ التي خلقت للصفع، لذلك اكتفى بعدة صفعات، وبضربات موجعة من عصاه الغليظة وقال لمن حوله:

- اعتبروا بما ترون، لقد رأيتم ما حلّ بهذا اللص.

عندئذ صاح الفلاح، من بين دموعه وجراحه:

- لم أسرق.. وحقّ الله لم أسرق.. كل ما فعلته أنني مرشّت حفنة زيتون

للأولاد. ليس في بيتنا شيء، وخطر على بالي أن الكرم أكرم من صاحبه،
وأني يمكن أن أمرش حفنة زيتون، ليأكلها الأولاد فريكام مع الخبز.

زعم الشوباصي وهو يدفع قبضته في صدر الفلاح:

- اخرس يا عرص!

خرس الفلاح، لوى رقبة من الألم، وطلب أن يقيدوه إلى الشجرة وهو
جالس فرفض المطعون.

في اليوم التالي جاء دركيان على حصانين، بأيديهما الكراييج، وعلى
كتفيهما البنادق، وراح المطعون يتمسكن أمامهما، ويشرح لهما ما وقع،
وكيف ضبط صخر وهو يسرق الزيتون. لم يكن الفلاحون في الريف
يعرفون الحكومة. كان الدركي هو الحكومة، وكان يتصرف على هواه،
ويضرب الفلاحين بغير رحمة، وأحياناً، إذا كان المطلوب فاراً، يقبض على
والده أو أخيه أو ابنه، وتعمل يد التخريب بكل ما في بيته من مؤونة أو أثاث
قليل.

وأمام مشهد الدركيين يترجلان عن فرسيهما، دب الخوف في الجميع،
وقبل أي تحية أو سؤال، اتجها إلى صخر وانهاالا عليه ضرباً بكرساجيهما،
وكعادته بقي صخر صامتاً، بعض على شفثيه ولا يصرخ، حتى إذا ضرباه
بما يكفي، أظفرا مما أعدّه لهما المطعون، وأوثقا صخر بمؤخرة سرج الفرس،
وساقاه إلى سجن اللاذقية.

وراحت امرأة صخر تستجير، ترغمي على قدمي المطعون، وقدمي
الدرك، وتشفع بالموجودين، وتبكي، لكن ذلك لم يفد، فقد ساقاه عبر
غابة الزيتون، وابنه الصغير يركض وراءه وهو يصرخ:

- إلى أين يأخذونك يا ببي؟

مضى الدركيان بالفلاح صخر مثقيد اليدين، مربوطاً بحبل نخين إلى سرج الفرس، وسارت وراءهم امرأة الفلاح وأولاده، وظل طفله الصغير يصرخ ويتمرغ في التراب. وحين ابتعد الموكب قليلاً، لكز الدركي فرسه فانطلقت خبياً، واضطر الفلاح المربوط إليها إلى الركض بدوره، وتبعته العائلة مهرولة، وبكى الأطفال، وعبثاً حاولت الأم أن تسكتهم، وعبثاً حاولت حمل الصغير إلى القرية، فقد كان، في هذه اللحظة، يريد والده، وليس من شيء في الدنيا يعادل أن يعود إليه، ويضمه إلى صدره.

أنا لا أعرف بيت «ف»، لكنني تساءلت: لو كانوا موجودين، ماذا كان في مقدورهم أن يفعلوا أكثر مما فعل الوكيل والشوياصي ورجال الدرك؟ هؤلاء ليسوا أصحاب الملك. إنهم حرّاسه، رجال الاقطاعيين، وكلّ اقطاعي يتقوى بملكه ورجاله أيضاً. هؤلاء ليسوا رجالاً... إنهم عبيد حتى آذانهم. لقد بدا والدي، على ما بيني وبينه من نفور، الرجل الوحيد بينهم، الرجل الشجاع الذي قال رايه، وهو يعلم أن أحداً لن يستجيب له. ما حمّ! الكلمة تبقى أثراً، وقد رأيت أثر كلمات الوالد على الفلاحين عزيز ويونس والآخرين، الذين أذلّم الموقف، أحقّتهم، أغضبهم، لكنهم لم يحركوا ساكناً. ما كانوا قادرين على شيء، لكن كان في عيونهم وعيد. نظراتهم توعّدت. حركاتهم توعّدت. شعور رؤوسهم توعّدت، وفي قلب

الصمت الذي ران على البورة بعد سوق صخر إلى السجن، سمعت وعيدهم مسحوا على المستقبل.

اعترف أبو اسكندر كان شجاعاً. كنت قد سمعت من والذي عنه، نكتني، وأنا أراه يصنع الفلاح، كرهت شجاعته نفسها، لقد استعملها في غير محلها، وأمي التي ركضت تقدم القهوة إليه، كانت تصدر عن خوف لا عن تكريم. الوكيل تناول القهوة أيضاً. أقعى أمام الشوباسي إقواء الكذب أمام سيده. الشوباسي يفعي أمام سياده بدوره، وأقعى الملاحان، بعد قليل، على طرف البورة، وران الصمت.

كل الذين كانوا هناك هبطت عليهم سكتة ماعطة. لم يتكلم أحد وفي عيني الولد كان طفل يرتعب، إنه يغلي من الداخل. لم يفهم كيف، لأجل حنة زيتون، يفعلون بالفلاح كل هذا. وكان غيب واضح في عيني الشيفقة. لكنها، بحضور الولد، لم تكن تتكلم، ارتدت إلى الوراء. تركت لأم تقوم بالخدمة. لكنها، عندما التفتا، تحت زينة عبدة غليلاً، سألني:

- أرايت؟

لم أجب. كنت قد رأيت. كانت تعرف أنني رأيت لكنها سألت مستكراً. كان هذا الاستكمام منها لعبة بالنسبة إليّ. أعني حينئذ تضامنت معي. كان قد معها وأصبحنا، شكر أيا أخت. منا كنت سيئة. وما كان الولد شيئاً. لكنه ليس إلا عرساً. ليس إلا أجراء على السور، عمالاً مزدوجين، سبعة مشرفين، يحاول أن يأكل جوتا المعجوس ويعوم.

الشوباسي لم يتكلم أيضاً. كان وقوراً رقيقاً، طائفاً. كان هذا الكلام من القلة لخط العودية، لكنه، لم يقل شيئاً. لأنه رأى طرأس الحفيدة. احترم ما فيها من غضب، أدرك، هو الخير، أنها وحشة للمأساة. وأنا سألكم وأنت من الخير أن يدعنا لنأكل، حواظنا. إنه يعرف الفرق بيننا وبين الفلاحين. نحن ليسا فلاحين. نحن من المدينة، وهو يعرف هذه الحقيقة.

يعرف أيضاً أننا ، إذا ما صرنا غداً فلا حين ، فيكون نصيبنا نصيب الفلاح صخر ، هو ، عندئذ ، سيجلدنا . سيصفعنا كما صفع الفلاح . وسيقربنا بالعصا أو قضيب الرمان ، وإذا قاومنا فيقتلنا ، إنه قادر على القتل ، ومستعد له في كل لحظة . هذه مهنته . كان شجاعاً ، وشهياً وربما كان إنساناً ، لكن السادة اشتروا شجاعته وشهامته وإنسانيته ، صبروه بلذهم الضاربة ، وبذقيتهم الفائقة ، وضيرهم اللدود ، إنه لا يتكلم ، حين يفعل ذلك بصدر أحكاماً نافذة . هو ، هنا ، الحاكم . يحكم باسم السادة ، وباسمهم يتخذ الخلد والعصوب والعقوبات ، ومقابل ذلك يعطونه أن يعيش جيداً ، وربما أباحوا له ما لا يباح من أنفسهم ذاتها .

ارتفعت النسب منسلفة جانب القبة السماوية كانت حارة منذ الصباح . الآن ، بعد الذي شهدته ، ازدادت حرارتها غضبت على طريقتها . أرسلت أشعتها شوطاً حارقاً تجفف دموع الأرض وأمسها المعدب . أي كان معدباً ، أمي كانت معدبة ، أما وأختي كنا معدبين ، لكن عدائنا توحدت الآن . رأسها كان عذاب الفلاح ، هو أيضاً لحمل . في سبل حنة زينون لعائلته الجائعة ، وبسة السرقة . كان يضرب ، يوثق بالقيود ، يُرسل إلى قمر ، يُجبر حباً إلى المدينة ، حيث السجن فاعرفهم للحطب أمثالهم ، دون أن يوضح أو يتوصل . في السجن سيحكمي فضله . سيصدفها بعضهم يرفضها الآخرون . فالدير أجروا يرون الإحرام في كل من يدخل قلوبهم ، أما الأرباب ، المظلومون ، فيضفون إلى جانب هذا السري . مثلهم . قد يكون بينهم من يسمع النصرة ويردعها إلى أصلها الاجتماعي . وقد يكون من ينسئ لها ، كحكاية لا رابط بها وبين ما يجري في المجتمع ، لكن الاحساس بالظلم يمسس الجميع هنا أيضاً أمثلة ، في السجن أمثلة من نوع آخر ، هي النوع الأكثر شعوراً بالرافطة الاجتماعية . لكن صخر لم يفهم ذلك بالسرعة المطلوبة . سيسمع ، بدوره ، قصص الذين وقعوا في الأساق المظلمة مثله ، وسيرى المصائب كثيرة وكبيرة . سيرى أمثلة من جنس إلى جنس ، وقد يقع في حيرة وهو يشاهد هذه

يرفع عن صدورنا هذه الجبال الرصاصية؟. لكنه سيجد الآخرين، الذين تركوا عيائهم بائسة، والذين بكى أطفالهم وهم يساقون مكبلين كما بكى أطفاله، وينظرانهم الغضوب، سيخترقون جدران السجن بنظرات شاقبة، نظرات ضاقت ذرعاً بالصبر ولجأت إلى شتم الدنيا التي لا تبرد مظلمة. ولكن لا بأس! هؤلاء أيضاً سيتعلمون في هذه «المدرسة» جيداً، سيعرفون أن الإنسان لا يموت لمجرد أن السادة يريدون له الموت، وأنه قادر على المقاومة، وعلى الصبر بحقد يتغذى من ذاته، وقادر أن يفهم ويتفاهم ويعيش ليوم يخرج فيه وهو يطلب ثأراً لا يدري متى يدركه.

على البورة كان المطعون يروي للشوباصي كيف سمع إطلاق الرصاص، وكيف ذهب الوالد ليرى ما هناك، وكيف بقي هو لحراسة البورة. كان يقول: إني مسؤول هنا، وكان عليّ الاستعداد للدفاع عنها، وقد أخرجت المسدس، واستفترت الرجال، وأكثر من ذلك، قدتهم للبحث حول البورة، وطمانت النساء، وكنت الليلة كما كنت في ليالي خدمتي في الدرك، جندياً يؤدى واجبه.

ولم يردّ الشوباصي عليه، ولا تكلم الوالد، والفلاحان عزيز ويونس ابتعدا. وخيم الصمت، بينما أبو اسكندر ينكت الأرض بعود في يده، ويستمع إلى هذر المطعون حتى النهاية.

كانت الأيام قد علمته هذا الأسلوب في المواجهة، فالمطعون لم يذهب لأنه لا يجزى على الذهاب، وصدرة ينطوي على قلب عصفور، وقد همّ، أكثر من مرة، لإيقافه عن ثرثرته، لكنه كان ينتظر من والدي أن يتكلم، أن يقول كيف كانت حالة المطعون وهو يسمع صوت الرصاص.

الوالد لم يتكلم، التزم الصمت التام، والمطعون تجنّب الدسّ عليه، لكنه، بغية إبراء الذمة، أبلغ الشوباصي أن كل شيء، بفضل قيادته، كان على ما يرام.

وقال الشوباصي أخيراً:

- لو كنت ابن حكومة لا اقترحت لك وساماً .

قال المطعون :

- رضاك هو الوسام .

- استغفر الله . . أنا لم أواجه وضعاً كهذا الذي واجهته الليلة . . (وملتفتاً إلى والذي) اليس كذلك يا مصري؟

- مَنْ يدري؟ . . شجاعة الوكيل لا تذانيها شجاعة . .

قال المطعون :

- تُعرّض بي؟

لم يجب الوالد، ظلّ سادراً، منصتاً، متأملاً، عصبياً على التلازم مع الجوّ، وهذا ما دفع الشوباصي إلى التحرش به :

- إذن خالفت تعليمات الوكيل يا مصري؟

كان واضحاً أنه يسخر من الوكيل، وأنه يريد إبلاغه أنه أدرك قصده من تلميحاته . . لكن الشوباصي كان في أعماقه، قد ارتاح لفعلة الوالد، ولم يشأ أن يظهر أيّاً من لويّات عواطفه هذه، واكتفى بالسؤال، راغباً في أن يسمع جواب الوالد، وأن يغيّر جوّ المأساة التي لحظها في كلمات وتصرفات العائلة القادمة من المدينة، وغير المعتادة على رؤية الفلاحين يجلدون على هذا النحو الرهيب، ويساقون إلى السجون .

قال الوالد وهو يلفّ سيكارة :

- خالفتها يا أبو اسكندر . .

أضاف :

- انتظرت من الوكيل أن يذهب ويرى ما يجري ، لكنّه كان مشغولاً بتلقيم مسدسه . . (وبعد وقفة) المهمّ أنني مرتاح لأنني ذهبت، فقد رأيت بعيني . .

ثمة التوسلني كثير الدقة بطرحه . لم يكن يشترط عليك الالتفات
بسلطته . ان يذهب الوالد حارس التوراة . فهذا وجه للاجتماع . لكنه
هو . لم يستطع . حتى لو كان الكثير . لم يكثر برأيه سيرة . فلهذا
أما ان يتكلم حارس من بهجة استلهم . وسنجد ما فيه العزائم
الأخرون . فهذا يعني نشاطاً في النعمة بحضرته .

مع ذلك فليس كل شيء . لم يشرع . لم يشرع ما في هذا . وما يرد
على الوالد . بل استلهم . فيه يصاح بما في نفسه
قال وهو يستلهم

- كان يجب ان تذهب وان ترى نفسك .

المنهج

- هذا يطعمك في المستقبل

قال الوالد هادئاً وبغير اكتراث:

- خذني والدي يا ابو استلهم . فاني عشتي الى هذا التوراة في كل يوم
هناك ايها القراء . هناك كم هذه . وهناك ايها القراء . وهناك
المنهج . لا تتركه من هذا الدنيا

- اعذري . . حسبك تأتي من اللاذقية الى هنا مباشرة .

- حتى لو كنت الامر لما لموت . فأن ما من على رأسي كذا لان أعرف
المنهج

- عرفتها بحلوها ومرها إذن؟

- عرفتها مرها أكثر . ومع ذلك في الواقع ان تترك هذا التوراة بحري في
أرضكم . تحت حاكمكم . وما لحكمكم . به نفسه . العبي لا يرفع
عن الحجاب .

لو رجع التوسلني عن كل هذه الامور . ولما ان يذهب الوالد على

لم يبقه. لكنه لا يعرف. لأن العالم ليس قلاماً، ولأنه رجل شعاع، لذلك
يتم اختياره دائماً.

- فلماذا أنت؟

- أنتي.

- كنت في إسكندرية؟

- وقبلها في مرسين...

- وهذا كنت تشعر؟

- في المياه...

- هناك أيضاً وكلاً، لأصحات الأعمال؟

- هناك أيضاً وكلاً، يصرون على شيوخهم، ويحاربون إلهام العفالة، لكنهم
هناك، لا يستطيعون.

- يتكلمون أكثر أيضاً في القصة بكونهم على القمر أيضاً، ماذا فعل إذا
قال أنهم يريدون أن يترك القطار حياً؟ من لا يعرف كيف يمشي
الذئب، أحسن له أن يسأل في القصة غربة القطة.

- والقطة تخرمش أيضاً. ثم إن الذئب في كل مكان...

الذئب ثم الذئب إلى مائة وقال:

- أسمع ما يقوله، ولكن؟ أعلم أنه يكون أيضاً ذلك. مثل الصياد أم
تصل؟

- نعم.

- نعم.

- في الخلافة، لم أستطع إكمال الدراسة.

- وماذا زكيت؟ أصبح إلى هناك تنفع أكثر. فغارب الحياة علمته...

- الولد، قال والدي، لا ينقصه علم.. هو أيضاً كان في المرفأ..
- هكذا إذن.. علم المرفأ أكبر من علم الزيتون..
- تدخلت أختي:
- العلم في كل مكان.. لو كنتم من إسكندرونة، وهاجرتم مثلنا..
- وماذا في إسكندرونة أكثر مما في اللاذقية؟
- لا أدري.. لكن اللاذقية ليست إسكندرونة.. هناك لا يضربون الناس..
- هه.. النعمة واحدة..
- قال الوكيل:
- أعوذ بالله..
- يبدو أنهم أتعبوك يا مطعون!
- التزم المطعون جانب الحذر وقال:
- لم يتعبوني.. المصري رجل طيب.. ثم نحن أقرباء.. أخوه زوج خالتي..
- ضحك الشوباسي وقال:
- قرابة غير منتظرة.. لا تتفقوا علينا إذن..
- قال الولد:
- لا اتفاق ولا اختلاف.. المطعون يعاملنا مثل النواطير الآخرين.. يهددنا عند اللزوم.
- يهددكم؟
- وقال المطعون:
- معاذ الله، رغم أن ذلك وارد إذا ظل المصري مشاكساً.

نهض أبو اسكندر فجأة وهو يقول :

- موسم ويمضي .. لا تشد إيدك على الجماعة يا مطعون ..

وقال الوالد :

- حين ينقضي الموسم نلتقي في اللاذقية . وحدوا الله يا جماعة . . الظفر لا

يخرج من اللحم ..

وقال أبو اسكندر :

- هذا صحيح .

والتفت إلى أمي قائلاً :

- شكراً على القهوة يا أختي ..

قالها ومضى طويلاً، ممتلاً وثيداً، واثق الخطو، بيده عصاه، وفي كتفه البندقية، لا يلتفت إلى وراء، جرياً على عادته، فكأنما لا شيء، في الخلف، يابه له . ولم يجرب المطعون أن يتبعه . أوقفه عن ذلك حين تحرّك، ونحى إلى، وأنا اتابع قفاه، أنه جامد كوجهه الذي لا تعرف منه حقيقة مشاعره، وقلت في سري، متذكراً ما سمعت من علاقته بإحدى النساء «إنه كفؤ!» ولم ألبث أن تساءلت : «ماذا حببها فيه؟ أهو الإعجاب برجولته؟ أم هي مكافأة على بطشه؟ أم أن في صمته شيئاً يجذب إليه، وفي صوته الضخم العميق، ما ينم عن فحولة تحببها المرأة، خاصة حين تكون امرأة من النوع الشيق؟» .

وما كاد الشوباسي يغيب، حتى جاء المطعون إلى والدي يستقري دخيلته :

- أنت مرتاح يا مصري؟ أنا لم أقل شيئاً، أو لم أقل شيئاً بي، إليك، مع أنني كنت قادراً على رواية ما وقع كما حدث، وأترك للشوباسي أن يتدبر أمره معك .

قال والدي :

- ولماذا لم تفعل؟

- لأنني أريد البرهنة عن حسن نيتي تجاهك.

- وماذا فعلت لسوء نيتك تجاهي؟

- تركك البورة لم يكن عملاً في محله..

- من قال هذا؟

- أنا..

- طظ..

- ألا تهتم بي إذن؟

- لا فيك ولا في غيرك.. لست فلاحاً، ولا أجيراً كما تتصور، ولم أفعل ما

أؤاخذ عليه، وحتى لو فعلت فإن الشوباصي لا يقطع رأسي. إنني غير

مرتاح لضرب الفلاح صخر. وغير موافق على هذه المعاملة الظالمة، ولو

سألني أبو اسكندر لقلت له ذلك، وأنا مستعد، الآن أيضاً، أن أقولها له

ولللخواجات معه، وتستطيع، دون حرج، أن تذهب وتقول ذلك عن

لساني.. فهمت؟

- فهمت ولكنني لن أقول..

قالت أمي:

- أبو نعمة لا يقول كل ما يسمع..

قال والدي دون أي ميل إلى المصالحة:

- يقول أو لا يقول، هذا ليس من شأننا.. سأكون على البورة مساء،

وسأراقب القبان، ولن أسمح بغش أية فلاح، وفي الليل سأذهب،

وكلمة واحدة تجرُ كلمات.. وكل حديث له في وقته حديث آخر.

قاها وطلب قهوة. أمي الطيبة هرعت لإعدادها، وصاحت عندما

أصبحت القهوة جاهزة:

- يا أبو نعمة، تعال أشرب القهوة. . . سنفطر ونذهب إلى الكرم.
- ولم ينقل الوالد شيئاً، ما كان يريد دعوة المطعون إلى القهوة، أما وقد صدرت عن الوالدة، فإنه لم يعترض، لكنه قال:
- في هذه الحال أعدّي القهوة للجميع (وبصوت مرتفع) تعالوا يا إخوان. . . تفضلوا لشرب القهوة.
- جاء المطعون، وجاء الفلاحان والجمّال، ولم يتكلم أحد على ما جرى، لكن يونس الفلاح تطرّع، ذلك النهار، جلب الماء لنا. . . رفض أن تذهب الوالدة أو الأخت لملء الجرة. أخذها منها وقال:
- بعد اليوم نتناوب. . . الرجال يملأون الماء، والنساء يقمن بعمل آخر.
- قاطعت الوالدة:
- شهم والله. . .
- وقال المطعون:
- هذه اللفتة كانت يجب أن تأتي منذ وصولكم.
- قال الوالد:
- المهّم أنها أنت. . . شكراً على كلّ حال. . .

شربت القهوة مع الرجال. حسدت والدي على رجولته. تذكّرت قولة أختي: «أرايت؟». كانت رجلاً في جلد امرأة، أحببتها. سافّل أحبها. لقد رايتها وهي تواجه المطعون. كانت قادرة على ضربه، لم تهّب مسدّسه. أرغمته على إعادته إلى الخيمة. فعلت ما كان ينبغي أن أفعله أنا، فعلته عني، عن أبي وأمي، عن جميع الذين على البورة، وبعد اليوم لن يمرّوا المطعون على التحرش بها. قد تكون، غير راضية عن الوالد، لكنها معجبة به مثلي من غير شك، فهو شجاع، ولم يبدل موقفه أمام الشواصي نفسه.

أختي هذه، ستكون تعويضاً بالنسبة إليّ. فيها أهمّ ما افتقده أنا، وهو المجابهة. ولقد فكرت أنها صبية ما تزال، ومن المبكر أن تتخذ صفة المرأة

الراشدة، لكنها، في اندفاع شجاعتها، لا تمألها أي امرأة راشدة، وهي البديل التام عن أمي. . المرأة، حين يستيقظ وعيها، قادرة على نقل الجبل من مكانه كما في الأسطورة. ولكم أسفت أنني لا أعرف أن أعبر عن أفكارني لأزيد معارف أختي، لأجعلها تقوم بما تقوم به بالوعي مع الشجاعة، لا بالشجاعة وحدها.

أفطرنا وتوجهنا إلى الكرم. ذهب الوالد معنا. لم تكن الجمال قد جاءت، ولديه متسع من الوقت، ولم يستأذن المطعون، وجاء الفلاح عزيز، بعد قليل، ونَبَر لنا زيتونتين. . أراد، هو الآخر، أن يظهر تعاطفه معنا، أن يقول، بغير كلام، إننا متضامنون، وقد لاحظت كل ذلك، وامتلات سروراً به. قلت في نفسي: «الفلاحون يفهمون جيداً، ويعبرون، بغير خوف، عن فهمهم هذا. . وأنا، لو رايت عائلة الفلاح صخر، سأنبر لها زيتونة أو اثنتين، سأعطيها زيتوناً مما جمعنا، سأفعل أي شيء، تشعر معه أننا إلى جانبها. لكن عائلة الفلاح لم تات إلى الكرم، كان جمع الزيتون، بالنسبة إلى الفلاحين، باكراً بعد. نحن النواطير، وكذلك المقربون إلى المطعون والشواصي، نجني من الكرم القطعة الأولى، ننبّر زيتونة ما، نترك أخرى، نلحق الجانب المقل بالحمل من الكرم، ولا يسمح للفلاح، إلا حين يشارف الموسم على نهايته، بأن يعمل جماعة، وبالصف، وأن ينظف الكرم جيداً. لأن دوره، في نظر السادة، يأتي في المرتبة الثانية.

سألت الوالد، ونحن ننبّر الزيتون:

- لماذا لا يسمحون للفلاحين بجني الزيتون مثلنا؟

- لأنهم مشغولون بالزراعة. . .

- وكيف يجني الذين أمثالنا على هواهم، ويتركون الزيتونات الصعبة، قليلة الحمل، للفلاحين؟

- هذه هي العادة. . .

- عادة سيئة. . .

- يكفني ما تدخلنا بشؤون الفلاحين وأسيادهم . هناك كثير من العادات السيئة يا بني .

- موقفك كان جيداً اليوم . . الفلاحون كانوا ممتنين كما لاحظت .

قال الوالد بغير اكتراث :

- أنا لم أفعل ما فعلت لأجل الفلاحين . .

- لكنك قلت ما يجب أن يُقال . .

- لأنني لا أسكت على واحدة . .

- على كل رأيت كل شيء بعيني . . . الفلاحون مظلومون . .

- يستحقون . .

أجفلت . لماذا يقول والدي هذا؟ كنت أحسبه إلى جانب الفلاحين ، وها هو يتكشّف عن إنسان لا يسكت على واحدة ليس إلّا . . . إنه ، إذن ، ليس مثلي ، ولا مثل אחتي ، وربما كان يعطف على نفسه لا على الفلاح . إنه يرفض الظلم ، وهذا كل شيء ، مع أنني حسبه يدافع عن الفلاحين .

عدت أسأله :

- كيف يستحقّ الفلاح ما ينزل به من شقاء؟

- لأنه يصبر عليه . .

- وماذا يفعل؟

- يقاتل . .

- يقاتل الوكيل أو الشوابصي أو الأسياد؟

- لا أعرف . . المهم أن يقاتل .

- إنه مغلوب على أمره ، ولو كان واعياً كما عندنا ، هناك . . .

توقّف الوالد عن التبر ونظر إلى مليّاً ، بكثير من الحنان وقال :

- لا تردّد هنا ، في اللاذنية ، ما كانوا يقولونه في إسكندرونة . . هناك . .

كيف أقول؟ إسكندرونة تختلف .

- ولكن الظلم واحد . .

- الظلم واحد والظلمة الكثير .

- وهنا سيفيقون كما أفاقوا هناك

- ليس الأمر بهذه السهولة . .

- لكنهم سيفيقون مهما طال الوقت .

وقالت الزائفة :

- إن شاء الله . .

وقالت الأخت :

- لو كان في الدافئة مثل ديار النعنع وأسروا لأهول .

وقالت النسي هذه الزائفة :

- سيظهر منها . . ربما واحد بين عمال الرجمي ماصلون إلهياً

بعد ذلك شرعنا بجمع الزيتون . .

كنت الآن، فرحاً، كنت مسروراً لا بمعنى عن السورة، لا بسباح طلق

الشويحاتي والظلمون، بلقائنا وحديثي عن هذا الكرم الكبير، الذي لا تشكل

نقطة في بحر، كان السباح حياً، كان يعطف بحمله راحتي الذي حدث

فيه . وكنت أحب الطبيعة، أو لمعي أحبها أكثر لأن فيها أمثال أخي

والذي . وكان وجودي معاً طمأنينة بدائه ولم تكن أخي الصغيرة

تشكل شيئاً سوى البراءة . وكنت أعانها كصغيرة، شاعراً عن هذا النحو

الذي كبير، وإن الحياة التي أسلمني إلى عذاباتها متكرراً، قد خلقت مني في

مدوراً للعدالة مستظلاً، لمعي لا يفهموني، لا يعرفون ما أقرا، وربما لا

يكثرثون به، لكنني عارمة، عارف أن علي، أن الابن الوحيد لهذه العائلة

الغفيرة، أن أعمل كي أحصل على التلمذة، وأنا أعلم لأنني بذلك أفض

نفس من جهالة فرضتها علي لأبائي، فأصبح واعياً أكثر، أما قراءتي فليست

(١) من أبطال رواية المستنقم .

التسليية وليس تكون كذلك. التسليية كانت واردة، الشعة كانت أساساً في
 قيراءتي، لكنني كنت أشد أهدأ لغيره. ولهذا أخطئ الشعور، وأدرك
 الكسفات الضعيفة لأرجعها في القاموس، وأستل عينا عظمى عنى. هكذا
 وعنت الانهيار، أفرقت كل الحيلة صالحة، وأن نمة من يريد، ويعمل، لإزالة
 هذا الظلم. وبعد القويضة قام في معنى أنني واحدة من أولئك الذين
 سيستحقون، بشكل ما، على إزائه. ومن هذا أخطئ، ولأنني أساساً
 ألتبس العذلة والتشدد، فقد كانت تشبهات العيش للألم، وفقدت
 الاستمرار، والاستعداد، والضرر، والمجهود، والاستقلال الأحسن،
 وحكم الامتياز في الرتبة، وحكم الأسبق في الخدمة، يؤلف في نفسي رغبة
 في العودة، لا تنبع من طمأنينة أو الأمل، بل تغترق ذلك في الصدور
 الذي سيظهر يوماً. لقد كثرت الاستكشافية في عيني مرتين: الأولى لأن
 أجهل من يتأصل في هذا الظلم، بخلاف الحقارة الذي يتجهز على السلافة،
 ولأنني هناك، كنت أحد من يساعد في فهم بعض القضايا التي تبدو لي
 عسيرة على الفهم.

من أجلي ذلك كان الانفراد بالكم الأفراد بالذات. إنه عالم قائم بذاته،
 وكثيراً ما غلبت ثم أجلس تحت زينة فاقراً وأقرأ حتى يهبط الليل. وليس
 نادراً ما ترقفت عائلتي، وهي تجمع الربوبون، ومضيت مع نفسي بين الزيتون
 حتى أتعبد عن الانتظار. وكانت والدتي تراعي حاجتي إلى هذه الانفرادات
 نادراً، كانت تحسني نعباً، وضجراً، أو رغباً عن العمل، لكنني، بخلاف
 ذلك، كنت أعتزل، أفكر، أخطئ، أفتقد نفسي، إلى الغريب عن
 اللادنية، الجعل أكثر من كل قبيلتها، الباس إلى حد استعجاب الرشاء،
 مشيراً في هذه المشية بما كان يشربه الطفيلون في مدينة إسكندرية،
 وكانت الأخيرة التي أخطئ فيها هي كيف أبدأ، ومع من أبدأ، وفي أية عجينة
 أضع خميري.

علا والذي إلى بالعودة بعد أن ساعدت في غير عدة وثبونات لنا. لم تعد
 لأفهمي مثار رعب شديد. كان علينا أن نوظف النفس على مواجهتها، عدا

دمنا في الكرم، وما دام علينا أن نقلب المدرات لنلتقط ما تحتها من زيتون. إضافة إلى ذلك، كانت الأفاعي تتدلى حبلاً بين الأغصان، أو تلتف كعمكات في غلاغل الأشجار، أو تقبع تحت الأحجار. وكان منظرها يبعث على الرعب، أقله على البرودة، ولم نتوصل قط إلى الألفة معها، حتى عندما قلّ خوفنا منها، أو صار خوفاً معجوناً ومخلوطاً بالعمل. والسدي قتل عدة أفاع. אחتي قتلت أفعى. أنا قتلت الكثير منها، وصار وجود العصي معنا ضرورة، فكنا، إذا ما أتلت أفعى برأسها، وانسابت أمامنا، نلحقها ونقتلها، وإذا أنسلت وابتعدت تركناها وشأنها. في هذه الحال نعلق الأم أهمية على ما إذا كنا قد أذبنا هذه الأفعى، تعتبر ذلك تحرشاً، اعتداء، ستقبله الأفعى بمثله، وأن علينا أن نحاط، وكنت أفهم رقة الأم هذه، فهي تكره أن تقتل روحاً ولو كانت مؤذية كالأفعى، وإذا هربت منا كانت تكرر قولها: «أذهبي يا مباركة واركبنا» وحين نحاججها، تقول: «قد تكون أمّاً، ولها صغار» فترة الأخت:

- أنا من جهتي سأقتلها وأقتل صغارها.
- ولكن هذا حرام. . . إذا لم تؤذنا الأفعى فلماذا تؤذيها؟
- ولكن كيف نعرف أنها ستؤذي أم لا؟ نتظر حتى تلدغنا؟
- أظن أنها لن تفعل. . . هي أيضاً تخاف. . . الأفاعي تخاف يا أولاد.
- ونحن نخاف أيضاً. نحن نخاف أكثر، وهذا هو الخطر. علينا ألا نخاف منها بعد الآن.
- لنسال الله اللطف بنا. لنساله الرحمة بعائلتنا وجميع الناس.
- رحمة الله على الرأس، ولكن رحمة العصا ضرورية.
- تقولها الأخت وترفع عصاها تضيف:
- إذا لم تقاوم الأفعى لدغتنا اليس كذلك؟

كنت أكبر جراً אחتي، إقدامها، هجوميتها التي تنقصني، لكنني ارتبك أمام موضوع الأفاعي، فأنا لا أريد، لو رأيت أفعى ومعها صغارها أن

أقتلها، بينما أختي تعتبرها عدوًا، وتستحلّ قتل العدو على أية صورة. كانت قد ورثت بعض صفات والدي. لا شيء ينجيها، وكان هذا واضحاً وطبيعياً في سلوكها اليومي، وهذا ما جعلها محبوبة وأثيرة عند الوالدين، وبقيت كذلك حتى رحيلها عن الدنيا.

بدأنا نجمع الزيتون كعمل يومي لا بد منه. كانت رغبتنا في العمل مبعثها حاجتنا إليه، ولكنه، في حين الاندفاع، أخذ يصبح لعباً، يصبح متعة وممارسة لنشاط اجتماعي غير ملحوظ منا. اقترحت الأخت أن نغني. كان صوت أختي الصغيرة حلواً. لكنها لم تكن تحفظ الأغاني، وكانت الأخت تحاول أن تعلمها. تقول لها:

- رديّ معي ..

يا رايحين ع حلب	حبّي معاكم راح
يا عمّلين العنب	تحت العنب تفاح
كل من ليفه لفي	وأنا وليفي راح
يا ربيّ نسمة هوا	تردّ الوليف ليا

وتبكي الأم لسماع الأغاني القديمة. الأغاني التي تذكرها بأهلها وأحبائها، وإذا تشارك فيها، ترنّ نغمتها حزينة، ملثاعة، وما تلبث الدموع أن تطفّر من عينيها، وعندئذ تثور الأخت:

- لماذا البكاء؟

- هكذا .. لا شيء .. أنا لا أبكي.

- ولكنك تبكين .. ماذا جرى؟

- تذكرت الأهل .. تذكرت الجيران .. أيا منا في إسكندرونه .. ترى هل

يذكروننا كما نذكرهم؟

- لا بدّ أن يذكرونا .. عشرة العمر لا تضيع .. كنا إخوة حقيقيين.

- إخوة وأكثر .. لا وفق الله تركيا التي فرّقتنا.

تدخلت في الكلام فقلت:

- لعن الله فرنسا.. هي التي كانت السبب.. تأمرت مع تركيا.
دهشت الأم:
- ما معنى ما تقول؟
- احترت في الجواب:
- يعني فرنسا دولة مستعمرة.. ولأنها كذلك فهي تبحث عن مصلحتها،
ومصلحتها كانت مع تركيا.
- قالت الأخت:
- أنا فهمت مثلك، لكن لا أعرف أن أشرح..
- وعادت الأم تردّد يقينها السابق، وتدافع عن فرنسا.
- مع ذلك تبقى فرنسا دولة مسيحية..
- فكّرت وقلت:
- لنذهب إلى الشيطان.. أقول لك إنها مستعمرة وتقولين إنها مسيحية..
لو وقف المسيح نفسه ضد مصلحتها لأعادت صلبه.. إنها عدوّتنا وتحتلّ
بلادنا.
- أليست هذه إرادة الله؟
- لا.. هذه إرادة استعباد بلادنا ونهب خيراتها.. وهذا هو معنى
الاستعمار.
- مهما يكن.. فرنسا هي التي أنقذتنا من تركيا..
- لم تفعل ذلك لسواد عيوننا، بل لتحتلّ بلادنا.
- تدخلت الأخت لتغيير الموضوع. أدركت أن الأم لن تفهم إلا عسلياً،
وأنه سيأتي هذا الفهم يوماً ما.
- اقترحت:
- لنواصل الغناء.. هيا يا أختي، اطلعي أنت ونحن نلحقك..

غنت الأخت الصغيرة موالاً، وتابعتها أختي بميجانا، لكن الأم سرعان
ما بدلت اللحن، راجعة إلى أيام صباها، بأغنية عذبة، تترقق مع ما في
صوتها من شجن وغنة:

يا طالعين الفصر لفوق يا نازلين سلّموا لي
على غزال وعيونو سود والعلق أبيض بلوري

ردّدنا نحن هذه اللازمة، فتابعت الأم:

يا بيض صبحكم بالخير يا سمر يسعد مساكم
لضل صبح ومي طول ما جيتي معاكم

شعرت أن علي أن أتوقف عن المشاركة في الغناء، كنت أعرف أن صوتي
قبيح، وأجهل الأغاني، لكنني استمتعت إلى حدّ الطرب، وأخذتني حماسة
ضاعت من نشاطي في العمل. لاحظت أن الأيدي قد نشطت تلقائياً فيما
الأفواه تغني. لم يكن آنذاك راديوات، ولا مسجّلات، كان الناس الذين
مثلنا يغنون لأنفسهم، كان ذلك طرباً ذاتياً، أليفاً، حبيباً، وكان يصعد
بالفرحة الهاجعة في الأعماق، لأنه غناء جماعي. وهنا، في الريف، ونحن
ضائعون في كرم الزيتون، كان الغناء بمثابة تأكيد على وجودنا. على تحفينا
للمصاعب التي تحيق بنا. وقد سرقنا الأغاني من أنفسنا، فلم نشعر إلا
بمرور سيارة من قربنا، على طريق اللاذقية دمرخو - كسب. ركضت بين
الزيتون، كانت السيارة قد ابتعدت، ففرت التخم ووقفت على الطريق
العام، متأمل ما حولي من زيتون يغطي الروابي والمنبسطات، ويتراعى إلى
حيث يصل البصر. كان ذلك كله لعائلة واحدة، قدرت، منذ وصلنا هـج
أن ملكيتها كبيرة جداً، ولكن أن يكون طرفها في القرية، وطرفها الآخر على
طريق كسب، فهذا ما لم أتصوره، كما لم أتصور أن عائلة بهذا الغنى، تطلق
النار على فلاح يمرش حفنة من الزيتون لأطفاله، ثم تضربه، بأيدي زلمها،
وترسل به إلى السجن. داهمني تفكير فرض نفسه عليّ، فرحت أسبر على
الطريق «الإسفلي» راعباً أن أمشي وأمشي فلا أعود إلى الكرم أبداً. أصبح

الكرم في نظري شجراً هيكلياً، شيطانياً، مغروساً في أمعاء الفلاحين، ومنها ينبت ويستمدّ نسغه. كان، كما خيّل إليّ، في أساس كلّ شجرة فلاح، فالأرض، تالياً، قبور، والشجر يتعالى فوقها، وفي هذه القبور أجساد تفسّخت، لكنّها ما زالت تحتفظ بهياكلها العظمية، وهي ترصد، من مشاويرها، المهزلة التي تدور حولها، وقد رأيت، بغير شك، مأساة هذا الفلاح.

مشيت، مشيت، مشيت. كان كرم الزيتون عن يميني، وفكرت أن أعدّ صفوف الأشجار، ثم أعدّ كم شجرة في كلّ صفّ، وأضرب الناتج بعضه ببعض، وعندئذ كم يغدو الرقم؟ إنه سيكون كبيراً إلى درجة لا تصدق، وكميّة الزيت التي يعطيها لا تصدق أيضاً، وكلّ هذه الكمية ستحصل عليها عائلة واحدة، دون تعب، دون نفقة، دون أيّ مجهود بذكر.

لم أكن، تلك الأيام، قد سمعت بملوك الحديد والنحاس والنفط والمعادن، وإلاّ لأضفت إليهم ملوك الزيت، هؤلاء الذين يكذّسون الثروات بيننا الفلاحون الذين يعملون في كرومهم يسلقون العشب ويقتاتونه.

رجعت أدراجي مغموماً، كانت أمي وشقيقتاي على الطريق العام ينتظرنني. يتفتّنين أثري، وصاحت الأم حين رأيته:

- أين أنت يا بنيّ، ماذا هناك؟ عمّ تبحث في البعد؟

- لا أبحث عن شيء...

وقالت الأخت:

- كان يفكر...

سألت الأم:

- بماذا؟

قلت:

- بهذا الكرم الذي لم أستطع الوصول إلى نهايته...

- ليبارك الله لأصحابه ..

نظرت إلى أمي، أحببتها أكثر، فاض الحنان في نفسي إليها، وتصورتها واحدة من نساء شعبنا، اللواتي سيمضي وقت طويل قبل أن يستيقظن ويعرفن الحقيقة. إن مباركة أمي لأصحاب كروم الزيتون لن تزيد في مردودها، ولكن أمي، بهذا الدعاء، تكرر «حق الملكية المقدس» حق الإقطاع الذي يفقرنا ويذلنا.

ويلهجة فيها أسي، وإشفاق، قلت لها:

- مباركتك وصلت، وفي العام المقبل سيكون الكرم أكثر.. وستقوم كروم أخرى.. وستزداد ملكية عائلة «ف».

وقالت الأم:

- لا تكن حسوداً، الله لا يرضي بهذا.

- أنا لا أحدهم، ولكن أقول إنهم يملكون كل هذه الكروم.

- وماذا إذا ملكوها؟

- لا شيء... إنهم أغنياء بشكل لا يصدق، ونحن فقراء بشكل لا يصدق أيضاً.

- إنهم أغنياء أباً عن جد.

- ونحن فقراء أباً عن جد.

وقالت أختي، كأثماً لتنفذي من ورطتي مع أمي:

- انظروا ظلال الأشجار. لقد انتصف النهار، وأنا جائعة جداً، هيا إلى الغداء، لا عمل قبل الأكل.

قالت الأم:

- ولكننا تأخرنا في الصباح، وها هو الظهور ولم نجتمع شوالاً من الزيتون، كيف تطالبون بالغداء دون أن تعملوا ما يقابله؟

قالت الأخت:

- نحن جياع . . اتحسبن عشاءنا أمس كان عشاء؟
- وماذا نفعل إذا كان هذا هو طعامنا؟ ماذا بأكل الفقير مثلنا؟ نحن في الزيتون ونتكبر عليه؟

جلسنا تحت زيتونة قديمة. مدت الأم قماشة بيضاء، وضعت عليها أرغفة من الخبز، وصحنا من الزيتون، وجاءت بحجرين فكسرت بينهما بصلة، وقالت:

- باسم الله . . ولنبدأ . .

مددت يدي إلى رغيفي. كان يابساً. كان حجرياً، ولم تكن بي شهية. لقد مللت هذا اللون من الطعام الذي لا يتغير، وقالت أُمي تستثير شهيتنا:
- في المساء سنطبخ برغلاً . .

قالت أختي:

- وهذا مللناه أيضاً . .
- لماذا؟ وما هو طعام الفقراء إذن؟
- ومللنا الفقر أيضاً . .
- صبروا إذن أغنياء . .
- لا نستطيع . .
- كيف استطاع بيت وف؟

قلت:

- لا أدري . .

نهضت ومضيت إلى أعماق الكرم كربة أخرى، رغبت، هذه المرة، عن العسل، والعودة إلى الأهل، والبورة، ورؤية الوكيل أو الشوباصي. بل رغبت عن التفكير في كل الذي جرى، والذي سمعت ورأيت. كنت أنوف من الداخل. ارتطم القهر بجدار القهر، فتوَلَّد في نفسي إحساس بعيشة ما

نحن فيه . وكان الشقاء والتبؤد ونسيان الواقع الذي نحيا شيئاً مستحيلاً ، وكل هذا بلبلني إلى درجة الصباح ، ومع ميلي إلى الراحة ، وترك التفكير ، والخلاص من جو إسكندرونة ، ومن الكلمات الغريبة ، الجريئة ، التي كان رجوعها بلازمي ، فإنّ القبول بما نعانیه ، وما يعانیه الفلاحون هنا ، والفقراء في المدينة ، شيء ضد المنطق ، ضد الإمكان . ورفض فكري الهدنة ، وراح يعذبني في غير طائل .

الوحدة ، في وقت كهذا ، كانت عبادة حقيقية ، أسير ، أجلس ، أنام ، أستيقظ ، كله مقبول ، إلا أن أكون مع الناس . إنني أعرف العزاء الذي تجلبه المشاركة ، وكان عزائي بين أهلي مستمداً من شجاعة أختي ، من اندفاعها ، إقدامها ، لامبالاتها بالمصاعب ، لكنني ، عند انحسار المشاعر الباسلة ، عند هجوم القوة الروحية ، كنت أنأى عنها ، كيلا أخلج من ضعفي أمامها . القراءة وحدها ، في مثل هذه الحال ، كانت تمتص بعض نعمتي على ضعفي . وبعض حنفي على الوجود ، وشيئاً من الإحباط المبهط الذي أستشعره ، لكن القراءة تتطلب كتباً ، وفي الخيمة لا يوجد سوى كتابين ، قرأتها وانتهيت ، منذ اليوم الأول ، كان شيء من الأمانة المنحيلة يداعبني في الذهاب إلى قرية وحـ والبحث عن كتب ، لكن الذين سألتهم أفادوني أنهم في القرية يجهلون الكتب ، لأنهم يجهلون القراءة . ولقد سألت المطعون عما إذا كان لديه أيما كتاب فنفي ذلك ، وسألته عما إذا كان لدى الشوباصي كتب من أي نوع ، فضحك وأجاب :

- في القرية لا توجد كتب يا شيخنا .

- وفي بيت الأسباد؟

- ولا في بيت الأسباد أيضاً . هنا لا يقرأون . .

ثم أضاف :

- حتى لو وجدت عندهم ، أنحسب أنك تستطيع الوصول إليها؟

- أستعيرها . .

- لا تحلم بهذا .

- ولكنني قرأت عن بعض الأسياد، في بلاد العالم، أن لديهم كتباً، ويمكن أن يستعيرها أحد ما .

- أين هذا؟

- في روسيا . غوركوي كان خادماً .

- ومن هو غوركوي هذا؟

- كاتب . .

- في المحكمة؟

- كاتب كتب . . أديب . .

- لم اسمع به . . أنا لم اسمع بأي كاتب . .

فكرت بالواقع الذي كشف عنه المطعون، فاغتممت جداً. قلت في نفسي: «ما أشدَّ تخلف ريفنا! حتى الأسياد لا يقرأون، والقرى لا تعرف الكتب، والكلمة غريبة، والأفكار يتيمة، لا مأوى لها ولا أهل، وفجأة، كأعزَّ الأمانى، انبثقت في نفسي هذه الأمنية:

- ما أجمل أن تكون في القرية كتب أيضاً!

خطر لي أن أغادر «ح» إلى المدينة. هناك لا بد أن أعرَّ على ما أريد، لكن شراء الكتب يحتاج إلى نقود، وليس معي منها شيء، ولا أحسب أن الوالد يملك شيئاً، وهكذا استحالت الأمنية إلى لعنة، لكن ولعي بالكتب دفعني، ذلك المساء، إلى الطلب من الجمال، أن يأتيني بجريدة من المدينة، فقال:

- إذا وجدت فعلى رأسي . .

ورحت، طوال أيام، أحلم بأن يصل الجمال، ومعه الجريدة الموعودة، لكن هذا الحلم لم يتحقق أبداً. الجمال لم يمرَّ بسوق المدينة، ولم يجد مكاناً

يبيع الصحف، وهكذا خابت مساعي جميعاً في العثور على ورقة مطبوعة،
أقرأ فيها الحروف التي صارت عزيزة لشدة الاشتياق. ثم يشت من وصول
جريدة ما، ومن العثور على كتاب، ولم يبق إلا أن أقرأ على أديم الكرم، أو
صفحة السماء، وأن أهدق في الأرض، أو أرفع رأسي إلى أعلى. في هيئة
تجعلني نصف عاقل أو نصف مجنون.

تعبت من دوراني في الكرم فعدت، كان لا بد من مواجهة الواقع
والنزول عند أحكامه. إنني حرّ في أن أكل أو لا أكل، وحرّ في أن أنام أو
أسهر، لكنني لست حرّاً في مسألة العمل. إننا نستدين على الموسم. حالنا،
هنا، كحال الفلاح، والفارق الوحيد بيننا أننا لا نسكن القرية، ولا نعمل
في الزراعة، ولم يكن الموسم الذي نستدين عليه قمحاً أو شعيراً أو غلالاً
نتصرف بها في نهاية الخريف، بل كان زيتوناً حصّتنا فيه واحد من عشرة،
ومن هذه الحصّة نأكل ونشرب ونسدّ الدين، وقد ندّخر شيئاً للشتاء، إذا لم
يكن نقوداً، فشيئاً من زيتون، وشيئاً من برغل، كمعادة الناس في المدينة.

اشتغلت إلى المساء، لم أنكلم، لم أنذمر، لم أشارك في الحديث أو الغناء،
جمعت كمية طيبة من الزيتون، وفي نوع من التحدي ضاعفت جهدي،
وكانت أختي تقول:

- أخي يكاد يسبقنا. . لودخلنا في سباق معه لخسرنا.

وقالت الأم:

- أخوك ليس على ما يرام. . يتألم من شيء ما. .

قالت الأخت:

- يتألم ل حالنا. .

- وماذا نفعل؟

رجوت الأم:

- لو تركنا الكلام على وضعنا لتحدثت في شيء آخر ..

- لكنك لا تتحدث في أي شيء ..

- أفكر ..

- وبماذا تفكر يا حبيبي؟

- لا أفكر بشيء معين .. لا أريد أن أتحدث أو أغني ..

- لو فعلت لتسليت .. فرجعت عن نفسك ..

- أنا مرتاح مع نفسي ..

قالت أختي:

- إنه يفكر كثيراً .. مثل ابن عبده يني ..

- الذي جُن؟

- نعم ..

- يا ويلى .. التفكير يقود إلى الجنون إذن؟

قالت أختي:

- يجن أو يصير فيلسوفاً ..

- ماذا؟

- فيلسوف ..

رسمت الأم علامة الصليب على وجهها. ضحكنا لحركتها. إنها تسمع بالكلمة للمرة الأولى. والأخت سمعت بها ولا تعرف معناها، أما أنا فلا أستطيع تفسيرها. كنت أعرف أن الفيلسوف هو من تبخر في العلم، وأن كثرة التفكير من علامات الفلسفة، ولقد كرهت التفكير وأحببته، كرهته لأنه يسبب لي الآلام، وأحببته لأنه الطريق إلى الفلسفة، ولم أسأل نفسي ما هي الفلسفة، متى أصبح فيلسوفاً. إذ كنت عند نفسي، وفي البيئة الجاهلة التي أنا فيها، فيلسوفاً صغيراً، ومنذ زمن بعيد.

في المساء عادت الحياة إلى ضجيجها على البورة.

لكن حادثاً وقع بعد أيام، أدخل جديداً إلى الحياة الرتيبة التي نحيهاها. كانت بظلة الحادث الفلاحة بدور، التي حاول المطعون إغراءها ولم ينجح، وقد اتهمت بأنها غادرت الكرم إلى البيت، وفي صدرها وجيوبها كمية من الزيتون. زعم المطعون هذا وقال إنه رآها بعينه، وأنها تفعل ذلك منذ بدأت العمل، وهذا يُعدّ سرقة، وسيخبر الشوفاصي، ولديه شهوة على ذلك. زاد قائلاً إن بدور تحمل، حتى في هذه اللحظة، زيتوناً في صدرها وتحت فستانها، وأنه سيفتشها.

في البدء ظنّ الحاضرون على البورة أن المطعون يمزح، لكنهم وجدوا مزاحه يتقلب إلى جدّ، وأنه سيفتش الفلاحة حقاً. وقد ضحكت بدور أوّل الأمر، ووجدت في اتّهام المطعون تسلية، لكنّه ما لبث أن أصرّ عليه، وأوقف التّبيين ومنع بدور من العودة إلى قريتها، طالباً من الوالدة إدخالها الخيمة وتفتيشها.

قالت الأم:

- حرام عليك يا أبو نعمة. لا تتهم الناس زوراً.

قال المطعون:

- فتشها يا אחتي تجدي ما أقوله صحيحاً.

دهشت لتخريف المطعون. رددت ذلك إلى رغبته في التحرش بها، باعتبارها امرأة صبيّة، جميلة، لكنني، أمام إصراره، وصرامة وجهه، وإبشاف العمل. تساءلت: «هل يمكن هذا؟ وأين تخفي بدور الزيتون المسروق؟» صدرها، كحالها كل يوم، عامر، وهذا طبيعي من شابّة ريفية، صحتها جيدة، لكن جيوبها غير منتفخة، ولم يبق إلا سرواها وتلك ندالة لو خطرت للمطعون. غير أنها خطرت، وهذا هو السبب في أنه طلب من والدتي أن تحملها على خلع ثيابها في الخيمة.

تخلّق جميع من على البورة حول المطعون، كانوا يضحكون في البدء. حسبوا الأمر نكتة اخترعها المطعون لترفّة بدّور، غير أن هذا كان يعوي، كمن به مغص، طالباً من بدّور دخول الخيمة وخلع ثيابها. ولم تتحرّك بدّور من مكانها. غاضت ضحكاتها، جدت، تغبّر لونها، أربدت، وتوفّر الفلاحون، وتوترّ الجوّ، أصبحت القضية، الآن، قضية كرامة، قضية شرف، ومساس بالآخلاق، لكن المطعون لم يتراجع، رفض الوساطة. أخذته العزّة في الإثم. فقلب ما كان مزاحاً في البدء، إلى اتهام صريح، لو أثبتته، ويريد اثباته، لأدّى بالمرأة إلى السجن، أو ربما إلى الطرد، وإضاعة كلّ ما لها من حصّة عملت للحصول عليها منذ أوّل الموسم.

كنت أراقب هذه التراجيديا الصغيرة دون أن أستغربها. أليس الفلاح، كالمرأة، نهاية السّلم الاجتماعي، ومصبّ الظلم الطبقي في حياتنا؟ الفضيلة، في مجتمع كهذا، تبحث عن ضحايا، على هذا النحو يطاردون امرأة فقيرة ويرجمونها. أما الدعارة في بعض القصور فهي محمية، مسوّرة بالأزواج أنفسهم. ومن حين لآخر، يقبضون على فتاة بائسة ويدخلونها المبغى، أما البغاء العلنيّ، ذو الشبايب العالية، فليس من يستطيع حتى التطلّع إليه! وهذا المطعون، الذي يعرف أنّ العثور على ضحيّة، من حين لآخر، يبهج المتفرّجين ويرضي الأسياد، يريد أن يكون للزيتون ضحيّته، حتى يقال إن الوكلاء يسهرون على كروم السادة.

تمنّيت، لوقت غير قصير، لو تدخل الوالد. انتظرت ردّ الفعل من الأخت التي كلّفها بعد الأم بتفتيش بدّور. أرسلت خيالي مع الفلاحة وهي تدخل الخيمة، وتتعرّى قطعة قطعة، بحثاً عن حبة زيتون عالقة في مطاوي الثياب. خطر لي أن أركض إلى دح وأخبر الشوباصي بما يجري، لعله يأتي ويكفّ أذى الوكيل، لكنني، وأسفاه، لم أفعل شيئاً. كنت عاجزاً، وأعرف عجزتي. لم تكن لي نزعة الوالد في القتال، ولا قدرة الأخت على الخصام، ولم أكن لاصطدم بأيّما مخلوق، وكنت أفلسف هذا الضعف بأنّ العمل الفردي لا يأتي بنتيجة، وأدّخر نفسي للعمل الجماعي. . . كنت،

والأسفاه، ذرائعاً، أعطي لترددي تبريراً يخفف من وطأته في نفسي.

رفضت الأخت أن تفتش بدور. قالت إن الحيلة لم توجد لمثل هذا. عندئذ عاد المطعون بطلب من أمي أن تفتش الفلاحة، فرفضت بدورها. ولم تكتفِ الأخت بالرفض. صدر عنها ما كنت أتوقعه وأرغبه. قالت بلهجة قاسية، وهي تزوي ما بين عينيها، في عبوس أعرف أنه يخفي انفجاراً قادماً:

- دُعْ بدور تذهب إلى بيتها، فهي لم تسرق شيئاً، وليس في ثيابها زيتون كما تدعي.

- ومن أدراك أنت؟

- في وجهي عينان..

- وفي وجهي عينان مثلك.. لقد جرت العادة.. هذه ليست أول فلاحه نفتشها، وفي الماضي عثرنا على الزيتون المسروق واتخذنا بحق السارقة ما يجب من إجراءات.

- وما هي هذه الإجراءات؟

- الطرد من الكرم، أو التسليم للدرك، أو مصادرة حصتها مما جمعت من زيتون.

- هكذا إذن!!

- نعم هكذا.. هذا ملك بيت وفه وليس داشراً.. أن يأكل المرء غظم أفعى أسهل من أن يأكل الرزق وأنا وكيل..

- وأنت؟ ألسنت تاكل أيضاً؟

صاح بها بصوت قوي:

- الزمي حدك، وإلا أدبتك.. سفيهة!

أجابته بهدوء:

- السفية هو انت . . اضبط لسانك وإلا قطعته . .

• التفت إلى والدي شاكياً:

- أسمع يا سالم؟ أسمع يا مصري؟ أهذا ما انتظره منكم وأنا أقوم
بواجبي؟

صاح والدي باختي:

- ادخلي الحيمة ولا تتدخل . .

- لكن بدور مظلومة . . أهيون عليك أن تظلم وتبقى ساكتين؟

- بدور لن تظلم . . أبو نعمة طيب القلب . .

قالها والتفت إلى بدور قائلاً:

- وأنت . . اذهبي ، إلى بيتك . . دون كلمة حول ما جرى . .

صاح المطعون:

- لن تتحرك من هنا . . أنت لا تملك هذا الحق . . من فؤُصك لتتدخل فيها
لا يعنيك؟

قال الوالد وقد أربد لفرط عصبية:

- أنا فوُضت نفسي . . دع المرأة تذهب وشأنها . . هي لم تسرق . . بدور
شريفة لم تسرق ، وأنت تتحرش بها . . تفعل ذلك لغاية . . وربما وراء
غابتك من يدفعك إليها ، لكن احذر . . لن أسمح بأن تُمَرّ الأمور على
خير إذا كنت لا تدع بدور تذهب إلى بيتها .

انفجرت أسارير بدور . . لاحظتها . . كانت تنطلع صوب والدي بكثير من
الرجاء . . كانت نعمة من النوع الذي لم يعتد تكبير الماء على أيما ذنب ،
لكنها . . فجأة ، وجدت الذنب أمامها ، وها هو الراعي الذي سينقذها . . إنه
منحة من الله ، الله أرسله لمساعدتها ، ومهما كان سبب تدخله ، فإن هذا
التدخل أرضاها . . لقد كان والدي عنيداً ، وكان هادئاً ، وقبينا بأن يفعل ما
يقول ، لذلك سألت الله في سرّي ألا يتطور الموقف أكثر من ذلك . . وفي

اللحظة التي وجدت تدخل الوالد مبسراً، ومتوقعاً، وكل من على البوابة يؤيده، وبياركة، تساءلت في سري: «لماذا يتدفع الوالد هذا الاندفاع؟» كنت أخشى أن يكون على صلة خفية مع بدور. إنه يحوم حولها منذ وصولنا، وهو يعرف أن المطعون يريد لها لنفسه، لكن المنافسة بينها لا أدري كيف حلت. ربما كان تحرش المطعون بالمرأة انتقاماً، وربما كان بدفع، كما منح الوالد، من الشوباسي. ومهما يكن فإنها امرأة، وفلاحة وثمة ثلاثة ذئاب حولها: المطعون والشوباسي والوالد. ولكم تمنيت، في هذه اللحظة، أن تكون نية الوالد سليمة، خالية من الغرض، وأن يكون دفاعه عن بدور لوجه الحق وليس لوجه الشيطان.

توقعت عراقاً بين المطعون والوالد، لو حصل ذلك لكان كارثة، أعرف والدي، إنه لا يبالي بالكوارث، ومهما كان الدافع وراء موقفه هذا فإنه سيسبني إلى النهاية. وبدافع الخوف على عملنا. ومنعاً للاشتباك المتوقع، وبحمية زائفة، تقدمت من المطعون وأمسكته من ذراعه:

- يا عم أبو نعمة.. لا يليق هذا الموقف بكما.. تتضاربان وأنتما أقارب؟

نبح المطعون:

- قل له إذن.. قل لوالدك أن ينجل..

صاح الوالد:

- وإذا لم أنجل؟

- عندئذ يكون بيتنا حساب..

لم يقل الوالد شيئاً.. كانت في يده عصا. كانت عصا من السنديان، كانت عصا حارس حقيقي، فخبيل إلي أنه سيضرب بها، لكن الوالد اقترب من بدور ومسح بها يدها قائلاً:

- هيا بنا..

ترددت بدور. احتارت فيما تفعل. لكن قبضة الوالد أطمعت على ذراعها بإحكام، وبقوة دفعتها إلى أمام، فسارت الفلاحة والوالد وراءها، وراحت

العيون، من حولها، تخلق غير مصدقة. كان الجميع ينتظرون ردة فعل المطعون. من جهتي توقعت أن يدخل خيمته ويأتي بالسدس فيشهره على الوالد. توقعت أن يطلق الرصاص، أن يسرع ويقف في طريق بدور، حائلاً بينها وبين العودة إلى بيتها، لكن المطعون لم يفعل أي شيء من ذلك. غادر البورة «إلى وح» وقال وهو يتعد:

- لا أحد يتحرك من مكانه. . . كلكم شهود. . . سأخرب بيتك يا مصري. . . سأبلغ الشوباسي أنك خنت الأمانة التي أوكلت اليك. أنت لست حارساً، أنت متواطئ مع الفلاحين، أنت شريك بدور، ولن أعود إلى عملي ما دمت أنت على البورة، هي كلمة واحدة: إما أنت أو أنا، وكفى مهازل.

خلت البورة من الاثنين: المطعون والوالد: أحدهما ذهب ليشكي، والآخر، المشتكى عليه، ذهب يوصل بدور إلى بيتها. عقب ذهباها علا اللغط. قال الفلاحون إن المطعون سيقم الدنيا ويقعدها، وأنه سيأتي بالشوباسي معه، وعندئذ الويل لبدور، والويل لمن ناصرها. وقال آخرون إن الخير سيبلغ بيت «ف» أنفسهم، وأن تحقيقاً سيجري، وسيطردونا من الحراسة، ويمتنعونا من جمع الزيتون، وسنعود إلى المدينة، إذا لم يكن إلى السجن. الأم خافت. كادت تنهاوى، وجدت فيها حدث امتحاناً من الله. وجدته كارثة حقيقية، وغضباً يلاحقنا منذ تركنا مدينتنا إسكندرونة. جلست أمام الخيمة واضعة يدها على خدّها. ولم تلبث أن بدأت تبكي، وكل من على البورة يراها، مما دفع الأخت إلى التوسّل إليها أن تدخل الخيمة، وأن تكفّ عن البكاء، لأن الدمع لا يفيد، ولأننا، لو طردنا، سنأخذ حقناً ونعود، ولا بد أن نعثر في المدينة على عمل. كانت شجاعتهما تمدّها دائماً بما تمزّق به الستارة السوداء التي تنصّبها الوالدة في مثل هذه الظروف. لقد اهتمّت، لكنها وجدت ما فعله الوالد منطقياً، ولم تكن آسفة عليه، ولم تتعجّل الأمور، وجاءت إلى تسألني:

- ما رأيك؟ يأتي الشوباسي الآن؟ ترى يضرب والدنا، يعاقبه، يطرده من

عمله؟

- ربّما .. كل شيء جائز .. غير أنّ الوالد فعل ما كان يجب أن يفعل، حمى بدّور وهذا هو المهمّ.

- لتذهب بدّور إلى الموت .. لقد تسيّبت لنا بمشكلة ..

- لو لم تقع المشكلة اليوم، لوقعت غداً! كان الاصطدام مع المطعون متوقّعا.

- وهل نحسب أن بدّور سرقت؟

- وأين نخفي ما سرقت؟ إنه افتراء .. إرهاب .. تهمة مزوّرة، الله يعلم الغاية منها.

- أنا أعلم .. هذا السفية لا يتّهمها إلّا لوجه الشيطان.

- إذن موقف الوالد صحيح ..

- ومن قال إنه خطأ؟ .. لكن الأمور ستتطوّر الآن .. ثم أنظر الفلاحين ما أكثرهم على البورة، والجمال لن تلبث أن تصل، والعمل معطل، والزيتون قد يفسد، وكل هذا سيتحمّل نتيجة جته الوالد .. اليس كذلك؟

- ستحمّل مسؤوليته كلنا .. ما أظن أنّهم يتركونا نجني زيتونة واحدة بعد الآن.

- للقرّد .. نعود إلى المدينة ..

- وماذا نعمل في المدينة؟

نظرت إلى بعينين عاتبتين. كانت تحاول، وقت المصيبة هذا، أن ترتفع عليها. ما هو الأسوأ في الأشياء؟ أن نتوقّف عن العمل؟ حسناً! وماذا بعد؟ ما يفعل المطعون والشويصاوي والسيد (د) نفسه؟ أنها تدفع الأشياء إلى نهاياتها. تصل إلى المرحلة الأسوأ وتتصدّى لها بشجاعة، بينما أنا أنطوي على خوف، وأسأل الله في سري أن تنقضي الأمور على خير.

فجأة سألتني :

— لماذا لا نعمل؟

— وماذا نعمل؟

— أنت تكتب وتقرأ . . . هيا إذن . استلم القبان ، وخذ ورقة سجل عليها ما تتسلمه من زيتون ، وهذا أفضل من الوقوف مكتوفي الأيدي .

— لكن هذا عمل الوكيل . . .

— وإذا تأخر الوكيل؟ نترك الزيتون يفسد؟ وإذا عادت الجمال من المعصرة، فمن يقبض أحماها؟ هيا اذهب إلى القبان وأنا أساعدك . انتبه . لا نخطئ في الوزن، لا تشتم الناس، ولكن لا ندع ما تتسلمه ينقص . .

ذهبت إلى القبان، تفحصته . سحبت البيضة . ضبطت العيار، وصاحت أختي بالفلاحين :

— تقدّموا بالدور . . . دون مزاحمة ولا تدفيع . . .

جثت بورقة وقلم، جلست على الكرسي . اضطربت في البدء، كنت أخاف المسؤولية . رغبت أن أتأكد من ضبط العيار . من جديد سحبت بيضة القبان، وضبطت العيار ثانية . بدأت العسل مراعيًا فيه أن يكون الوزن إلى جانبي قليلًا، حتى إذا أعيد الوزن لم يكن ثمة أي نقص .

الفلاحون دعوا لأختي، طلبوا لها طول العمر، والصيت الحسن، وأن يرزقها الله ابن حلال، وأطاعوها في كل شيء، حين طلبت منهم أن يفرغوا الزيتون المخبّن على طرف البورة، وآلًا يمّسوا بيد الزيتون الذي يرتفع في وسطها .

أمي لم تكن مرتاحة . زاد تشاؤمها . صاحت بأختي :

— أنت والدك مستخربان بيتنا .

وقالت الأخت لي :

— لا ترد . . هيا . . ماذا تنتظر؟

بدأت، كانت أصابعي ترغف، كنت أزن كيس الزيتون مرتين،
ولاحظت أختي، فاقتربت مني وقالت:

— أسرع.. هذا ليس ذهباً.. مهما يكن من زيادة أو نقص، فإن بيت
(ف) لم يخسر شيئاً.

ومن بعيد تعالى رنين الأجراس. أقبلت الجمال، وبان الجمال على حماره
في المقدمة، وحدثت ضجة، لكن الأخت، بقوة شخصيتها، ومهارتها،
ضبطت الأمور، وطلبت من الجمال أن يستريح، وذهبت لتعد له فنجاناً
من القهوة..

نسبت، في غمرة العمل، مخاوفى.. انسجمت فيه، تخيلت نفسي
الوكيل، كانت العملية سهلة، ولم تمض دقائق حتى كنت أسحب بيضة
القبان بثقة، بل أسحبها رأساً حول الرقم الذي أقدره، ثم أذبذبها قليلاً،
فإذا لسان القبان يستقيم، وأنا أصيح:

— غيره..

وطفق الفلاحون يضحكون، ويتعاونون معي. ينتظرون دورهم، ولا
يجادلون في الكمية، بسبب ثقتهم بأنني لا أغشهم. كانوا يحملون أكياسهم
إلى حيث أشارت الأخت، عند طرف البورة، فيفرغونها ويمضون، وأنا
أرخص السمع، لمعرفة ما إذا كان المطعون قد عاد، وما إذا كان الشوباصي
قد أقبل، أودع الوالد من القرية، وأتمنى أن يتأخر الجميع، حتى أفرغ من
المهمة التي انتدبني لها الأخت، وأظهر للجميع أنني قادر على الفوز بما
تصديت له.

فرغت من وزن الزيتون الذي جمعه الفلاحون. جاء دور تحميل الجمال.
كانت هذه ترعى العشب اليابس والأشواك، على أطراف البورة. وكان
الحمار قد انفصل عنها، ليأكل عليه، والجمال يجلس أمام الخيمة، يدخن
سيكارة بعد أن شرب القهوة التي أعدتها الأخت، كان اسمه مصطو، وكان
ربعة، على رأسه كوفية، وفي يده عصا، وفي وجهه تعبير شكر للنداء، كان

كل شيء فيها قد استقرّ على نحو جيّد. ذهبت إليه، تشاورت معه حول تحميل الجمال، فأبدى رغبة في التحميل والعودة إلى المعصرة بسرعة، خشية أن يتأخّر المطعون، ويفسد الزيتون الذي على البورة. وافقت الأخت التي انضمت إلينا وقالت:

— لا بأس، نملا الغرارات ونقبّن . .

— وأين الدفتر الذي نسجل فيه الكميّة التي حملناها؟

— نسجلها على ورقة برّانيّة. . . وحين يعود المطعون ينزلها في الدفتر.

سأل مصطوّر الجمال:

— والوصل الذي أخذه للتوقيع من المعصرة بالاستلام والإعادة؟

قالت الأخت:

— هذه مشكلة . .

ثم سألته:

— ألا يحدث، حين يكون المطعون مشغولاً، أن تأخذ وصلين معاً؟

— يحدث . .

— إذن تأخذ وصلين في النقلة القادمة. . . أعطينا الغرارات الفارغة.

تردّد الفلاحان عزيز ويونس اللذان يعملان على البورة، لكن اختي التي سحبت الرفش، ونيّتها إلى أن الزيتون، لو تأخّر التحميل سيفسد، بثّت فيها شيئاً من شجاعتها، وهكذا بدأنا العمل من جديد، شاعرين هذه المرة أننا أوقفنا المطعون في ورطة. كان بيدر الزيتون ضخماً عالياً، فما إن دفعنا الرفش في جوفه حتى انتشرت رائحة زيتيّة حادّة، وهذا يعني أنه يجب التحميل دون تأخير، وإلا نأكسد الزيت وتدنّت قيمته بعد العصر.

ملأنا ستّ غرارات. خطنناها وقبناها. بقيت أوسع. كنّا نعمل بحماسة، باندفاع، بنوع من ثار، وكنا نريد، في أعماقنا، أن نضرع من التحميل، وتغادر الجمال قبل أن يعود المطعون. تواطأنا، على هذا النحو، أن نصنع له مفاجأة، مؤدّاها أننا قادرون على القيام بعمله تماماً، وأنه

يستطيع أن يُضرب، أو يعود أو يذهب إلى وِج أو المدينة، دون أن يَختَل توازن القَبَّة الزرقاء.

كان الوالد أوَّل من عاد، دهش حين رأى العمل يجري. واجمال تحمل، دون أن يكون أثر للمطعون، فصاح وهو يرانا:

— كيف تفعلون هذا؟

قالت الأخت:

— وماذا نفعل إذن؟ نترك الزيتون يفسد؟. المطعون أقسم ألا يعود إلى البورة ما دمت أنت عليها، وما أنت هنا، وهو هناك، ولن يعود إلا مع الشوباصي، وعلى فرض أن هذا في المدينة، أو في قرية مجاورة، أو يتفقد الحبوب على البادر، فماذا نفعل في حال كهذه؟ غاية المطعون أن يتوقف الشغل، أن يفسد الزيتون، وأن يلقي عليك بمسؤولية كل ذلك، فلماذا ندعك تتحمل المسؤولية؟

— ولماذا اتَّحملها ما دام هذا شغله؟

— سيزعم أنك أجبرته على توقيف العمل، ولم يعد بالإمكان تقيين الزيتون قبل أن يأتي الشوباصي، سيخترع ألف قصة، ويلقى ضدك التهم، وما فعلناه، على فرض أنه لم يرض الشوباصي، فإنه لن يزيد الموقف سوءاً..

— الشوباصي لن يكون راضياً.

— ممّ؟

— من كل ما جرى..

— أنت تدافع عن موقفك، ونحن ندافع عن موقفنا.

— ومنذ متى كان لكم موقف مستقلّ؟

— منذ أن تركتم البورة وذهبتُم، أنت والمطعون.

قالت الأم:

— كبرت المسألة. الله يستر.

قالت الأخت:

- ليحدث ما سوف يحدث.. أنا لا أبالي..
- أنت لا تباليين.. أنت لم تخلفي إلا للصدام.
- صاح الوالد بالأم:
- كفى!

كان قلقاً، عتاراً، متردداً، لكنه، بعد ذلك، اعترف:

- البنت فعلت عين العقل.. ولكن كيف تمّ الشغل بهذا البسر؟ هل سجل أخوك كل شيء كما يجب؟

قلت:

- نعم فعلت.. سجلت الزيتون الوارد، ووضعناه على حدة، إنه هناك، تلك الكومة التي على طرف البورة، وسجلت الصادر، وكل شيء على ما يرام..

لم يقتنع الوالد تماماً. كان على شك من أن كل شيء قد تمّ كما يجب، الآن فقط شعر بأنه أقدم على فعلة أدت بالمطعون إلى الخرد.. لفّ سيكارة وأشعلها. قرفص تحت زيتونة وراقب ما نعمل، فلما حملنا الجمال وانطلقت نبهته أجراسها إلى الواقع، فابتسم وقال:

- القصّة كبرت يا أولاد.. لسوف نواجه الطرد.. سيطردوننا لا محالة..
- قالت الأم:

— إذا حدث ذلك فهو بسببك..

عندئذ انفجر، كأنه كان ينتظر كلمة منها لينفجر..

- لماذا بسببي؟ ماذا فعلت؟ وماذا تريدن بعد؟ هل كان يجب أن نترك بدور بين يديه؟ كان يرضيك أن تحبر على خلع ثيابها؟ لماذا رفضت تفقيشها؟ ماذا لو دخلت الحيمة وخرجت، ثم قلت له: ولا شيء تحت ثيابها؟

قالت الأم:

— بدور ما كانت غفبي، شيئاً.. إنه اتهام كاذب.. افتراء على امرأة بريئة.

وقالت أختي:

— فعلت ما كان يجب أن تفعل، فلماذا تندم الآن؟

دافع عن نفسه:

— لست نادماً.. لكن المسألة تطوّرت.. لنتظر ما سوف يفعل هذا

الكلب.. إذا أدت شكواه إلى طردنا فلأنني سأضربه، نعم.. سأفعل ذلك.

صاحت الأم:

— لا تضربه، أرجوك، لذهب إلى جهنم هو البورة والزيثون.. كنا بغني

عن المشاكل.

قال الأب:

— لا يستطيع الإنسان أن يعيش دون مواجهة المشاكل. هي التي تفرض

نفسها عليه. ما بقي هو أن يواجهها أو ينحني لها.. أنا لا أنحني حتى

للعاصفة.. في حياتي رأيت كثيراً من العواصف.. واجهتها، ولم أنحني

أمامها..

— لكنك لم تنجح ولا مرة..

— هذا بسبب الخطأ..

— بسبب سوء التدبير..

— مهما يكن.. ما فعلته اليوم كان لا بد منه.. أنا لست امرأة، ولن أكون

امرأة ولا في يوم من الأيام.

— وأنت لست رجلاً أيضاً.. وإلا ما وضعت بهذا الشكل..

— الرجل شيء، والتوفيق شيء آخر.. الذين يتوقعون لا يكونون رجالاً

دائماً.

— وماذا يكونون؟

— امرأة مثلك . . . اللعنة على حواء! . .

انسحبت الأم صامتة. هي تعرف أخلاق الوالد، إنه على حافة الانفجار، وإذا انفجر فبضريرها. في حالة الغضب لا يسأل عن شيء. تستوي الأمور عنده، لكنه، الآن، لا يقدر أن يضربها، أمام أولادها، لم يعد ذلك لائقاً، وليس لائقاً أكثر أمام الناس. في حالة الغضب يضرب السيد نفسه، ومن الأفضل ألا تستغربه. لقد قطعت الأمل، منذ زمن بعيد، من انصلاحه. هذا هو: سكير، خاسر، مشاغب، لا يسكت على واحدة، ولا يأبه، حين يتصرف، بالعواقب، هذه التي تتصل بالخوف، بالحذر، وهو لا يخاف ولا يحاذر، ويستطيع عند اللزوم، أن يقتل، وأن ينام ملء جفنيه، ليلة شنفه نفسها.

من جهتي كنت أعرف والدي، لكنه، في كل تصرف جديد، يبدو جديداً تماماً، كأنه لا يكرّر نفسه. هكذا، بشعور من الأسف الشديد، رحت أراقبه، لاحظ كل حركة من حركته، عسى أن أفهم ما هي دوافعه. لكنه كان يفاجئني، حتى أحسب ألا دوافع وراء أفعاله، وأنه يتصرف بعفوية لحظته، ثم لا يبرر سلوكه، كأن ما أتاه هو الصواب الذي لا يأخذه في أمره شك. ليس معنى هذا أنه لا يندم. في حال واحدة كان يندم، هي حالة السكر، كان يستشعر عاراً بحق رجولته، وأسرته، لكن ندمه كان عيباً ثانياً لفعلته، لا يمنعه من الإقدام ثانية على فعله أسوأ، كأنما يندم لأن من طبيعة الأشياء أن يتصرف على هذا النحو، أو كان الموبقة تتطلبها ندماً، وهذا يتطلب موبقة جديدة.

لست أجزم بأنه انتصر لبدور لأنه يريدتها، لكن بدور وجدت في هذه الحركة تصرفاً رجولياً يستحق الالتفات. هكذا تضعه تصرفاته اللامسؤولة أمام إغراءات لا يقوى على الصمود لها. بدور ستقع بين يديه، هو لا يستعجل، لا يبالي، لا يتحسر، وحتى ولو لم تقع فلن يتأثر أيما تأثر. ما يقال له حب، ما يقال له عشق، وما في الحب والعشق من لوعة، من هيام، من غرام يحمل الرجل على الذبول، على النحول، على البكاء، غير وارد في

قاموسه. إنه يعيش اللحظة لذاتها. يتصرف بحق الفعل الطبيعي، وبعد ذلك يترك كل شيء للمجرى الذي يتخذه. لقد دافع عن بدور، حماها، وأنقذها من التفشيش عنوة، وسيدفع ثمن كل هذا راضياً، دون أن يتنظر أجراً أو شكوراً، فإذا ما جاء هذا، وإذا ما استسلمت بدور، فإن ذلك أمر آخر، منفصل، لا علاقة له بما قبله. إنه لا يراكم الأسباب، ولا يربطها، ولا يكثرث بها، وكل تصرف يقوم به يُعدّ جديداً، وحتى لو تورط، فإن غاية ما يستطيع أن يبرّر به تورطه هو إرادة الله، ففي نظره كل شيء يعود إلى الله، لأنه هو، بعد كل شيء، مسؤول عنا، ولأن شعرة، كما قال المسيح، لا تسقط من أبداننا إلا بإذنه.

تمّنت، عمري كلّهُ، أن يكون لي ما كان لوالدي من لامبالاة. أن تكون لي شجاعته، إقدامه، تهوّره، ونسيانه أيضاً. فقد كنت أنا، لا هو، من يجب أن يدافع عن بدور، يحميها، ويوصلها إلى قريتها. لكن الحذر كان دائماً قيداً في عنقي، وهكذا ضاعت الفرصة، هذه التي لم يفكر بها والدي، لكنه لم يضيّعها، ولست أدري ما قاله للمرأة، لكنه، أثناء الطريق، قال أشياء ترضيها، ولا شك، أو ربما تعهّد لها بأن يضرب المطعون، وترك لها، مقابل تعهده، أن تفكر فيه على هواها، فإذا فكرت لا بدّ أن تعجب، والإعجاب طريق مفتوح لكل الاحتمالات. لقد كنت في السادسة عشرة من عمري، كنت في سنّ المراهقة، وفي مثل هذه السنّ يشكّل جسد المرأة إغراء لا يُقاوم، وفي الحفيظة أغرائي جسد بدور، لكنني رفضت فكرة تفتيشها، وحتى لو أرغموني عليه فسأنكر أنها سرقت ألبما زيتونة، ولو وجدت زيتون الكرم كلّهُ في طيّات ثيابها. إنني، من ناحية المرأة، أتساوى مع والدي، ويظلّ الفعل هو الفارق، يظلّ الحذر غلاً في عنقي، بيننا والذي حرّ، لا يعرف الأغلال، منذ ولد. نعم لقد تمّنت أن أعرف، وهو يمشي معها، ما قاله لها، لكنني رغبت رغبة صادقة أن يظلّ عفيفاً معها، فلا يتلفظ بكلمة غير لائقة أبداً.

هذا ما كان شعوري. ولم أتساءل ما هو شعور אחי، فقد كانت طاهرة

في نظري، أما أمي فقد كانت نوعاً آخر من المرأة. لم أنصوّر يوماً أن نفسها جاشت بما نجيش به النفوس الأخرى. خيل إليّ دائماً أنها خلقت كبيرة، خلقت أمّاً على نحو ما أراها. ولم تكن هذه الأمّ تعطي لنفسها أيّ حقّ من الحقوق. كانت مع الوالد مستلبة الحقوق جميعاً، وكان يخيّل إليّ أنها قانعة بذلك، فإذا وفّت بواجبها الزوجيّ فأتماّت في به كارهة. والذي هو الذي أطفأ كل إحساس فيها. استلّه منها على نحو بطيء مستمرّ، حتى أضحت جسماً فارغاً من الداخل، قسبة جوفاء، مكرّسة لخدمته، للعناية بنا وتنشئتنا، وما رأيها مرّة تروح ونحي، إلّا والهمّ بروح ونحي معها. كانت طيبة، مؤمنة، قديسة، وتكره، بشكل لا يظهر عليها، زوجها، وتضمّر عتياً غير قليل على حظّها الذي رماها به، ثم هي تعزو كلّ ذلك، بعد الحظّ، إلى اليتيم. تقول إنها كانت يتيمة، وكانت تعمل في بيوت الناس، وأنها تزوّجت دون حبّ، دون رغبة، دون معرفة بما وراء الحب والزواج. لقد كانت صغيرة، وكان والذي يكبرها، وكان يمكن، لمشاعرها أن تفتح أو تغلق نتيجة موقفه منها، ومن سوء الحظّ أن هذا الموقف تبدّى إنسانياً، بشعاً، كريهاً، وهكذا انقلبت حرارتها الجسديّة إلى برودة، ومن الصعب أن يكون حادث اليوم، وذهاب والذي مع بدور، وما يتوقّع لذلك من أثر في علاقة رجل بامرأة قد أثار فيها أيّما انفعال.

طاب لي، بعد الانتهاء من تسلّم الزيتون، وتحميل الجمال، وغسل الوجه واليدين، أن أشرب فنجاناً من القهوة. ما كنت أدنّ، لكنني، في نشوة داخلية أعيشها وحدي، رغبت في القهوة، وشاركتني فيها أختي. ما كنا نشرب الشاي، في إسكندرونة لا يشربون الشاي إلا مع الإفطار. إنه أدام طعام الصباح، ما عدا ذلك، فإن القهوة هي التي تقدّم للضيف، وتشرب للمزاج، وتؤخذ للاستمتاع في الأصباح والليالي.

كنت، الآن، على مزاج طيّب، فقد بعث بي الإقدام على ما أقدمت عليه، شيئاً من شعور بالثقة، بعضاً من الراحة، وقليلًا، قليلًا جداً، من الزهو، كان يمكن أن يكون أكبر وربما وصل إلى حدّ الغرور، لولا توقّعي أن

المطعمون سيقبّلون الدنيا ويقعدوها بعد عودته. ولم يكن خوفي من المطعمون هو كلّ خوفي، كان هناك الرعب من الشوباهي. الذي سمعت عنه من كل من صادفته، ورأيت منه، بعد أن عرفته، ما ثبتت هذه القناعة الرعبيّة في قلبي. . . وما هو الوكيل يذهب إليه شاكياً، وسيعود به هذا المساء لننال جزاء تصرّفنا الخارج عن المألوف، أو المضادّ لكل مألوف، في مهمّة الحارّص التي كانت تقتضي من والدي أن يكون مع الوكيل وضدّ بدّور، لا مع بدّور وضدّ الوكيل.

شربت قهوتي متهللاً. كانت قهوة حلوة، ترشفتها متلفلاً، متمنياً أن أشرب فنجاناً آخر، دون أن تخطر لي السبكرة، هذه التي سأعرف، في الكبر، أنها مع القهوة تساوي ثقلها ذهباً. وقد سألتني أختي، التي تعرف تحسباتي:

- لماذا أنت مهموم؟
- لست مهموماً.
- وما رأيك بما فعلنا؟
- جيّد لولا أنّه . . .
- قاطعتني:
- ألا تستطيع العيش دون «لولا» هذه؟
- ولكننا . . .
- قد نُطرده، أليس كذلك؟
- على الأقلّ منحابس . . .
- دُع عنك هذا. . . حين تُقدم على شيء، لا تنال سلفاً بما ينجم عنه. . .
- أنت رجل، ستصير رجلاً، فأعرف كيف تتصرّف إذن. . . لا تخف من أيّ شيء، وعندما تكون على حقّ، أو تعتقد أنّك على حقّ، كن شجاعاً وتحمل تبعات.

فكرت بما قالت، وخطر لي تبرير خوفي فقلت:

— لو لم تكن فقراء. . .

أضافت:

— حتى مع الفقر كن شجاعاً .

أضافت أيضاً:

— الشجاعة، مطلوبة خاصة مع الفقر، ليستطيع الفقير أن يواجه الحياة .

— أنا لا أنكر ذلك . . .

— ومتى ستعمل به؟ كنت أتوقع أن يصدر عنك ما صدر عن أبيك . .

— لماذا؟

— هكذا . . والدك غير متعلم، والدك لم يقرأ تلك «الكراريس» التي

قرأتها، ثم هو غير معنيٍّ بالعدالة مثلك .

— لماذا وقف مع بدور إذن؟

— لا أدري . . ربما وقف مع بدور بمقتضى الشهامة، بينما كان عليك أن

تقف إلى جانبها بمقتضى المبدأ . . ألا تقول إنك صاحب مبدأ؟

— أزعجني ما تقول . كان صحيحاً وهذا ما زاد في إزعاجي، صحت بها:

— كفى تقريعاً .

— أنت حرّ، ولكن أيّ رجل ستكون، إذا ما استولى عليك الخوف أمام أبنة

مشكلة؟

— أنا لست خائفاً .

— لكنك لست جريئاً . أنت تستمدّ من وجودنا بعض الشجاعة . . تريد

أن تصرف نفسك عن التفكير بما قد يحدث .

— وأنت؟

— أنا مثل والدك، لا أبالي . .

دون تفكير، صدر عنيّ هذا السؤال السخيف:

— وكيف تفعلين كي لا تبالي؟

— لا شيء . . الله خلقني هكذا .

قالتها وغادرتني وفي يدها عصا . كانت العصا تعبيراً عن ذات صدامية .

لم يكن هذا ليفوتني ، غير أنّ العصا في يدي ، ما كانت لتعطي المعنى نفسه .
لا بدّ أن أبدّل نفسي إذن . . يا الله ، كيف يبدّل الإنسان نفسه ؟ هبني هذه
النعمة يا ربّ ! اجعلني أتبدّل ، صيرني مثل أبي ، صيرني مثل أختي .
غير أنّ ذلك لم يصّر . . كان باكراً بعد ، وكان عليّ أن أكون منافساً
لأكون شجاعاً وبالعكس .

طالت غيبة الوكيل . طولها أعطانا المبرر، أختي وأنا، لنقول إننا كنا على حق . كان المطعون، في قرارة نفسه، يحسب أنه فعلها . ما كان مهتماً بالزيتون، ما دامت المسؤولية، بعد كل شيء، ستلقى على والدي . ولم نكن، حين شرعنا بالعمل مكان الوكيل، نعلم أنه سيتأخر إلى هذا الحد، قرارنا كان عفويًا، غير محسوب بالمسطرة كما ظهر فيما بعد، وقد ارتحنا، عند هبوط الليل، أننا فعلنا ما فعلناه . فقد سیرنا الشغل، وأنقذنا الزيتون، وأبطلنا حجة المطعون في أننا نعرقل العمل، وأنا نقوم بالتخريب ضد السادة أصحاب الكروم .

أشعلنا النار، وخبزت لنا الوالدة على الصاج، أشعل الفلاحان اللوكس، وبدا كل ما حولنا ساكنًا، كأن الليل الساجي قد امتص كل نامة، ما عدا بعض الأصوات لعصافير طائفة، متقلبة، متأخرة عن أسرابها، ولبعض الجنادب، التي تصرّ في ليالي الصيف . وفي الأبعاد كانت نيران تشتعل، تلك هي نيران التناير التي أوقدها القرويون، وقد أطلعت عليها من الرابية، وسمعت، من هناك، ثغاء وخوارًا، صادرين عن المواشي، وهي تعود إلى حظائرهما، وترسل النداءات لصغارها المنتظرة في الزرائب . كان بهاء المساء يفتني، وقد أحسست، هذا المساء، بفتنته على نحو أروع، برغم ما بي من قلق من جراء الحادث الذي وقع .

ولقد رغبت، في هذه الخلوة على رأس الرابية، أن أتملى الكون، وأكون وحيداً، فأنفرد بشي وأحلى مشاعري على مهل. ومن نافلة القول، أنني كنت راضياً، لا بما قمت به من عمل، وإن كان هذا قد أَرْضاني، بل بما أثار إعجابي، مما أظهره الوالد من جرأة تحدت المطلعون في أعز شيء لديه: وظيفته! قلت في نفسي: «لو أن الوالد على وعي قليل لكان أشد جرأة، ثم خطرت لي أن جرأة والدي تأتيه من لامبالته، من نزقه، من انعدام الشعور بأيما مسؤولية لديه حتى تجاه العائلة. إنه الفلتان، التصرف حسب الطبيعة. بدائية الفعل حين لا يعضله حذر، فهل كان الوعي، لو واثق الوالد، يلجم بدائية فعله هذه؟ يدخل دائرة الحسابات والمحاذير؟ يجعله يفكر بما يفعل، قبل أن يفعل؟ يصبح مثلي، على الأقل، أنا ابن المدرسة، الذي يعرف الحق والباطل، أو يتخيل إليه أنه يعرفها، لكنه، أمام قيد العقل، لا يندفع مع غريزته، ولا يتصرف دون رقيب من وعي يقول له افعل هذا ولا تفعل ذلك. إنني أناجي ربي، أسأله أن يهبني جسارة كجسارة والدي، وشجاعة كشجاعة أختي. لكن والدي وأختي أميان، لم يذهبا إلى مدرسة، ولم تنهذب طبيعتهما الفطرية، وهما يصدران عنها في نوع من عفوان، يجعل التمليل الداخلي الذي أحسّه عمداً صريحاً عندهما. أكفر بالمدرسة إذن؟ أكفر بالوعي الذي عقل اندفاعاتي الطبيعية؟ أضع اللوم على ما قرأته ووعيته من الظلم النازل بالناس؟ أم أن طبيعتي هي طبيعتي، فأنا حذر بالفطرة، وحذري هذا، إذا كان له أن ينتفي، فإن دفع الظلم عن الآخرين، أو الإيمان بذلك، هو ما سوف ينفيه رويداً رويداً؟

لقد كان فايز الشعلة جريئاً، ولم يكن أمياً. وكان سبيرو الأعور جسوراً، ولم يكن غافلاً، وقد قال لي فايز الشعلة مرة: «لا تشك من ضعفك الجسدي. هذا لا شيء. القوة في القلب، هناك تكون أو لا تكون. الشجاعة تأتي مع الإيمان، الموت نفسه، يأتي مع الإيمان. حين تؤمن بشيء فأنت على استعداد لأن تموت من أجله، أما إذا كنت مستسلماً لموج الحياة، فإنك لن تحبب السباحة في بحرهما، ولن تكون قادراً على مواجهة مصاعبها.

الخوف ليس فطرة. . الجراءة ليست فطرة، كلاهما يُكتسب اكتساباً. وقد صنع هذا الكلام لي بهجة. منذ ذلك اليوم تبدلت. كنت انطوائياً فصرمت اجتماعياً. كنت متشائماً فصار لدي بعض الأمل. كنت يائساً، ولو ملكت الجراءة لانتحرت، وما أنا أغلص من يأسٍ وضعفي شيئاً فشيئاً، لكن الجراءة التي تأتي مع الإيمان لم تواتني بعد، فهل ذلك لأنني لم أؤمن بشيء بعد؟ أو هل ذلك لأن إيماني غير كافٍ؟ وما دامت الجراءة، بالفطرة أو بالوعي، هي الجراءة أخيراً، إذن ما الفارق بين الفطرة والوعي؟

كذلك قضيت ساعة كاملة وأنا أفكر. كان في داخلي معمل للتفكير، ما إن تدور آله حتى يجذبني كورقة بين مستناته، فتروح أسطواناته تدور بي حتى أدخل عالماً منفصلاً عن عالم الأرض، عالماً أليفاً، حبيباً، لكنه لا يفضي إلى شيء، وهو، في أحسن الأحوال، يجعلني أضطرب في متاهات ما تنشأ تشعب وتفرع وتقودني إلى متاهات أخرى، فأضيع، وأحتاج إلى الحرب من عقلي وتفكيري كليهما.

أخيراً اضطرت إلى التجوال. جعلت أهبط الرابية وأصعدُها كمرّة أخرى. وجدت في هذه الرياضة بعض التسلية، ومع أنه لم يسبق لي أن قمت بجولة في الكرم أثناء الليل، فقد غامرت وذهبت إلى بعيد، متنبهاً في كل لحظة، إلى أيما خشخشة بين الأعشاب، خوفاً أن تكون ثمة أفعى، ادوسها فتلدغي دون أن أظن إليها.

بلغت في سيري طرف الكرم الآخر، لم أكن في الواقع أقصد هذا البعد كله، لكنني، حين أوغلت في الكرم، قررت أن أخرج منه وأعود إليه عن الطريق العام، الذي جئنا منه يوم وصولنا إلى قرية وح. كان طرف الكرم ينتهي عند مجرى سيل. كان المجرى، في الصيف، جافاً، وعلى كنفه رأيت خيمة أمامها فانوس مؤطر بزجاج، بنير فسحة جلس عند طرفها، تحت زيتونة شاهقة، رجل في مثل عمر والدي. وإلى جانبه فتاة عرفت من صغر سنّها أنها لا يمكن أن تكون زوجته.

تنحنحت حتى ألقت النظر إلى وجودي. كنت أستطيع أن أظّل وراء

شجرة زيتون، أراقب ما يجري في الفسحة المظرة بضوء الفانوس، لكن معرفتي أن هذا ناطور آخر من نواطير الكرم، وأن هذه ابنته، دفعني إلى الإعلان عن نفسي، كأنما كرهت أن أنقص، أو حكمت بأنني لن أفع على أي مشهد مثير، أو أن رغبة خفيّة دفعني إلى التعرف على حياة ناطور، وإلى رؤية ابنته التي تبدّت لي في الضوء الناعس على قدر من الجمال لم أتوقع رؤية مثله في هذه البرية المقفرة.

صاح الرجل:

— من هناك؟

— أنا .

رأبته يقف، ويتناول عصاه، وثقف ابنته وراءه، حالما جاءهما صوتي الغريب، غير المؤلف منها. تقدّمت باتجاه الضوء، وتقدّم الرجل باتجاهي، وظلت الفتاة مكانها، وقد ارتسمت على عيها ظلال وشحتها بفلاحة من جاذبية مضاعفة.

— من أنت؟ صاح الرجل.

— أنا من البورة، ابن الناطور هناك .

تراخى صوته بعد توتره:

— تفضل . . . أهلاً وسهلاً .

أضاف:

— تقصدنا أم كنت ماراً من هنا؟

— كنت ماراً فرايت الضوء، ووجدت من المناسب أن ألقي عليكما تحية المساء.

— أهلاً وسهلاً . . أهلاً . الاسم الكريم؟

— أنا ابن الناطور .

— ابن سالم الذي على البورة؟

— هو بعينه .

صافحت الرجل الذي قال إن اسمه عبد الله، وصافحت ابنته التي

قدّمت نفسها باسم رثيفة، وتردّدت بين الجلوس وبين البقاء واقفاً، لكن عبد الله الذي كان يشرب كأساً، محاولاً إنعاش نفسه بعد تعب النهار، أصرّ على جلوسه، ودعاني إلى كأس معه.

المرّة لا يعرف كيف تقع المصادفة. يكون خالي الذهن من أيّ شيء، يعيش أيامه بوتيرة واحدة، وإذا المصادفة تبت زهرة في كفه، فيتضوّع منها عبق يعطر أيامه. حتّى قبل ساعة، عندما كنت على الرابية، وقبل ذلك على البورة، كان محالاً عليّ أن أحزر أنّه في هذه الليلة، هذه الليلة بالذات، سيشرق في ظلّمة حياتي مصباح يحمل النور والبهجة والأنس، وسيقبل الجصود الذي أحسّه، إلى نشاط في دمي وعملي وتفكيره على السواء. المجهول ستاره عدميّ يخفي وراءه مفاجأة. أنا جثت من وراء هذه الستارة، أهلي كلّهم جاءوا من ورائها. أمي وأبي كانا، كلّ منهما، وراء ستارته قبل أن يلتقيا، الحياة نفسها ستارة، ومن وراء سجفها يبرز ذلك المجهول ليصير معلوماً، ليقبّل ما كان إلى ما هو كائن، وما هو كائن إلى ما سوف يصير، مُغيّراً، في لحظة، مقادير الناس على نحو مفرح أو محزن. أحمد ربّي لانه بعث الضجر في عروفي، فقمّت في هذا الليل بجولة كنت قبلها أخافها، أو لا أتوقعها، أو ربما أخشى أن أقوم بتلّوها؟ أسأل الله أن يرزقني كثيراً من هذه الجولات، وأن يكشف أستار حياتي، سترأ بعد ستر، كي تشرق في أيامي أنوار تضيئوها؟ ربما كان على الإنسان أن يخطّط، أن يدبّر، أن يرسم، مثل ورق الجوز، خضرة غده المنتظر، ولكن الغد، هذا الذي في رحم الآتي، كثيراً ما يجانف ما خطّطنا وما دبّرنا، وكثيراً ما تأتي رسمة ورق الجوز رسمة ورقة دلب، أو رسمة ورقة الدلب رسمة ورق ورد، فالقلم الذي بيد المقادير، لا ينصاع كلّ مرة للأنامل البشريّة، ولا يستوي مع التفكير الرغبّي الذي يمتدّ حلماً طيّباً، مباركاً، مزهراً، ثم نحصد من حلمنا هذا شلّواً ممزّقا للباس والعجز. إنّه القدر، في حالات الابتهالات القصوى، يتبدّى لنا في صورة غير التي أنشأناه عليها في حلمنا، مع ذلك فإن الحلم مبارك، ولا بدّ أن نحلم. الحلم ضروريّ للحياة، لكنّ هذه، أحياناً، تانيك بتحقّقات

حلمية لم تخطر لك يوماً على بال. إنني أعيش مع عائلتي منذ مدة في هذا الكرم، وربما كان الكرم كبيراً بحيث لا أفكر أن أطوف به كله، وربما كان صغيراً. ومع ذلك لم أقم بالتجوال فيه، ثم فجأة تتشكل رغبة في النفس، ويندفع الجسد للتنفيذ، وإذا المصادفة تضاع صاحبها على الطرف الآخر للنهر، الطرف الذي ما خطر له يوماً أنه سيصله.

فكرت، وأنا أجلس إلى جانب العم عبدالله، كيف لم أعرفه قبل الآن؟ وكيف لم أخظه حين كان يجيء إلى البورة، وحتى لم أكرث به؟ وكيف أننا جيران، ولم نخطر للوالد أن يحدّثني أن في الطرف الآخر من الكرم ناطوراً مثله، وله بنت بمثل عمر شقيقتي؟ وما هي الموانع التي كانت تحول دوني ودون القيام، في الاماسي، بجولة في الكرم؟ ولماذا الليلة، دفعني شعور مبهم إلى التغلب على خوفي، وإلى تجاوز تحفظي، وترك حذري الدائم، والانطلاق في الكرم، لاكتشف، في طرفه الآخر ضوءاً، ثم لاكتشف، في نور هذا الضوء، ذلك الناطور المتوحد وابنته الجميلة رقيقة؟.

ربما كانت السماء، التي تعرف أن ههنا، على أرضها، ينهض فتى يزخر حشاه بكل العواطف الطيبة، أرادت أن تكافئني على طيبي، وربما، أيضاً، أرادت أن تقتص من خلوي، فرمتني بهذا الشجا الذي سيلهب خيالي. إنني لا أجزم. كل ما في الأمر أن واقعاً جديداً يتشكل، وفي حيث لم أكن أتوقع تشكله قط، وأن هذا الواقع، يضعني أمام طاولة عليها ورقة بيضاء، ثم لا أدري من ذا الذي سيكتب عليها، أنا أم قدري؟ ولا أدري، فوق ذلك، ما هو الذي سيكتب، وهل يكون حقاً سعيداً أم نحساً مشؤوماً؟ إنني أفتح صفحة جديدة، وستقرأون هذه الصفحة بكل ما فيها من حسن وقبيح، لأنني ساكون صادقاً، فالكتاب على صفحتي يقوم بها قدري.

كان مضيغي يجلس جلسة مستريحة على حصيرة، ويستند بيده اليسرى على وسادة، وأمامه طاولة خشبية صغيرة، عليها كأسه، وحول الكأس بعض الصحون، ومن ورائه، وفي شجرة الزيتون، علق فانوساً مؤظراً بالزجاج، انقاء للريح، وإلى مبعده، عن يمينه، جلست فتاته التي لا تتجاوز

السادسة عشرة من عمرها. كان الهدوء ناعماً من حوله، وبعد حرّ النهار، بدت ظراوة الليل منعشة، وكان رداء العتمة، منشوراً حوله، ومن خلاله تبين صفوف أشجار غنم إلى بعيد ثم تغوص في هذه العتمة التي كانت شفاقة في ذلك المساء الصيفي الجميل. ولم يكن الرجل يتحدث إلى ابنته، أو يعنى على عادة والدي إذا ما جلس إلى الشرب في الأمسيات. كان هكذا ملكاً صامتاً، وفوراً، مسجماً مع نفسه، مكتئباً بالسحابة، سعيداً كان لا همّ يلتم به، ولا هاجس يشغله. كان صورة للناطور الذي يقوم بمواجب الحراسة قياماً كاملاً، فهو، بعد، لا يبالي بما يحدث خارج كرمه وكوخه ودائرة الضوء من حوله. كان أشبه برجل عزل نفسه عن الناس، وأثر عزله حتى لا يعثره قلق بما يجري خارجها. إنه، في الس التي بلغها، يعرف شيئاً واحداً، أن يعمل نهائياً ويستريح ليلاً. وكان أمناً حتى كأن ملكته الزيتونية لا يتهددها لص ولا يسورها ليل في طوياله خطر، وما كان بينه وبين ابنته جفاء، لكنه لا يتخذها ندبة أو سامرة. فهي لا تشرب معه، ولا تبادل حديثاً، ولا تقرب فتحلس على الخصيرة التي يجلس عليها. كانت مؤذبة، راضية، في عيها بعد لا يدرك كنه. وكانت مليحة، في وجهها وسامة، وعلى خديها غمارتان، تكسيان ظلفتها بهاء إذا هي ضحكت. أما إذا اتسمت فإن الغمازتين تغدوان معجبتين في البشرة العجيبة القمحية الموردة من صحة ونضارة. وكان شعرها ليلياً، طويلاً، يتهدل في جدلة على ظهرها، ويبقى منه بعض خصلة تندل على صفحة الوجه، كأنها تريد أن تحجب خفراً بوشح المحب، والشفة العليا منشورة قليلاً. كتدبير نكوبي لإظهار صف من الأسنان البيض المنتظمة انتظاماً مستطياً. أما الأب فقد كان في العقد الخامس أو يزيد، وكان ذا شعر رمادي، وله ذقن مندفعة، تدل على عرض الفك الأسفل، وعينان خيلتان، فيها لمعة تعطي للوجه كله إضاءة تكسبه طيبة عجيبة. وكان، كما يبدو من كتفيه، فارغ القامة، عريض المنكبين، وله ظلة استعراضية، وجساراة تلوح من كباهه كله.

صَبَّ في قدحاً من العرق مزجه بالماء، وسألني وهو يشرب نخبي:

- ألا يشرب المرء؟

- يشرب..

- كل يوم؟

- كل ساعة إذا أردت..

ضحك:

- إلى هذه الدرجة؟

- وأكثر.. والذي يدمن..

- وأنت؟

- هذه هي المرة الأولى التي أشرب فيها من كأس محضصة لي وحدي.

- العرق طيب .. وستعندة ونحوه ..

- لا أرغب في ذلك.

- لم؟

- هكذا.. كرهته منذ رأيت والذي يدمن عليه..

- يخيل إلي، من كلامك، أنه يسكر بسرعة..

- بسرعة شديدة.. يا إلهي!.. جسمه لا يقاوم العرق أبداً.

- أما أنا فلا أسكر.. أشرب قليلاً.. كل ليلة، ولكن لو شربت كثيراً فلا

أسكر أيضاً.. أنا قادر على المقاومة.

لم تشترك رقيقة في الحديث.. لعل الموضوع ما كان يعنيتها، أو لعلها في خمر نصباً ما زالت تحتفظ في الكلام مع زائر غريب.. كنت أزورها من طرف خفي.. ألقى نظرة جاسية عليها فأروها تردد الانكماش، حتى أنني للحظة.. بشت من أن تبادل كلمة.. لذلك انصرفت إلى الأب الذي كان يشرب ويتحدث مسروراً كما بدا.. لأن إنساناً طوفه في هذا الليل، وجلس إليه يتسامر وهو في انسجامه الكامل مع الطبيعة.

سألني بفتة:

- أنهيت الدراسة؟

- نعم.. أعني المرحلة الابتدائية..

— هذا جيد . وماذا يريد أمثالنا أكثر . ؟ الشهادة كافية لأن يكون الإنسان قارئاً كاتباً وبعدها المهنة . المهنة سوار من ذهب . ولو كان لي ولد لوجهته إليها .

— ألا أولاد لك ؟

— نعم . لا أولاد لي . هذه البنت وأنا . رقيقة وأنا . زوجتي توفيت ، وقد كانت ضربة أليمة . إنه شغل الله فماذا تريد ؟ يخطئ العبد إذا عارض مشيئة الله . أم أنت لست من رأيي

— من رأيك ، على ألا نحمل الله مسؤولية كل شيء . .

اعتدل في جلسته ، وبعد أن حرع بلعة أكثر من المعتادة ، قال مستشاراً لأول مرة منذ أتيت :

— كيف لا نحمل الله كل المسؤولية ؟ البس هو ، عدم المؤاخذه ، الذي خلقنا ، والذي سيمتنا ، ولا تسقط شعرة من أجسامنا إلا بإذنه ؟

كانت حكاية الشعرة التي لا تسقط إلا بإذن المسيح قاسماً مشتركاً بين جميع المسيحيين . كانت السند الذي يلجأ إليه كل من سمع اعتراضاً على أي واقع في الحياة . كانت شعرة قوية ، وكنت أراها مشهرة في وجهي كنصل حاد .

غصت في نهر من التفكير . كنت على استعداد دائم للتفكير ، وهذا ما أزعجني طوال حياتي . كان أجدر بي ، في أول لقاء لي مع العم عبد الله هذا ، أن أحدثه عن الكرم والزيتون والبورة ، وأن استمع إليه يعطي رأياً في كل هذه الأمور . غير أنني ، منذ انعطفت بي فجأة إلى مسألة تدعو إلى التفكير ، نسيت وجوده وسمحت للتفكير أن يأخذني بعيداً . ويبدو أنه ملّ صمتي ، فتكلّم عن نفسه ، وكيف يقضي نهاره ، قائلاً :

— حين أستيقظ صباحاً ، أرسم الصليب على وجهي . أكون ، بعد رسمه ، قد سلّمت وجهي لله ، ويكون المسيح حارسي . لقد عانيت في حياتي ما يكفي من الآلام ، لكنّ الألم الأكبر هو حرمانني من الذرّة . مع ذلك

فهذه ابنتي رثيفة، المسيح أراد أن تكون لي ابنة وحيدة، وأنا قانع، ومفروض أمري إليه. أحسب أنني عشت بشرف واستقامة، بحيث شملني المسيح برعايته، وما زلت على هذا الإيمان، وعندما ماتت زوجتي صيرت على البلوى، اقتداء بأيوب، وما زلت أصبر، وأنا مرتاح لأن الدود لم يزع جسدي بعد، كما رعى جسد أيوب. إنني أنسى، وأنا أعمل نهاري كله، أن فقدت زوجتي قد رمانى بألم موجع، مثل ألم أيوب.

— انظرن أن التشبه بأيوب، والإيمان بعدم سقوط شعرة إلا بإذن المسيح، يكفيان لرد ما نعانیه في حياتنا من آلام؟

— وإذا لم يكونا كافيين، ماذا نفعل في رأيك؟

— لا أقول أن نفعل فعلاً معيناً، ولكن يجب أن نفكر. . الإنسان، بعد كل شيء، ليس بهيئة. .

— في هذه معك حق. . الله خلق للإنسان عقلاً. .

— وعلى الإنسان الذي أعطي عقلاً للتفكير أن يفكر، لا أن يجلس ويقتدي بأيوب. .

— هذا رأي والدك؟

— هذا رأيي. .

— تعلمته في المدرسة؟

— سمعته من الناس. . في بلدنا إسكندرونة، لا يفكرون على هذا النحو

. . هناك يعملون لتأليف نقابات تدافع عن حقوقهم، ويتظاهرون ضد

فرنسا، ويقولون أشياء جيّدة عن المستقبل، أشياء لم أسمع بمثلها هنا،

أعني في اللاذقية، مع أن المسافة، بين إسكندرونة واللاذقية، ليست

كبيرة، وهما تقعان على بحر واحد.

أضفت:

— أنا لا أظن أن الفقر من الله، أو الاحتلال الفرنسي منه. . هذه أشياء

صارت نتيجة فعل الإنسان . .

— حلوا . أنت فلاسفون (فيلسوف) إذن؟

— لست فيلسوفاً، وهل يحتاج ما نحن فيه إلى فلسفة؟

— لا أدري، لكنني لم أسمع مثل هذا من قبل . . . إنه اعتراض . .

قاطعته:

— اعتراض على ماذا؟ إذا كان اعتراضاً على الأغنياء، الاحتياجات

والاقطاعيين، فأنا معترض فعلاً . .

— هذا اعتراض على حكمة الله . .

— استغفر الله، بل هو اعتراض على تصرف الحكومة والسياد.

— إذن هو سياسة . . هذه لا نفهم بها . . نحن، كما ترى، لا نفهم

بالسياسة . . السياسة لها أربابها.

سادت لحظة صمت بيننا. كانت مسألة السياسة، وتعليق كل مطلب حياتي على التعاطي معها، تحمل تاريخاً طويلاً من التجهيل. لقد أدخلوا في عقول الناس أن السياسة شيء خطير، وأن مجرد الاقتراب منها يعني التماس مع الخطر، وأن على الإنسان، إذا أراد تجنب وجع الرأس، أن يتعد عن السياسة، وها هو العم عبد الله، واحد من الذين يخشون السياسة، ولو كانت تدخل في موقفهم الذاتي من الحياة. لشد ما صادفت، وما عانيت، من هؤلاء الذين يعتقدون اعتقاداً راسخاً أن السياسة لم تخلق لهم، فإذا سألتهم لماذا؟ أجابوك لأن لها أربابها، وهم يقصدون فوراً الأسياد. كانوا مستسلمين إلى خمول ذهني، إلى بلاده تفكيرية قاتلة، إلى نوع من تطويب التساؤل والتفكير والبحث إلى غيرهم، إلى أسيادهم على الأرجح. وهكذا كان هؤلاء الأسياد يمتكرون السياسة، دون أن يبذلوا أي مجهود لذلك. إذن كانت ثمة ضرورة أن يعرف الناس. الشعب، الفقراء خاصة، أن السياسة داخلية في كل شيء، من الرغيف إلى أيما سلعة يتناعونها، وأن هذه الخشية

من السياسة لا موجب لها، وهذا الجهل السياسي عيب وإساءة إلى أنفسهم، وإلى فهمهم وموقفهم من الحياة كله.

لكن ذلك كله لا يقال مباشرة. الناس يعيشون كيفما اتفق أن يعيشوا، وعلى من يريد إثباتهم، أن يدفعهم للتفكير كيف يضح أن يعيشوا، ويجرد حصول ذلك يعني نقلة كبيرة إلى الأمام، ومن هنا ينبغي البدء. من هذه المسألة البسيطة الخطيرة في أن يجب أن ينطلق نشر الوعي. وهذا ما سوف أمارسه، وأجد فيه صحة مطلقة عندما أكبر.

إنني في جلسة التعارف هذه، لا يمكن، ومن غير المقيد، أن أدخل في نقاش مع الناطور عبد الله، الجدل معه، دون كسب ثقته، عقيم. وسأعرف، بعد ذلك أنه ليس عقيماً فقط، بل هو مشير، لأن ذهن هذا الناطور قد تصفّح ضد أية محاولة للاختراق. ضد أية محاولة لإزالة الظلمة، ولو قليلاً، في فكره الذي تجمّد عند حبّ الأسياذ إلى درجة العبادة، ووقف النفس على خدمتهم، مهما يصدر عنهم من سوء أو عسف.

كان الناطور عبد الله، وأنا صامت أفكر بهذه الأشياء، يروزي باستخفاف، مصدره أنني من طينته، وأنني ابن ناطور، ولا أفهم أكثر منه، حتى لو كنت ابن مدرسة، ويحسن بي، في حديثي معه، أن نتبادل المعلومات عن الكرم والزيتون والنظارة، لا أكثر.

سألني:

— ماذا يجري هناك، على البورة؟

— والذي يحرس في الليل، ونحن نجمع الزيتون في النهار.

سألت رقيقة:

— عائلتكم كبيرة؟

— الأم وأختان والوالد وأنا.

— لم يسبق لكم أن نظرتم زيتوناً، أليس كذلك؟

— لم يسبق أبداً . هذه هي المرة الأولى . . كنت ، في البدء . . أحسبها
شغلة ملعونة .

— والآن؟

• كان في صوتها دلّ غريب، نضج أنثوي مبكر أيقظ فيّ مشاعر نائمة،
وكانت، كما خيل إليّ، تنتظر جواباً معيناً لتفرح، وكنت على استعداد لمثل
هذا الجواب لتفرح . أو أني فعلاً كنت أؤمن به . أليست نظارة الزيتون
لعنة؟ وهذا العذاب، والأفاعي، والتشرّد في البريّة، وجمع عشرة أمثال
مقابل واحد، أليس لعنة؟ بل هو كذلك، وقد كنت، حتى إلى ما قبل
مجيئي، نعيماً، ضجراً، مستاءً من أشياء كثيرة، ليس أقلّها، ولا آخرها،
المشكل الذي وقع على البورة .

قلت لها ملاطفاً:

— الآن تغيّرت الحال قليلاً، اعتدنا . . كان يجب أن نتعارف قبل الآن .

قال والدها:

— لم يفت الوقت . .

— صحيح . .

وقلت لرقيقة:

— لدي أختٌ بعمرِكَ . .

— يمكن أن تأتي بها الليلة القادمة؟

— يمكن . .

صاح الأب:

— رقيقة لا تعاشر أحداً، ولا تتكلم حتى معي أنا .

فطلت، الآن فقط، إلى أن ابنته لا تشاركه الحديث، وتجلس وراءه لا
إلى جانبه، وتصوّرتها من فوري سجينّة خيمة قشبيّة، هي بدورها سجينّة

كُرم لا بشر فيه، وأنها تنعذب في وحدتها، وتنتظر، بصبر نافذ، مخلوقاً يؤنسها، وأنها ستتعلق بأختي ما إن تراها، ستحبنا، ونحبها، وربما كانت الليالي المقلبات حافلة بطعم آخر للحياة، طعم لم أذقه حتى الآن، ولكن حدساً ما ينبئني سأذوقه.

استأذنت وهضت، لم أشرب كأسى كله، ولم تكن بي شهية إليه، وقد حدثت الله أن والذي ليس على هذه الشاكلة، وأنه فنان على طريقته، في الشرب والحديث والشجاعة. تساءلت ما إذا كنت مبالغاً في كرهه، حتى وهو يسكر كثيراً، فربما كانت الحياة نفسها تدفعه إلى السكر، كي ينسى كثيراً من الأشياء التي يحسن نسيانها، إذا لم يشأ المرء أن يسود أيامه، وينظر من خلال نظارة معتمة إلى كل ما حوله.

حين رجعت إلى البورة لم يكن المطعون قد عاد بعد. كل شيء كان هادئاً، وكان الوالد يجلس على حصيرة تحت الزيتون المعلقة بها خيمتنا. وجدته يدرّس وحيداً، وليس ثمة دلالة على أنه تناول شيئاً من العرق. نلّعه استنجد بكل ما تبقى من إرادته كي يبقى صاحباً، ولعله كان قلقاً من جراء ما حدث، فهو لا يتكلم، لا يغني، لا ينشد مجراوية الزير سالم، وترف على وجهه ظلال جدّ رقيقة من ألم يكابده. حينه وجلست قربه. كانت الأم والأختان ينتزهن حول البورة، والفلاحان يلعبان الورق، وخيمة المطعون مهجورة، ورائحة عطنة تأتي من الزيتون الذي دبّ فيه الفساد بسبب التراكم على البيدر. كان يجب أن تأتي الجمال ليلاً، وقلت في نفسي: «من الأفضل ملء الغرارات، حتى إذا عادت الجمال كانت جاهزة للنقل» وحين أعلنت ذلك لم يعارض الوالد، اكتفى بالقول:

— تأخر المطعون..

— لعله لم يجد الشويصي في الضيقة.

— في هذه الحال يكون قد ذهب إلى اللاذقية.. هناك الشكوي أبلغ. بصور الأمر على كیفه. يقول ليبت «ف» إنني ناصرت الفلاحين،

وقاومته، وحاولت ضربه، ومنعته من تفتيش بدّور. . يقول أشياء كثيرة، قليل الوجدان هذا.

— وماذا تتوقّع؟ يصدّقون شكواه؟ يخدعونهم ويجعلهم يرسلون الدرك؟ وماذا لوجاء الدرك؟ تستسلم لهم أم تهرب؟ وماذا ينفع الحرب. . الأفضل أن تدافع عن نفسك، أن تقول الحقيقة، والفلاحون يشهدون. .

— الفلاحون لا يشهدون معي. يخافون المطعون، ويخافون الشوباصي، وأكثر من ذلك يخافون بيت «ف» إنهم يسكتون عن الحقيقة مضطرين. — يجب ألا يسكتوا. .

قال الوالد كأنه تحيّن فرصته للهزء مني، أنا الذي أجزؤ على انتقاده بسبب السكر:

— ولماذا سكّ أنت؟

— وماذا أقول؟ بحضورك لا بدّ أن أسكت. .

— ولولم أكن حاضراً ستسكت. . كأنك لست ابني.

جرحتي كلماته. . كانت حقيقة وجرحتي. كنت أسمعها منه للمرة الأولى، وقد عجبت أنه يصمر في نفسه كلّ هذا الوجد عليّ، وأنه لا يهيني رحمة بي، وأن ما بيننا من كره متبادل، وأنه يفضل أختي عليّ، وأن ما أقوله عن العدالة والمساواة وحقوق الفقراء، يحتاج إلى توكيد، ولا يمكن أن يتأكد إلّا بموقف صحيح، ينطوي على قدر من الشجاعة كفيّل بفرض احترام قائل هذه الأفكار.

لزمت الصمت. أدركت بماذا كان يفكر والدي. إنه يعتب عتياً ساخراً. لقد كان من الأولى أن أنوب عنه في حماية بدّور. كان ذلك يرضيه. يضعه خارج دائرة المواجهة مع المطعون، وكان يمكن في حال كهذه، أن يدافع عني، وأن يجد نفسه حراً وقوياً. كان والدي يفهم الكلمات بالمواقف، فما دمت مؤمناً بالعدالة، وانتكمت عن الظلم، فلماذا، حين وقع الظلم سكّ؟

طبعاً كنت، في حال الكلام، التحدي، الوقوف إلى جانب بدور، سأجعله
يزداد ضيقاً بي، لأنه، في وضع كهذا، كان يراني جديراً بمواقفي منه، أما
وأن ذلك لم يحصل، فهو مرتاح الآن، وهو يسخر على نحو فيه كثير من
الشفقة.

— لم يأت دوري بعد.

قلت ذلك كي استعيد نوازي النفسي الذي اختل. ولم تفته هذه
المحاولة، فقال دون أن يكثر بدفاعي:

— ومنى يأنى دورك يا بطل؟ حين أموت؟ بوذي أن أرى هذه البطولة
بعيني.

— لست بطلاً، ولا أريد أن أكونه، لكن ما أقوله عن مقاومة الظلم
حقيقي.

— وكيف يفتح الناس بحقيقته إذا كان القائل لا يؤمن به؟

— أنت تراني كذلك؟

— لست أنا وحدي.. أسأل أختك أيضاً.. أسأل الفلاحين الذين كانوا
على البورة.

— سيأتي يوم تتبدل فيه صورتي في عينيك.

— ومنى يكون هذا اليوم؟ بعد الزواج؟ حين يتزوج الرجل يودع شجاعته..
المرأة والأولاد لا يتركون للشجاعة موضعاً.. إذا أردت أن تغارق
الجسور جسارته زوجته!

— سأكون جسوراً قبل الزواج وبعده..

— ما أظن.. البداية تقرر كل شيء..

— بدايتي لم تأت بعد.. حين أعمل واستقل.. حين يكون علي أن أفدي
أفكاري.. حين تتعرض هذه الأفكار للخطر، عندئذ يكون الموقف

مختلفاً . أنا لا أقاتل في سبيل امرأة، ولا أقاتل في حالة السكر . لا
أدع السكر يسيطر عليّ.

رددت السهم . هو البادئ . ربما كنت جباناً أمس، لكن الشجاعة
ليست فطرة كلها . سأنعلم أن أكون شجاعاً . وكما صيرني أفكارني قوياً
بالنسبة للمرض، وللانطواء، وللكتابة، ستصيرني شجاعاً . وإلى أن يأتي
ذلك الحين، لا بأس أن يعرف والدي أن شجاعته مصروفة في غير وجهها
الصحيح . نعم هو يقاتل في حالتين : المرأة والسكر، وقد لا أقاتل أنا،
لكنني وراء أفكارني التي أؤمن بها حتى الموت . المرأة والسكر لن يستبداني،
ولن أندفع مثله لأجلهما . أعرف أنني جرحته كما جرحني، وأعرف أنه جرح
من قولني إن السكر يسيطر عليه، لا من قولني إنه يقاتل في سبيل المرأة،
لكن علي أن أقول ذلك، وعليه أن يسمعه، دون أن يتأثر ذلك من إعجابي
به هذا النهار.

نهضت وذهبت أبحث عن أمي وأختي . كنّ على الرابية، كان القمر
يطلع من وراء الأفق المحجوب بالأشجار، وكان طلوعه هيباً، كأنه معلق
حيث هو، فلا هو يتحرك، ولا طرف السماء يتطامن حتى يتسلقه . كان
وردياً، فيه صفرة ومضوء، وكانت السماء العالية، بمظلتها الزرقاء
المرقطة بالنجوم مضاءة بفعل شعاعه المنبعث بقوة خارقة . وبعد أن
اخبرتني أنني زرت عبد الله الناطور، في الطرف الآخر من الكرم، وأن ابنته
رثيفة، التي بعمر الأخت، تبعث من بساطها، تركتني ومضيت أنحدر عن
قمة الرابية، قاصداً طرفها الآخر، راغباً الاختلاء بنفسني لترتيب مشاعري
التي أفسدها والدي .

كنت، رغم الابتسامة، ومحاولات النسيان، واصطناع اللامبالاة، متأثراً
من نفسي لا من والدي . كان علي والدي أن يقول ما قاله كي يوقظني من
سباتي الناجم عن خمولي . كان عليه أن يقطعني بسكين الصراحة حتى أفيق
وأفهم أن الدنيا قاسية بما يكفي، وأن عليّ، إذا أردت شقّ طريقي فيها، أن
أكون شجاعاً، وأن أبرهن عن هذه الشجاعة عند اللزوم . ليس للجبان

مكان، عند الأهل أو المرأة أو الناس. إنه سالم سلامة الزواحف التي لا تفارق أوكارها. وهذه السلامة ذاتها هي مقتلة ومجيلة العار له، فالحذر يؤق من مكمنه، ومهما دفنت النعامة رأسها في الرمل، فإن الصياد يراها، ويطلق عليها ويرديها. علي إذن ألا أكون زاحفة، أو نعامة، أو صلاً، علي أن أكون نفسي، في الشرف الذي للنفس التي تعرف أن تجابه وأن تموت في وقت اللزوم. الإنسان لا يكون حرّاً من الخارج فقط. عليه أن يكون حرّاً من الداخل أولاً، أن يملك من الاعتداد ما يكفي لتوازن الشخصية، ومن الزهو ما ينبغي كي لا ينكسر أمام أية مصيبة. يقال إن طلب الحرية عبء، لكنّ الذلّ، الخضوع، العبودية، عبء أكبر، وصاحب المبدأ ينهض بعبء الحرية بأيسر مما ينهض عديم المبدأ بعبء العبودية. إنني لن أكون كالذين يخافون، ويندمون، وعن طريق الندم يصنعون لأنفسهم أخلاقاً ذات مقاييس متساوقة مع جبنهم. إنني لن أفرغ المي الذي أحسست به هذه الليلة عن طريق تعنيف نفسي أو إهانتها، نفسي شريفة، ومن شرفها علي أن أستمّد العزم لمقاومة الوهن، حين يلمّ بي ويقودني إلى الضعف. أنا منطقي مع نفسي، وسأمتلك الشجاعة لأدافع عن أفكاري.

مشيت، مشيت، مشيت، كان السير يفيدني وقت هذا التدفّق من المنولوجات الداخلية التي كلّمت فيها نفسي، واستحضرت كلّ العبارات الرنانة التي قرأتها في الكتب. كان الأمر بسيطاً: ألا أخاف، ولكنّ عدم الخوف هذا كان بحاجة إلى مصداقية، وهذه لن تأتي إلا عن طريق الفعل، وأنا بحاجة إلى مجابية سريعة، أحقق فيها انتصاراً يحو من نفسي أثر الكلام الذي قاله لي والدي. قرّرت العودة إلى البورة، لأرى ما جدّ فيها، ولأخذ موقفاً، حين يكون ذلك ضرورياً، أبدأ فيه البداية الموعودة، التي أُنذرت بها والدي.

سمعت، من بعيد، أصواتاً على البورة. حثت الخطو، درت بالرابية وفصدت الخيمة، راغباً في أن يحدث ما سوف يحدث بسرعة، تنتهي بها من القلق العاصف الذي يلمّ بنا جميعاً، ونكتبه جميعاً، في محاولة للتماسك،

وعدم الإفصاح عن أفكار السوء التي تناوشنا منذ وقوع حادث بدّور. كان المطعون قد عاد، كانت عودته بطبل وزمر، فقد عرج على الضيعة وأتى بالشوباصي معه، وكان، لذلك، يتكلم بصوت مرتفع، مهدداً بخراب بيوت الذين قاوموه، وكان الشوباصي يحمل عصاه، والبندقية في كتفه كالعادة، ولم يكن يتكلم، بينا المطعون يصيح بالفلاحين:

— من قَبَن الزيتون وتسلّمه؟

— ابن المصري.

— ومن طلب اليه أن يفعل ذلك؟

— لا ندرى، هو تطوّع من نفسه..

— وكيف سمحتم له بذلك؟

— وماذا نفعل؟ نترك الزيتون يفسد؟

— وهل نتركه يضيع إذن؟

— لم يضع شيء.. كلّه مسجل.. (وصاح الفلاحان منذ أبصراني) ها هو.. اسأله واعتقنا..

تقدّمت بهدوء لكن بخوف. عاد الخوف يسيطر عليّ، تمنّيت لو عاد المطعون وحده، كان ذلك أهون عليّ، كنت أكلّمه دون هذه الرهبة التي ابتعثها في أعماقي الشوباصي وهو يلفّ سيكارة، وقد عقد حاجبيه، وبرز غضب لاهب في وجهه، ورفض، منذ وصل، أن يقترب من خيمتنا، أو يلقي السلام على الوالد.

قال لي المطعون:

— تعال إلى هنا.. من الذي استلم الزيتون من الفلاحين؟

— أنا استلمته، وسجّلت كلّ شيء في ورقة، وحسبت أنني أقضي غرضاً، لأنّ الفلاحين يجب أن يعودوا إلى بيوتهم، وقد جاءت الجمال.

وكان يجب تحميلها، خوفاً من أن يفسد الزيتون، إذا لم ينقل إلى المعصرة . .

— ومن طلب منك أن تفعل ذلك؟

صاحت أختي من أمام الخيمة، موجّهة كلامها إلى المطعون:

— أنا . . حين رأيتك تترك العمل، وتذع الزيتون والناس وتذهب، وجدت من المناسب أن نعمل ما عملنا.

— هذا الذي عملتموه خطأ . . هذا شغلي، كان يجب أن تعرفي أنه شغلي، وأنا المسؤول عنه، وأن الزيتون له أصحاب، ونحن وكلاء أصحابه .

قالت أختي دوغما اكتراث:

— يسلم الزيتون لأصحابه . . نحن لم نأكله . .

قاطعها:

— لم يبق إلا هذا . . لم يبق إلا أن تأكلوه يا خنزيرة . .

— أولاً أنا لست خنزيرة، وثانياً أنت تشمتنا أمام الشوباصي لتستر فعلتك، لكن الشوباصي جاء ورأى من الذي عطل الشغل، ومن الذي سيره .

— وتحرضين الشوباصي عليّ أيضاً؟ أعوذ بالله . . آية عائلة هذه؟ الأب لا ينظر، والابن الذي ظنناه عاقلاً يسعى لياخذ مكاننا، والبنت تتصدى لنا من الصباح إلى المساء، وكلما دققنا مسماراً علقت عليه منخلًا . . لم يبق إلا أن نترك الكرم والبورة والملك لكم . . لم يبق إلا أن نتوكلوا انتم ونصبح نحن الأجراء عندكم يا أبا اسكندر، استحلفك بالله، رأت عينك، على كثرة ما رأت، شيئاً كهذا؟

لم يردّ الشوباصي، كان غير ارضٍ عن فعله الوالد، لكنّه، في المقابل، ما كان راضياً عن تصرّف الوكيل، وإذا كان يرغب عن تدخّل النساء، فإنّ موقف الأخت كان صحيحاً، وكان المطعون نفسه يعالج الأمور بعقلية نسوية، فهو يأخذ ويعطي، ويثرثر، ويكرّر كلامه، ويدور حول موضوع

واحد حتى يزهق الروح، ويتجنى على الآخرين بشكل مسافر، ويحرضهم على نفسه كأنما عن قصد، وبكلمة، تفتقد شخصيته كلها صفة الإنسان المقنع، الإنسان القادر على القيام بعمل أوكل إليه. إضافة إلى هذا كان يخاف، الشوباصي الرهيب يجب من هو أرهب منه. لا يطبق الخوافين، ولا يجب المشاكل، والمطعون يخلق له كل يوم مشكلة، وإذا كانت مشاكله، قبلاً، مع الفلاحين، فهذه المرة مع النواطير، ومع عائلة من المدينة حيث لا يريد بيت «ه» أن يفتحوا معركة، أو تتناقل المدينة ما يعرفه الريف عنهم.

ولأن هذه المعاني غابت عن إدراك المطعون، فقد عجز عن فهم سبب صمت الشوباصي، قام في ظنه أن هذا لا يؤيده، وأن سكوته يعني عدم الرضا على ما يقول، ويعني الرضا عما يقوله الآخرون. ثم إن طبيعته كثرثار، كانت تفتقر إلى سند من الصمت، وكلما طال الصمت فقدت الثروة ركيزتها، وبدت كلاماً أجوف لا يحصل على الاقتناع، ويتطلب مزيداً من الثروة التي تزيد بدورها في تخويف الكلام وإفقاده كل معقولة سابقة.

هكذا بدا المطعون في اتهام الآخرين، مدافعاً عن تهمة موجهة إليه، أو صارت موجهة إليه، من صمت الشوباصي الذي لا معنى له إلا الإنصات إلى ما يقوله خصوم المطعون، هذا الذي سمع منه كل هذا الكلام الذي يردده الآن، وفوقه تهويل بأن الدنيا خربت، وأن الزيتون صار نهبا، وأن كل شيء تعطل، ولا يمكن إصلاح الأمور إلا بإنزال أشد العقاب بالعائلة التي تجاسر ربها وانتزع فريسته منه.

قال المطعون:

- لست ابن البارحة. سنوات وأنا وكيل على البورة، وكل شيء كان يجري على ما يرام إلا في هذا العام فقط، عام الشؤم. الذي أراي وجوههم.

كان الوالد صامتا. وزن نفسه فإذا هو من وزن الشوباصي لا الوكيل. كان راغبا عن الكلام إلا إذا تكلم الشوباصي، أما إذا ظل المطعون يثرثر، فهذا من هذر الكلام، ولا بد للقرية أن تفرغ بعد قليل من الهواء، فيسود

الضمت المطلوب. قَوَّرَ في نفسه أن يفعلها ويخلص، تأسف، رَجَمًا، لأنه لم يصير المطعون من فوره، كانت، عندئذ، الشكاية تستحق، كان يجد، إذا طرد من البورة، سباً رجيهاً للطرد، سباً يجعل ابن الفاعلة هذا يندم على يوم رأى فيه وجهه حقيقة.

تابع المطعون كلامه:

- بدور سرق، نعم سرق، رأيتها وضبطتها. كان الزيتون في عيها وحول بطنها وبين رجليها، لحسب أن ما سرقته ثلاثة كيلوات. اصرب ثلاثين في ثلاثة، تسعين كيلو في الشهر، وإذا كانت هذه الكمية لا تنفقر السادة، فإنها، إذا لم أحاسب عليها، تتضاعف. . . . بدور تقول لغيرها، وغيرها يقول لغيره، وهكذا تبدأ الفلاحات بالسرقة. وربما سرق الفلاحون أيضاً. إن ضم شراويل واسعة. وللقنايز جيوب كبيرة، وإذا ملأ كل فلاح شرواله أو غبازه، فإن الموسم يتخثر، وفي آخر الموسم يأتي السادة ويحاسبوني، يقولون: أين الموسم يا أبا نعمة؟ فبماذا أجيب؟ أقول ضم الكرم لم يكن حاملاً؟ هذه خدعة. أنا لست مستعداً لخداعهم. أنا لا أغش من انتسني. ثم إن السادة لا يغشون. يعرفون كل شيء. من نظرة واحدة على الزيتون يعرفون ما تحمل، ومن جولة في الكرم يتدرون الموسم. كل هذه الأمور واردة، وكلها أخذها في حسابي. أنا هنا الوكيل، وما معنى الوكيل؟ إنه صاحب الرزق في غياب الموكلين، أنا هو، إذن، صاحب الرزق. في البورة أنا بيت وفء وينبغي أن يعرف الجميع هذا. أليس كذلك يا أبا اسكندر؟

قال أبو اسكندر:

- الوكيل مثل الأصل، ما دام هذا غائباً.
- رحم الله أمواتك. الوكيل يقوم مقام الأصل، أسمع يا مصري؟
- قال والدي غير آبه:
- أسمع..

— إذا كنت تسمع فلا بد أن تعرف . .

قال والدي :

— وأعرف أيضاً . .

— إذا كنت تعرف فلماذا اعترضتني ؟ لماذا تدخلت لحماية بدور ؟

لم يجب الوالد ، وتابع المطعون :

— أعرف لماذا تدخلت . . أنا لا تفوتني واحدة . . أنت رجل . . هذه كلمة

حق . . وأنت من إسكندرونة ، وهناك الرجل شهم ، وهذه كلمة حق

أيضاً ، وبسبب من شهامتك تدخلت . . أفهم ذلك . . أنا نفسي ، لو

كنت مكانك ، لدخلت . . أنا لا ألومك . .

قال الوالد :

— لماذا حررت إذن ولماذا تركت البورة وذهبت ؟

قال المطعون :

— هه ، هذا سؤال حلو . . السؤال الحلو يحتاج إلى جواب حلو . . أنا

أجيبك . . خذ مني وأعطني . . إبق معي ، أبو اسكندر يسمع

ويحكم . . الشوباصي ، عدم المؤاخذه ، محايد ، نحن ، جميعاً نحترمه . .

لوشتمني ما رددت شتيمة . .

قال والدي :

— أبو اسكندر لا يشتم . . يسمع ، ويقدر ، ثم يحكم . .

— طيب . . ها هو يسمع . . ماذا كنت أقول ؟

لم يجبه أحد ، فسكت لحظة ، ثم صاح :

— تذكرت . . كنت أقول إنك شهم . .

قال الشوباصي :

— هذه سمعتها . .

— وكنت أقول إن من حقَّ الرجل أن يتدخل ..

قال الشوباسي:

— وهذه سمعتها أيضاً ..

تضايق المطعون، نسي ما كان يقول، لذلك هفن قلباً، ثم انتفض وقد تذكر، وصاح بالدي:

— أنت، يا مصري، تسألني لماذا تركت البورة، أليس كذلك؟ أقول لك: تركتها بسببك .. أنت، عدم المؤاخذه. إنسان يركب رأسه، أنت، كما عرفتك في هذه الأيام، يدك والضرية ..

قاطعه الشوباسي وهو يكاد يضحك، ويضغط على نفسه كيلا يضحك، فيذهب الضحك بشيء من هيئته:

— أنت، يا مطعون، خفت من الضرب إذن؟ لماذا لم تنقل لي ذلك من الأول؟

صاح المطعون وهو يركع أمام الشوباسي:

— يا أبا اسكندر، ورحمة الوالد ..

قال الشوباسي:

— قل دون قسم .. أنا مصدِّقك ..

— ورحمة الوالد، أقول هذا ولا أرخص .. أنا أعرف والدك. وأعرف معزتك له، وأعرف أن هذا الشبل من ذاك الأسد ..

قاطعه الشوباسي:

— اختصر .. خلُّنا في المهم ..

— نعم، سابقي في المهم .. أنا وسالم أخوان .. نحن، عدم المؤاخذه، عائلة واحدة، ومنذ وصولهم، طبخت زوجته تجدرة وأكلنا ..

صاح به الشوباسي:

— ما علاقة المجردة بما نحن فيه؟ أكمل . . قل ما عندك . .

— سأقول، سأقول، ولكن . . اللّهم ساعدني . . أين كنّا؟

لم يستطع الشوباسي منع نفسه من الابتسام، كانت ابتسامته مثل الشمس في شباط، وها هو، أخيراً، يتسم، بل زاد على الابتسام فتبادل النظر مع والدي. وعندئذ عمد الاثنان إلى لفّ سيكارة، كأنما حلا التدخين في الجو الذي خلقه المطعون.

قال هذا:

— بدّور سرقت، هذا ما لا أشكّ فيه، وكنت أراقبها منذ أيام . .

قال والدي:

— ولماذا تراقبها؟ ثم لماذا، إذا جاءت البورة، تركت شغلك ولحقتها؟

— أنا؟ أعوذ بالله . كل شيء ولا هذا . . يمكن أن تنهني بأية تهمة، حتى يمكن أن تمون علي، وأن تشتم والدي، بل أذهب أبعد من ذلك وقل عني أكلوا، أحبّ الطعام الطيّب، أحبّ الطيبات، أما النساء، عدم المؤاخذه، أنا حافظت طول حياتي على الوصايا العشر . .

— الذي يحافظ على الوصايا لا يغش في القبان، لا يجعل السبعة كيلوات عشرة لبدور . . الوصايا قالت لا تسرق، لا تزني، والشوباسي أوصاك أن يكون قبانك مثل الشعرة، ثم بيت وف لو علموا بما تفعل . . أنا لن أنقل لهم ما أراه على كلّ حال . .

كان والدي يتكلّم جاداً. مسح عن وجهه كلّ تعبير يفيد أنه يسخر من المطعون، وجاراه الشوباسي وهو يكتنم ضحكه. ولأول مرة، منذ قدومنا، لاحظ أن المطعون به خفّة، وأن جنبه يحمله على التحوّل من متهم إلى متهم، وأن والدي اكتشف ذلك وراح يحاصره بالاتهامات، حتى نسي كل شيء، وكلّ ما كان قد أعدّه من كلام، وشرع يقسم أنه لم يسرق ولم يزن، حتى قال له الشوباسي:

— أنا لا أحاسبك . . دع المصري يقل ما يريد . . إنما أنت مطالب بالجواب
على سؤال ععد: لماذا تركت البورة وعطلت العمل؟

— وكيف أعمل إذا كانت بذور سرفت وسليم معني من إثبات سرفتها؟

— سليم هو الناطور وهو المسؤول عن السرقة .

— — وأنا؟ ماذا أنا؟ أأست الوكيل؟ تشطبون صلاحياتي بجرّة قلم؟ أخشى
أن يكون قلبك نَحُول يا أبا أسكندر! موقفك اليوم، عدم المؤاخذه، ليس
إلى جانبي . .

— أنا مع الحق .

— وأين هو الحق؟ من المعتدي؟ من الذي حمى بذور وأخذها إلى بينها؟ ثم
من الذي، أمس، وقف إلى جانب الفلاح صخر؟

— كل هذا صحيح، وكان عليك أن تعلمني به . . أقول تعلمني به ولا
أقول تترك البورة وتوقف العمل وتذهب إلى اللاذقية .

— انعمل لم يتعطل والحمد لله . كنت أعرف أن هناك من يقوم به . . ورغم
أن القيام بهذا العمل تدخّل في شؤوني، فإنني أتنازل عن هذا الخطأ . .
أعطني الرقعة (وأشار لي) أعطينها لأرى الأرقام . . مجرد رؤية الأرقام
يكفي، هذه شغلتي . خمس سنوات من عمري . . دهر، دهر كامل، ثم
ماذا؟ يأتي المصري وعائلته . .

قاطعه والذي :

— احفظ لسانك يا مطعون . . لا تورد اسم عائلتي على لسانك . . أنت
تعرف، وأبو اسكندر يعرف (قائلاً وغمز أبا اسكندر) أنك عطلت
العمل، وأسأت إلى بذور أخلاقياً بطلبك تفتيشها .

قاطعه :

— لم يفتشها أحد، زوجتك رفضت، وكذلك ابنتك . . يكفي الرقص . .
أنا ما كنت قادراً على تفتيشها بنفسي، أو على تكليفك بذلك . . وكان

الأمر يستلزم أن لا تدخل... فذلك لك عظمي... كنت تريد عظمي
 بذور، والفلاحين، هذه هي الخطأ... على الوثائق أن يكون مزهواً، فمما
 مثل الشوماسي، وكيف تكون مزهواً؟ عبي؟ مثل أنت يا مصري.
 قبح نفسك مكال، كيف تكون مزهواً وسط هذا الكوم المحف؟
 - ففشر النساء، وجعلهن، أمام الرجال، ففشر لسانهن، ففشر ففشر
 لا...

صباح الطمون

- أمام الرجال؟ ففشر ففشر... من الذي طلب ففشر ففشر أمام الرجال؟
 قول لي، ولا هذا، هذه لينة خطيرة، لينة أخلاقية... أنت تهمني
 بالخطأ، وفلذلك أنت تهمني ففشر، ففشر ففشر؟ ففشر الشوماسي، وهو
 يعرف أخلاقه، يعرف ففشر، يعرف ففشر

قال الشوماسي:

- هذه لا أعرفها... ففشر ففشر لا أعرفها... الرجل الظن بهجوم وففشر
 ولا يشرب العرق...

قال والذي:

- ولا يلاحق بذور...

- وماذا في قليل من العرق؟ السج ففشر ففشر قليلاً... من ففشر ففشر
 في عرس ففشر ففشر... والصوري يشرب أيضاً... هو الذي يال بالعرق...

قال الشوماسي:

- ومن أين يأتي به؟

قال الوالد:

- كل مساء يعطيني الطمون كبشاً من الزيتون، ويطلب مني أن أجلب
 بشته عرقاً... أنا فعلت، أطعنه، جلبت العرق، ومستعد لتحمل

الظلمة، شرط أن تعاقبوا الظلمون أيضاً. هناك على الثورة، هو وليس
والأعداء منكم. قال يأمرون فلاناً، يقول في حقه هذا الكيس وهناك لنا
به عرفاً، فأحل الكيس إلى الضيعة وأبادله بالعرق.

قال الشراصي:

هذه طريقة موصوفة ما كنت أعلم بها. نوقلت. إلتفت. يا مطلقون
عن الزمان. أنت يا مصري من القاهرة. وسأعرف من يقوم بعملها إلى
أن تظهر نتيجة التحقيق.

صعد الظلمون. لا يمكن وقوع هذه القاتلة، والذي أنهم نفسه بالسرقة،
وأنهم الظلمون معه. بل جعله السؤال الأول والمثالي. معنى هذا أصبح
كل شيء. وهذه العنصرية والسخرة. ولم يحسم إلا بأن يعثر الوالد أقواله.
سواء أن يجرمه أو يبرئه. وبما الشراصي أن يأخذ القضية المرحلة أو يفلها
إلى حد. وبما الشراصي حاداً حتى حقت لنا نفسي أن يتأعب والذي
فصحة مراحته. صرحت للوالدة بأنها على حذرها وقالت متسمة بها وسلاماً
ثبات في قضية وأصبحنا في قضية. لنفاد نرجح أسوأ هذه المرحلة القليلة
وقالت الإحت. «يستحل الظلمون، أنا لم أكن أعرف أن والذي فادى أن
تحيط على هذا النحو» وقالت في نفسي. «إذا كان الظلمون يقتل فإنهم
يستحلون لوالدي. هو يعرف أن الشراصي لم يصدق. ولماذا أو بعده بدبر
لوالده عقلاً يفتي به إلى القتل».

لمحرك الظلمون، في حركة تصرفية بالغة. الدفع نحو الشراصي محاولة
لتبليط به.

أنا يا أبا السكندر داخل عليك. سليم هذه يخبرني على نفسه وعلى. بل
هو يخبرني على أبي إسماعيل حاله سيئاً، لم يسبق له أن عرف المشاكل
من أبي نوح. ولم يتم أو يدخل باب محكمة. طلت أبي أوفى خدمة
حين طلت عيشة بقور. وكنت مفتعلاً، نعم كنت مفتعلاً، أنها سارقة.
لأن إظهار الكثرة في وجوههم ضروري. إذا ضحكك أمام الفلاح

أطمعته. الفلاح يظهر المسكنة، الدروشة، يتملق، بدهن، لكنه خبيث يريد خداعك، وهو لا يؤمن بما يقول، وبحسب أنه يضحك عليك، الفلاح الذي قصرت يده طال لسانه، وهو نعلب، وفي سره لا يعترف بقيسة ولا بخلق، وليس له صاحب، أنت أدري بهذا الجنس، وأنت معي أن التكشير في وجوههم، بقصد إرهابهم، بقصد وقفهم عند حذمهم، كيلا يتمادوا، أو يفلتوا، أو يظنوا بك ضعفاً، واجب من حين لآخر، وأنت سيد العارفين بهذه الأمور، وما نحن إلا كأولادك، نسير على هديك، ونحاول تطبيق ما تعلمناه منك.

كنا، خلال حديث المطعون، نبادل النظرات، أختي وأنا. كان بهرج ولا شك؛ وكل هذه الصفات التي قالها عن الفلاح تنطبق عليه شخصياً. لم يكن إلا نعلباً، تمأوت عندما رأى الصياد. إنه قمين بأن يركع، إذا تطلب الموقع أن يركع، وأن يبكي إذا اقتضت الحال البكاء، والشوياسي يعرف كل ذلك، إلا أنه الآن يستمع، يستمع بهذه المسرحية، ويفكر بالطريقة التي «يؤدب» بها الاثنين، والسدي والمطعون، دون إثارة أيما ضجة، ودون أن يسمح بأن يقال إنه ظلم عائلة مهاجرة من اللواء، لجأت من فقرها إلى نظارة الزيتون وجمعه في قرية «ح».

قال الشوياسي:

- ما جرى أمس كان سيئاً جداً. خدمت عند بيت «ف» منذ شبابي، وخدم والدي قبلي، ولم يحدث معنا أن وقعنا في مشاكل سخيفة مثل هذه. أنا لا أتهم أبا نعمة، لا أريد أن أشك بدمته وأخلاقه، لكنني لا أستطيع أيضاً أن أسد أذني بقطن. مسألة تفتيش بدور مكائنات في محلها. تستطيع، إذا أرادت السرقه، أن تذهب خلال النهار، وتضع الزيتون المسروق في أي دغل، وتعود مساءً لأخذها. وعلى فرض أنها سرقت، وأنت شككت بها، فالذي كان يجب هو مراقبتها لا تفتيشها. هل نحن جمارك؟ هل يعقل أن تقوم بوظائف الدرك؟ وماذا يقول الفلاحون إذا سمعوا غداً أنك طلبت تعرية فلاحه شابة في عزّ النهار؟

صاح المطعون:

- أنا لم أطلب تعريتها والله.. المصري يتهمني زوراً، ما أردته هو تفتيشها في الخيمة فقط..

قاطعهُ الشواصي:

- اسكت.. سمعت لك طويلاً.. وجاء دوري للكلام.. أنا مصدق أنك لم تطلب تعريتها، لكن الفلاحين سيقتولون هذا غداً، فمن المسؤول؟

- في هذه معك حق، الكلام يتبدل، يكبر.. ما كان يجب، مهما يكن حرصي، أن أطلب تفتيش بدور.. سأقتصر، بعد الآن، على تفتيش الرجال..

- ولا هذه..

ردّد المطعون:

- ولا هذه أيضاً!

- أمّا مسألة ترك الشغل، وقت الرحمة، عند وزن ما جمعه الناس، وترك البورة، وتحميل الجمل، وتعريض الزيتون كلّ للتلّف فهذه أمور مؤسفة، لا أدري ماذا أقول فيها..

- إذا كان هذا كلّ خطأ، فهذا خطأ المصري.. لم أترك البورة إلا بسببه، هو الذي تسبّب، حتى بدّور، وأخذها إلى البيت، والله يعلم ماذا أيضاً.. أنا لا أتهم، لا أضع أحداً في ذمتي. إنما يمكن، في الطريق، في البيت، وزوجها غائب.. المسيح قال للفرّيسين: ولماذا تريدون إدخالني في التجربة؟ الانفراد بالمرأة غواية، الشيطان لم يمت، ومن يدري.. المصري وضع نفسه في التجربة، اعتدى عليّ، ولن أسكت، وقد أبلغت بيت ف، وهذا هو سبب نزولي إلى اللاذقية.. غداً صباحاً يأتي الدرك، ويعرفون شغلهم..

أريد وجه الشوباصي، فعلة المطعون خروج على إرادته المقررة. إنه المسؤول عن قرية «ح». بيت «ف» أنفسهم إذا أرادوا البت في أمر يتعلق بأُملاكهم، يعودون إليه، يستشيرونه، وغالباً يأخذون برأيه. هيئة بيت «ف» ما كانت لولا هيئته هو، كل الشوابصة في ريف اللاذقية يستمدون هيئتهم، نفوذهم، سلطتهم، من أسبادهم، أما هو، فلا يستمد شيئاً إلا من ذاته. إذا قلت «أبو اسكندر» قلت علماً. هو الجبل والنار، هو، بغياب الأسباد، السيد، هو الأمر الناهي، وقد توارث هذه السلطة أباً عن جد، وزاد فيها بما يعزّزها ويجعلها أشبه بالنطق الذي لا اعتراض عليه. كان على المطعون أن يعرف هذا، بل هو يعرفه، ومعنى تجاهله يحمل استخفافاً به، استخفافاً بحكمه في المملكة الممتدة على مسافات لا حد لها، وقرى ما تنفك تشع وتتكاثر، وقد أصبح من حقه، لو كان هناك حق بالملكية لأمثاله، أن تكون له أكثر من قرية، وأن يكون سيّداً بحكم الواقع، وقوة الفعل، وسطوة النفوذ التي بها، وعن طريقها، تملك بيت «ف» كل هذه الأراضي والكروم. لقد تحطّاه المطعون. كان الشوباصي غير مكترث بما سيحل بالفلاحة بدور، وأقلّ اكتراثاً بما سينزل بوالدي، لكنه لن يتسامح بما يلحق بهيته في دائرة هو كل شيء فيها، لذلك راز المطعون بنظرات معبرة عن كره. نظرات لا تحمل الحقد الذي لا يستحقّه، بل الكره الذي هو أشبه بالاحتقار، وظل صامتاً، رهيباً، خيفاً، حتى تضعضع المطعون وهبط قلبه إلى أسفل أحشائه. عندئذ باغته بصوت راعد، كأنما هو زارة أسد:

— أنت تتحدّاني إذن يا مطعون؟

ناح المطعون بصوت يقطر استعطافاً:

— معاذ الله يا أبا اسكندر. أنا، عدم المؤاخذه، لم أتحدّك، ولا فكّرت بذلك. كيف يخطر على بالي ما تقول؟ لو كنت على البورة ابن البارحة، كان يمكن، عدم المؤاخذه، أن أرتكب هذا الخطأ. أما وأنا في عملي منذ سنوات، وأعرفك، وأسمع بك قبل معرفتك، وأكرّ لك الاحترام، والمحبة، وأعيش في البورة برعايتك، وأحتمي بحمايتك، فإن الأمر

كله، عدم المؤاخذه، هو اجتهدا . نعم اجتهدا . اجتهدت فأخطأت . قلت في نفسي : « اذهب إلى الأسياد يا مطعون . الحق الحديدة وهي حامية . المصري تمرد عليّ، وعلى الشوباصي، وتصرف تصرفاً يقع تحت مسؤولية القانون . » .

صاح به الشوباصي :

— أيّ قانون وأيّ بلوط هذا ؟ منعك من تفشيش امرأة ؟ بأيّ حق تفشش امرأة ؟ من الذي أمرك بهذا ؟

— اجتهدا . . مجرد اجتهدا . .

— اللعنة على اجتهداك إذن . .

قالها ونهض . كان يخفي، تحت جلده، رعدة غضب . لم يفارقه هدوؤه، لكن ماذا يعني الهدوء بالنسبة لرجل تمّرس به، حتى صار سجية له ؟ إنه بهدوء يمشي، ويتكلّم، ويضرب، ويقتل . بهدوء يرعد كعاصفة، ويكون الصمت نذيرها، وهدوء يحكم كلّ هؤلاء الفلاحين، ويعتصرهم كليمونة، ثم يضرب من يشاء، ويطرده من يشاء، ويتحكّم بهم وينسائهم، وكثيراً ما ارغمي فلاح أو فلاحه على قدميه خوفاً وتذلاً، استرحاماً واستغفاراً عن ذنب لم يرتكبه أيّ منها، لكن الشوباصي وجده ذنباً، وعاقب عليه ردعاً وإرهاباً .

مضى دون وداع، دون كلمة، دون نامة . مضى متماسكاً كما أقبل، وغاب بين الزيتون، عصاه في يده، والبندقية في كتفه، والطربوش المعصوب على رأسه، تاركاً وراءه صمتاً كثيفاً، الأمر الذي أرمضني وأحزنني معاً . لقد كان مشهداً غاية في الطرافة وغاية في القسوة : طرافة المطعون، وقسوة الشوباصي . وفي الوقت الذي ارتاحت فيه والدتي، لأن هذا الأخير لم يوجّه أية كلمة تأنيب لوالدي، فإنّ ما تمّت عليه هيئته من قسوة، جعلني أتصوّر حياة الفلاح المسكين تحت سلطة وكيل كهذا، قادر، في كل لحظة، أن يمتحن كرامته وينتهك حرمة، ويفتك بجسده، بعد أن أرغمه على عمل مبهظ، ناء تحته نهاره كله، ثم لم يجد، ليلاً، ما يقتات به مع زوجته وأولاده

الذين يعملون بدورهم، ويشخبطون في شقاء موصول، ينزل بهم كقدر حياتهم كلها.

ودون ارادة مني ثرت في داخلي ، كانت الثورة الداخلية هي كل ما أستطيعه ، كانت ثورة مكبوتة، محبطة، تحز في صدري كمدية، لكنها كانت عزائي على ما القاء أنا وعائلي من شقاء هنا وهناك، في المدينة والريف على السواء.

في الصباح جاء دركيان من اللاذقية. كانت مهمتهما محدّدة: القبض على بدّور والوالد، بتهمة السرقة والممانعة في القبض على السارقة. ولم تكن معها مذكّرة توقيف أو جلب. هذه شكليات قضائية يجري تجاوزها إذا ما كان الملاكون العقاريون وراء الشكوى. المطعون ذهب أمس إلى بيت «ف» وأبلغهم أن بدّور سرق، وأن سالم الناطور رفض تفتيشها وحماها. وقام السيد «د» بالاتصال هاتفياً بقائد الدرك، وكفى ذلك لتسيير الدورية التي وصلت إلينا في الضحى.

كان مجرد وصولها مخيفاً، حتى أن الفلاحين اللذين يعملان على البورة تواريًا عن الأنظار، وطلبًا من الوالد أن يخفي فرقص. كان مدينياً لا يخشى الدرك، هؤلاء الذين يرفعون الريف. وقد مثل أمام الدركيين والسيكارة في فمه، وأجاب على أسئلتها بجسارته المعهودة. وحين أبلغاه أنه متهم بحماية بدّور التي سرق الزيتون أجابها أن التهمة لا أساس لها، وأنها مجرد فرية تقوم على وهم، وأن الخبرة كلها ملفقة، لأن المطعون أراد تفتيشها هي المرأة الفلاحة، أمام الرجال، فرفضت، وكان لا بد من التدخل لمنع تعريتها التي قد تسبّب في حادث على البورة، وأنه فعل ذلك بحكم مسؤوليته كناطور.

قال كل ذلك وهو غير مبالي. وفي نقطة لامبالاته هذه كانت تتركز

شجاعته. كان في ذاته يعرف أن الدرك لن يصدّقه، وأنهم لو صدّقوا فلن يقفوا إلى جانبه، ولا بدّ، بعد أن جاءوا، أن يقبضوا عليه ويسوقوه إلى اللاذقية، وهناك يجرون تحقيقاً قاسياً معه، لا ينفع في درء تعذيبه، طلب الرحمة أو الشفقة، وفي رفعه، التضرع أو الصراخ.

أمام واقع معروف كهذا، كان صدره ينطوي على سؤال مريح: «ماذا بعد؟» وفي الجواب عليه قال في ذاته: «ليكن ما يكون». قالها دفعة واحدة، في تحدّيه الشجاع، وذهب إلى أقصى ما يمكن الوصول إليه، وهو الموت، وهذا نهاية كل حيّ.

على هذا النحو حسم المسألة. حسمتها شجاعته. سألت وأجابت. مرّقت رداء الخوف الأسحم. باعت الآخرة بالدنيا، حين أدرك أن الحياة تجيش بالتجارب، وهو منذ ولد يمرّ بتجارب ظالمة، فلتكن هذه في عدادها.

إنني أحلّل نفسيته في ذلك الموقف. أحاول أن أفسّر لامبالاته، إستهانته بالشدّة، أسعي لمعرفة سرّ ذلك كلّ. أما هو، في الوضع الذي اتّخذه، فربّما استغنى عن كل حوارٍ داخليّ، ما كان يحتاجه أصلاً، ما دامت أعصابه القوية كفته مؤوته.

لقد وقف إلى جانب بدور، وسواء كان ذلك خطأ أو صواباً، فإنّه وقف وانتهى الأمر. لا فائدة من الندم، وبعيد عن تفكيره الرعب، وإذن فإنّ المواجهة، على هذا النحو، خير ما يفعله، وقد فعله، دوغما تردّد.

الدركيان لم يقتنعا طبعاً. كانا مجرد أداتين تنفيذيتين لا تقدّم قناعاتهما ولا تؤخّر. كانا بندقيّتين في يد السلطة. كانا سوطين بيد قائد المخفر، وكانت البندقية والسوط في خدمة الأسياد، ولم يكن هؤلاء من عمل سوى استغلال الفلاحين، فإذا بدرت شارة رفض، تمرّد، عصيان، استعانوا بالسلطة الجاهزة للقمع والتشكيل، ولهذا فإنّ الفلاحين كانوا يسمّون الدركي بـ«الحَيّال»، وكان مجرد ظهوره يبيّث الرعب فيهم، ونزوله في القرية كان كافياً لأن تضطرب خوفاً، لمعرفة أنّ هؤلاء الحَيّال يهاجمون بيوت

المطلوبين، غريبين كل ما فيها، نائرين مؤونة الفلاحين من ذرة وشعير
وحنطة، خالطين بعضها ببعض، ضارين الرجال والنساء والأطفال،
فارضين الإتاوة، طالبين العلف لحيولهم، والدجاج والبيض لأنفسهم،
منكّلين تنكيلاً رهيباً بالقرية، مستخدمين المختار الألعية ستارة لتنفيذ
مآربهم.

إذن كان الوالد يعرف من هم هؤلاء الدرك . وخلال الحوار القصير لم تنذ
عنه كلمة استعفاف . بل إن أجوبته الجافّة كانت متحدّية، حتى قال له
أحدهما:

- يبدو أنك غير خائف؟
- ولماذا أخاف؟
- ألا تستحي؟
- وهل أعرض حتى أستحي؟
- ألا تعرف ملك من هذا؟
- أعرف..
- ولا تبالي؟
- وماذا فعلت حتى أبالي؟.. قلت لكم الحقيقة ويدكم وما تطول..
- في المخفر مستعرف أن الله حق..
- عرفت أنّه حق في المخفر وخارجة..
- اخرس!

سكت الوالد . بينما قال المطعون الذي كان يحاول إجلاس الدركيين:
- يا مصري لا تأخذ وتعط، أنا، عدم المؤاخذة، تربّيت بين الدرك،
لكنني أكنّ لهم الاحترام الكامل . ثم من هو الدركي؟

- قاطعه الوالد:
- قل هذا لنفسك.
- قلتها، أي نعم، قلتها. الدركي ابن حكومة، والحكومة على الرأس

والعين، الحكم ملح الأرض، والمسيح، عدم المؤاخذة، قال: «إذا فسد الملح» . . .

صاح الدركي:

— الحكومة ملح لا يفسد . . .

— رحم الله أباك . . كنت سأقول ذلك . . إذا فسد الملح . .

وصاح الدركي الثاني:

— قلنا ملح الحكومة لا يفسد، العمى تشتم الحكومة أمامنا؟

— أنا أضرب مثلاً . .

— لا وقت لدينا للأمثال . . أنت الذي تقدمت بالشكوى؟

— معاذ الله . . هذا أخي، وبدور أخي . . جرى بيننا سوء تفاهم بسيط،

وخفت أن يشوقف العمل، فلما كان مني إلا أن أبلغت بيت «ف»

بالحكاية . . قلت لهم تذا وكذا . . أفهمتهم أن المسألة بحكم المنتهية . .

قلت لهم، عدم المؤاخذة، أنا أنهيها، وقد أنهيتها منذ عودتي . . أنا هنا

الوكيل، والوكيل، عدم المؤاخذة، ينوب عن الأصيل، وتكفي كلمة

مني لتعود الأمور إلى مجاريها . . وقد عادت والحمد لله، نحن، كما نرون،

مثل السمن والعسل . . و . .

قاطعها الدركي:

— يعني تسحب شكواك؟

— قلت لكم لم أشتك . .

قال أحد الدركيين لرفيقه:

— الشكوى من الخواجة بالذات، وهي حامية، تحرق مثل الزيت، والله

يستر . .

قال المطعون:

— نعم، الله يستر . . إذا كانت الشكوى من الخواجة بالذات فتصرفوا،

أرجوكم، قوموا بوظيفتكم دون اعتراض من أحد . . أليس كذلك يا

مصري؟ سلم أمرك . . اذهب مع الدرك دون مقاومة . . .

قال الوالد بنيرة حادة:

- وهل تراني أقاوم؟
- أنت لا تقاوم، لكن لسانك سليلط، هذا اللسان، عدم المؤاخضة، سيؤدي بك إلى داعية.. الأفندية (يقصد رجال الدرك) سيأخذون إفاذتك في المخفر.. في هذه الحال، وتجنباً للشر، وكى تسير الأمور في مجاريها، اعترف، قل نعم، لا تخالف، وفي الأخير ابصم.. إيهامك جاهر، وأنت، عدم المؤاخضة، لا تقرأ ولا نكتب، وما عليك إلا البصم، ابصم على الإفاذة وينتهي الأمر.

وجدت، في هذه اللحظة، أن من المناسب التنبيه إلى أمر، قلت:
والذي لن يبصم على شيء.. يقول ما عنده، وبعدئذ يقرأون عليه الإفاذة.

قال أحد الدركيين ساخراً:

- في هذه الحال تفضل نُب أنت عنه..

وقال الدركي الثاني:

- نأخذ الاثنين بالمرّة.. الأب والابن..

قالت أختي:

- الأفضل أن تأخذوا العائلة كلها.. ما رأيكم إذا أخذتم العائلة كلّها من أجل وشاية كاذبة؟

- في المخفر سنعرف إذا كانت الاخبارية صحيحة أم كاذبة.

- كاذبة.. المطعون هو الذي افتعل المشكلة.. افتعلها وركض إلى اللاذنية يبلغ عنا، الأولى أن تأخذوه هو، أو أن تأخذوه مع الوالد، ومن المواجهة بين الاثنين تظهر الحقيقة..

قال الدركي الثاني:

- اسكتي يا بنت.. حين يتكلم الرجال تسكت النساء..

قال المطعون:

- أعوذ بالله من هكذا نساء.. هذه التي ترونها تنزل الخيال عن ظهر

حصانه . . تتدخل في كل قضية، لسانها أمر من لسان والدها . . قال يا سيدي عائلة من المدينة، ولأنها من المدينة فلإنها لا تخاف، وزيادة على ذلك فلإنها عائلة من اللواء، من إسكندرونة، وهناك، عدم المؤاخذه، لا يهابون الدرك ولا الحكومة . .

قال الوالد:

— وماذا فعلنا حتى تهاب الدرك والحكومة؟

قال الدركي الأول ساخراً:

— إذن نفصل إلى اللاذقية، وهناك، في التحقيق، نعرف إذا كنت تهاب أم لا . .

قالها ونهض . بدا مستثاراً، رأيت شراً في عينيه، ولو كان هناك فلاحون لضرب الوالد أمامهم، وربما، أمام الوالدة والأختين، وأمامي أنا ابن المدرسة . لم يستنصب ضرب الوالد، لكنه، كما ظهر من تهديده، يضممر سوءاً، وهذا ما أفلقني . نظرت إلى الوالد فلم أجد أثراً للخوف على وجهه، ظلّ، كعادته، لامبالياً، ومع معرفته أنهم يقودونه إلى السجن، كان يتصرف، حركة وكلاماً، كأنهم يقودونه إلى كرم آخر من كروم الزيتون، وحين اعتلى الدركيان حصانيهما، سار الوالد أمامهما، طليق اليدين، بخطا ثابتة، وأنجھوا جنوباً، بين أشجار الزيتون، قاصدين قرية الفلاحة بدور، للقبض عليها وسوقها مع الوالد إلى السجن .

وقفت على طرف الكرم أتابع الوالد وهو يمضي أمام الدركيين، أحسست بغصة قهر في صدري . لم يكن للغصة لون أو سابقة . كانت غصة قهر أشاعت المرارة في فمي، جفت الحلق وغامت الرؤية، تحت سماء سديمية، تقطر ضوءاً رمادياً مال، أكثر فأكثر، إلى السواد، كان الضوء إبراً شوكية تغز عينيّ اللتين تجمّدتا على المشهد المتباعد، المترامي، المشهد الذي أنا فريسته لا الوالد السائر على قدميه أمام فرسين يتراقصان، فيخشب بظر، تحت الدركيين اللذين ينقذان مهمة قمعية بحقّ إنسانين بريئين، ويشعران بالراحة لأنهما نفذّاها على هذا النحو السهل، الخالي من التعقيد .

كانت البندقية في الكتف، والكرواج في اليد، وحجر تحت الجلد، والعينان تحترقان ظهر الوالد المستور بقميص من شيت رخيص. لقد أحال الوضع الاجتماعي كلاً منها إلى أداة ضاربة لسلطة غاشمة، لا تفهم، أو لا تريد أن تفهم، وربما استغنت عن الفهم منذ زمن بعيد، أن الفلاحين والعمال والفقراء بشر يعضغون حقدهم منذ زمن بعيد أيضاً. كان الأسياد لا يقلقون مجرد قلق على المستقبل. قناعتهم هي أن الأشياء هكذا كانت وهكذا ستدوم. إنهم الأقوياء بالملك والمال والمكانة. وهم رأس الهرم والأمرون فيه على قاعدة عريضة من الجماهير التي يجب أن تكون في خدمتهم، والآ ترفع الصوت في وجوههم، فإذا أنت من شكاة فإن سلطتهم تتحول فوراً إلى عنف، يترجمونه بالرصاص والسوط في صدور وظهور الناس، ويكفي طلب منهم حتى يروض الفلاحون ليصبحوا أكثر طاعة، وانسحاقاً، أو ليصبحوا، كحال الوالد وبدور، في هذا السوق الاعتسافي لمجرد وشاية كاذبة.

ما أصعب أن يساق الوالد أو يُهان أو يُضرب أو يُقتل أمام أبنائه لو شاية كاذبة. إن الغصة التي يحسها هؤلاء الأبناء تجمد الدمع نفسه في مآقيهم. يقفون في حالة عجز أمام الظلم الذي يروونه ينزل بهم دون أن يعرفوا مصدره. تبكي القلوب في الصدور، تنزّ المرأة من ضلوع انطوت على حرقة. ينتقع لحم الأحشاء في ماء فضة حارق. تحتزن النفس الموءودة نغماتها في رمال تفرزها الغدد في الجسم كله.

ذلك الصباح عرفت تلك الغصة، المرأة، الانكواء. انزعت في مكاني شاهداً على ظلم اجتماعي ينوء الفلاحون تحته، وبرغم عجزني، فقد نبئت مخارز على رؤوس أصابعي، وتساءلت في ذات نفسي: «ماذا فعل هذا الرجل وما فعلت هذه المرأة؟ ما ذنب هذين المخلوقين اللذين يسعيان وراء اللقمة؟ لماذا ينبغي أن يكون للعدل الأعور ضحايا في كل مكان؟ بأي حق يقاد والذي وبدور إلى السجن؟ لقد دافعا عن نفسيهما ضدّ تهمة كاذبة. بدور لم تسرق، لكن الوكيل افترض أنها سارقة. تحرّش بها لأنه يريدّها، أو

لأنه يريد أن يقول لأمياده إنه ساهر، ومن دلائل سهره أنه قبض عليها. والوالد وقف إلى جانب المرأة. قال إنها غير سارقة، قال إنها فلاحه، وليس من الحق أن يتهم الفلاح بالسرقة لمجرد أنه فلاح. وحين أمر المطعمون بتفتيشها حماما، قادها إلى بيت حيث ينتظرها أطفالها، كان شهماً في عالم نذل، والعالم النذل لا يتسع للشهامة، يضيق بها، يضطر صاحبها إلى دفع الثمن، والوالدي يدفع الثمن، وقد يتحمله، بل من المؤكد أنه يتحمّله، فكل رجل وكل امرأة، في دنيا الإقطاع هذه، تحمّل وتحمل العصف والجور، حتى أصبحا ممزوجين بلقمة الخبز وشربة الماء.

خجلت من نفسي، أقسى عقوبة ذاتية أن يخجل المرء من نفسه. يشعر، في هذه الحال، أنه مُذَلٌّ، مهان، وأن ما ينبغي أن يكون، قد صار كما لا ينبغي، وأنه عجز أمام وضع إنساني، فأصبحت إنسانيته متهمه بضعفها، وليس عليه، بعد، إلا أن يبلغ الإهانة. ويضع يديه على عينيه متقياً حتى النور الذي شهد انتهاك كرامته. وفي حال كهذه يستشعر اليأس إذا دخل قوقعة فرديته، إذا وقف إنساناً أمام إقطاع، إذا كان واحداً أمام كل، أما إذا ربط نفسه بالآخرين، وتعدى دائرة الفرد إلى الجماعة، وصاغ من الواحد كلاً، فإنه يغدو قبيلة، كتلة، شعباً، وعندئذ لا ينسحب إلى وكر، كما زاحفة خائفة، بل يدفع صدره إلى أمام متحدّياً، شاعراً أنه لا يخوض صراعه رقباً، وأن ثمة، من حواليه، من هم مثله، وبهم يتقوى.

ولقد حماني شعور الجماعة هذا من التردّي إلى هاوية الأفاعي. جسدي لم يذبح منه العنق بمديّة اليأس. وإذا كانت هذه الجماعة بعيدة، في إسكندرونة، فثمة، حتى في اللاذقية نفسها، جماعة كائنة، أو ستكون، وعليها، ومعها، ينبغي الوقوف. إنني لا أطلب مغفرة. لا أنشد مطهراً. لا أسعى إلى عزاء، لذلك بقيت عينايتي مفتوحتين مثبتتين على النقطة التي غاب فيها والدي. لقد راح، لكنه سيرجع. مديّة بيت آفء لن تبلغ أن تذبجه كطير مهيش الجناحين. فوق الضعة هو، وفوق الاستكانة، وحين، يوماً، سيطلق سراحه سيتعلم أن يكافح ضدّ الظلم بقدر أكبر من الصلابة، ولن

أبقي، أنا نفسي، عميماً به. عليّ، بعد الآن، أن أجد حايبي الخاصة، أن أعرف حقّي، وأحصل عليه، وأدافع عنه، وغيبته عنا لن يكون لها أن تقسم قلوبنا. سنظلّ حيث نحن، وسواصل، إذا سمح لنا، جمع الزيتون، ومنذ الليلة سأنوب في الحراسة، وسأغدو ناطوراً على البوابة. وعلى هذا النحو فقط نستعصي على الانكسار من الداخل، ونحول بيتنا وبين أن يفتالنا الهمّ، وتقعدنا الحسرة على ما جرى.

هذه الأفكار شددت من عزمي، ما وعيته من أفكار في مدينتي البعيدة كان كنزاً في داخلي. لن أحتاج إلى التقيب في هذا الداخل بحثاً عنه، إنه، ما إن تنطفئ الشمس، حتى ينقذ لذاته شمساً من الأمل في حياة أخرى الطيف، أعذب، أفضل، وهذا ما جرى اليوم. אחי بخلافي. نظلّ شمسها مشرقة. كلانا نبحث عن شمس، أنا أطلعها من داخلي، وهي تقبض عليها من خارجها، والنتيجة واحدة، كلانا له شمس، وتصير للناس شمسهم، ولن تكون ظلمة عندئذ، فالجراح ستشع نوراً أرجوانياً، ومن هذه الجراح سيتصوّع عطر يفعم الجوّ برائحة وردية، وعلى ذلك ينبغي أطراح الحزن.

«أيها الوالد الذاهب إلى السجن، أنا لن أحزن عليك. ما أتيت فعلاً يحزن له. كنت شريفاً في وقتك وكلامك وانتصاب قامتك وأنت تمضي مع الدرك إلى حيث التحقيق. أنت تعرف ألاّ تحقيق، لأنهم ما جاءوا لأجله، بل أوعز إليهم أن يسوقوك إلى التعذيب، وأن يطرحوك في السجن، حتى تصير مطواعاً للسيد ووكيله، فلا ترفع الصوت ضد الباطل مهما يكن جائراً».

كبر والدي في نظري. سألت الله أن يظلّ هكذا، وألاّ يسكر بعد اليوم، حتى أظل أكبره وأحبّه. لكن والدي لم يكن يفكر في شيء مما أفكر به أنا... إنه، ببساطة، لا يحتمل أن يكون عبداً، ولا يسكت على نازلة، وربما فعل الآن ما فعله لأن بدور كانت مظلومة، وكانت جميلة، ومن يدري، فقد تكون وقفته لوجه الله، وقد لا تكون كذلك أبداً.

سمعت، وأنا أدير هذه الأفكار في رأسي، حركة ورائي، كانت تلك رقيقة، لا أدري من أين جاءت، ولا كيف انبثقت. كانت المفاجأة أكبر من أن أستوعبها. فرحة غامرة ارتعشت لها جوارحي. لم يكن ثمة كلام، عيناها قالتا. عيناها قالتا. تلاقت العيون، اشتعلت في العشب اليابس من حولنا نار. تلون الهواء، فضياً صار، ثم غدا ماسياً، وازرقت الحجارة. استيقظ في داخلي شعور كان هاجعاً قبل أن أولد، اضطربت لصوتها المتضامن مع صوتي:

- أخذه؟
- نعم أخذه..
- ومن أجلها؟
- من أجلها..
- ترى كانت تستحق؟
- ما من امرأة لا تستحق..
- قصدت: لم تكن سارقة؟
- لا، لم تكن سارقة..
- ولماذا اتهمها المطعون؟
- لأنها فلاحه..
- فقط لأنها فلاحه؟
- وأيضاً لأنها جميلة..

ابتسمت رقيقة. خلت أن الدنيا من حولي ابتسمت بدورها. صفقت أوراق الزيتون، اخضرت أكثر، ارتسمت عليها حلوة سكر، ذاب السكر، اجتمع الكرم، بكل من فيه، من حولنا، وغنى عتاباً كانت هي الميجانا. شفتاها غنتها. مقلتها غنتها، سمعت الأغنية. رأيت الابتسامة. استيقظت من غفوة الدهور على ندائها. قالت لي الأرض إنها هي. من هي؟ جازني في الكرم، زميلتي في جمع الزيتون. رفيقتي في شفاء الفقر، لكنها، في تلك اللحظة، كانت أميرة تطل من نافذة. وجه ينداح من وراء

الغيم، يكبر الوجه. يكبر، يقترب. يقترب أكثر، يملا مساحة الرؤية،
يسيطر على الرؤية، واللسان، في صوت أغن، يعاود السؤال:

— وهل الجمال ذنب؟

قلت في نفسي: «إنه ذنب الذنوب» وقلت لها:

— أحياناً يكون كذلك..

— الحمد لله.. (وابتسمت ثانية) إني لست جميلة..

— تخافين الجمال؟

— أخاف الذنب..

— ولكنك مذنبه..

— كيف؟

— لن أقول..

احترت خجلاً، ما توقعت أن أقول، ربّما، لكنّها، في احمرارها، أعطت
ردّ فعل على المباغة التي صنعتها باعتراضي الذي استدرجت إليه. ما قلت
إنها جميلة. لكنها فهمت أنني قلت، وأنها جميلة، وكان إطرائي سبباً في
توشيجة الحُقر التي أطرت عياها.

بعد ذلك صمت كلانا، لم يعد لدينا ما نتحدّث به، نسينا الحديث
أصلاً. انغلق فم. انغلق فم آخر. تركنا للعيون أن تقول أشياءنا. سرنا
معاً، جنباً إلى جنب، تحت الزيتون، كما العشاق، في الحكايات، نعت
الزيتون. زيزفوننا كان أخضر. كان مشعراً وكان أخضر، كان بهياً وكان
أخضر. والأفاعي اختفت. ملكة الأفاعي ظهرت. الأفعى الأول، أمام آدم
الأول، ولا ضرورة للكلام، فهمت، فهمت، تمايلت شجرة الخير والشرّ،
رويدك يا شجرة الخير والشرّ، نحن في الخطوة الأولى بعد، الإبريق في اليد،
والماء لمعة في المقلّة، والسقاية قادمة، ولسوف ينزع غصنك ويتشر العطر
نحية للكون.

سرت إلى جانبها ولكن على مبعده منها. خفت أن أقترّب منها. خفت

أن المسها. أن أستمها، أن أرتعش أكثر فتفضحني اختلاجة ما في النبرة، في الصوت، في الهدب، في تقاطيع الوجه، كان ذلك اعتمادي المبكر في مياه الأردن المقدسة. النهر الجاري لعواطف فتى كاد يغرقني ولا أجيد السباحة. اعترف. كانت هي الأجرا، لماذا، يا إلهي، تكون المرأة دائماً هي الأجرا؟ تلفتت إلي. التمتع شرارة. سقطت شرارة. غيمتان مرّتا على وجه الأرض. السالب والموجب في الغيم الثقيا، لم يحتكا، ولكن الأشعة الكهربائية لجسد الغيمتين أعطت وميضاً برقياً، ثم تحرّكت الشفاه، في دعر من الصمت، لنقول شيئاً، أي شيء، ولينتهي هذا التلاقي المثير لعاطفتين فتبين ما اعتادتنا بعد الشوب مع هوى عذرتي مبكر. سألت:

— ألن تتكلم؟

— وماذا أقول؟

— ما يقوله الناس..

— نحن، صدقي، لا نشبه الناس. أنا، على الأقل، أختلف.. أحياناً لا

أعرف أن أتكلم.

— ولكنك، الليلة السابقة، تكلمت مع والدي.

— كان ذاك والدك.

— وأنا ابنته..

— لكن كلامنا، لو صار، سيختلف..

— لماذا يختلف؟

— لأنه، كيف أقول، جديد، ما قاله غيرنا بعد.

— إذن سنحبّه أكثر.

— إذا قلنا..

— ولماذا لا نقوله؟

— لا نعرفه..

— ألا تعرف أن تقول؟

— بلى، ولكن كيف؟

- كيف وأنت ابن مدرسة؟
- من أين عرفت؟
- أختك حدثتني عنك أمس.. قالت إنك شعلة ذكاء، وكنت متفوقاً في المدرسة، وإن لك أفكاراً غريبة.
- وصدقت؟
- أردت أن اصدق..
- لماذا؟

عقب وجهها فكان جواباً. أرادت أن تصدق لأنها أرادت أن تصدق. كيف تشرح لماذا؟ وهل تستطيع، حتى لو رغبت في الشرح؟ بعض الكلمات تظمر ولا تقال، إذا قلت بهت. فقدت حرارتها. اللسان، في حال كهذه، يصبح عبثاً. العينان تصيران فصيحتين، رقيقة تقول بعينها. ولكن ماذا في عينيها؟ إنها لا تنظر إلي مباشرة. ما أكاد أرى وجهها حتى تغير وضع الرأس. تنظر إلى الجهة الأخرى. تتركني مستثاراً من فرط الرجاء، وتقتلني من شدة الغموض.

لقد منحني هنيهات فضية. أعطتني، كالسبح، خبزاً وسمكاً. أيفظت في داخلي عاطفة كانت هاجعة، هذه هي المرة الأولى التي تستيقظ فيها عواطفني الهاجعة. التبديل يحتاج إلى وقت، لكي يتبدل الإنسان عليه أن يصبر كثيراً، أن يسمع ويرى ويعيش. أنا في لحظة تبدلت. سمعت ورأيت وعشت. قام البعازر في داخلي. نبث غرسة حب. اخضرت وأزهرت وفاح عطرها. كيف يمكن أن يحدث هذا؟ كيف انتقلت من حالة الحزن والغضب لاجل والدي، إلى حالة الفرح والتألق منذ رأيت رقيقة؟ هل لها سلطان على جميع النفوس أم على نفسي فقط؟ الريف، في هذه اللحظات، لم يعد الريف الذي كانه قبلها. نكهة جديدة غدت له. معنى آخر وصورة أخرى. جسسي أيضاً خف. نشط. أزهرت فيه بنفسجات بيض، صارت الدنيا كلها بيضاء، تفسوات. شعت، زهت، ورقيقة قريبة بعيدة. رقيقة أنثى وأنا ذكر، لكن العلاقة بيننا ليست كالعلاقة بين المرأة والرجل، ليست كما بين

أبي وأمي، ليست كما كانت، أو يمكن أن تكون، بين والدي وبدور. إنني أحب وجهها، نظرتها، ابتسامتها، ولا أحب، أو لا أجروء على التفكير، في أي شيء آخر فيها. أراها هكذا، ببساطتها، ثيابها، تسريحة شعرها، جملة بما يكفي، ولا أريد، وأرفض، ككل ما من شأنه أن يחדش هذا الجمال، بالصورة التي ارتسم عليها.

رحت أبحث عن الكلمات. رحلت أقيس المسافة. أسأل الله أن تقصر المسافة. أن يبقى معاً، ألا نفرق أبداً. أن نلتقي دائماً. أن أجد سبيلاً للقاء، يكون مقبولاً لدى والدها. أن يسمح لي في أن أزوره، وأن تأتي هي لزيارتنا.

نحن في كرم واحد. في وضع واحد. على أرض واحدة. وأمس كانت لغة التفاهم معدومة، اليوم صارت، وغداً قد تكبر، وبعده من يدري. لكنني أدري، شيئاً واحداً أدري، أنني سعيد، ونشط، وخفيف، وأن العيش صار له معنى، والنظرة أصبح لها معنى، والكلمة اختلفت، انتعشت، صارت أكثر دلالة، أشد حرارة، وللدنيا، من حولي، وقع آخر في نفسي، عذب، بهيج، منير، وللزمن انسياب حلو، خفيف، لذيد، وله رقيب، في الصباح والأماسي. لقد صنعت لي رغبة عالماً ملوناً، محبوباً، سعيداً، وأعطيتني أن أقول: ما أطيب إقامتنا هنا!

مضينا تحت أشجار الزيتون، لا نعرف الوجهة التي نقصدها، نسينا المكان والزمان، نسينا أنفسنا، نسينا أهلنا، تركنا لأقدامنا أن تسيّرنا، أن نأخذ بنا حيث نريد، وحيث يحلو لها، شريطة أن تبعد بنا، قدر المستطاع، عن الناس. فالأشجار، بكل جلالها الشمري، بكل خضرتها، وعظمتها، تصنع لنا سقفاً من أغصان متشابكة توفر لنا الفيء وتمجينا عن الأنظار. ولم أكن أمشي على أرض. يا إلهي! كم كنت رشيقاً، خفيفاً، طائراً، كنورس، على وجه بحر أزرق. كانت هذه تجربتي الأولى، وربما كانت تجربتها الأولى، ويبدو أننا كنا، كلانا، متلهفين إلى دخول تجربة كهذه، وممارسة مشاعر كانت قبلاً تضطرب في الذات، ثم صارت، الآن، خارجها. صارت

نظرة، كلاماً، وهجاً متبادلاً، بين جسمين فتّين لدنين لشابين غريين
سعيدين بكل ما في فتوتها من سذاجة بريئة، ما تلبث أن تعي نفسها
فتأرّث.

كنت في حالة انقسام. أمشي، أنظر، أحس، أنكلم، وفي داخلي إنسان
آخر، يتصرف تصرفي نفسه، لكنّه يتحدث بمفرده: متى؟ كيف؟ ولماذا؟
وكانت هي أيضاً على ازدواج في الصوت، والنبرة، تعيش معي، وتعيش
لنفسها، تقول كلاماً أسمعها، وكلاماً تسمعه وحدها، وتساءل: متى؟
كيف؟ ولماذا؟ ويعجب كل منا من السرعة التي تمّ بها اللقاء، والتخاطب،
والمكاشفة، ولا يكاد يصدق أن ذلك تمّ، وأنا حقيقة نحيا، ولنا في حلم
من أحلام المراهقة.

ولم تكن حالي، ولا حالها، لو فكّرنا في نفسنا، وضعنا، لباسنا، ظروفنا،
نسمح بأن نعيش هذه الفرحة الغامرة من تناغم وليد. ولو كان للحذر أو
التحسّب ويجرّد التفكير بأننا نتبادل الحبّ قيمة في وعينا لابتعد أحدهما عن
الأخر، وشعر بذنب شديد، من جرّاء سماحه لنفسه بأن ينسى فقره وبؤسه
وأهله والزيتون الذي ينتظر جمعه ويتلهّى بشيء كهذا، شيء يدخل في باب
العواطف والغرائز، رابطاً بين قلبين لا يعرفان سوى أنها خفقا فاستجاب
كلّ منا إلى خفق قلبه.

على أن ذنبي، في المحاولة، كان أكبر، بصفتي شاباً، يفترض أنّه أكثر
وعياً وأشدّ معاناة، ويعرف الحال التي نحن عليها في المدينة، والحال التي
نحن عليها في الكرم، وما سيطرأ علّ وضعنا بعد سوق الوالد إلى السجن،
وما يتهدّدنا إذا ما تمادى المطعون في انتقامه منّا.

لقد كنت، في انقسامي، بين تجاذبين: أحدهما مرهّد إلى القلب والأخر
إلى العقل، ومن عجب أن القلب كان قادراً، في تلك اللحظات، على
السيطرة، مما أنساني، طوال الفترة التي كانت رقيقة معي، أن أنساءل بأيّ
حق؟

كان الحب قد نبت باسم الحب، وبحقّه، وقضائه، وجرفني إلى الضنّة الأخرى، حتى ما عدت أفكر، خلال تجوالنا كله، بسوى الطريقة التي نلتقي بها، والخشية ألا تكون ثمة طريقة، وأن يمضي يوم، أو تمضي ليلة ولا أراها. حتى أن رثيقة لاحظت سهومي فقالت، ونحن نمضي باتجاه نبع صغير في التخم الفاصل بين الكرمين، عند خاصرة الرابية:

— بماذا تفكر؟

— لا أدري. . هل ترييني أفكر حقيقة؟

هزت رأسها بالإيجاب وابتسمت:

— أنت تفكر بما لست أدري، وهذا هو السبب في أنك صامت. . .
وأنا أعذرك، فقد أخذوا والدك إلى السجن. .

— لا أفكر بوالدي ولا بالسجن. .

— إذن تفكر باليرة. .

— ولا بهذه. .

— بماذا تفكر إذن؟

نظرت إليها نظرة فاحصة، مدققة، متفرسة، محاولاً أن أكتشف الحقيقة في سؤلها. هل فعلاً ما كانت تعرف بماذا أفكر، أم تحرص على أن أقوله بنفسني؟ وهل تفكر، هي أيضاً، ولو بشكل من الأشكال؟. . تكون خلية وأنا الشجي، تلهو وأنا أجذ؟ تتظاهر بأنها غير مبالية بهذا اللقاء وبما يليه؟ أكون المشوق وحدي، أم تشاركني الشوق؟ تعرف من شؤون الحياة أكثر مما أعرف؟ متمرسة وأنا صاحب العاطفة البكر والتجربة البكر؟ لم أقل شيئاً. اعتراني شعور بأنها تحاول حلي على الاعتراف. ولكن بماذا اعترف؟ وكيف؟ أقول لها أحبّك؟ ومن اللقاء الأول؟ وكيف أحبّ ونحن في هذا الوضع؟ ألن تضحك مني؟ أليس في موقفني الاعترافي ما يضحك؟ ألن أكون مدعاة للسخرية؟

وإذ لاحظت استغراقي في السهوم قالت:

- ألا تريد أن تقول؟
- ليس لديّ ما أقوله ..
- كنت مشرقاً واكتأبت، هل أكون السبب؟
- لست السبب في الحالين .. أحياناً تتأبني مشاعر متضاربة .. بينما أكون في قمة السعادة، يعتريني الاكتئاب فجأة .. أفكر بما نحن فيه ..
- ألست راضياً عن وجودكم هنا؟
- تريت في الجواب، فكرت: «نعم لم أكن راضياً .. أما الآن؟»
- وهل أنت راضية؟
- لا أجد آية مضايقة ..
- وكيف تعيشين مع والدك في هذه العزلة عن الناس؟
- قالت بنبوة تنم عن ضيق:
- وماذا أصنع؟
- هل يمنحك والدك من زيارة البويرة؟
- والسدي يحبني .. أنا وحيدة .. أمي ماتت منذ سنوات .. أنا عزاءه الوحيد .. وهو، كما رأيته، ينظر في هذا الكرم، وفي النهار نجتمع الزيتون، أما في الليل فيشرب قليلاً، ويظلّ ساهراً يحرس الكرم .. لا أجد حولي من أنكلّم معه سواه .. هذا صعب علي .. هذا يصيبني بالسأم والملل، ولكن ماذا أفعل؟
- لاحظت كل هذا عشية جئت إليكم.
- كنت صامتاً تلك الليلة، تسمع أكثر مما تتكلّم .. منلك الآن، هل هذه طبيعتك؟
- وما عساني أقول؟
- لماذا تجاهلت وجودي؟
- كيف؟
- لم تلتفت إليّ ولم تحاطبني .. اعتبرني كأنني لم أكن .. وهذا ما حزّ في نفسي، ومع ذلك أنيت إليك اليوم، وجدت من المناسب أن آتي، لأنّ

والذي حدثني بما وقع على البويرة أمس.

— حدثك عن تلك الفلاحة؟

— قال إنها سارقة.

— كيف عرف؟

— والذي لا يأمن جانب الفلاحين.

— هل هذا لكونه ناطوراً؟ يكرههم بحكم العمل؟

— يكرههم لأنهم يسرقون. أما سمعت بقصة ذلك الفلاح؟

— وماذا فعل؟ مرش حفنة من الزيتون؟

— ولماذا يمرش؟ هل هذا رزقه؟ إنه يسرق.

قلت بانفعال جهدت للسيطرة عليه:

— صخر لم يسرق. له حق في هذا الزيتون الذي يحرقه كل عام. ثم

ماذا يفعل إذا كان يعمل في أراضي بيت «ف» وكرومهم، ولا يجد في

بيته حبة زيتون يتأدم بها؟ إنه فقير. فلاحنا فقير إلى درجة مرعبة.

— ونحن فقراء أيضاً، لكننا لا نسرق.

— نحن لم نعمل في الكرم حتى يكون لنا حق فيه.

— مهما يكن. والذي يقول إن هذا مال الخواجات.

— ماذا يعمل والدك في المدينة؟

— والذي يعمل نجاراً. نجاراً عربياً. وفي موسم الزيتون ينظر في طرف

من هذه الكروم.

— وهل يأخذ حقه من النظارة؟

— طبعاً يأخذه. وفوق ذلك يجمع الزيتون وله حصّة.

— له من العشرة واحد. مثلنا.

— وماذا تريد أكثر؟

كانت تتكلم عن قناعة بأن ما يجري هو ما يجب أن يجري. كانت تماماً

كما شككتها أفكار والدها: الفلاح سارق، والخواجات أصحاب الملك،

وهم يفضلون علينا بما نجنيه من ملكهم. ولم تفكر يوماً كيف تعيش،

وظروف هذه المعيشة، وكيف يكدر والدها دون أن يصل إلى كفايته . .
باختصار كانت ترى في الخواجات أمياداً من طينة أخرى، وفي ملكيتهم
حقاً مقدساً.

سألته فجأة:

- هل كنت في المدرسة؟
- حتى الصف الثالث الابتدائي . . تركت المدرسة بعد أن ماتت أمي .
- وفي أي مدرسة كنت؟
- في المدرسة الأرثوذكسية . .
- وماذا علموك هناك؟
- وماذا تعلمون في المدرسة؟
- ألم يقل لكم المعلم شيئاً غير الدروس؟
- حدثنا عن المطران . .
- ألم يأت المطران إلى المدرسة؟
- جاء مرة واحدة . .
- وعمّ حدثكم؟
- عن المدرسة والدراسة .

قلت ضاحكاً:

- وعن الخواجات طبعاً . .
- سألتني وقد فطنت إلى سخريتي:
- ألا تحبّ الخواجات أنت؟
- لا . . لا أحبّهم يا رثيفة، وأنت؟
- والذي يقول كلب الخواجة خواجة . .
- وأنت على رأي والدك؟
- أنا لم أفكر بهذا . . أعيش كما أعيش، دون أن أنساءل كيف؟ ولماذا؟
- أختي بخلافك . .
- هل هذا لأنها أكبر مني؟

— يجوز. . ولكن اخوتي، منذ كانت في عمرك، كانت تتألم من فقرنا،
وتعرف سببه تقريباً.

— ومن سببه في رأيك؟

— ماذا أقول يا رثيفة؟ حتى أجدادنا كانوا يعرفون أن فقر الفقراء من غنى
الأغنياء.

— والذي لا يعرف هذا. . .

— يجب أن يعرفه.

— ما أظن. . . والذي يعبد الخواجات.

— ومدينتكم كذلك تعبدهم.

— كيف؟

— اللادقية لم تستيقظ بعد. . .

— من يوقظها على فرض أنها نائمة؟

كان سؤاها مبالغاً. كان في محله تماماً، وأنا لا أعرف جوابه. من يوقظ
مدينة نائمة؟ فكّرت في نفسي، لا أدري لماذا فكّرت في نفسي. في ذلك
الوقت، لم أكن بعد قادراً على التنوُّ، ولو أن جاء رجل وقال إنك ستكون
أحد هؤلاء الموظفين لما صدقت. كنت أرتعد من المهمة. كيف يمكنني، أنا
الفقير المهاجر، الغريب عن المدينة، الذي لا أعرف أحداً فيها تقريباً، أن
أفكر، مجرد تفكير، بأن ذلك سيصير يوماً. كان واجباً عليّ أن أفعل، ولكن
بين الشعور بالواجب، والقيام به، فرقاً كبيراً. ثم إن مدينة تؤمن أن الملكية
حق مقدّس، وأن الإقطاعيين أسيادها، ولا تعرف التنظيم النقابي، ولا
تظاهرت يوماً لأجل مطلب عمالي، أن لي، أنا الذي أفهم أشياء قليلة، أن
اتصدى لإفهامها الحقيقة التي يصعب حتى أن أشرحها.

قلت لرثيفة:

— لا أعرف من يوقظ المدينة، لكنني أؤمن أنها نائمة وبحاجة إلى أن
تستيقظ.

- تتكلم لغة صعبة علي ..
- ستجدينها سهلة مع الأيام.
- ما أظن .. ثم أنا لا أحب التفكير بما نقول .. يا ألهي لماذا نرتعش
- قسمات وجهك وأنت تتحدث عن المدينة ونومها؟
- نحن نتحدث .. ألا يرضيك مثل هذا الحديث؟
- لا .. لا علاقة لي به ..
- تقولين هذا وأنت فقيرة مثلي ..
- وماذا أفعل؟

كنّا ننف عند مفترق طريقين . رغبت رثيفة أن تعود إلى والدها ، وكنت ، قبلها ، أرغب أن أعود إلى أهلي . لم أكن أودّ مفارقتها ، لكنّ الحديث اشتدّ بنا . بات مضجراً بالنسبة إليها ، وكان عليّ ، منذ أخذوا والدي إلى السجن ، أن أفكر بحالنا على البورة . غير أن ظهورها المفاجئ أنساب . كنت فتى ، وكانت فتاة ، وشيء ما ، كالشرارة ، اشتعل في قلبينا ، كان شيئاً مفرحاً . أحسست معه أن رعشة انتظمت جوارحي كلّها ، رعشة جديدة ، لذيدة ، لم يسبق لي أن عرفتها ، وكم غنيت ، وأنا أرجع إلى البورة ، لو أن رثيفة مثل أختي ، تستشعر شيئاً من ظلم الحياة ، من وطأة الفقر ، من جور الملاكين والدرك . إن هذه العبادة للأغنياء ، هذا الاحترام ، هذه الانغلاق العقلية أمام فظائعهم ، أرعبتني . وسأقضي عمري كله وأنا أصطدم بمثلها .

وصلت البورة ، كانت العائلة قد ذهبت لجمع الزيتون ، لم يكن ثمة إلا الفلاحان ، وبعض الأشخاص ، والجمال سارحة ترعى . أنجّمت فوراً إلى الخيمة ، كنت ظمآن ، ولم أتناول فطورتي ، وكنت الآن قد عدت حزينة لاجل والدي .

جاء المطعون إلى الخيمة ، ويادرنى قائلاً :

- هه .. حسبك ذهبت معهم .

- إلى أين أذهب معهم ؟

— إلى قرية بدور..

— لأرى كيف يقضون عليها ويسرقونها إلى السجن؟

— وماذا في ذلك؟ ألا نستحق؟ هي السب، نعم، لعدم المؤاخدة، هي السب، والدك هذا، أما كان الأفضل له أن يدعها وشأنها؟

— والدي، في موقفه منها، كان شهياً..

— وأنت أيضاً، مثل أختك، تتحدث عن الشهامة؟

— وعمّ تريدنا أن نتحدث إذن؟

— عن لا شيء.. نعدّنا كما النواظير، كما الناس، عبثوا معبر أن تخلفوا مشاكل لأنفسكم ولغيركم..

— نحن لا نخلق آية مشكلة.. أنت الذي نسيت في المشكلة.. ماذا نطلب؟ هل استرحت لآلك فعلت ما فعلت؟ وماذا يعني أن يقضوا على والدي، وأن يسحبوه.. كل شيء يمضي، والسجن يمضي، لكن الحقيقة ستظهر، وسيعرف الفلاحون أنك ظلمتهم.

قال بحدة:

— أنا لا أظلم أحداً.. ألم يقضوا على صخر وهو يسرق لوزيتون؟

— كان يمرض قليلاً لأولاده.. كان بحاجة إلى هذه الحفظة من الزيتون.. هل تعتبر هذه سرقة؟

— وما هي إذن..؟ إذا لم يكن مرض الزيتون في الليل سرقة، فما هي السرقة في رأيك؟

— لو كنت فلاحاً مثل صخر، وفقيراً مثله، ما قلت هذا الكلام.

— وأنت أيضاً تدافع عنه؟

— أدافع عنه وعن بدور.. لماذا تحصلون أفكاراً مسبقة معادية للفلاح؟ لماذا لا تتصوّرونه إلا كسولاً، غادعاً؟

— لأنه كذلك ..

— وأنتم السب، لست أنت بل الأسياد، أصحاب الأملاك. أنت فقير مثلاً، مثل فسطر ويدور، لكك لا نعرف مصلحتك، أنت غافل عنها، مثل المدينة تماماً. لذلك لا أحقد عليك ..

— وأن لا أحقد عليكم .. اسمع ... قل لأملك وانتك إني لست ضدكم، هذا الكلام، عدم المؤاخذه، مناقبه لوالدك أيضاً. أنا لست ضده .. لم أفعل شيئاً. وأحي هو الذي اقتضى ذلك، كان لا بد، وأنا وكيل هنا، أن أبلغ الخواجات بما حصل ..

— وما أنت ترى نتيجة تليغك. نسيت في سحر ثلاثة حتى الآن.

— لا تغفل ثلاثة. قل اثنين. أنا تادم فقط لأن والدك ورط نفسه .. أما بالنسبة لصخر ويدور فليست تادماً. الفلاح، عدم المؤاخذه، لا يؤذّب إلا بهذه الطريقة. أنت لا تعرف. لو نرددت كثيراً على الضيعة، لو عرفت كيف يعيش الفلاحون فيها، لو رأيت ماذا يفعل الشوباسي، كنت وجدني رحيماً. أبو اسكندر لا يصرب الفلاحين فقط، يقتلهم أيضاً. يقتلهم ليستطيع أن يسيطر عليهم، لينمكّن من حملهم على العمل ..

— أنا لا أشاطرك هذا الرأي. الفلاح ليس كسولاً، يعمل طوال النهار والليل، ثم لا يجد الحيز. وأنتم لا تسمحون له بحبة زيتون يتأدم بها. ماذا تريدون بعد ذلك؟ هذّدتهم جسده، أزهقتهم روحه، وأصبح من حقّه أن يشرده. وأن يتهرب من الشغل، وأن يسرق، لأن هذا حقّه الذي اغتصبه أسياده.

— ما شاء الله، ما شاء الله، من علمك كل هذه الفلسفة؟

— الحياة، والكتب، وما أراه بعيني. انتظروا تروا، لسوف يستفيق الفلاحون، ويتوحدون، ويتنعمون منكم بسبب المظالم التي أنزلتموها

بهم ..

— يتقمنون؟ هم يتقمنون؟

— ولم لا؟

— لانهم أجبن من أن يرفعوا عيونهم من الأرض.

— لن يظلوا جبناء.. الأيام بيننا..

— أعوذ بالله! أي عائلة أنتم! تعرف.. لو نقلت كلامك هذا إلى

الشوباصي، أو لو سمع به الخواجات، كنت تلحق بوالدك.

— وماذا يمنحك؟ انقلها لمن تشاء..

— أنا لن أفعل.. عدم المؤاخذه، أنتم أهلي، صار بيننا خيز وملح.. قلت

لك إنني لست ضدكم فلماذا لا تصدق؟ لو لم يورط والدك نفسه كنا

سناً على عسل.. أنتم فقراء، جئتم إلى هنا لأنكم فقراء، وكان عليكم

أن تعملوا، أن تكونوا إلى جانبي، أن تتركوا الفلاحين في حالهم، غير

أنكم رفضتم.. تقولون إنكم من اسكندرونة، وهناك الناس يفعلون ما

تفعلون.. أنا لم أسع هذا الشيء.. اللعبة على إسكندرونة، كنتم

لا تدفعني إلى الشر من جديد.. كفى مما حكمة إذا أردت ألا أطردكم!

قال ذلك وخرج من الحيمة. قذيفة غضب وانطلقت. إنه يفقد علينا،

هذا لا شك فيه. بمعنى لو أن الأرض غارت بنا، لكن الأرض رحيمة.

الأرض لنا، ولن تغور بنا، وحين ينتهي الموسم لن يرى وجوها، ولن يقبل

في العام القادم، أن يتعاطى معنا. نحن مرفوضون بسبب أفكارنا، ولكننا

لا نعمل لأجل هذه الأفكار شيئاً، لا نذهب إلى الفلاحين ونحرضهم، ولا

نوزع مشورات بينهم. كل ما فعلناه أننا رفضنا أن نكون شهود زور على ما

يجري.

تناولت قطعة خبز وجبات من الرينون، كنت كدماً مما سمعت، وكنت

مريحة لما قلت. أخيراً تحرّات على الكلام، قلت ما يجول في خاطري،

كسرت حاجز الرهبة في نفسي. عبرت عن أفكاري بطريقة ما، وهذا بذاته

حسن، هؤلاء الفلاحون يحتاجون إلى التنمية، إلى من يأني اليهم ويعدّتهم،

إلى من يزورهم ويكشف الحفيضة لهم، وأنا لا أستطيع هذا، بمفردي لا أستطيعه، تُرى، يأتي يومٌ ويحدث هذا؟

ذهبت إلى أهلي في الكرم، كنت في حالة من التهيّج يضعب معها العمل بهدوء. لقد توالى انفعالاتي، الدرك والقبض على الوالد، رثيفة والخديث معها، هذا الحوار الذي دار بيني وبين المطعون، شعوري بالأسى المتولد عن بعد المسافة بين ما أعرف أنه حقٌ وما أشهد من باطل.

لم تكن حال أمي وأختي بأفضل من حالي. كاننا واجهتين حزينتين، نجمعان ما نشائر من زيثون جمعاً ألياً، ونفكران بالوالد الذي سبق إلى السجن، وما ينتظره من عذاب على أيدي الدرك. كاننا ننظرانني، وقد بكّت أمي كعادتها عند مواجهة مواقف كهذه. ولم نستطع الأخت منعها من البكاء، كما لم نشأ أن نعطفها، أو نقول لها ما لا نحب بسبب موقف الضعف هذا، تركتها وشأنها، دون أن تشاركها الجرع الذي تضخم لديها بفعل وسوس هاجعة، ما ثلبت أن تهب وتستولي على مشاعرها أظلمة حتى نعدو عصاباً لا يزول إلا بانتفاء أسبابه.

أنا أيضاً أحسست، ما أن أطللت عليهما، بالمأساة الصغيرة التي تنشر عنكبوتيتها بينهن. كنت أدرك ما في نفس الأم من خوف قديم دائم، يسهت قلماً تهددتنا، أو واجهتنا، مشكلة ما. كان خوفها هذا قديماً، زرعه المريف، والعزلة، والظلمة، ورحيل الأب، وتشرّد العائلة، وكان قد مضى زمن لم تتعرّض فيه لحالة من اليأس النفسي التي عرفتها اليوم. صحيح أن الوالد كان يرحل، بغيب، وتحشى عليه الأذى، وتقلق لمصيره، لكنها أبداً لم تغد نفسها أمام مشهد مماثل لمشهد سؤقه إلى السجن. أما نحن، أولادها، فقد كنّا في العمر الذي يسمح لنا أن نتماسك، فلا نتركض وراء السجن كما ركض الطفل وراء والده الفلاح.

غير أن تماسكنا تضعضع أمام دموع الأم. تحدّدت هذه الدموع منذ رأتني. وعبر عناقها لي عماً في صدرها من لوعة، فبقيت واقفاً ورأسها على صدري. كانت تنسج، فتخلج، تعول في صمت، وبغضلة تذب سوا.

حفظنا الذي حسب أنه فارقتنا. ولم أقو على الكلام أمام فجيعتها برجلها، ولا كنت قادراً على البكاء مثلها، خجلاً من أخي التي كانت تراقبني، غير أن الأخت الصغيرة أدارت وجهها وبكت. وكان الجو من حولنا، في لحظات انفجار المشاعر تلك، جهاً رغم سطوع الشمس. الهواء كثيف، مغبر، والعشب الأصفر اليابس يشكل خلفية للأسى، وخلاء موحش، يغري بالكمد، وعائلة مشردة فقدت ربها، وباتت تحت رحمة قدير هي على وشك أن ينسم لها.

ماذا أقول للآم؟ لقد عذبها الزمن طويلاً، جائراً عليها كفريسة مزقتها غاليه. لم تعد تتوقع منه إلا المزيد إرهاباً وعزيقاً، لقد عتس الليل في عينيها. ثقت الريح حاصرته. فرغت كفها من الأمل، وغدا الفهر قلادة في العنق النحيل. إنها لا تؤمن بالكلمات التي أقولها، نسكت أحياناً فلا تعارضها، لكنها في الأعماق مفرغة من كل رجاء بأن اخال ستبدل. درها الطويل ظل مفروشاً بالشوك. مرة واحدة لم تنفتح وردة عليه. كانت تحسب، ونحن في إسكندرون، أن هدنة ما قد قامت بينها وبين سوء الطالع، لكن الهجرة ما لبثت أن انحطت عليها شوحه سوداء. دفعة واحدة وجدت نفسها في العراء. وقفت ثمة ضد الريح والبرد والمطر. ضد غضب الحياة التي لم تواتها مزاواة حسنة عمرها كله. وهذه الدموع التي تذرفها هي احتجاج صامت على الدهر. عتاب بالدمع حين لم تجد سواء. زفرة في وجه الافق الذي انسد من حولها، كان الجهات الأربع قد أغلقت، والرحمة رفعتها زوبعة هوجاء.

تركتها تبكي، أنا لا أؤمن بالدمع. أخي ترفضه، لكن الآم تجد فيه وسيلة للتعبير عن أسى ينغرز كمدينة في قلبها. ليست عينا الآم هما اللتان نكبان. قلبها كان يبكي، وماذا أفعل لقلب عزت عليه الراحة، فالفي العزاء في نشج صامت هو نوع من تمرد لا تحسن غيره؟ قصارى جهدي أن أتجلد، أشعل النار في المحجرين وأنظر. استدعي مهجة آيوب التي صاعتها الصبر. أرحل مع نظراتي النائمة فيما حولي، حيث الشجر ساكن،

والأرض تترمد، والشوك يضفر نفسه إكليلًا للمائم، وأمي تنتفض غثلجة
من آثاره الكاوية.

أجلسنا الأم على حجر. غسلنا وجهها. تخلفنا حولها دون أن نعرف ماذا
ينبغي أن نفعل. قلنا لها بصمتنا كلمات مؤاسة صغيرة. رجوناها بنظراتنا
أن تهدأ، وأن تسي، كي نعاود العمل الذي وحده يملك أن يجمعنا. أظهرنا
كل ما نملك من حنان الأبناء تضامنا معها في ذلك الحزن الذي هو حقيقي
كالوجود. قررنا دوماً اتفاق أن نبذل جهداً مضاعفاً لتعويض ما فاتنا من
وقت ضائع. شجعناها على تحمل الضربة التي نزلت بالوالد. طمأنأها إلى
أنه سيعود، وأنهم في المدينة لن يجدوا شيئاً يدينه. غير أن كل ذلك كان
تمهلاً، ففي أعماق كل منا كان يتضخم عود من الكآبة الخرساء، لعلنا أن
الأب لن يعود بالسرعة التي نأملها، ولن ينجو من عقاب لا ذنب له فيه.

رجعنا إلى العمل، كنا قادوين عليه بكل الآلية اللازمة، لم يعد
الشوك، والحر، والأفاعي، وتقوس الظهر، والغبار الذي تسفوه الريح،
قادراً على صدنا. كنا قد أدركنا وضعنا اليأس، وكرتاب قارب يتقاذفه
البحر، صممنا على المقاومة، وعلى الماضي في الرحلة التي قادتنا إليها ظروف
سيئة. ما بقي هو الدأب. مواجهة الشدة بالتحدي، الشد على الجراح حتى
نكف عن النزف، ومن خلال مشاعر ترعب في غطبي الضعف، توصلنا إلى
اصطياد خاطرة عابرة، رسم ابتسامة ما مبسرة، قول كلمة تخرق الصمت
المائم الذي ران علينا.

قالت أختي:

— غداً نذكر هذه الأيام ونضحك. من قال إننا سنهاجر من إسكندرونه،
ونسكن اللاذقية، ونصل إلى هنا، ويصير ما صار معنا؟ الزمن يمضي،
وكل حال يزول.

أجابتها الأم:

— سنذكرها ما في ذلك شك، ولكن من قال إننا سنضحك؟

- أنا أقول... مع صححت... أن الأمر أسهكت... وماذا هناك لندرك
المسوح؟

- وأنت؟

- والله أني؟ السحر للرجال، والنساء الضأ... أن يقضوا على مثل بقدرته
يكون... ولماذا التفتة؟ وما الفجع حبه؟ يريسون التحق؟ أملاً
وسهلاً... يقول والذي ما جرى معه، ثم ينتهي الأمر.

- هكذا بكل ساطعة؟

- نعم بكل ساطعة... والتمهيز أو التصديق لأن عبقاً، وألهم قصروا
الوالد وعذبه، هل هو أول إنسان يُضرب ويُعذب؟

- والله متحيرة؟

- برحمتي لو متحيرة، سيظهر بضعة أيام ويخرج... ماذا في ذلك؟

- أنت يا فتى لربك الأمانة سبعة دالماً

- يا فتى، يا فتى، لم يبقاً صعباً، وأشد من العدم، بل كان ما هي في
البرهان... بهذا بسبب الخوف... حسناً هي الخوف.

- أنت لا تخافين؟

- ليس لا تخاف؟ ولكن ما طبع الخوف؟ ما هو الخوف؟ إنه لا يفعل سوى
أن يفسد... أنه لا يفسد أن يفسد... وإذا كان هذا لا خوف، فإني لا

أخاف... نعم لا أخاف

قالت الأم وقد ابتسمت:

- أنت حثت بشأ خطأ... كان يجب أن تأتي مسياً...

- وما الفرق؟

- يا ويلي! أقول ما الفرق؟ تتحررين؟

- نعم أخيراً... أنا لا أحسن فرناً... ومنذ عودتنا إلى اللاذقية سأشتغل...

سأبحث عن شغل . سأسعى لأشتغل في الربيعي . انتظروا شرباً
ماذا تحسبوني إذن؟

— نحسبك شاباً ..

— وأكثر .. أنا شاب وزيادة ..

— وأخوك ؟

— أخي الآن صغير . حين يكبر

قلت متشجعا حسانا

— الآلهة صغرى . سأعمل أيضا . عند هؤلاء من هنا سأبحث عن
عمل . سيحسروني ويضعوني . سيكفونني . ماذا أقول ؟ سيكون لي
موت وراي . مثلما يفعلون هناك . في إسكندرية
صاحت الأم :

— كأي شيء . ألا هذا . أنا دحية طيبك يا بني . لا تعمل ثم تبعه .

عظمت إلى الأخت من طرف حتى . أدركت أبي سأعمل . خطها رمت
عن الإسلام أو العفة فلتكفر . كانت تعتبر هذا الخروج من الكتمان للسير
استشأ . وفي كل الأحوال فإنها . من أجد . تلك العزم أن هذا شيء .
لكنها سلافي . استعانت من الإبل إلى ..

كانت تتردد . في أمها . التي لم تحرم الفطن على والده فاستعفت . وأن
سجدت لم تزل إلى زهري . خطها وجدت في سدا . أنا الذي كنت أبحث فيها
عن . إننا سستعمل هذا الصنعة . وإن لم يكن في السجود . والحمد
بكن من سادها . لا تفضل . وأمرنا استعفت . وهذا شيء . وقد وجدت
فيه الرائدة عزاء . وشجاعة . فقالت :

— وأنا لن أنعد في البيت أيضا . سأشتغل في الربيعي .

قالت الأخت

— في خطها تلك تكون في وضع جيد . وسستعمل على يدي أنصلي . يرحلون

على الأقل، وبوضع لائق. . اعتمدوا علي. . هذا المطعون بحسبنا متنا،
يظن أن القبض على الوالد قد هدّنا، جعلنا في قبضته، تحت رحمته،
فشر. . لم يخلق الذي يستطيع أن يُذلنا. . نحن لسنا زجاجاً، ولا قطعاً
وأنا وحدي قادرة على تحدّيه. .

قالت الأم:

— دعي التحدي جانباً، لا نريد أن نتحدّاه. . نسيت ما فعل بدّور؟

— لم أنس. . يده وما تطول. . والله قادرة على مجابهة السيّد نفسه.

كدت أصفق. . رغبت أن أذهب إلى אחتي فأصمّها وأعانقها. جديرة
بالعناق هذه الأخت، ليس لأنها قادرة على مجابهة السيّد، ولكن لأنها لا
تخشى المصاعب. منذ عرفت أنها وهي لا تخشى المصاعب. . إنها مناضلة،
مقاتلة، وأعظم ما فيها أننا بفضلها نعرف الابتسامة في أشد الظروف
حلكة. لقد عدل وجودها الميزان، فمقابل الأم الضعيفة، تأتي الأخت
القوية. وفي هذه البريّة التي تضطرب فيها، وفي يوم القبض على والدنا،
ليس فقط لم تبك، بل ابتسمت، وعدتنا بابتسامتها، بعثت فينا العزم،
الثقة، الأمل، ومدّت لنا في فسحة التي لم تشمل واقعنا، في هذا الريف
اللعين، بل شملت مستقبلنا في اللاذقية، المستقبل الذي كنت أراه مظلماً
جداً.

— أنت يا أخت، قلت لها، من إسكندرونة حقاً.

— وسأكون من اللاذقية حقاً. أنا أيضاً قادرة على حمل البيرق^(١).

— وسأكون إلى جانبك. .

— وسيكون معنا خلق كثير. .

— نعم سيكون معنا خلق كثير.

(١) إشارة إلى شخصية أم بشر في رواية «الثلج يأتي من النافذة».

هكذا، هي التي لم تمسك فرشاة أو قلمًا، استطاعت، بضربة أو ضربتين، أن ترسم لي لوحة لنهوض الناس المقبل. لذلك التجمّع العمالي الذي سيحدث. للليقظة التي ستتظمّم العمال والحرفيين وتدفعهم إلى تأليف نقابات لم يكن لها وجود في اللاذقية آنذاك. أخيتي تنظفها روح حدسية. هي ما كانت تدرك أنها تحدد، لكنّ اندياحة الأمل كانت تعطيها رؤية عريضة نفاذة. رأت، وهي في كرم الزيتون، ما سوف يحدث بعد أعوام في مدينة اللاذقية. معرفتها أنّ الناس، في الريف، والمدينة على السواء، لا بدّ أن يهتّبوا في وجه الظلم والخلل الاجتماعي والبؤس، والفقر، جعلتها على يقين أن شيئاً ما سيتبدّل في الحياة، وأن الوالد سيخرج من السجن، وبدور ستعود إلى بيتها وأولادها، ونحن سنهي هجرتنا القسرية، وسنعتزّ في المدينة على عمل، وسيكون لنا، حيث نعمل، مجال أن نبذر بذور الفكر العمالي ونستثبها بالصبر والدأب.

جمعنا من الزيتون، ذلك اليوم، كما لم نجتمع في أيّ يوم آخر. كنت أركض، تطلقني قوة اندفاع جبّارة، إلى الزيتونات فأثيرها، ثم أعود إلى العائلة وأجمع معها ما نبرت من زيتون، وكانت الأم، الآن، في حال جيّدة. جفّت دموعها. عادت ابتسامتها، أشرفت تقاطيع وجهها الحنطيّ الاليف. شغّ في عينيها أمل. استنارت بضوء الكلمات الشجاعة التي سمعتها. أخضرّ العشب من حولها. الشوك لم يعد شوكاً. الأفاعي لم تظهر، الأرض تمّلت. حبّات الزيتون أسلست لنا قيادها وصارت تقفز إلى أيدينا. الأشجار مالت باتجاه الأرض لنستطيع أن نمرشها بسهولة. الريح نسمت جنوبية غربية رهوة. خلعتنا عباءة الحزن، خرجنا من جلود الأسى. دبّت فينا روح جديدة، نشطة، مباركة، الساء البلورية تلوّنت بمزجة من أحاسيسنا الزرقاء، غدونا غيرنا تماماً، صرنا أقدر على مجابهة الشدّة، وعلى تحدّي المطعون أو الشوباصي، قرّنا أن نجني من الكرم جنى مضاعفاً واستجابت لنا إرادتنا.

في المساء عدنا إلى خيمتنا، ثمرة عملنا كانت مضاعفة تقريباً.

أشعلت الوالدة النار، فيها الشمس تنحدو إلى المغيب، في الموقد القريب، وصنعت لنا قهوة. لم نكلّم المطعون، بل لم نلق إليه بتحية المساء، أخني أوصنا بذلك. طلبت أن نتجاهله ففعلنا. عزيز ويونس، الضلاحان اللذان يعملان على البورة ظلّا بعيدين عنا، بل إنيهما حين تلاست مع المطعون في الصباح، وقفّا إلى جانبه. خافا منه. الخوف يؤلّد الانتهازية، انتهزا الفرصة للتقرب، للنجاة بجلديهما. خانا بدور دون مبرر. موقفهما لم يصدمنا. علرناهما. كنت أعرف أن بعض الناس، في بعض المواقف، لا يستطيعون اتخاذ الموقف الصّحّ. لم أقل ذلك لأخني، لكنّها هي، المعتدّة بنفسها، لم تسأل. بقينا وحدنا. قررنا أن نعمل بغير كلام. أن نرضى بما نحن فيه، إلى أن تنجلي الغمة.

وحين جاءت الجمال، في المساء، لنقل الثريثون، أطربنا ونين أجراسها، وضعنا في اللوحة المعنّدة لأسيات البورة، أعاد وصل ما بيننا وبين المدينة. الجمال ولسل المدينة. ولسل بكاء، لكنها كانت هناك حيث تركنا بيتنا وأقربانا، وحيث الوالد وبدور بنويك في السجن، ولا ندري متى يعودان.

مصطفي الجمال جاء وسأل عن الوالد. قال إنه سمع ما جرى وأسف. أبدى استكارة لفعلة المطعون، كان خارج دائرة الفود، كان حرّاً في تصرفه، ونجّية له دعواه إلى قضاة من القهوة. قالت الأخت، الآن، هي التي تتصرف. عدت المسؤولية دون أن يخلّفها أحد. وجدت أن من المفيد أن تكون قد كنتا فكانت. رويت الحادثة كلها حرة. لم تبد أيّا خوف أو ذعر. تحدّثت بهدوء، قالت إن الوالد سيعود، وإننا غير أسيين على الموقف الصّحيح الذي وقفنا، ولم نكره ظلم المطعون، أو صادر عن الشوباصي ظلم محض، سيقف مرة أخرى، همّنا، وسنقول الحقيقة دون أن نهاب لذلك أو السجن.

ولم يأت الشوباصي ذلك المساء، بلغه ما حدث ولا شك. لا يقع شيء في إخطائه دون أن يبلغه. لم نحدّد عليه. ولم جاء لما حفظنا الجراح

أمامه. نحن نعرف من هو، الوالد حدثنا عنه، وكذلك الفلاحون، لكننا لم نلق منه أدنى أذى. هو خارج المسألة. هذه فعلة المطعون. ربما كان موافقاً عليها، وربما، لو كان مكانه، لتصرف بطريقة أخرى. لكن المسألة لم تكن شيئاً بالنسبة إلينا. نحن على البورة وسنبقى. إذا طردنا فسنرحل. لكن الطرد غير وارد، والمطعون، بعد الحادث، يحاول التودّد إلينا. ذلك أنه، بعد تحميل الجمال، طلب أن يتكلّم مع الوالدة. تردّدت الأم، فخرجت، استشارت الأخت بنظراتها المتسائلة، وقالت الأخت:

— لا بأس. اسمعي ما يريد أن يقوله. . .

— لكنني لا أعرف ما يريد. . . كلّميه أنت. . .

— وإذا رفض؟ أنت رأس العائلة بغياب الوالد.

— يا ويلي. . . أخشى أن يقول كلاماً لا أعرف الجواب عليه.

— لكل كلمة جوابها. . . ثم من هو؟ إنه، أولاً وأخيراً، أجبير مثلاً.

ذهبت الأم إلى البورة. تبعتها الأخت. لحقت بهما، أختي الصغيرة ظلت وحدها في الخيمة. كان الليل قد لبّل. ألقت السماء غلالة من عتم على الكون. سطعت نجوم مبعثرة هنا وهناك. قامت جدران بنية من حولنا. الأشجار بدت شبحيّة. الأرض تنفّست. رائحة الزيت الأكسيدية، انتشرت، وثمة، في البعيد، عند النبع، كانت صفادع تنقّ، وكلاب تنبح في الحقول المجاورة، وجنادب تثرّ في كرم التين، وبهاء المساء الخريفى، الرقيق، يعطي نفسه بأفضل ما يستطيع.

— نعم، قالت الأم للمطعون، ماذا تريد؟

— سلامتك. . . أردت فقط أن أسأل خاطرك. . . أنت، عدم المؤاخذه

أختي، المصري أخى، والعائلة عائلتي، وأنا لم أرد بكم سوءاً، والله، أقسم ثلاثاً، إنني لا أريد بكم سوءاً.

— ما وقع قد وقع. . . هل تستطيع جمع الزيت إذا دلفته على التراب؟

— أنت على حق، ما وقع وقع .. ما كنت أريد، ما كنت أظن .. زوجك،
عدم المؤاخذه، حشر نفسه فيها لا يعني، تدخل، دون سب، في قضية
بدور ..

قالت الأخت:

— بدور لم تفعل شيئاً .. أنت تحببت عليها ..

— أنت، عدم المؤاخذه، لا دخل لك في الحديث .. أنا أكلّم والدتك ..

— وأنا أكلّمك أنت .. بدور لم تدب، والوالد لم يدب، وأنت تريد، بعد
قتل القنيل، أن قشي في جنازته .. اللعب غير هذه اللعبة ..

— أنا لا أعب ولا كشي أشفق، أنا، عدم المؤاخذه، أشفق عليكم، بيدي
أن أطردكم من السورة كلها ..

— وماذا بهم؟ نعود إلى المدينة، لكن أنت، سيكون لك حساب مع الوالد ..

— وما هو الإثم الذي ارتكبته بحق؟

— ألا يكفي أنك أوصلته إلى السجن؟

— إذا كنت أنا من أوصلته إلى السجن، فلما من يخرج منه، دعونا نتفاهم
فقط ..

— نتفاهم على ماذا؟

— عل الفصل بين قضية الوالد وقضية بدور ..

— وماذا يحدث إذا فصلنا القضيتين؟

— أذهب في الصباح، وأتمس من الخواجة (2) أن يتدخل للإفراج عن
الوالد ..

— دج الوالد في السجن حتى يفرج عنه ..

— والشورة من ينظرها؟

— أنا ..

- أنت امرأة . . هل تصبح المرأة ناطورة زيتون؟
- أخي . .
- أخوك ابن مدرسة، يخاف من خياله.
- كنت قد لحقت بأختي فقلت:
- سأنظر الليلة، ومسترى أنني لا أخاف من أحد . .
- لا أستطيع . هذه مسؤوليتي، أنا، عدم المزاخنة. مسؤول أمام بيت
- داف، وهذا الزيتون أمانة في عنقي، أنا الوكيل هنا . .
- قالت الأم ملاطفة:
- هذا صحيح والله . . أنت المسؤول. وأنت على العين والراس . .
- بسنم فمك . هكذا يكون الخواب . . (ملتفتاً إلى الأخت) اسمعي،
- أنا قادر على التفاهم مع أمك وليس معك . . أنت مثل والدك. لا
- تعرفين مصلحتكم ولا تسكتين على واحدة . .
- وما هو الشيء الذي تريد أن تفاهم عليه؟
- أعفيكم من النظارة على شرط . .
- وما هو؟
- أن تشهدوا، إذا احتاج الأمر، أن بدور سارقة . .
- صاحت الأم:
- يا ويلك من الله! . .
- وقالت الأخت:
- تريدنا شهود زور؟
- هذا هو الشرط . . تبقون على البورة إذا شهدتم . .
- وإذا رفضنا؟

— نتركون البصرة . . وننزلون إلى المدينة .

وقالت الأخت بحسب .

— نزل .

ولم نزل . فقد تدخل الشوامسي ، وأوجس مفاشا

لم يستطع المطعمون أن يظرونا، ولا استطاع أن يفهمنا، فقد ناسكنا. لم
 نهرم من الدخيل، ولا انكسرنا، وكان ذلك معقل الأخت، التي اشعلت
 في أودق الرينون شموعاً للأمل. صوّت كل ما حولنا، حانت بين برد
 العربة، ورفاق الأب، ولؤم الوكيل، وبين اليأس أن ينسرب إلى نفوسنا.
 تخذلت المطعمون، أهدت استعداداً لترك البوابة، كأن لا شيء، في هذا
 الوجود، قادر أن يلوي شكيمةنا. وحتى الأم، الخائفة بطبيعتها، أزاحت
 خوفها حليماً، ولم بصورة مؤقتة. وأما الذي كنت أحمل أفكاراً، يقول
 الخجل بيبي وبين أن تصح سلوكاً لي، غدوت، بفضل أخي، أقل مبالاة
 بالروح العدائية، التي يعملها المطعمون نحونا. ولعل الشوباصي، الذي أمر
 بفناء، كان يريد، من تصرفه ذلك، أن يعاكس المطعمون أكثر مما كان يريد
 رفع ظلامه عنا.

كنا، في النهار، نجمع الرينون، وفي الليل أحرس البوابة. نقول أخي،
 قبل أن ندخل الحديقة لننام، ولا نقلق كثيراً وأنت تقوم بمهمة الناظر، ليس
 من يجرؤ على الاقتحام من البوابة، ولم اشتهت، بأيام زوال، حركة،
 حشيشة في العشب، بين الأشجار، أيقظني، فأجيبها، مستمداً من كلماتها
 شجاعة. «نامي أنت، لا تفكري». ليس ثمة ما يخيف، ولن أصبح، أو
 أنهرب. حتى ولو جاء اللصوص حقيقة، أو دبّر المطعمون، غارة ما، بقصد

الإيقاع بنا. . . لَصَّ الزيتون تكفيه نصفيفة كَفَّ حتى يولي الأدبار، إنه مثل
 الفلاح صخر، يريد حفنة زيتون لأولاده لا أكثر. غير أنني، في وحدة
 الليل، وحشته، وأنا أدور حول البورة، والخميص ليام من حولي، كانت
 الطمائية تعارفتي، أظلم متوجساً، متلفتاً، مرهف السمع، وهذا ما كان
 ينبغي نومي، ويبحث وعشة صغيرة، غير مريحة، في أوصالي، فأستشعر نَفْساً
 في أعصابي، ولا نعاودني الطمائية إلا في الفجر، حين تبلغني دقات
 الأجراس في أعناق الجمال وهي مفضلة من بعيد، مخترة صفوف الأشجار في
 طريقها إلى البورة. كان الرنين الحلوى المحمول على أكشاف الريح، يشبه
 رنين النوافيس، فهو سلام وخشوع في أن: سلام يعمل نباشير الصباح،
 وخشوع لما فيه من إيقاع رتيب، يذكر بالأمسيات والصباحات للآديرة التي
 اسمع بها وأقرأ عنها.

لقد تقمّصت، تلك الليالي الصيفية، شحصة والدي، فانا أحمل
 عصاه، وأضرب بها الأرض، وأضعها، تارة على كتفي، مشبكاً ذراعي
 بها، وأترها طوراً، فتغدو في يدي سلاحاً خفيفاً لا قبضة له، لكنه، بالنسبة
 لطفتي تلك، كان سلاحاً ما، أتصور نفسي وأنا أستعمله، أضرب به،
 أؤدفع على اللص وهو مشهور في يدي. والحصص، من جهته، يرفع عصاه،
 وتبدأ المبارزة، ومن كان زنده أقوى، وعصاه أمن، هو الذي يفوز، فإذا
 تحطمت عصاي، ولم يبق لي ما أؤدفع به عن نفسي أضرب، أوقظ من حولي،
 وتبدأ المعركة التي كانت متخيلة، وظلّت كذلك إلى أن انتهى الموسم.

ومع أن هواجسي كانت تغتال الفرحة التي يولدها الليل الصيفي، فإن
 بهاء الطبيعة كان يفرض وجوده، والسماء ذات النجوم، تقترب مني
 لتخططني إلى مراتعها، فينبت في جناحان، وأغدو أنا الفتي الذي ما زال،
 بسبب الفقر، يلبس بنطاله الأسود القصير، طيراً مكسواً بالريش الأبيض
 والأصفر، ويسير، كما في الحسم، أطيروا فقر في طيراني فوق الأودية الخضراء،
 وأمد يدي إلى النجوم، ساجب معي رقيقة إلى خدائس مساوية بعيدة عن
 الأنظار، حيث أستطيع، دون عناية منها، أن أضاع ذراعي حول كتفيها.

وأنا أقول كلمات حلوة، عذبة، ساحرة، وهي تنسم وتنسم، متقبلة
كلماتي بالرضى، والود، والحب الذي كان عذرياً، لكنه، في اندفاعات
الغريزة، يلامس أطرافها، صدرها، ويخطف، من عنقها، خذها،
شفيتها، قبلات مسكرة.

كلام ذلك حبي الأول، كان حتماً يكرراً كالموجة الزرقاء الأولى على
الشاطئ المحصب، وكان شغل، في السهر الطويل، أن اخترع الفاظاً
أعدها للفناء الفل. ولم أكن أفكر بمعنى هذا الحب، شجته، مصيره، أنا
التي التي في النهار، حين يثقل الضوء، ويجعل إلى ذرات أجمل أماني
الليل، أحمل من كثير من تصوراتي. كان حبي، ذلك، فوق الفقر، فوق
المادة، فوق الواقع. كان خيالاً حياً، يتغذى على أحلام سريفة لمراقبة
مسكرة، لو أعطيت أن تفكر، أن تسأل، أن تعاد، لارتطمت بصخرة
وتفتت، أو تحترق، شأن البحر الذي يرتطم بصخر الشاطئ.

وكنت في حبي الفني هذا، أحتس العيون، وأتأني به عن المظان، أصونه
في الخدقين، وأمشي إليه كأنني على حجر، شاعراً في كل خطوة، أن ثمة من
يراقني، ومن يحصي علي أنفاسي، وخاصة الأخت، التي لا يمكن أن يفوتها
تعقني سريفة، وغياي. في الأماني، عن السورة، حيث أزعج أنني أقوم
بحولات في الكرم، ترويحاً عن النفس، أو أذهب إلى والد رقيقة أبادل معه
بعض الأحاديث.

ظني أن أحتي كانت تنظر إلى الموضوع كله من زاوية مضحكة، لم تفتأني
مرة به، ولم تومر إليه، ولا أخبرت الأم، لكنها كانت تعرف أين أذهب،
وتر أنني، وربما ماذا أقول، وتعتبر كل ذلك طبعياً، يتناسب مع عمري
وعسر رقيقة، ولا يشكل أية فضيحة تستوجب الحذر، أو التدخل، أو
لكلام، أو حتى المسألة. كانت تعجل، أنني في بعض اللبالي، أتوك البورة
وأذهب إلى رقيقة، أدور حول خيمتها، التي بعض البعض من بعيد، أي
بحركات أحسب أنها كافية لتنبهها إلى وجودي، دون أن تثير انتباه والدها

الذي كان، بعد منتصف الليل، يغط في النوم على حصيرة أمام الخيمة، مثبتاً وجود الناطور بجسده الممدد والعصا قربيه.

لكن رغبة لم تخرج إلي مرة، في تلك الزيارات التي تكررت بعد منتصف الليل. قالت لي إنها أحست بي، وصارت تستيقظ في الساعة التي تسبق الفجر، وتسمع خطواتي، حركاتي، وقع الحصى التي ألقيها على الخيمة، وأنها تمنى أن تخرج، لكنها تخاف. حذرتني من المجيء، ومن ترك البوابة، ولفت نظر المطعون، أو أهلي، إلا أنني لم أبال بتحذيراتها. كنت أحلم أن أراها في قميص النوم الأبيض، مكشوفة الصدر، عارية الساعدين، وأن أخذها، دون فرس، إلى بعيد، وثنى، بل نظير، كما في تحيلاتي، اليد باليد، والعين في العين، وأن أسمع صوتها، وأرى ابتسامتها، وأبلغ، مرة فقط، أن أعانقها، وأن تلامس شفتي شفيتها، هذه المنحة السماوية التي لا أجرو على التفكير بها نهاراً، أو طلبها في الضوء، أو خطفها عنوة دونما ساتر من ظلمة، أو غبش يحجبنا عن أنظار الأرض والشجر، وعن عيون السماء التي تتحدق بنا وترانا في النهار.

ومن الخبر أنه لا مرأة لدينا في تلك البرية. أنا لم أشاهد نفسي أبداً في وقفة كاملة في أيما مرأة تلك الأيام. هذا هو السبب أنني اندمجت في دوري، دور العاشق الصغير، الذي نسي أنه في بنطال قصير، ووالده في السجن، وعائلته تجمع الزيتون، والمستقبل مبهم. ولولا تشجيعات الأخت كان مظلماً، ما دمننا نمت رحي المأساة. لقد تعلمت، بعد تلك العلاقة العاطفية مع رقيقة، أن الحب يتطلب ظرفة. صحيح أن الحب ليس ترفاً، ولكن الذي يسعى إلى الرغيف، لا وقت لديه، ولا قابلية، لأن يطارح الفتيات غرامه. ولعل أختي، وكانت مصيبة، نظرت إلى حبي من هذه الزاوية، فرات فيه نوعاً من ولذنة، ولهذا تركتني وشأني.

عجيب أمر الإنسان، إنه قادر على نسيان الوضع الذي هو فيه، وتلك نعمة كبرى. النفس، في نزوعها إلى التخلف، التحقق، الانعتاق من أسر الراهب، تبتكر حالة النسيان لتدفع بصاحبها بعيداً عن مطارح الغم، وتقد

له في أسباب العيش . . عليه، في حال كهذه، أن يكون قد امتلك قضية، فاز بحب، عشق آخر، أقام صداقة، وجد ما يشغله عن التفكير القاتل بالظروف التي يزرع تحت وطأتها. هكذا تصبح الحياة أيسر. تمر الأيام بسرعة. يتزاح من تحت إبهام الزمن، يشتعل فيه لهب ما، يقلب برودته إلى حرارة. أنا فزت بالحب. ذلك صنع لي بهجة. تخففت من التفكير المضني بما البس، أكل، أعمل، وبالوضع الكئيب للخيمة التي تؤوينا، والغرفة المعتمة التي هي كل مسكننا، وحالة الفقر السوداء التي تضطرب فيها. انزاحت الضموم جميعاً، بقدرة قادر يصنع معجزته. صرت أفكر، نهاري وليلي، برثيفة، اخترع لنفسي سبلاً للقاء، والحديث، والصلة. تثبت في ضلوعي شجرة للمسرة، على أغصانها ثمار ذهبية. ولكي أضمن في خداع نفسي، أقنعها بأن علاقتي تلك ذات غاية أبعد من الشهوة. أنا صاحب القضية؛ راوغت في الاعتراف بأن ما أريده ينبثق من دافع غريزي، رددته إلى دافع فكري، وتوهمت أنني سأبدأ نضالي برثيفة فأكسبها إلى قضيتي. لكن رثيفة كانت تريد شيئاً آخر، وكان والدها، هو المثال بالنسبة إليها، وهذا المثال كان على درجة بالغة من الانحطاط الروحي، فهو يعتبر كلب الخواجه خواجه، وقد وظف نفسه، دون مقابل، كلباً عند بيت «ف»، وعوى عندما علم بالذي فعله والذي.

— هذا كفر بالنعمة، قال لي، والدك يكفر بنعمته.

— لماذا؟

— لأن بيت «ف» أسادنا .

— ولنفرض أنهم كذلك، هل نسكت عن ظلمهم؟

— بيت «ف» لا يظلمون . هل رأيتهم يضربون أحداً؟

— قد لا يضربون بأيديهم . وما حاجتهم إلى ذلك، إذا كان لديهم

الشوابعي والوكيل؟

— وماذا فعل الشوابعي أو الوكيل؟

— وضرب الفلاحين؟ أنت لم تر كيف قيدوا صخر وضربوه، وكيف أدخلوه

السجن ..

— هذا اللص ..

— لم يكن لصاً . من يعمل في المديح من المديح بأقل . إنه يعمل في
الزيتون ، وأخذ حصة منه لأولاده . لماذا حدث ؟ لقد تصرف بحقه .

— وما رأيك لو ألقى الجميع مثل هذا الحق . ماذا يحدث عندئذ ؟

— لا شيء . نحن النواظير نأكل من الزيتون ، هذا حقد .

— لكننا لا نسرقه ..

— لو منعوه علينا لسرقناه .

— أنا أبقى جائعاً ولا أخون الأمانة ..

— أية أمانة هذه ؟

— ولكن الزيتون أمانة في عفتنا . ألا نعرف ذلك ؟ ألا نحس به ؟

— بين الحق والأمانة فارق واضح

صاح مهتاجاً :

— وما هو ؟

— فارق ما نستحق وما نأخذ ..

— نحن نأخذ أكثر مما نستحق ..

— هل تظن ذلك ؟

— بل أؤمن بذلك .. نحن لا نستحق لقمتنا ..

— عندنا لا يفكرون على هذا النحو .

— أين عندكم هذه ؟

— في إسكندرونة ..

— اللعنة على إسكندرونة إذا كانت عاقبة ..

سكت أمام غضبه . كان كلب حراسه فعلاً . اعتاد هذه العبودية ،

وسيمضي زمن قبل أن يمي معنى الحرية . معنى الكرامة ، قيمة الحق الذي

هو كسب وليس منة من أحد . والذي لا يهتم بكل هذه المعال ، لكنه

يرفض الظلم من منطلق الرجولة . هذا لا رجولة له . غصني هو ، كلب

حقيقي. يقوم بحراسة حقيقية، مقابل رغبة وحبات من الزيتون. وما هو
الكنز، أنه يملك عند الآخرين. هو الذي يملك على صبحه، وربما هو الذي
يبنى بيوتهم. والآن يتأصل والذي القصد، إنه ملكهم أكثر من ملك. عظام
مطبخ عند بيت دافه ولو بيت له ظفر للذبح به.

فجئت معصته. حن نفسي لأتبع معاصته. كانت ثمة رغبة، وفي
سبيل أن أواحد، وأن أستمع في المعنى إليها. التزمت الصمت. مسني
الذكور هذا. الذي سينكره أحياناً. كان مرفوضاً مني، لكنني ما كنت قادراً
على الخلاص منه. كنت أنا إذا فكر بذلك الذين على باطل يهاجمون،
والذين على حق يسكنون؟ أحتي ما كانت لتسكن لكن أحتي ما كانت
عائشة ترى. لو كان عنده ولد، وأخته أحتي. وسمعت مثل هذا الكلام
من والده. أكانت تسكن مثلها تسكن؟ أشك في ذلك.

رجعت، ذلك المساء، من زيارتي نعيماً. نادماً على السكون. عدت
وفي ظني أنني لم أذهب إلى خيمة رغبة ثانية. لكنني، في مساء اليوم التالي
لجئت. وجدت والدها على حصيرته. راضياً، منسجماً، يشرب كأسه، لم
يكن يفكر في يومه أو غده. كان على قناعة لا تتزعزع بأنه هكذا ولد وهكذا
يسمي أن يموت. بلاده فوق مستوى الشهية بالأسياك، وكل ما يفعلون كان
حسناً في عييه. وبعثاً على الراحة، كأسه أوفى الأشياء حقوقها. ولقد
اصطفدت بأشياء كثيرة. وحدثهم في المدينة والريف، في البناء والشارع، في
الحرف وسوق الخضار، في القهوة والحديقة، في الأفراح والأفراح، ووجدت
الاكتفاء قسمة بينهم، كأنما راحتهم هي عالمهم كله.

كان والد رغبة طويلاً، عجباً من عند الرقبة، له رأس كتشف بطيخة،
وعينان مغروورتان، وألف ضخم تحته شاربان كقرشاة، وشادق واسع كشقوق
الضلع، وفي قدميه حذاء عتيق، مقلع. وله إثنان، واحد في السماء والآخر
على الأرض. اسمه الخواجه دافه. كان أرملاً، ماتت زوجته ولم يفكر
بغيرها. وربما لم يفكر أبداً. فهو بينهم بالمنطقة الوسطى من بدنه فقط، كأنه
حتم لياكل ويشرب ويسم، وقد حاولت، خلال زيارتي كلها، أن أستثير

انتباهه إلى الحياة السيئة التي نحياها، فكان جوابه واحداً في كل الحالات :

— حالنا مستورة .

— لكننا مشردون في هذا الريف، نعمل من الصباح إلى المساء وليس لنا

لباس على ظهورنا، ولا طعام سوى كسرة الخبز .

— كسرة الخبز التي نتبناها كافية .

— الحياة ليست كسرة خبز . . والمسيح نفسه قال : « ليس بالخبز وحده يحيا

الإنسان » .

— ونحن لا نحيا بالخبز وحده، بل بالزيت معه . .

— هكذا تفهم كلام المسيح ؟

— هكذا يفهمه الخواجة والناس وهم أدرى منك ومني . .

— ألا تعتقد أن للخواجة مصلحة في فهم كهذا ؟

— وما هي مصلحته؟ لنقل إن الوكيل يغش، أو أنه يفسر الأشياء على

هواه، فما رأيك بالخواجة؟ تستطيع أن تشك في فهمه ؟

— أنا لا أشك في فهمه . . أشك في مصلحته . .

— حين يكون ولي نعمتنا، تصبح مصلحته مصلحتنا، أم تنكر هذا أيضاً ؟

— أنا لا أوافقك . .

— ليس ضرورياً أن توافقي . .

— ينبغي أن تفكري . .

— وماذا تراني أفعل؟ أفتح فمي للريح ؟

— وإلى أين قادك تفكيرك إذن ؟

— إلى النوم . . أن نترك الدنيا للدنيا أفضل ما نفعل . . أم تريد أن تصير

خواجة؟ هذه لم تخلق لنا، كبيرة علينا . إنس أفكارك التي لا أعرف ما

هي . . أم تريد أن تجادل لأنك ابن مدرسة؟ هذا هو الذي علموك إياه

في المدرسة ؟

— ألا تحب المدرسة ؟

- لا . ما فائدتها؟
- ألا تريد أن تتعلم؟
- ما أعرفه يكفي . .
- ورثيعة؟
- رثيعة بنت، والمدرسة لم تخلق للبنات . . مع ذلك أرسلتها . . تعلمت فك الحرف في مدرسة الطائفة .
- فك الحروف وحده لا يكفي . .
- والأفوكاتو لا بصير . . نحن خلقنا للعمل، والخراجات للجامعة . . أنت من أنت؟ ماذا تظن نفسك؟ تريد أن تصبح أفوكاتو؟^(١)
- ولماذا لا؟
- نعيماً . . أصحاب الكرامات عليهم علامات . . الأفضل أن تفكر بتعلم مهنة . . لماذا لا تتعلم مهنة؟
- تعلمت مهنة الخلاقة . . كنت، في إسكندرونة أجير حلاق .
- عظيم . . ولماذا لم تكمل . ؟ غداً، حين ينتهي الموسم، غداً أجير حلاق، المهنة خلقت لنا والعلم لهم، العمى أسياد وجاهلون؟ ترضى بهذا؟
- أنا لا أرفض المهنة، لكنني لا أرفض العلم . .
- والعلم يحتاج إلى بيت من المال، وأنت مثلي، على الحصيرة . .
- سأطلب الاثنين، المهنة والعلم . .
- صاح بنفاد صبر:
- يا ابني، يا ابني، لا تتطلع إلى فوق، تتعب . . ضع رأسك في الأرض، كن متواضعاً . . والدك تطلع إلى فوق، فأين هو الآن؟ في بيت خالته .
- لو كان مثلي، لو عرف حذّه ووقف عنده، أما كان الآن على البورة؟
- والذي دافع عن حق . .

(١) الأفوكاتو: المحامي .

- مرحباً حقّ.. ألا يعرف الحقّ غير جنباه؟
- كل إنسان مطلوب منه أن يعرف الحقّ، وأن يدافع عنه.
- صاح من جديد:
- تراني أدافع عن باطل؟ ألا تغلق هذا الحديث وترينني؟

أغلقت الحديث. ثمة أدمغة تتصفّح من الداخل ضدّ الفهم. تكون مدرّعة وحديدتها كثيم. عبد الله هذا تتصالب في عقله العبودية والخواجات. لو اختلف أيّ فقير والخواجه كان في صفّ الخواجه. وقد كان مفهوماً لو أنه ينال أجراً على ذلك. إنه عيد الخواجات بجاناً، خادمهم دون مقابل، ورغم أنه، حسب رواية فلاّح على البورة، يسرق الزيتون ليلاً، فإنّه لا يعدّ ما يأخذه سرقة. هنا، يعتبر المسألة مونة. إنه يمْوّن بما يأخذ من زيتون، يعتبر نفسه خادم مذبح، ولو أنه لم يسرق، ولو أعطني واحداً من العشرين مما يجنيه، لبقي مؤمناً أن هذا الواحد مئة من الخواجات. كان عقله في مؤخرته، وكانت هذه نامية أكثر من المعتاد، وفي جسمه كلّ خلل لا تعرف أين، لكنه مطمئن إلى انسجام الأشياء، في داخله وفيها حوله.

عندما عدت مساء، قصصت ما دار بينه وبينني على أختي، قلت لها إنه نبح، كاد يعقرني، فتأملتني ملياً وقالت: «يا ليت!، سألتها: «لماذا؟» قالت: «حتى تتألّم أكثر». كانت تريد إعطائي سدمة أكبر، كي أستفيق من خدعة أن الفقراء طيّبون. هي لا تؤمن بطيبته المطلقة هذه، تتأذى جداً حين ترى فقراً لا يعني مصلحته. كنت أقول لها: «هذا من الجهل»، فتردّ: «من العادة». أحكامها المبرمة هذه كانت مثار خلاف بيننا، فأنا إلى جانب عذّر ما، أبحث عنه لكل إنسان، أعذاري كلّها تصبّ في قناة واحدة: «انعدام الوعي»، لكنّها، في نزقها، فسوتها على الذين لا يعون حقهم، كرهها لكل هذه التشوهات في تفكيرهم، كانت تدبّهم إدانة قاطعة:

- اعتادوا على تقبيل الأيدي..
- حين ينتشر الوعي..
- تقاطعتني:

- الوعي استعداد . . هذا والدنا . تحسبه واعياً؟ لديه استعداد للمقاومة .
 - وهم أيضاً سيقاومون . .
 - متى؟
 - حين نتوصل إلى شرح الأشياء لهم . .
 - مع هؤلاء البلداء لا ينفع شرح . أبو رثيفة ليس نبذة شاذة في غير أرضها، الناس تعلموا على الخضوع، وعلى تقبيل أيدي أسيادهم وهم راكعون . .
 - ليس كل الناس . .
 - أنا لا أقول كلهم . .
 - وحتى المخدوعون ستزول الغشاوة عن عيونهم فيصرون .
 - ومن يزيلها؟
 - نحن . .
 - أنا لا دخل لي في ذلك، غير قادرة على الصبر، وعلى الكلام الكثير . .
 - في هذه الحال لن تكوني نقابية حين تعملين في الريجي .
 - ومن قال إنني أريد أن أكون كذلك؟
 - هذا من الجهل أيضاً .
 - ربما . أنا أمية، لم ترسلني أمي إلى المدرسة، ولا علاقة لي بشيء .
- تقول ذلك بحرقه، تدرك هذا النقص وتثور عليه . غير أن ثورتها كانت فردية، هي ثائرة بطبعها ولا شيء غير ذلك . تستطيع أن تقا تل في سبيل الحق، لكنها عاجزة عن شرحه للآخرين . ما ينقصها كان نصف صبري، وما ينقصني نصف شجاعته . إنها لا تهاب، لا تباأس، لا تخاف الحياة، دون أن تدري لماذا، ودون أن تحاول أن تجعل من هذه الصفات الطيبة صفات واعية . كانت صبية . فارعة القامة . سمارها الخنطى ينضج بنضج الأنثى، غير أن الحب لم يكن شاغلها كما هي حال امرأة في مثل سنها ونضجها . ولقد سمعت أمي تقول لها: «أنت بنت بالخطأ» . كان أفضل أن

ثاني صبياء فتقول: «يا ليت!»، ثم تستدرك: «سرى ما يزيد الصبي على البنت، وبماذا ينفع أكثره وإذا أهرع للإشادة بها، لتقدير كفاءتها، تحيي بكثير من الود: «أنا لا أعنيك أنت. أنت ابن مدرسة. وأنت طبيب، ذكّي. لكنك لا تحسن المجابهة، وكنت أعجب من فراستها هذه، ومن قدرتها على تقويمي بكلمتين. وكثيراً ما فكرت على هذا النحو: «هي شجاعة لأنها معافاة. لماذا، ياربي، جعلت أختي في هذا الجسم الكامل، وجعلتني في هذا الجسم العليل؟ لكنني أبداً ما حملت نحوها حسداً أو ضغينة، على العكس، كنت معجباً بها، وبقيت معجباً بها طوال حياتي.

القائمة المشرفة، كحجرة في عزّ ثنائها، والامشلاء دون سمة، والشعر الأسود، والعينان السوداوان، والخصر الدقيق، والساعدان الرخصان، كل شيء فيها: سماتها، تقاطيعها، نرسها، انسامتها، حسرتها، كانت تؤهلها لصفة الخيلة بجدارة، وكانت لذلك كله محبوبة من أبوتي، ومني، ومن أختها الأصغر، وأختها الأكبر. كانت مثار إعجاب لا تنقصده ولا تطلبه، وكانت على ثقة من أن الزمن سيكون إلى جانبها، دون أن تفتك مقومات هذه الثقة من علم أو جهل. عملت خادماً منذ الصغر، وحرمت من المدرسة، وكافحت في بيوت الناس، ولم تنزع في وسط عائلي يساعد على اكتساب معارف تصبح معها جذيرة بقوة المحاكاة وقوة الحجة. ومع هذا فقد كانت على درجة عالية من النباهة وسرعة البديهة.

ولما حكيت لها عما يدور بيني وبين عبد الله الناطور، سألتني بحدّة:

— ولماذا تذهب إليه إذا كان كما تقول؟

وبعد أن لاحظت اضطرابي وطمعني قالت مع انسامة:

— هل السبب رقيقة؟

— رقيقة فتاة طيبة.

— ولما تقول لي إنك تريد اكتسابها لقصيتك؟

— أحاول. لكن والدها حنّار أسها كل أنواع البزّهات

— وأنت تعرفه منها: ليس كذلك؟

- اجد ذلك صعباً جداً .
- هذه الجرادة تفكر مثل ذلك الضبع .
- هي ليست جرادة .
- زعلت؟ إنما كنت أمزح . .
- ليس من حقك أن تمزحي على هذا النحو . . كنت أحب أنها صديقتك . . إذا كنت طيبة معي كوني لطيفة معها . .
- باليت . . هي صغيرة وبائسة ، لا أحب البائسين دون سبب . .
- ونحن؟ السنا بؤساء؟
- أنا لست كذلك . . ولا أريد . .
- الفقراء بؤساء بالضرورة . .
- لا ، ليس ذلك شرطاً . أعرف فقراء ليسوا بؤساء . . البحارة ، في إسكندرون ، لم يكونوا بؤساء ، كانوا يقاومون السلطة الفرنسية ، ويتزعمون رزقهم من الصخر . .
- البحارة شيء آخر . .
- لماذا؟ كلنا يجب أن نكون مثلهم . . ثم ماذا يجدي البؤس؟ ما نفع أن نكون ضعفاء؟ أنا لا أحب الجن ولا الجناء . . ربفتك هذه جبانة ، ولن يكون لك نفع فيها . .
- أنا لا أريد منها شيئاً .
- ولماذا تدور حولها؟
- هي صديقتي لا أكثر . نحن ، في هذا الريف ، لا أصدقاء لنا ، أليس جيلاً أن يكون للمرء صديق؟
- بل أنت تقول الحق . . مؤسف ، ليس هنا من تصادفه . إني دون أصدقاء .
- قالتها بالحق صديق . فوجدت بها تعرف على هذا البحر الشفيعات كلها .
- لا ، دون أصدقاء . كانت صريحة . صراحتها كانت دائماً حكيمة لا تهاون .

تحت أيّ عذر، أن تراوغ. مستقيمة كالطفلة. رضية كالنسمة، لكنها
جبارة. رافع أن نعترف بما ينقصنا. أنا اخوها، لكنني لا أعرضها عن
الصديق. والصديق الذي تريدني أن يكون على مثالها، وستعب. ربما
لن نجد. ومن يدري، فقد يطامن الزمن من تطلعها، قد يرميها بزواج يكون
نقيضها، وفي حال كهذه آية لطفة للفارس الذي لم يأت، ستظلّ تراقبها؟

حزنت شيئاً ما لأجل أخي. كانت أكبر مني لكنني كنت أغار عليها،
أخاف أن يمسيها ضرر. أن تتصرف بشكل غير لائق، وكانت تضحك من
وساوسي. تراني محافظاً. لا أرضي إن هي تزيت، وعندما في المدينة،
استخدمت أحمر الشفاه لأول مرة ثار بيني وبينها عراك شديد. ضربتها،
ضربتني بدورها، وبعد ذلك بكيت، قالت لي: «أفهم سبب تصرفك
هذا.. أنت تخاف كلام الناس..»، أنكرت، لكنني كنت أخافه جداً،
وكانت حياة العائلة، في تشردّها الطويل، وما جرى لنا، مصدر هذا
الخوف، وهذا ما فهمته، لكنها لم تقل ذلك، وأصرّت على أن تكون
كالفتيات الأخريات، وكان ذلك من حقها، ولكنني كنت أريد حرمانها
منه، وكانت هي، في الدفاع عن هذا الحق، صلبة لا تباي بأعراضاتي.

ولم أقل لها إن موقفها من رقيقة كان جائراً. لم أشأ أن أنكلم على رقيقة
بأكثر مما فعلت. غير أنني لم أخرج من الحديث مرتاحاً. إضافة إلى ذلك كان
وصفها بالجرادة مهيناً. ربما كان جرادة في قوامها، في هزال بنيتها، لكن من
يملك الحق أن يعيها بذلك؟ حتى أخي لا تملكه. لقد أحببت رقيقة. ولا
أريد سماع كلمة واحدة تنتقص منها. ولهذا كان التشنيع عليها موجعاً لي،
وقد انعكس ذلك في ملاعبي، وأدركت الأخت أنها أساءت إليّ بمزحتها،
وحاولت أن تصلح ما أفسدت، لكن اعتكاري لم يبتدد، وبقيت العشيّة
كلها بعيداً عنها، منفرداً، نافراً، كأن شيئاً انهدم في ذاتي، كأن لعبة جميلة
تحطمت بين يديّ.

اعتذرت عن العشاء، زعمت أن لا شهية لي. سترت جرحي بردائي،
حسرت البورة دون أن أنبادل الحديث مع أحد. خلوت بنفسني رغم وجود

الأخريين إلى جانبي . كنت غير واثق إلى حدّ اللعنة . كلمة من أخوتي بددت الكثير من خطوط الصورة التي أحملها عن رثيفة . مزقتها بأظافر حادة ، قلبتها قلباً ، رسمتها رسماً كاريكاتورياً ، وهذا الرسم ، الذي كان غير صحيح ، لم يقابل مني بالرفض ، لم أنبذه وأنسه ، ولم أبسم لمجافاته الواقع ، بل حزنت ، وكان حزني شديداً ، كان نابعاً عن مشاعر هزيلة ، عنكبوتية ، تكفي اللمسة لتحيلها هباء .

تقدّم الليل ونام الجميع ، بقيت وحدي ساهراً ، كان الطفل في نائماً على حساب الفتى . لم أعرف أن أتصرف كرجل ، أزعجتني هذه الفسولة بأكثر مما أزعجني الوصف . في حال كهذه أنقلب إلى الداخل . يدخل بعضي في بعضي ، أنكمش ، أنتفخ ، لا يعود لي الزهو الذي كان . أمارس نوعاً من تعذيب الذات ، تنهار أشيائي وأغدو أمام لوحة سوداء . أستشعر الحاجة للتعويض ، لا اليوم الآخر بل نفسي . تتضاءل هذه النفس ، وتبعاً لها تتضاءل شخصيتي ، تنفتت . أحتاج لوقت طويل كي أرتطم ، بأدلاً جهداً كبيراً في محاولة مستميتة لدرد أثار خيبة الأمل التي تملكنتني .

كان الليل الصيفي بهياً كعادته ، كان من حولي مثله كل ليلة . لكنّه ، الليلة ، لم يكن كعهده في نفسي . . الاحساس المرضي جعل الأشياء مريضة . السماء الزرقاء ، النقيّة ، بدت كثيفة ، الفضاء ضاق ، الريح فسدت ، الأفق انسَدَّ ، ومرارة شاعت في فمي ، كأنني فقدت عزيزاً . كأنّ العاطفة التي كنت أقابل بها رثيفة قد ضاعت ، ضاعت ولن تستعاد ، ولن يكون لها ذلك الأثر ، ولن أستطيع ، بعد اليوم ، أن أفتن بها ، وأن تلك الكلمة ، ستتصب جداراً ما بيننا ، وستظلّ تحفر في كبدي ما حيت .

لماذا تعتريني مشاعر كهذه أمام أيّ نقد يوجه إليّ ، أو يوجّه إلى أيّ شيء أعزّه في الوجود ؟ ترائي أصدق ما أسمع ؟ أفتنع به ؟ أثار إلى درجة الإحباط ؟ وجودي إذن رهن بغيري ، كلمة تشعلني وأخرى تطفئني . ألهب حماسة أمام الكلمة الطيبة ، وأبرد كالضفدع أمام الكلمة السيئة ؟ أكون عديم القناعة بذاتي ؟ ذوقي ؟ رأيي ؟ حقيقتي ؟ أكون فاقد التوازن ، إلى درجة أن

عني بخلٌ فجرد أنه تلقى ضربة من أحد؟ أنكر كزجاجة رقيقة من أول
صدمة خارجية؟ أذوي كوردة لأن بدا هصرها بأكثر مما تحتمل؟ وفي حال
كهده، كيف ساجبه الحياة؟ من يسندني إذا كنت أحتاج إلى السند في كل
أمر أواجهه؟

أسأل نفسي، الآن، كيف تغيرت، لا أزعج أنني تغيرت تماماً،
فالرواسب لا تزول بسهولة. ما زلت، في مواجهة الحياة، أحتاج اليد التي
تسندني. أنا مستطيع بغيري أقول، وفي شؤون اليومية، أبحث عن
يتعهدني، من بخلٍ مثاكي، من يقدم إلي الحساب ناجزاً، وأنا أقوم بدفعه.
غير أن أشياء كثيرة تبدلت، والفضل فيها يعود إلى الأفكار التي أحملها،
الأفكار التي أنقذتني جسدياً وروحياً، وشدّت من عزيمتي، جعلتني ألق
بفسى، أشباني، ودفعتني إلى المواجهة دون أن أكمش عند الصدمة،
وأدوب عند الإحباط، غدوت لا أكتث بالقد يوجه إلي.

كل ما صار لي في الحياة اكتسبته اكتساباً، كل ما حصلت عليه دفعت
ثمنه من عرقي ودموعي، وبقي فارق واحد، أحسب أنه مفيد. هو أنني لا
أعاني في الأشياء التي اكتسبتها وحصلت عليها. ليس هذا من قبيل التواضع
بل الإيمان، أؤمن أنني فعلت بعض الأشياء، حققت بعض المنجزات، في
الحدود التي بلغتها طاقتي. تعلمت عسري كله، أن أحب صنيعي بأقل مما
أحب صنيع غيري، وإذا كان هذا قد جنبني الغرور، فإنه، من جهة
أخرى، أفقدت بعض الزهو، ما دام الاعتداد، في العمل الإبداعي،
يعطي الإنسان أن يكون هو، ألا يؤثر عليه كثيراً، لمرئيات الآخرين.

لنك الثنية لم أعادر البيرة. كنت منكسراً من الدخول. عيماً أبحث في
ذاتي عن مقومات أفضل للحوار مع غيري، لأقاسه بوجهة نظري، لحمله
على حني. ليربط بي من حلال الإعجاب، دون أن أفسد، إلى أن إعجاب
غيري، يحتاج إلى ركنية ماء، على أن الشبهاء أثنها، أبعثها نكاه في نطلي
إلى هذا الإعجاب الذي لا يتوق لمجرد أنني أريده، أشده، أسعي إليه،
وإنما لأن لي صفات الفنان أو المصمم، الصفات التي لا تبلغ إلا بإفناء

العمر في طلابها، بينما أنا في مستقبل العمر. لم أكتب إلا مواضيع إنشاء، هي سرّ بيني وبين نفسي، ولم أباضل إلا بشئ بعض الآراء الصحيحة ولكن النجفة. وعليّ أن انتظر طويلاً حتى تنضج ثماري التي هي إسماعيل في نسغ الغيب ما تزال.

لقد حرمتني الطبيعة من المؤهلات الفطرية. لم أمنح جمالاً في الوجه، الصوت، اليد، ولم يكن أهلي عل مسكة من غنى، وليس لي من الدراسة إلا حظٌ ضئيل، وحسبي الناحل لا يكفل لي أن أعمل عملاً يحتاج إلى قوة العضل، والموهبة التي هي ملعنة ذهب لم تكن لي فني، وهكذا الفتي أمني. منذ ولادتي، في بحر متلاطم، مكتوفاً، عاجزاً، ورغبت أن أسبح. وأن أجتاز الضفة إلى المدى الذي يتناول إليه طموحها، لكن هذه الحقائق المشبّطة كلها، كانت واضحة، بارزة، مكتوفة لي تماماً، وعليّ، في شوط السباق، الشوط الذي يفرقه وجدان حي، الفتي أعزل، أن أركض وأن أخلق تنساقين بيني وبينهم، بحكم النشأة، الدراسة، العائلة، مسافت طويلة.

أفكاري هذه حاجتني تلك اللبلة التي مسحت أختي نفسها أن تصارحي فيها. كانت الفكرة ذنباً، تعوي، تكشر، نهجم. وكانت أفكاري ذاتاً نهائنة، تحيط بي من كل صوب، فاعرة الأنساق، بارزة النيوب، مسعورة النظرات، وبرغم مجهود مضني، متواصل، للفوز بأحد، اتخذت سراحاً في المواجهة، فإن الأبواب كانت مغلقة، والأرض التي أحفر فيها قنينة، لا ربي ولا ماء، ولم تكن لي قابلية لصنع أية تروامة تربط حلقتي الخائف، لشدة ما أعاني من تقاطعات الأسى الذي حيم عليّ، في وحشة ليلى الطويل ذلك. لقد بهظني طفولتي الشقية، وكان مقدراً لي، في معادى الألفية المتراصلة، أن أقضي، أن أضيق، لفرط ما كنت ناحلاً حساساً، لكن ذلك كله، لم يخل بيني وبين النشبت بالحياة، والكفاح لشئ طريقي الذي أدمى قدمي بأشواكه ولم يزل.

في العصر تبدّل حالي، ابتعد دماغي. انزاحت الصخرة عن صدري.

صار يوسعي أن أرتب أفكاري. أرى إليها عن بعد، أراها دون تظليل
 للكيل. أناقشها بحيدة. أصدر فيها حكماً غير جائر، غير منعطف، غير
 صادر عن ذهن خرب، مُنْظَل باليأس. السماء، فوق، انقضت. صارت
 النجوم المترافضة مرئية مني، وصارت أمي، أحل، وأشدَّ قرباً. السماء
 انشقت، بدت رحيمة، في مغارها ضوء، في بساتنها خضرة، في إطلالتها
 أنس، ولم تعد خيمة من شعر أسود. عادت زحاحية، حالية، وفي الرجاء
 المتصاعد إليها، أسقطت عليّ باقات زهر، ذات عطر ملون، زاه، فيه وحده
 وجدت العزاء والراحة.

وراح الليل، شيئاً فشيئاً، يتقلص. لم يتعد مهزوماً. كان هو نفسه
 يتراجع، محكوماً بولوج النهار فيه، والدنيا، من حولي، في ضراوة الصباح،
 تنضواً، والأشجار خلعت قبعاتها الضخمة، السوداء، وظهرت،
 بجذوعها، فروعها، أغصانها، كالأيدي الشحورة، المرفوعة إلى فوق، في
 ابتهالات صامتة، والبقطة تدب، باعثة الانتعاش في الأرض، هذه التي
 كان يجبل إليّ أنها تنفس، وأن لنفسها همماً، شدي، لونها فضياً، والريح
 الصباحية، المدفوعة بمراوح غير منظورة، تهب من كل الجهات، حاملة إليّ
 طمأنينة تسرب من فمي وأنفي وعيني، وتستقر بين ضلوعي، مرتبة تلك
 الحنايا التي كانت تحترق بوقدة هاجرة من الصحراء.

بعد ذلك أعلنت الجمال عن مقدمها برنين أجراسها. كان هذا الرنين،
 في تلك الأصباح، يأتي موسقاً، غيره في الأمسيات. كانت الرنة حاملة،
 ومن الرنات المتتابعة، المنغمة، تنطير الأسراب، نشطة مرحة، بهيجة،
 مؤذنة بمهرجان حافل، صاخب، لكائنات لا تعرف كيف تنبعث، لكنها،
 في لحظة، تتشكل وتنب، وتملأ الجو من حولي حياة حلوة، متحركة، متلونة،
 متكاثرة، متبدلة، تشدني إلى الاندغام فيها، ناسياً ما كان يعتلج في ذاتي
 من هموم. وكانت الطمأنينة تأتي هدية صباحية مفعمة بالسكينة، معلنة
 اختفاء الظلمة والأشباح والأوجس، ويأتي معها الشعور بالراحة،
 والرضى، وانتهاء نوبة الحراسة.

لقد كنت تلك الجمال، لا عا هي حيوانات اليفة، وخلقوات لطيفة، بل عا هي بشر يخلق جندي، وعقل رين أحاسيسها كنت أدخل حينها وأسلم لرفاد هي، عذب كالسحابة السابعة كنت، عذبة، أنطق حوحي، أنلذة تدافقها، وأهدأ، متصدداً على قراني، في شوق للنعماس الذي لا يلبث أن يقبل، ويطلق جمعي، ويسمسي إلى لذة النوم، كطفل أمضى ليلة في مذاكرة صعبة لدرس من دروس الحياة المعقدة تبعاتنا. كنت أمام يعمق، وسعادة، واسترخاء طفل، وبرائه أيضاً. وآخر ما أسمع، من العالم المحيط بي، رنين تلك الأجراس المعلقة، كفلادات، في رقاب الجمال التي تشرق، وتدور بالخليفة، وأسمع هسيس العشب وهي تقضمه بأسنانها، وتجمعه بشفاها المطبوطة، وتختره لتختره وهي ذاهبة آية بين المعصرة والبورة.

أفتت في الضحى. كانت الشمس تغسل الخيمة بشلال أشعتها. الظل مال إلى جانبها، فتعرض الجانب الذي أنام فيه إلى وقدة وهج كاوية. مسحت العرق عن وجهي، تمطيت، ذكرت ليلة أمس، عبت بعد إشرافه، تثبت أن أبقي حيث أنا، في خلوتي التي توفر لي جواً من العزلة ينح لي أن أستاذ التفكير يهدوء. غير أن الحر الشديد، وضرورة الخروج إلى العمل. وهمة البورة الكثيرة بوجود المطعون، كل ذلك دفعني إلى الشروع، فالاغتيال، وتناول كسرة خبز مع حببات من الزيتون، هي الآن، فطورنا وطعامنا اليومي.

كانت الشمس قد لغت جرة الماء، ولهذا عافته نفسي. وكان المطعون أمام خيمته، وراء طاولة خشبية متناورة الألواح، عليها أوراق مثقلة بحجارة كي لا تذروها الريح، والمطعون جالس يراجع حسابات الأسس، وعلى رأسه تلك القبعة البيضاء، المتسخة، من الفلين، وهو، بشكله غير المتوازي، بضدم الرؤية، ويبعث في النفس إحساساً بالكره والغثبان. صرت أنف من. نفوري كان نائماً لا صلح معه، وكان منطلقاً من شعوري بالفرف أن تجاور مخلوقاً مؤذياً. فقد تمادى في عدوانيته، تجاه الفلاحين،

وبلغني من أمي أنه منع عائلة الفلاح صخر من العمل في الكرم. كان ربها ما يزال سجيناً بسببه، والظاهر أنه لم يشفَ كما يجب، ولم يجعل حكمة اللوم فيه نهذاً؛ فحاول التحرش بالزوجة، وزعم أنه قادر، لو طاعته، أن يفرج عن زوجها، ومنها بعود كثيرة، ثم هذّدها، ولاحقها بالأذى، فلما امتنعت عليه طردها من الكرم.

هذه الأخبار عن إساءاته المتكررة، المتواترة، كانت تدعوني إلى المساواة عن صبر الفلاح، ومدى قدرته على الرضوخ، وتحمل الاهانات. وبعد طرد زوجة صخر، صرت على ما يشبه القناعة أن الفلاح في الريف مستلب، مستضعف، لا يرجى منه نفع. ذلك أن المطعون كان فرداً، صبيحة، كلمة تأنيب، شتيمة، لكن أحداً، سوانا، لم يوجه إليه إهانة، لم يردّ في وجهه، أو يوقفه عند حدّه، ولهذا فإنه تسلّط، حتى غدا في قسوته على البورة، يفوق قسوة الشواصي في القرية.

من جهتنا كُفّ عن التدخل في أمورنا. ابتعد عنا بما يكفي لكي نعيش في جواره ولا نكلّمه. الأخت كانت له بالمرصاد. وكان يخافها، الفلاحان على البورة نجّباناً كي لا يشيرا غضبه. الأم وحدها بقيت تحييه، برغم كل ما بذله من جهد لإقناعنا أنه لم يتسبّب في سجن الوالد، وأن وشايته كانت منصبة على الفلاحة بدور، لأنها سارقة. أنا كنت مكلفاً بنقل الزيتون الذي نجمعه إلى البورة، وكنت أستخدم، أول الأمر، الحصار الذي يملكه أحد الفلاحين، فاعزّ له ألا يسمح لي باستخدام حماره، وعندئذ أصبحت مضطراً إلى نقل الزيتون على ظهري. كنت أحمله من أقصى الكرم، وأنوء تحت ثقله، ثم صارت الأخت تساعدني، لكنني رفضت أن توصل أية كمية إلى البورة. كانت تحمل الكيس إلى مقربة منها، وأقوم بإيصاله إلى القبان، دون أن أنفّوه بكلمة واحدة. غدا الصراع بيننا صامتاً. كان صممتنا هذا بقتله، وكنا نتمسك به في مظهر للتحدّي السافر، وكان الجميع يلاحظون ذلك، وهذا ما يجعل هبة المطعون مثقوبة، معرضة للهزء، حتى بالنسبة لمصطو الجمال.

أخيراً ضاق ذرعاً بهذه المقاطعة. كنت قد أفطرت وخرجت متوجهاً إلى الكرم، حيث أهلي، وكان يراقبني ولا شك، بدليل أنه رفع رأسه وأنا أمرّ بطرف البورة، وناداني:

— هيه، أنت!

— ماذا تريد؟

— إذا كنت لا تستطيع السهر، فسأجد من يحرس البورة بدلاً عنك. إننا نعمل هنا ولا نهرُج.

— ومن قال لك إنني لا أستطيع السهر؟ ثم ماذا تعني بالتهريج؟ هل ما نهض به من عمل مُضِن يُعَدُّ تهريجاً؟

— بلغني أنك تنام. . أريد ناطوراً لا ينام.

— هذا كذب. . ما بلغك كذب. . وتستطيع التأكد بنفسك. .

— هل أنتم وحدكم الصادقون؟ اليس هذا عجباً؟

— لا صادق بيننا بوجودك. . أنت، بشخصك، عجيبة الدهر في الصدق!

صاح:

— اتسخر مني. . تعلمت لهجة أختك؟ تكلمني بهذه اللهجة وأنت أجبر عندي؟

— دع أختي جانباً. . قل ماذا تريد؟ أرى في وجهك شراً. . تريد أن تدبر لي مثلياً؟ في نيتك أن تبعث بي إلى السجن أيضاً؟ إنني ناطور، جامع زيتون، سقني ما شئت، ولكنني لست أجيراً عند أحد.

— أولاً أنا لم أبعث بأحد إلى السجن. . وثانياً لا أريد بك شراً. . قم بواجب الحراسة كما ينبغي.

— الخلاصة. . ما هدف الاتهام هذا؟

— لماذا لا نتكلم بهدوء؟

- تَهْمِي وتريدني هادنا؟
- أنا لا أتهمك، أنا، عدم المؤاخذه، أسالك..
- وأنا جاوبتك..
- الا تعرفون انني المسؤول هنا؟
- نعرف..
- ولماذا تشوقون علي؟
- ماذا تريد...؟ نركع لك؟
- أستغفر الله، ما أنا، عدم المؤاخذه، إلا عبد حقير..
- سخد قل هذا الغيري.
- وأنت؟
- أنا حارس على البوابة إلى أن يعود الوالد الذي سجنته..
- صاح وقد احتقت أوداجه:
- قلت لكم مرة مرة إنني لم أنسب في سجنه، فلماذا لا تصدقون؟
- نصدّق على طريقتنا..
- وطريقتكم أن تقاضعوني...
- لا شغل لنا معك..
- وحين أكون الوكيل على البوابة؟
- تصرف كوكيل ودعنا وشأننا.. أفلح عن هذا الكلام المردّد.. اليس
- عنلك غيره؟ وإذا لم يكن، فماذا تريد مني؟
- أريد أن تنضم.. نهي هذه القطيعة.. ندمنا لأجنتك أن تطامن
- غرورها.. أن تتخلّ عن شراستها.
- انضمهم عن مداد وهذه القطيعة ما سيبها أنا الله مسؤول عن أختي،

إنها راشدة وتعرف أن تتصرف ..

- أختك لا تريد أن تتصرف بعقل .. نظرتها إلي قاسية، تحمل تهديداً مبطناً، وقبلها والدك نظر إلي مثل هذه النظرة .. توعدني، كأنه يريد أن يقول في المدينة نتحاسب.

- إذا كان بينكما حساب فلا بد أن يُصَفَّى .. من عادة والدي أن يصفِّي حساباته مع الآخرين ..

- أنت لا تهتدي بدورك .. اليس كذلك؟

- أنا لا حساب لي معك .. أما والدي فشأنه شأن آخر .. أنت البادئ والبادئ أظلم .. تحمل نتيجة ما جئت بهاك ..

- تظنُّ هذا؟ أنت تعرف والدك جيداً، تحسب أنه ينتقم؟ أنا، عدم المؤاخذه، لا أريد الدخول في شارات مع ابن مدينتي .. نحن، عدم المؤاخذه، لن نؤبد في البورة، وحين نلتقي في المدينة يحسن أن نكون أصدقاء .. لتذكر الحبز والملح ..

- قل هذا لنفسك .. تذكر ما كان بيننا .. جثنا كأهل، ونحن، كما قلت عند وصولنا، أقرباء .. أما تذكرت كل ذلك حين سمعت إلى سجنه؟

ناح بصوت أراده صاخباً فحال جبهته دون ذلك:

- أتذكر كل شيء .. إنني لا أنسى شيئاً، أنا، عدم المؤاخذه، وجل ضئيل .. أقوم بواجب وكالتي .. دعوني وهؤلاء الفلاحين .. عشر سنوات وأنا وكبل، وقبل ذلك كنت في سلك الدرك، أفهم لغة هؤلاء الناس ..

- وما هي هذه اللغة؟

- العصا ..

- ألا تخشى أن ينتقموا منك؟ الظلم يولد الرغبة بالانتقام .. إذا جرت على الحبان صيرته شجاعاً، وهؤلاء الفلاحون ليسوا جبناء ..

— دعني منهم، دعني منهم.. أنا، عدم المؤاخذه، أعرف كيف أؤدّبهم..
أفعل ذلك ولا أبالي.. لا رأس بينهم يرتفع.. ما أحسب حسابه هو
والدك.. رماني بنظرة تهديد وهو يذهب مع الدرك.

— إن يكن قد هدّدك فسيبتّد تهديده.. بيت «ف» لا يستطيعون حمايتك..
والدي لا يعرف ما هو الخوف، كان بخاراً..

— من أجل ذلك أريد التحدّث مع والدتك، مع أختك، معك..
الأفضل أن ننهي هذه المقاطعة.. أن نعود أهلاً كما كنّا.. وأن يعرف
والدك أنّ ما جرى خطيئة وصارت.. وإذا كان الموسم، هذا العام، في
نهايته، فهناك مواسم أخرى، أنا، عدم المؤاخذه، لن أثقل عتكم.

— نحن الذين ستخلّي عنك.. طلوّعنا إلى الزيتون لن يتكرّر.. هذه
كانت سنة هجرة.. وكان ينبغي أن تقدّر ظروفنا، أن نقف معنا موقفاً
طيباً.. وعلى كلٍ دع الأشياء للمستقبل..

— لنحاول أن نصفّي ما بيننا لأجل المستقبل.. قل ذلك لامك.. قل لها
إنني نادم على ما فعلت.. سأعوض عن تقصيري حيالكم.. القبان
بيدي.. والبورة تحت تصرفي..

نظرت في وجهه الطافح، وجبينه المحدّب، في جسمه مختلّ التوازن،
في عينيه العكرتين، اللتين تطلّ منها نظرات ثعلبية، في كرشه وساقيه
القصيرتين، ورغبت في تعذيبه.. أنا لا أدري ما سوف يكون موقف والدي،
لكنّه أغلب الظنّ، لن ينسى ما فعله به.. إن دعوته التي تحمل المساومة لن
تفيده في شيء.. ما معنى قوله إنّ القبان في يدي؟ هل يحسب أننا نرضى
بزيادة بضعة كيلوات من الزيتون؟ قد تسامحه الأم، وقد أسامعه أنا، بل إنني
سامعته، أنا لا أستطيع أن أحمل حقداً، ولم يلحقني منه أذى، لكن موقف
والدي سيختلف.. فهو الذي تعذّب تحت سياط الدرك، وهو الذي دخل
السجن..

غادرت المطعون دون استجابة لدعوته إلى التفاهم.. أشحت بوجهي عنه

ومضيت، أسفاً أنني أضعت وقتي في سماع ثرثرته عن الطيبة والمصالحة. قلت في نفسي: «ليذهب إلى الجحيم». والذي قد لا يكتسب به، إنه سيحقد، إذا حقد، على أسباده، لكنه، هو، غير جدير بالخصام، إنه عبد مثل والد رثيفة، مثل كل هؤلاء المرتزقة الذين يحرقون البخور، دون جزاء أو فائدة.

مضيت عبر الكرم إلى كتف الوادي. أعرف أن رثيفة تنتظرني هناك. تجمع الزيتون في هذه البقعة، وسأبشر لها بعض الزيتونات وتحدث. أختي، أمس، شوّهت صورتها في نظري. والدها، في كليته، في عبوديته، أقام حاجزاً بيننا، لكن وضعي، في هذا الفقر، وهذا البساطة القصير، وهذه الحياة الملعونة، هي الحاجز الأكبر. لم يسبق لي أن أحببت، لكنني انتهيت، ليلة أمس، إلى أن الحب لم يخلق لأمثالي. قد يكون هذا حكماً غادعاً، تنقصه الموضوعية، يخلط بين العاطفة والواقع، لكنني، أنا، لا أستطيع، في مثل حالي، أن أنقبّل عاطفة هي بمثابة الصدقة. رثيفة تحتاج إلى رجل، إلى زوج، إلى حياة عائلية، ومن الخير لي، ولها أيضاً، أن يبتعد أحداً عن الآخر، أن ينسى، وأن يفكر باللحمة وحدها.

حين رأني قادماً ابتسمت. توقفت عن العمل وابتسمت. كانت طفلة حقيقية، برغم نضج أنوثتها، وكان يمكن، لو كان آخر في مكاني، أن ينتقل بعلاقته معها خطوة إلى أمام. أن يقيم علاقة على أساس غريزي بحث. أن يختلي بها، يقبلها، يضمها، يلهو بها، لكنني، أنا، لن أقدم على ذلك أبداً. محال أن أتخذ منها أھية. لست راهباً، وأتحرّق شوقاً إليها، وفي الليالي، سواء على البورة، أو في الفراش، تهاجمني أحلام حمقاء، جسمها ميدانها، لكنني، في النهار، أزجر نفسي، أردعها أن نسيء إلى البراءة ولربلمسة أنكرها في مثل وضعي، لأنني، بمثابة لا أقوى على التخلص منها، أنكر الحب الذي ليس له سند سوى عاطفة مراھقة.

صاحت وقد اقتربت منها:

- جئت أخيراً؟ حسبتك لن تأتي.. لم تكن، مساء أمس، مسروراً بالحديث مع والدي.
- كيف عرفت؟
- كنت أراقبك..
- ليس كما تقولين تماماً.. كل ما في الأمر أن عقليّتي تختلف.. نحن جيل جديد..
- والدي لا يستطيع أن يسمع حديثاً ضد الأسياد.
- والدك، كيف أقول؟ لا بأس.. والدك لا يعجبني، وهذا كل ما في الأمر..
- زعلت منه؟
- ويعد وقفة:
- وهل تزعل مني أيضاً؟
- لن أزعل منه ولا منك.. أفهم وضعه وأعذره.. هذه هي نتيجة الجهل.. لو ذهب إلى المدرسة.
- قاطعتني:
- أليس هذا من الوفاء؟
- الوفاء لمن؟
- لمن نعمل عندهم، للذين هم أولياء نعمتنا..
- الوفاء جزاء الاحسان.. بماذا أحسن إلينا هؤلاء الأسياد؟
- ألا نأكل من خبزهم؟
- وتعبنا؟ هذا الشقاء الذي نلقاه هنا، ويلقاه مثلنا الذين يعملون في المعصرة، وفي الزراعة؟ تحسبون أن الأجر الذي نتقاضاه هو كل حقنا؟ الأسياد يستثمروننا..

- أنا لا أفهم، لا أريد أن أفهم .. نحن نعيش والسلام ..
- أنا لا أستطيع أن أعيش كيفما اتفق .. أريد حياة عادلة.
- إذن لن نتفق مع والذي.
- لن نتفق أبداً، وليس ذلك لأنه راضٍ بعيشه، بل لأنه، وهذا ما
- أثارتني، يعتبر كلب الخواجه خواجه .. يضع نفسه في هذا المقام الدليل.
- أنت لن تشتمه أمامي أليس كذلك؟
- لا .. الشتائم لا تفيد ..
- ومستحبي؟
- لا أدري . أنت عزيزة عندي، غالية علي ..
- ألسنت حبيبتك؟
- لا .. لست حبيبتي .. وهذا لمصلحتك ..
- كيف .. لا تحبني ثم تقول هذا لمصلحتي؟
- فقير مثلي لم يخلق للحب ..
- ألا يحب الفقراء؟
- بل! ولكن ما هي نتيجة حبهم؟ ماذا أستطيع أن أفعل وأنا أبحث عن
- كسرة الخبز؟
- أنت اليوم غيرك بالأمس ..
- ذلك أنني فكرت .. الليلة الماضية قضيتها ساهراً مفكراً إلى الفجر ..
- لهذا لم تأت ليلاً كماداتك؟
- نعم .. ولن آتي أبداً ..
- ما هذا الذي أسمع .. هل أسأت إليك بشيء؟
- أبداً .. أنا الذي أسأت إلى نفسي .. سمحت لها أن تنسى الواقع الذي
- نعيش فيه ..

— أنا لا أصدق أنك يمكن أن تنساني بهذه السرعة. . أن تفتح عيني وتدير ظهرك. . تجعلني أتعلم بك وتقاطعني.

— وإذا كان هذا ما يجب؟

— أنا أيضاً أعرف ما يجب. . لماذا تحتكر الفهم وحدك؟

— لا احتكر أي شيء، ولكنني أحكم ضميري. . أنت فقيرة مثلي، بحاجة إلى رجل، إلى زوج، وأنا لست ذلك الرجل، ولن أكون لك زوجاً. . ألا ترين بأي حال أنا؟

— وإذا كنت أقبلك كما أنت. . وكنت أحبك؟ لقد أحبيتك منذ رأيتك. . شعرت حيالك بعاطفة قوية، غريبة.

— وأنا أحبيتك. . أكون كاذباً لو أنكرت، ولكن لا بد من التضحية. . سنتقضي أيام أخرى وينتهي موسم الزيتون. . في المدينة لن يرى أحدنا الآخر. . لا أعرف ما ستكون عليه حالي، قد لا أجد شغلاً، وقد تسوء حالي أكثر مما هي سيئة. . فماذا نصنع بحبنا عندئذ؟

— حين يحدث كل ذلك نفترق. .

— سيكون الفراق، بعد الاستمرار في الحب، صعباً. . علينا أن نفترق منذ الآن، هذا هو قراري. .

— علم أهلك بما بيننا؟

— أختي لاحظت فقط. .

— وهي التي طلبت منك اتخاذ هذا الموقف؟

— أختي لا تتدخل في شؤني. . قد يكون لها رأي. لكن رأيها غير ملزم لي بشيء. . لم أعد طفلاً. .

— ولكنك لست رجلاً ناضجاً. . هذا هو السبب في أنك تفكر على هذا النحو. .

— حتى لو كنت رجلاً، وناضجاً، كنت سأأخذ هذا القرار. لا أريد أن أهو بك وأتركك. .

- وإذا أردت ذلك أنا؟
- تريد أن أهلك؟
- أريد أن تحبني، وأن تستمر في المجيء إلينا كي أراك..
- وما فائدة الرؤية؟
- وماذا بفعل الحبيبان سوى أن يرى أحدهما الآخر؟ ألا تشفق إلي إذا غبت عنك؟
- أشفق.. أريد أن أراك كل يوم، كل ساعة، ولكن ما هو مصير كل ذلك إذا كنا ستفترق بعد أيام؟
- وإذا رضيت أن تراني حتى نفترق؟
- لا أستطيع.. سأتعذب.. أنت لا تريدني أن أتعذب..
- وأنت، لماذا تريد تعذبي؟ أليس أنا في هذا الموقف؟
- ربما، إنني لا أقتنع بأوساط الأمور.. أن أحبك يعني أن أحبك بجنون.. أن تصبحي كلك لي..
- وأنا كلي لك.. افعل بي ما تشاء.. لكن لا تتركني..

قالت لها بنبرة رجاء حار. هذه الخوخة السمراء، الناضجة، تريد أن تسقط بين يدي، بل إنها، الآن، بين يدي، لكن ماذا أفعل بها؟ وماذا أريد منها؟ ترى، لو كانت هي صاحبة فكرة المقاطعة، أما كان موقفني قابلاً لأن يكون كموقفها؟ قالت عني «أناني»، ومن يجزم أنني لست كذلك؟.. الانانية، هذه القرحة، كم أتلذذ الآن بحكها على هذا النحو المغيب.. ترغب وأنا أرفض. تطلب أن أبقي إلى جانبها، وأهددها بالمقاطعة. ترى، أستطيع مقاطعتها فعلاً؟ هل الذي في مثل حالي لا يجب؟ وهل هذا هو السبب في أن اختي لا تحب؟ إذا كان ذلك كذلك، وهو كائن، فعلياً أن أقتدي بأختي. وأن أوفر على نفسي عذابها، وأوفر على رفيقة أن أخدعها بشكل لا يليق بفتى يحمل أفكاراً نبيلة، أو أنه يزعم ذلك.

وقفنا حائرين. بكت رفيقة. بكاءها ألغى. تقدمت منها. تطلعت حولي.

لم يكن ثمة أحد، كان الكريم، في البقعة التي نحن فيها، خالياً. تناولت يدها. أعطاني يدها بغير تمنع. شددتها إلى صدري، فاستجابت، لم تقاوم. كانت تنتظر ذلك. ربما كانت تنتظره منذ النعينا. ضمتها. قبلتها، كانت قبلي الأولى. أم. آية لذة غريبة في مذاق النعم. عمليّة الشفاء، والرضاب، ورائحة المسك، والشعور بأن دنيا جديدة، لذيدة، سعيدة، تفتح للإنسان، كل ذلك، أعطاني إحساساً رائعاً لم أعرفه قبل الآن. ملازمة اليد استثنائي، تصاعدت الاستشارة مع تلاصق الجسدين، تصاعدت أكثر مع تلامس الشفتين، تفتح الذكوري في الجسم، تفتحت الأنثى، صار، الآن ما بيننا، حباً من نوع آخر، غريزياً، شهوانياً، ماذياً، لا يقيم وزناً لكلّ التحسّسات عن الفقر، والؤس، والزواج، إنه اللحظة المجنونة، المسعورة، الملتهبة كنار تحرق التصوّرات عن كل ما عداها.

ارتدّدت عنها ونظرت في عينيها، يا إلهي! ماذا جرى لعينيها؟ من أين هذا الاحمرار وهذا اللسعان؟ لماذا ترقق ماء زجاجي فيها؟ من أشعل البؤبؤين فتلطّبا كان فيهما جرأاً آية خيالات من عالم الشوق، والرغبة، والسنداء الجسدي، تفتحت وأزهرت في بياض الفلّتين؟ والرجفة في الشفاطع، والارتعاش، كما عند مسّ الكهرياء، ورائحة الأنوثة، وأشباه تحسّ ولا تقال، لا توصف، كأنما تبدّل كل شيء في لحظة عاصفة، كما في الطبيعة حين يهبّ إعصار ويلفّ الكائنات بريح هوجاء، كاسحة، عظيمة، نائرة إلى أبعد حدود الثورة. عدت إلى ضمتها، استجابت بغير كلام، همس خفيف فقط، نأوه كأن الروح تفارق البدن، اشتعال غداً معه الجسد حاراً كأن ناراً أضرمت فيه من الداخل. لم تكن لديّ مرآة. وما كنت أفكر فيها، ففي عيني رقيقة رأيت نفسي، وكنت على مثل حافها حرارة واستجابة الآن، في هذه اللحظة، تدفّقت الموجة البكر وأنت نفسها على الصخر. ارتطمت، علا الرذاذ الأزرق. هبّست حصى، أطارت الريح الرمل، جنّ الشاطئ، السماء شفت، ظهرت رؤى، حدثت معجزة، صار كل شيء واضحاً، ودونما تجربة، كنت قادراً، وراغباً، أن أقبلها حتى الارتواء.

الفصل أحداً عن الآخر. ومن جديد نادى أحداً الآخر. يا لغربة
التحيرة! أحداً ما يحدث بين شابين؟ هل هذا ما يقال له حب؟ نحن
كاسيان عازيان. في ضوء النهار، في البرية المسحورة، بين الأشجار التي
رأت وشهدت، فوق أرض لم تعد أرضاً. صارت عوسجة. ثقت سماء
فاغرة الغم، تخلق مسهرة إلى لعبة معدية. أيتها السماء! يا منبسطاً أزرق،
مدني يديك وارفعي إليك. اخطفينا في سحبك، انزعجي أقدامنا من التربة،
خذينا إليك، غيبنا في مغارتك النورانية، احجبينا عن الأنظار ببلورك
الشفاف، دعينا نحن، في إغواء ندخلها مرة وإلى الأبد.

السماء لم تجب. السماء لا تجيب. ترصد، تراقب، تنصت. أما أنا فكانت
أرتطم. أنفقت خائفاً، أراقب الجهات الأربع مدعوراً، عقلي يقول: كفى!
جسدي بعضى عقلي، غريزي المنبسط لا تلوي على شيء مما ينذر به
صميري، الشعة وحدها سيده الموقف، الشعة في أقصى انفجارها، في مدى
اندفاعها، في رغبتها البهيمية لأن تندحرج كموجة تحطم، في انقذافها
نحو الشاطئ، حيث الارتطام والغناء، حيث التحول الذي يحدث إثر
تلاقي غيمتين، منها يتقدح الشرور ويحدث البرق.

زاد في شعير الموقف أن رغبة لا تقاوم. فقدت كل طاقة للمقاومة.
صارت عجيبة مطوعة. لم تقل قبلي، لكن النداء إلى التنبيل، كان يصرخ
من مسامها. وكان علي، أنا المصاب بكلية اللذة، أن أمتنع عن السفر
المحسوم في طلاها، أو أوقف اندفاعي نحوها، أن أقول لها، مع قبلة على
الحذر، يكفي الآن يا رثيفة، لقد ذهبنا بعيداً. لكنني، بدلاً من ذلك،
تابعت عنافي لها. جلسنا. التوت رقبتهما. ما عادت فقرات متماسكة.
التحلت الفقرات. بقي اللحم وحده يمسك العنق. قبلت العنق، قبلته،
ويعد لأي استطاعت أن تقول:

— لماذا فعلت ذلك؟

— لا أدري..

— ألا تظن أنه كان يجب ألا نفعل ما فعلنا؟

- ما فعلناه كان بريئاً، كانت قبلات بريئة.
- مع ذلك، ما كان يجب..
- نعم يا رقيقة، ما كان يجب، لكنّ الشوق، الرغبة، اندفاع الشباب، كانت أقوى منا.. لا تندمي..
- أنا لا أندم.. لست نادمة.. ولكن ما يعزني أنك قبلتني وأنت تتذربي بالهجران..

وبعد لحظة صمت سألت:

- هلستهجرتي فعلاً؟
- أيرضيك أن يتكرّر ما فعلنا.. وأنت تعلمين أنّه لن يكون لعلاقتنا أيّما مستقبل؟

- وأنت، أيرضيك، بعد العناق الذي جرى اليوم، أن تتركيني؟
- وماذا أفعل؟ أنظري! طريقتنا مسدود.. لا إمكانية لديّ، ما أنا إلا فتى مراهق، اندفعت مع عاطفتي.

- أنت إذن لا تحبّني؟
- أنا أحبّك. قلت لك ذلك كثيراً، ولكن ما جدوى الحب، إذا كان كلانا معكوماً بوضعه؟

- وضعي طبيعي. أنا أحبّك وأريدك.. سأنتظرك ما شئت من السنوات..

- لا تنتظري يا رقيقة.. مستقبلي غير مضمون.. أنت بحاجة إلى زوج..
- ولماذا أحببتني؟ إذا كنت لا تريدني فلماذا أغريتني بحبك؟ هل كنت استحقّ هذه المعاملة منك؟

ألقيت في حضنها نيرة مطالبة. صار لها عليّ حق. أحببتها، فهي إذن تطالب بديومة الحب. حين كانت العلاقة، في حدود الكلام، ما كانت ترتب عليّ واجباً. ربّما، هي نفسها، في ذلك الكلام المتبادل، لم نجد ما نرتبه. الآن اختلف الوضع. أصبح من حقها، بعد أن تجاوزنا الكلمات

إلى القبل، أن تطالب بالاستمرار. لقد ذاقنا حلاوة القبل، وظنني أنها تمسك بها، وترغب في معاودتها. كل شيء واضح إذن. ما يحدث بين كل حبيبين، يحدث بيننا، لكنني، أنا، لا أريد. أشعر بالتبعة، أحمد الله أن علاقتنا في المرحلة الوردية بعد، غير أنني، بعدها، لا أريد التقدم خطوة واحدة.

أعلنت أنني منصرف. كان انصرافي كبيراً قياساً إلى صغيري. إنني لن أنسى حبها، سخاءها، منحتها، التي تشبه منحة أميرة مترفة، ومن المؤكد أنني، مثلها، أريد أن تدوم هذه العلاقة، بيد أن وضعي لا يسمح بالاستمرار. القطيعة تكون الآن أو لا تكون. هي مقيمة وأنا مقيم، وحبل السرة الذي يربط بيننا سيلتفت أكثر فأكثر إن نحن تمادينا. ليست فكرة الزواج هي الرابط، نستطيع أن نضعها في خلفية الأشياء، ما هو مطلب أن يبقى الوعد، وفي هذا الإطار تقوم علاقات كثيرة، طبيعية، لا يعترضها إثم، ولا خوف، لولا أن مثالي، في عدم خدع الآخرين، وعدم اللجوء بهم، تنقضاني احتراماً أوفر لذاتي. لا أحد يعرف بقصتنا حتى الآن، وأختي تحسب أن الرابط لا يتخطى الألفاظ، وفي هذه البرية، ظل لقائنا مستوراً، لكن النار الصغيرة التي نوقدها سينساعد منها دخان، وقطعة النذ ستكون لها رائحة.

قلت لرقيقة وقد صحَّ عزمي على الفراق:

- هذه آخر مرة نلتقي فيها.
- لماذا؟ ألم أكن طيبة معك؟
- كنت طيبة جداً، وهذا بالذات ما يدفعني إلى ردِّ كلامك السيء عنك.
- ومن سيقول علينا؟ نحن هنا في عزلة عن الناس..
- لكننا لسنا في عزلة عن ضميرنا.
- أنا ضميري مرتاح. لم أترف إثماً معك.
- هذا صحيح، ولكن لنحكّم عقلنا.
- عقلنا؟ نحكم عقلنا. ألسنا واثقاً من أنفسنا؟

- يا ابن آدم، هل تعلم لماذا سمعنا في غروب الشمس
 - صوتي يا ابن آدم، سمعنا صوتي
 - نحن أمام المذ الآن...
 - ليس بعد... إلا إذا كنت تريد أن تهرب مني...
 - فكري الأمر كما تعلم لك...
 - موقفك هذا هرب من إنسان لم تسق إليه...
 - ولا أنا أسأت إليها...
 - إذن ما هو مبرر خوفك؟
 - كما لا تعلم...

رازني بعينين شع فيها الاتهام قبل أن تلتفت به:
 - أنت صفت... صرح ما كنت تعلمني في لومتي
 - فقلت لك يا ابن آدم، سمعنا صوتي
 - من الارتباط، من فكرة الزواج، اعترف، وسأقطع علاقتي بك...
 - أنا لا أرى سبيلًا إلى الخطوة أو الزواج
 - لا أقول ذلك من قلبك...
 - يا ابن آدم، أنت تعلم...

- وما نفع القسم؟ دعني إذا أردت. أعطني هذه القطعة... ولكن لا
 - تخبر أحداً إلا أنني سمعته لما علمت ذلك. يا ابن آدم، سمعنا صوتي
 - ليس الطريق ما كنت تعلم... لكن لا بأس أن أسمعك ليس تصبرك في
 - بيت وتعلم حبه.

قالوا وحدهم: إلهي بهذا واستند. سمعنا صوتك يا ابن آدم، سمعنا صوتك
 - سمعنا صوتك لا طاقة لي على مبارحته، كان واضحاً أن رغبة اعترافي...
 - سمعنا صوتك. هي التي فلتت حجابها فارتدت في قلبها صرخة...
 - أيتها ابن آدم، كل شيء في الإجابة في عاتقها يتغير حرجة
 - سمعنا صوتك في رغبة. فلتها صرخة، لا ردة فعلها من أن يكون لها
 - صوت صرخة بعد أن لم يسمعها في رغبة. سمعنا صوتك في حرجة...

وحداني ، عن كثرة حيلتي ، برحمتي في تلك المشيعة ، اسرج لمسي ،
أمنه ، التي لها الشدة ، حتى أظف من شعير خياط ، من تكبد
نفس في لومة جف أو يسر لي أن مررت بها

مررت على غير حدي بين الشجر الزيتون ، التي لها ربحاً وريحاً في الله
كنت سعيداً بغيري التي لم أحس ، لم تكن حاد ، من تلك الأولى التي أراح
يا في السند ، كان الرأس ، أجدل الأجزاء ، ملاهي ، وقد كانت إجازة
ووجدت الأمان ، كسر حدي ، من الشجر

وإذا ما كان يا سحر الأمان ، وإذا ما يظن العظمة ، وإذا ما يظن التي
أمنها بغير ما في ردي من طاقه من الحث

أو أخرى من الحث ، كان الحث ، من حث ، فصل من الحث
أمن بها معاً معاً ، التي كانت أريج نالته ، وأمنها من حث
وغيره كمنه بغير حث ، وأمن بها من الحث في الحث
والحث والحد

الذهاب بعيداً يحتاج إلى المسافة نفسها في الرجوع. لذلك لم أتناول
 تكون مسافة الذهاب بعيدة، كيلا أحتاج إلى مثلها في الإياب. ورغم أن
 حتى لم يكن إلا وليداً، فقد تجلّز في دالي، وحسنت أن أمضي فيه، فصبح
 الكوكب صعباً مثل ما هو النحل. لمعت، طوان حبابي، أن أكون منطقياً
 مع نفسي، وأنا أحسبها فقط. ولقد كنتي ذراعي رقيقة ألماً مبهطاً، وعتاً،
 وصراعاً داخلية، إلا أن كل ذلك تفلتته في سبيل ألا أكون مدلاً، أحالف
 منطقي، وأحسب النصف الموضوع في. ومع أنه ليس لائقاً، سألان ذي حشر
 سليم، أن يشرح في أمر ويرتد عنه. فإن عاكسة وجدانية صعبة تعرّضت
 لها، وكان تداعي أن الحب، حين يأتي، يكون قدراً، وحين يعب، ونعرف
 أنه عت، يصبح الفضل ضد هذا الحب، قضية شرف، من لا يريد أن
 يخدع الآخر.

هذا كان عزائي في الغراق الذي فرصته على نفسي. وربما كان عزاء
 كادياً، لكنني فسكت به، ورفعت الشاك عنه إلى مرتبة الكرامة. كنت إذ
 ذلك، أبحث، في فيما نصرفت، عن الصوابية التي تريح الضمير. وهذه
 المثالية التي نزع من السماء، مردها إلى تربية أخلاقية صارمة كانت دائماً
 تعصبي من الإمعان في الخطأ، مع اعترافي أن الحب، في أي نوع منه،
 ليس خطأ، ولكن نخب الأحرار معاً التورط في شأله، نتيجة الضدم،
 كان وما يزال، شعاراً أخلاقياً بالنسبة إلى.

لَمْ أَقُلْ لِأَخِي أَنِّي أَعِيتُ. وَلَمْ أَسِيرْ بِكَلِمَةٍ عَنْ قَطْعِ حَبْلٍ هَذَا الْخَبْرَ.
شَوَدْتُ قَلْبِي كَلِمَتِ دَائِي سِرّاً شَحِصاً لِحِفَاظِ عِلْمِهِ حِفَاظِي عَلَى شَيْءٍ
مَعْتَقِ. رَغِصْتُ، بِأَعْيُونِي، أَنْ أَقُولَ مَا بَيْنَ، حِينَ لَا حِفَاظَ لِعَلِّي أَنِّي أَعْلَى
أُزِمَةُ مَتَأَمَّرَ. حَفَّ أَكْفِي، طَالَ سَهْلِي، ثَلُثَ سَبْعِينَ عِلَّ بَعْسِي، بِأَنَّ
الْقُرْبُودَ عِلَّ، عَصَبَتِ عَنِ التَّرَكُّبِ، وَكَلِمَتِ تَوْبَةٍ تَسْبِيَةِ تَوَدِّي بِنِ الْإِ
الْأَهْلِي، لَوْلَا أَنِّي بَلَّغْتُ الْكَثِيرَ مِنَ التَّجَهُّدِ لِلْحِفَاظِ عَلَى رِجْلَةِ الْخَلْقِ.

أَسْعَى مَا فِي الْأَمْرِ أَنْ رَيْبُهُ لَمْ تَسْأَلْ فِيهَا لَمْ تَطْلُبْ تَقْبِي بِهِ مِنْ قَطِيعَةٍ
لَمْ تَزِمِ بَدَنَكَ. وَلَمْ تَحْدِ لَهُ مَسَوَماً. عَرِثَ الْأَمْرُ كُلَّهُ إِلَى الْخَدَاعِ، وَرَدَّكَ إِنْ
الرَّغْبَةَ فِي التَّنْصُرِ، جَاحِلَتْ كَسْرَ قَوَارِي فِي إِبَاهِ مَا بَيْنَا، لَكُنَّهَا أَصْطَفَتِ
مَعَادِي الَّذِي أُنْكَرْتَهُ. حَتَّى يَمُتْ مِنْ عِنْدِهَا أَرْمَنِي بِالْخُشْيَةِ تَعَمَّلَتْ تَلَّ
بَلَّتْ عَصِيرَ سَالَتْ لَمْ أَنْ يَأْخُذَ بِيَدِي فَلَا أَعُودُ غِيَا أَصْرَمْتُ، أَسْتَقْرَتْ كَلَّ
إِرَاسِي تِلْكَ لَا أَعُودُ عَنْ قَرَارِي. لَكِنْ رَوِيَّةُ رَيْبُهُ، وَبَلَّتْ الْأَصْطِرَابَ الْوَحْشِيَّ
فِي تَوَاسِي التَّسْبِيَةِ، وَذَكَرَى مَا جَرَى بَيْنَا، فِي صُورَتِهِ الْأَشَدَّ إِثْرَةَ لِلرَّغْبَةِ فِي
الْإِسْتِثْنَاءِ. حَرَمَنِي الْخُدُودُ حَتَّى مَهَابَةِ التَّوَسُّمِ، حِينَ حَيَاةُ التَّرَاقِي وَاقِعاً لَا
حِيلَةَ فِيهِ.

سَقَطَتْ رَيْبُهُ طَرِيقَةَ الْفَرَّاشِ، جَهْلٌ وَالِدَهَا مَا بَيْنَا، وَكَانَتْ، فِي مَرَضِيهَا،
حَاجَةً إِلَى، وَرَدَّ فِي عَذَابِهَا أَنَّهُ لَا تَسْتَطِيعُ أَنْ تَكْتَبَ، وَلَا تَحْدِ مِنْ يَحْمِلُ إِلَى
رِسَالَتِهَا لَمْ تَكُنْتُ، فَمَا كَانَ مِنْهَا إِلَّا الْبَهْرُضُ، مَتَحَامِلَةً عَلَى نَفْسِهَا، فِي
مَحَاوِلَاتٍ مَتَكْرَرَةٍ لِلْفَقْدِ، أَنَاءَ مَرُورِي عَنْ مَقَرَّةٍ مِنَ الْقَعَةِ الَّتِي يَتَلَسَّمُونَ
بِهِ.

وَكُنْتُ حَلَالُ الْفَقْدِ لَطِيفاً، شَبِيقاً، مَعَذِباً مَا لَا يَقِلُّ عَنْ عَذَابِهَا، غَيْرَ أَنْ
التَّنَبُّهُ تَوَقُّفِي عَلَى كُلِّ إِمْكَالِيَّةٍ لِلْعُودَةِ إِلَى مَا كُنَّا فِيهِ، لَمْ تَنْفَعْنِي دَمُوعَهَا.
وَفِي دَائِي، كَبِيتُ مِثْلَهَا، وَلَمْ تَنْفَعْنِي دَمُوعِي أَبْصَافاً، وَادْرَكَتْ، لِأَوَّلِ مَرَّةٍ فِي
حَيَاتِي، قُوَّةُ الْخَبَرِ وَجِيرُونِهِ، وَصُعُوبَةُ أَنْ نَحْنُ الْفَقْدُ، فِي بَيْتِهِ لِلْإِرْتِفَاعِ عَلَى
الشَّدَّةِ بِالْإِسْتِمَاعِ، وَلَمْ أَهْشَ، مَرْمَعاً أَبَدًا أَنْ أَكُونَ مَا أُرِيدُ أَنْ أَكُونَهُ، الْفَنَى
الَّذِي يَرِيدُ أَنْ يَأْخُذَ الْأَمْرَ كُلَّهُ لِحَسَابِهِ، لِقَضَائِهِ أَنْ هَذَا مَا يَجِبُ، بِغَيْبَةِ إِنْهَاءِ

وضع شاذ، هو الاسترسال في عاطفة لن تورق ولن تثمر. كنت أقول في نفسي: «أن تعرض رثينة قلباً، خير من أن تعرض طويلاً، أن تعاني في سبيل الشفاء، أفضل من أن تعاني والعلّة تنشب أنيابها فيها، العلّة التي ستكون رهبة قاسية إذا خدعتها واستفاقت يوماً على الخدعة، لكنها، هي، ما كانت من رأيي. فكرة الحبّ الذي ينتهي بزواج لم تكن فكرتها، أو أنها أقلعت عنها منذ شرحت لها وضعي، لكنها كانت رغبة في الاستمرار في علاقة الحب، وتؤثر الوهم على الواقع، واندفاعتها القلبية، وهي في أوج تنفّسها، كانت ناراً تحرقها، وتريد إطفاءها بأيّ ثمن. كانت تعتقد أنه لا شفاء لها من حبّها. وتعتبرني قاتلها. ومن أجل ذلك جرّبت أن تحفّد عليّ، لكن حقدّها كان يتلاشى ما إن ترائي، وينقلب كل شيء، إلى اشتهاى جامع في لقاء مبهيا كان مؤقتاً، وخادعاً، فهو وحده القادر على ردّها إلى العافية. كانت، من هذه الناحية، أكثر صدقاً مع نفسها، أشدّ إخلاصاً لطبيعتها، في حين كنت أصطنع الأشياء عن طريق الزجر، وأكبت ما في نفسي كبت من يريد تطويع عاطفته لمتنضي العقل لا القلب.

— أنت، قالت لي في آخر لقاء بيننا، لا قلب لك.

— وما هو دليلك؟

— هذا الجحود الذي ما كنت أنصوّره فيك. لقد خدعني بكل كلمة قلتها عن الحبّ.

— ساعك الله.

— أهذا جوابك كلّهُ؟

— وماذا تريدني أن أقول؟ أنا عاق في الحقيقة، وعقوبي مانع عن صحوة ضميري.

— أنت لا ضمير لك..

— لا باليس.. المتصني ما دام هذا يريحك قليلاً

— أنت كاذب في أحوالك الشفقة عليّ.. دع هذه الشفقة التي لا أحتاجها.

— لا أذهي شفقة على أحد.. وأنا لست أشفق على المتصني..

- لا تشفق حتى على نفسك .. أنت غرود ..
- أهذا جزاء حرصي عليك؟
- حرصك عليّ مِمّ؟
- من حبي الذي لا مستقبل له.
- وهل كنت تلهو؟
- ما دمت لا أستطيع أن أكون رجلك، إذ ليس ثمة أمل في الزواج، فإن علاقتنا تصبح ضرباً من اللهو.
- كان يجب أن تفكر بهذا قبل أن تبدأ ..
- أن نرجع ونحن في أوّل الطريق أفضل من أن نصبح في منتصفه أو نهايته.
- أنا لم أطلبك بالزواج يوماً ..
- وماذا تريدن إذن؟
- أنت تكون غير ما أنت عليه، أن يكون لك قلب ..
- لو تعلمين يا رقيقة كم أتعذب!
- أنت لا تعرف العذاب .. إنني أكرهك ..
- لكنك ستذكريني بالخير في المستقبل.
- سألعنك كلّ حياتي ..
- وهل أستحق اللعنة لأنني كنت مستقيماً؟
- لا نتحدّث عن الاستقامة أو الشرف .. أنت لا تعرفها، ولو كنت أعرف طريقة لقتلك لقتلك لقتلك ..
- أنت ناثرة، وثورتك سببها المرض .. سيزول هذا كلّه عندما تشفين.
- ليتني لا أشفي ..
- لم كل هذا؟ ماذا جئيت؟
- أطعمتني بحبك ثمّ انسحبت ..
- على كل، أنا لم أقطع التزاماً على نفسي .. أنت التي بدأت ..
- وماذا يعني أنني بدأت؟ .. المهّم من يبدأ؟ لماذا استجبت أنت؟

- أخطأت ..
- أهذا كل ما عندك لتقوله؟
- هذا كل ما لدي في الوقت الحاضر.
- وتشكلتم بكل هذه البرودة .. أمام اضطرابي تبدو هادئاً كأن شيئاً لم يكن ..
- بارتيفه .. يا عزيزي .. قلت لك إن استمرارنا سيكون وبالاً عليك ..
- ناد .. لا تفكرين بعشك؟ ماذا تستطيع وأن لا أمدت شيئاً .. لا أملك حتى بنظراً طويلاً، ماذا أستطيع من أجلك؟
- أنا راضية بك هكذا ..
- أنا لا أرضى .. إنني أموت خجلاً .. لا تكهيني على شيء يزيد في عذابي ..
- لو كنت قادراً على العذاب كنت تشعر بعذابي ..
- كيف أشرح لك ما بي؟ كيف أفعلك أنني أتعذب أكثر منك .. وأن هذا الفرق مؤلم جداً .. ولكن ستمر ما هو مؤلم ستمر ما هو ضروري .. فكري أنت ..
- أنا فكرت .. منذ غادرتني الأخيرة وأنا أفكر .. لم أجد شيئاً هذا موى منك .. أنت ملئتني بسرعة .. لو شععت عنك لتعلمت بي .. لكنني أحسك .. أردت بكل قوتي .. من كل نفسي .. فكن حراشي منك هذا العقوق ..
- لست إذن هذا الحديث .. لن نواصل إلى شيء .. أنا أحبك .. أحبك أكثر مما تحبني .. لكن حتى بدعني إلى التضحية .. وأنا أصغي .. وأترك للمستقبل أن تقدرني تضحيتي .. وداعاً ..

قلت ذلك وسرت .. فزقتها سروراً حيث هي ومضت .. لعنت نفسي أنني لم أكن .. كان يجب أن أفكر قبل أن أبدأ .. كان يجب ألا أغتر ذلك لعباً .. المرأة لا تلعب معها .. هذا أن تظهر مخلص حتى يتركها هذا عشك حتى .. مستحيل أن تفتح رابعة أن لا حتى هذا عشقي .. تعسرت نفسي .. ولست للعنة

البحر لن تصدق أنني فعلت ذلك لأجلها. ما تريد، هو الاستمرار
مندفعة. مجنونة باندفاعها. مريضة. ستبقى مريضة ما بقي لها أمل في
عودتي. حين تباين تشفى، لا بد أن تباين، على أن أوصليها إلى التماس.
وعندئذ ينتهي كل ما بيننا.

انقسمت إلى عائلي في جمع الزيتون. كنت كثيراً وحزناً. هجري النوم.
انقطعت شهيتي إلى الطعام، صارت حركاتي آلية. أحس البورة أثير
الزيتون. أجمعه مع عائلي. أحمله إلى البورة، أكره أن أتكلّم. أفضل وقت
لديّ هو الوقت الذي ينام فيه الجميع وأبقى ساهراً، وحيداً، أدور حول
البورة، بالقدر نفسه تدور الأفكار في رأسي، وحين أسترجع ما كان، ما
صار، اللقاءات، كلمات الحب، العناق، تنازعي نفسي إلى العودة، لكنني
أزجرها، أصلب عاطفتي على شجرة زيتون، أسوط إحساسي الساعب بإرادة
تأليبها العقل، تنفتح الرغبة أفواهاً في جسدي، ويدي أسد تلك الأفواه،
أجسها، أسكب وبينونا فيها، أتحمّل كل القهر، الألم، العذاب، كي أفرّج
من مغبة التلهي مع فتاة بريئة، لن يزيدنا الاستمرار إلا تعلقاً بي.

ولكني أنحف من وطأة أفكاري، جرت على جسدي في العمل.
ضاعت من جهدي كي أنعب وأنام، كي أنقطع عن بحران بتلغي. كي
أوقف الاسترسال في هواجس أعرف ألا شاطئ لها. لكن ذلك كله لم يحد
إلا بمقدار. ذلك أن الصراع بين إرادتي وعاطفتي كان محالاً. تنصير
الإرادة حيناً، تنصير العاطفة حيناً آخر. تأتي لحظات صحو، إشراق،
شفاء من الأوجاع، نعيقها لحظات قلبي، اكتئاب، نفث، وأعود، منير
رقيقة، يرقصاً، راضاً في القصر بعداً حتى النسي، حتى لا تشالغي نفسي
إليها وهي قريبة مني.

الحفت الذي شعلي، بعد أيام، هو خروج والمني من السجن. في
القصي عاد إلينا كما ذهب، أطلقوا سراحه بعد أن عجزوا أن يقتلوا عليه
شيئاً ليس ثمة لهمة. لقد برأ نفسه ورأ بذور معه، عليه أن يشور بها
سركت، وإله حال، بحمايتها، بين الوكيل واكتشافه السرقة، وأمر على أنه

ما قاله الوكيل باطل، وطلب شهادة الشوباصي، وكذلك شهادة الفلاحين. عندئذ أمر الرقيب أن يرفعوه فلقه، وضربه الدرك حتى دميت قدماه، لكنه أصر على أن بدور ليست سارقة، وأن التهمة ملفقة، وأنه لم يفعل سوى أن سحب بدور إلى بيتها، كي ينقذها من برائن الوكيل الذي دبر لها مقلباً، غايته واضحة.

وكانوا قد قادوه، بادئ الأمر إلى قرية «ح»، حيث قبضوا على بدور، ووضعوا القيد في يديها كما فعلوا به. بعد ذلك ساقوها إلى سجن اللاذقية، كان عليهما، هما الراجلان، أن يسيرا شبه راكضين، أمام حصاني الدركيين الراكبين، فإذا تباطأ أحدهما، من تعب، من عطش، من جهد بلغ حد الأعياء، كان كرباج الدركيين ينال عليهما. ولقد تمزق قميصه، وسال الدم من قدمي بدور الخافتين، ولم يلتقطا أنفاسهما إلا في اللاذقية، حيث أودع هو سجن الرجال، وأودعت بدور سجن النساء، وكل ذلك دون مذكره جلب، دون مذكره توقيف، ولم يكن ثمة سوى هاتف من السيد، وكان هاتفه بمثابة أمر عرفي، تعطلت معه كل إجراءات العدالة.

لم يكن المحقق مقتنعاً بالتهمة، لكن الأوامر عطلت القناعات، وكان بيت «ف» يبلغون، يوماً فيوماً، نتيجة التحقيق، والإصرار على الإنكار، وعدم ثبوت التهمة، وظهور البراءة، لكنهم كانوا يطلبون استمرار السجن، والتحقيق، والتعذيب، أملاً في توقيع عقوبة شديدة، كرد فعل على ما حسبه قرداً، أو عصياناً، أو ممانعة، وقع في كرومهم وبين فلاحهم. . . وقد لمس الوالد، أن الحقد على بدور، بما هي فلاحه، كان أشد من الحقد عليه. قال له المحقق، الذي كان صوناً للأسياد، وأنت لست المستهدف. . . أنت ناطور ولست فلاحاً، أنت من المدينة، وبيت «ف» لا يخافون أن تشاغب عليهم، لكن بدور يجب أن تؤذّب كما أدب صخر الفلاح، اللّص، من القرية نفسها. وقال الوالد، دون كبير اكتراث: «إن بدور غير مذنب، ولم يثبت عليها شيء، ولا ضبطت حبة زيتون واحدة معها، وأنه سيقبم دعوى، على بيت «ف» إذا لم يطلق سراحه وسراحها».

عشرة أيام كاملة بقيا في السجن، لو استطاعوا إثبات تهمة السرقة، أو الممانعة، كان السجن، لمدة عامين أو أكثر، بانتظارهما، ولو أن الوالد فلاح لاثبتوا التهمة عليه بأي شكل، فبعد تلقيقها كان التعذيب كفيلاً بفرضها، غير أن مقاومة الوالد، وتهديده، وكونه من المدينة، وله عائلة كبيرة فيها، كل ذلك أخذ في الحسبان، فتم الإفراج عنها، وذهب سجنهما وتعذيبهما هدرًا، دون قصاص من المتسببين بهما.

حين أطلق سراحهما، بفارق ساعة بين أحدهما والآخر، غادرا السجن معًا، بدور هي التي أطلق سراحها أولاً، فسألت عن الوالد، وقيل لها إنه سيخرج بعد قليل فانتظرت. كانت قدماه متورمتين، وثمة كدمات في وجهه وبعض أنحاء جسمه. فغرت بدور فاها دهشة مما ألم به. قال لها: « هذا لا شيء، المهم أنهم ما استطاعوا أن يأخذوا مني حقاً ولا باطلاً... قالت: «لكنهم عذبوك كثيراً» وماذا بهم؟ سيكون بيني وبين المطعون حساب» استدرك: «ولكن من هو المطعون؟ إنه كلب لحراسة كروم بيت «ف» لا أكثر. هم رأس البلية، وهم من أحقد عليهم « سألها: «وانت؟» أجابت: «عذبوني قليلاً... صفعوني عدة مرات، وهذا كل شيء» قال الوالد: «لنذهب، الآن، إلى المدينة» فلم تمنع، سارت معه. صار منقذها الآن، لو أنه اعترف بالتهمة، لكانت الآن مرمية في السجن. هو غير متهم بالسرقة، تهمة الممانعة، هذه عقوبتها بسيطة، لكنه رفض النجاة بجلده، أصر على براءتها، وتحمل التعذيب، دفع ثمن الحرية له ولها، هكذا أصبح كبيراً في نظرهما. أصبح رجلها، وأضحت تابعة له، معجبة به إلى حد أنها سارت معه غير مبالية، عارفة أنها منذ الآن، ستكون المرأة التي تقدم نفسها على طبق لمجرد أن يطلب أو يشير، لكنه لم يطلب شيئاً ولم يشر إلى شيء.

كان المفروض، وهو في الحال التي عليها، أن يستاجر عربية تقلها إلى قرية «ح» حيث يمكن أن يغتسل، يداوي قدميه، ويستريح. وقد فكر بهذا، واعتمده أول الأمر، ثم سرعان ما عدل عنه، متذرعاً

بتأخر الوقت، وعدم قدرته على المثي، وخلوّ جيبه من المال الذي يستأجر به العربة.

هكذا، تلبية لحاطر عنّ له، قرّر البقاء في اللاذقية، ومعه بدّور. إنه لن يقصرها على البقاء، باستطاعتها أن تعود لوحدها، لكنّه، في قرارة نفسه، كان يعرف أنها ستبقى معه. لقد أدرك، منذ صاراً خارج السجن، أنها لن تقاوم له رغبة، ولن تصرّ على العودة إلى قرية وحده بمفردها. وهو، بحكم ضعفه أمام المرأة، وتغليب عاطفته على عقله، أو انهزامها أمام أيما إغراء، وجد نفسه مهزوماً أيضاً. هكذا رضح دون مقاومة. قرّر دون إطالة تفكير... إنه، أصلاً، لا يتعامل مع الثنين: الفكر والحذر، ولأنها تبدّت ليّنة، مسئلة، رغبة فيها يرغبه، فقد رجحت لديه فكرة البقاء، مع أنه، وهو في السجن، لم يفكر بهذا مطلقاً. لقد ردّ ما حدث إلى المصادفة، وكان يعتزم العودة إلى البورة ولو في الليل، لكنّه، عندما أطلق سراحه عصرًا، قرّر أن يبقى، وأن يستريح، فقاد بدّور إلى بيت أحد معارفه، ممن يتعاملون مع الفلاحين، وذهب هو ليلاً إلى الحسام، وبعده اشترى مرهماً من الصيدلية، كي يدهن رجليه المتورمتين. الصيدليّ هو الذي وصف له المرهم. قال إن القدمين المتخشبتين من الحذاء والقرص، ستلينان قليلاً، المرهم يطري الكدمات، وفعلاً شعر بالتحسّن، وفشّ الورم قليلاً، وظلّت الأصابع وحدها على شيء من ازرقاق.

لم يكن فرحاً أو حزناً، لأنه لم يأت بما يستدعيها. تدخل، في البورة، لمصلحة بدّور، أوصلها إلى البيت في القرية. لم تقلّ له ادخل، ما كان مستعجلاً، يعرف أنه سيدخل، وسيكون دخوله فتحاً، وبخلاف ما ظنّت عائلته والآخرين، لم يكن في رأسه، وهو يدفع عن بدّور، أنه يدفع عن قضية يضمن بها، وحتى وصال بدّور، في الشعور الظاهر، لم يكن وارداً. المطعون تصرّف بشكل يجانب طبيعة الأشياء، اعتدى، كان، في قرارته، يريد بدّور لنفسه. هو، الوالد، فهم الموقف على هذا الوجه، أراد تخليصها منه، ما كان يفكر بأنه يستخلصها لنفسه، لكنّ ذلك صار كذلك، تفاحة

ناضجة هَرَّتْ عن غصنها، يده كانت جاهزة لالتقاطها. التقطتها. قبض عليه من أجل ذلك، سيق إلى السجن، عُذِّب، سُجِن، ولم يكن كل ما جرى غريباً أو نظيفاً. لذلك لم يعزن أيضاً، ترك الأمور كعادته، تأخذ مجراها، وما هي تأخذ المجرى السليم. الريح الطيبة كانت دون أن يدري لماذا، إنها كائنة وكفى. ففي عينيه وميض، كما في عيني صل، وبدور ليست أكثر من عصفورة مبهورة تنتظر. كانت، منذ برز في البورة، تنتظر؛ القدر يؤاتي، هو لم يصنع أيما شيء لكي يؤاتي، لكنه، وان، والعصفورة، على غصنها، لم تعد قادرة على الحركة، على الطيران، إنها بين أشدق الصل، ولديه، حتى صباح غد، وقت طويل كي يتلعبها.

عندما عاد إلى بدور كان الليل يهبط كمظلة غشية على المدينة، الأنوار الضئيلة تشتعل في الحوانيت، بعض الباعة المتجولين يدفعون عرباتهم في طريق العودة إلى بيوتهم. الشوارع خفت الازدحام فيها، وقد تعمَّد، وهو يسير أمامها، أن يوصلها إلى البيت من أطول طريق ممكن. جعل التوقيت أذان العشي، عندئذ يكون الزقاق قد أفر. يمضي بها إلى البيت، يُدخلها دون أن يشعل الضوء، ودون أن يراها أحد، هكذا كما رسم نغذ تماماً. كان الحوش فارغاً، كل عائلة في غرفتها. فتح باب غرفته ودخل، دخلت بدور وراءه، أجلسها وحذرهما من إشعال الضوء، وبعد ذلك ذهب لإحضار العشاء.

كان قد استدان بعض المال، ودخل إحدى الحمازات فشرب كأساً على الواقف، ثم عاد إلى البيت، وأشعل الضوء، ومذ السفرة، وبسط الطعام، داعياً بدور إلى العشاء، فافتربت وهي خذيرة، وشيء من عبوس يعلو وجهها.

كانت، الآن، قلقة على نحو ظاهر. كان الندم لأنها بقيت يفرسها، وليس منشأ هذا الندم خوفها بل استهتارها، فهي تدرك، الآن، أنها تسرعت، وكان عليها أن تعود إلى القرية بمفردها، ولو وصلت ليلاً، لكن ما صار قد صار، ولن تسلم قيادها بالسهولة التي يتصورها، أو التي

كانت، هي نفسها، ترى الأشياء من خلالها.

كذلك قرّرت أن تعتبر ليلتها هذه ليلة سجن. صحيح أنها مع رجل في غرفة واحدة، لكنها وافقة من نفسها، ووافقة أنه لن يصير أي شيء ضد إرادتها، أو ضد رغبتها.

على خلافها كان الرجل، لم يكن الندم، على بقائه في المدينة، بلامس مشاعره. لقد اعتاد أن ينام بعيداً عن بيته، وعن أهله، وأن يسكر، ويبيت في القرى، في بر أرسوز، وكان الفلاحون يكرمونه، وهو يرتاح إلى عشرتهم، ويعمل لهم عاطفة صادقة من الودّ، لكنه، الليلة، وامرأة معه، فقد كان غيره في الليالي الماضية. كان، في قراره نفسه، يرى الأمور طبيعية، ومع ذلك فكّر، وظلّ يفكر وهو يرنو إليها، في جلستها المتكورة أمامه.

إنه رجل، وماذا يفعل الرجل حين تكون المرأة في متناوله؟ آية عاصفة من رغبة تنتابه، حين تكون هذه المرأة له الليل بطوله؟ كيف ينظر إليها، وهي تنظّى، عينا وشفة؟ لقد كانت ممنوعة عليه. قبل أن يعرفها، كانت أمنية، لكنها، في المنع الدائم، حين لا تكون زوجته، ولا نصير، تظلّ أمنية، تبقى مائدة حراماً، ولأنها كذلك، يظلّ الشوق إليها مشتعلًا، لإدراك الرجل أن هذه التي تطارحه أضوى، هي اليوم له وغداً لزوجها، هي الآن ملكه، وفي آن آخر ملك سواه، أو ملك نفسها. ومن المستحيل، ما دامت كذلك، أن تجلب له الطمأنينة، وحين لا تكون هذه يكون القلق، وكل الحب، كلّ لذته، كلّ أواره، مع القلق الذي إن أخذت المرأة زوجة، أو في حكمها.

والذي لم يفلسف الأشياء على هذا النحو، لكنه كان يمسّها على هذا النحو تماماً. إنه يضحّ، والمرأة قبالة تضجّ، والريح تهبّ، والأرض حمى، والغرفة جمر. والجدران أذان، والحجارة عيون، وكل الأثاث الذي سبّاه، ويرى، يشارك في وليمة الحبّ المنتظرة. ومن أجل ذلك يتبدّى في نفاد صبر بالغ، يعيش جوارح تنزّى إلى تلك اللحظة المسكرة، لحظة

تعطي المرأة نفسها، تنتزع، من تحت أظافرهما، من الدم المشدق في عروقها، روحها التي مستخطف، والتي تمنحها بسخاء، لأنها مندورة للمهنية التي تكون بين الموت والحياة.

لحم انفعاله، بسط الطعام على مائدة خشبية واطشة، كما في القرى. تناولوا الطعام، حدثها عن أيامه في السجن، حدثته عن أيامها فيه، قالت إنها مرّت بتجربة رهيبة، نتيجة لما يجري بين النساء السجينات. ما كان يجب الكلام على الأشياء، لذلك أسكتها، ولما أمعت زجرها، قال لها: «فهمت، يكفي، اللعنة على السجن» وسألته عما يجري في سجون الرجال، فرغب عن الكلام، اختصره بجملة واحدة: «الشذوذ هنا مثلما هو هناك» وقال أيضاً: «لا أتمنى لأيمّا فتى أو فتاة دخول السجن، إنه رهيب، إنه بؤرة للإجرام والفساد».

ساد الصمت، الآن، بينهما، تذكر كل منهما المحنة التي مرّ فيها: القبض عليه، سوقه إلى السجن، ركضه أمام الدركين الحيّالين أو خلفهما، الجبل المربوط به وهو يتوتر ويرتخي، بمقدار ما تكون المسافة بينه وبين الحصان الذي شدّ إليه، دخول السجن، التعذيب، الأيام القاسية، الجوع، النوم على قطعة حصيرة، الحرّ، البق، رائحة التّن في القساووش، فراق الزوج والأولاد.

عادة، نتيجة لذلك، إلى وضعهما العائلي، إلى الذين ينتظرونهما هناك، في القرية وكرم الزيتون، وشعرا، لأول مرة، منذ خروجهما من السجن، أنهما ارتكبا حاقا، وأن خروجهما، في وقت متأخر، ما كان سبباً كافياً للمبيت في اللاذقية، ولا عذراً مبرراً لهذه الخلوة التي وسوس بها الشيطان.

زاد اكتئاب بدور، ناوها الكأس فرفضت. ازدادت ندماً لأنها جاءت. استيقظت عاطفة الأمومة في صدرها، توقفت، وهي على حافة الجرف، محاولة عدم السقوط، وفي محاولة للتراجع، قالت وهي تنكمش مع كل دقيقة تمضي:

- كان من الأفضل لو عدنا إلى الضيعة .
- كان الوقت متأخراً . ولم أكن قادراً على المشي .
- وماذا لو استأجرنا عربة ؟
- لم يكن معي أجرة العربة . .
- ولكنك أنفقت على الطعام والحمام . .
- استندت . . وكان الوقت، بعد الاستدانة، قد تأخر .
- هذه حجة . . كنت تريد أن أغضي الليل هنا . .
- لو اعترضت . . منذ البدء، ما كنا بقينا . .
- رغبت في مطاوعتك . .
- كان عليك أن تقاومي . .
- وأنت، لماذا لم تقاوم ؟

حقيق فيها وهو يتناول جرعة من كأسه، فاجأه هذا التغير فيها . استغرب أن تنقلب، بعد ذلك الاندفاع . لم يفضن إلى أنه كان السبب . ذكرياتها عن السجن، والقرية، والأولاد، وما لا يقابله من عذاب، بعث فيها شعوراً بالندب لأنها وافقته على البقاء . أرادت، ولو متأخرة، أن تتوقف عن المغامرة . هي لا ترفضه، لا تكرهه . بخلاف ذلك، تحتفظ نحوه بعاطفة طيبة، ولن تمنع، في وقت آخر، أن تكون له، لكنها الآن، لا تريد . تستشعر، في وضعها الراهن، أنها امرأة ساقطة، لم أحبه لما تمنعت، وهي لا ترغب أن لا تحبل إليه، لكن الحب، ذلك الشيء الذي عرفته مع زوجها، لم تعرفه بعد مع الرجل الذي حماها، وتعرض للشعيب، والسجن، في سبيلها . إنه غاير في حياته . تنتهي صلتها به بانتهاء موسم الزيتون، وربما كانت هذه الليلة، هي الوحيدة في علاقتها الجديدة، ومن أجل ذلك تردّد . ترفض أن تكون رخيصة، وعليه، هو الرجل، ألا يطلب منها ذلك، إذا كان يحترم موقف الرجل الذي وقفه، وإذا كان هذا الموقف،

أصلاً، موقف شهامة، كما ظنّت في البدء، وكما تمثّلته طوال أيام سجنها.

من جانبها كان يفكر بهذا التغيير الذي طرأ عليها. باخت حماسه. تصوّحت مسرة صغيرة عاشت في ذاته طوال العصر. حسبها له. كلّ حركاتها كانت تدلّ على أنها له. التماعة عينيها. دلّ كلماتها. الغنة في صوتها. رغبتها الشخصية في أن تبقى، وأن تأتي إلى بيته. وتنام معه. لم يكرهها على شيء. في وقت آخر كان يفعل. مع غيرها تصرف تصرفاً أحمق، فيه خشونة، فيه مجون، ورغم النتائج التي حصل عليها، من طرح نفسه، ومن استخدام هيئته كرجل، فبأنه ما كان، يوماً، يمثّل الوداعة أو العفة. النسك كان دائماً في الطرف الآخر، البعيد والمهمل، إنه يشتهي، ولأنه كذلك فهو يريد، وبعض النساء قاومن إرادته، وبعضهن ردّنه إلى واقع مرّ، من رفضهنّ القطّ، الخاسم، وكلّما نهزّ المهينة، لكنّه ما بالى كثيراً بذلك، فالمرأة، لها، أحياناً، هذه الأطوار. كان يعزو ذلك، غالباً، إلى سكره، إلى تعجّله، إلى نهالكة المسرف، فما كان الندم، أمام مواقف رفض كهذه، يؤثر فيه، أو يسبّب له إزعاجاً.

كانت المرأة، بالنسبة إليه، شهوة عابرة، يراودها، يفاردها، فإذا لم يلبها انصرف عنها متذرّعاً بلامبالاته، فهو لا يحبّ، ولا يتعامل مع الحبّ. ولا يغازل. كلمات الغزل كانت مجهولة منه. لا يعرفها. لا توجد في قاموسه. يعتمد على ملاحظته، شبقه، نظرة الصلّ في عينيه، وكثيراً ما كان حديثه، الثائم على نسج قصصيّ بارع، يجذب المرأة إليه. هذا إذا كانت المرأة من الصنف الشريف، غير المنجرب غير المحترف. أما الساقطات، في خمارات المراقع، فما كان يبدل من وقته وحديثه لهنّ شيئاً، كان يسكره، يدفع، يواصل، ثم يدير ظهره ويضمّي. ولقد عرف المدينة، والريف، والبحر النرجال، وصادف كثيرات، ونال كثيرات، ونسألت عليه امرأة هنا، وأخرى هناك، لكنّه لم يستشعر، في كل تلك الحالات، غرابية أو غضاضة. كان ينسى. يمرّ به الأمر مروراً، كأنه ليس صاحبه، فهو يتعاضى مع المرأة على أنها مخلوق

جاهز، من طبيعته أن يقيم علاقة ما، لا يجد فيها ما يدعو إلى احتمال الدلال، وبذل الوعود، والمغازلة الرقيقة، أو المفاوضة الطويلة.

عمره تقضى على هذا النحو، وفي حياته كعامل في الميناء، لاقى من النساء، وعرف منهن، وخاض لأجهلن، بعض المعارك، لكنه لم يكن بلطجياً، ولم يكن فتوة، كان عامل ميناء فقط. وفي المواضع كتب عليه أن يعيش حياتها، وقد عاشها تماماً، عاشها حتى الأعماق. انغمس فيها. تلوث برذائلها، ولم يجد في ذلك ضيراً، ولم يسأل حتى ما معنى الرذيلة، كما لم يتساءل عن الفضيلة، فالرفأ له قانونه، وكان يعيشه، دون أن يعنيه من وضعه، ومن طبقة، وكيف يطبقه العمال والبحارة أمثاله.

هذه، بدور، حالة جديدة، مطاوعتها، في البدء، لم تحمل إليه أية غرابة. ودلائها، بعد ذلك، لم يربكه، وأمام الكأس، تغدو المرأة لديه ثانوية. صحيح أن الكأس تولد نشوة، وهذه تتطلب لوازمها، من غناء، رقص، مضاجعة، لكن الأشياء، هذه، يمكن أن يستغني عنها، إذا ما خير بينها وبين الشرب. هنا، هو مدمن، مريض، تنتفي مقاومته حتى كأن لا مقاومة ولا أرادة لديه. وما دام يشرب، ويتشهي، في جو له غرابته، سحره، فرادته، لوجوده مع امرأة في بيت واحد، وفي مثل هذا الليل، فإنه يستطيع أن ينتظر، وأن يتأمل، ويدع للمرأة أن تتصرف على هواها، حتى لا بقسرها على أمر تأباه، ولو أنه أخذها قسراً، فما كان يبالي بصراخها. فالفضيحة، في حسابه، تأتي في آخر قائمة المزعجات.

غير أنه، في ذاته، انطوى على استخفاف بموقف بدور. أرجعه إلى أنها ريفية، ساذجة، مذعورة، وتنشد العثمانية النسيبة؛ حتى لا تفضحها حركاتها غداً في القرية. أسف، في شيء من المكاشفة الذاتية، لأنه أمل منها خيراً. اكتفى، حيال موقفها، بالأسف، دون أن يقطع الأمل من مطاوعتها. وقال في نفسه: «لو أنها تشرب قليلاً، لذهب هذا الحياء الكاذب عنها» وبعد قليل، تحول أسفه إلى شتيمة. شتمها بغير صوت. وعندما مذهب يده إليها، نفرت وابتعدت نحو الباب، رافضة بإصرار أن

تذعن لما يريد. كان الخوف من الفضيحة، إذا ما انكشف أمرهما غداً في القرية، يدفع بها إلى الإصرار على الرفض، ولم تُبذَ فيها الكلمات، ولا الأحاديث، ومع اليأس الذي تسرب إلى نفسه من أن يراها، فكّر أن يفتح الباب ويلقي بها في الشارع. لكنها، حين صارحها بما في رأسه. توسلت إليه ألا يفعل، وأن ينام ويدعها وراء الباب إلى الصباح. سأخا:

- لماذا، إذن، جئت؟
- أخطأت..
- ألا تعرفين معنى أن يكون رجل وامرأة في غرفة واحدة؟
- أعرف..
- لماذا قبلت بذلك؟
- كنت أريد أن أرضيك.
- بماذا؟
- بكل ما تطلبه..
- وماذا حدث إذن؟
- لا أدري.. كنت راغبة وانتفت رغبتني.. الموت، في هذه اللحظة، أفضل لدي.
- تخافين من شيء؟
- من الخطيئة.. أريد أن تبقى كما نحن.. صديقين.
- وإذا رفضت؟
- احتمي بنخوتك..
- وإذا كنت لا أبالي؟

— شرفك يردعك . . أنت أب لبنات صبايا .

— أنتِ خدعتني . .

— لا أنكر . .

— أهذا ثمن المعروف إذن؟

— لا هذا ولا ذاك . .

— كيف؟

— لا الخداع ولا الاستسلام . . كنت شهياً . . أحببت الشهم فيك، وهذا

جزاء معروفك .

— أنا لم أصنع معروفاً . . فعلت ما يجب أن يفعل . .

— لأنك لا ترضى بالظلم . .

— أنظنين هذا؟

— كل الذين سمعوا القصة فكروا كما فكرت . . صرت كبيراً في عيونهم .

— وفي عينيك؟

— أكبر من كبير . . دع صورتك جميلة في نظري . . إنني، كيف أقول،

أدين لك بمعروف لن أنساه . .

— وما يهمني من ذلك؟

— كرامة المعروف . .

جرع جرعة من كأسه، ونظر إليها نظرة ياشق، ثم خفض عينيه، أمام هيئة التومل التي اتخذتها. استفاق فيه شيء من عطف عليها. كلماتها أطفأت الرغبة الجنسية فيه. قالت له: «أنت أب. لديك بنات» وهو كذلك، لكن هذا، طوال حياته، لم يمنعه من معرفة نساء كثيرات. كل الرجال آباء، وكلهم يعاشرون النساء . . أما المعروف الذي تذكره به،

والصورة الجميلة التي تعرض على بقائها جميلة، فهو لا يابه لها كثيراً.
قال لها:

— اسمعي يا بدور.. إذا كان ما فعلته له علاقة بالشهامة، فهذا جيد، لكنني لم أفكر به. نقي، أيضاً، أنني لم أفكر بك وأنا على البورة. لكنني، اليوم، أردتك.. وأريدك، ولتذهب الشهامة إلى الشيطان! أنا لا أتعامل مع هذه الأشياء.

— والمرءة؟

— ليس في الأمر شهامة ولا مروءة.. فعلت ما فعلت بدافع لا أعرفه، ولا أريد معرفته.

لكنه كان يخدع نفسه. فعل ما فعله بدافع أن ينال الإعجاب في نظرها، وقد نال هذا الإعجاب، مقروناً بما تذكره من شهامة، وهذا ما أيقظ فيه عاطفة هاجعة، عاطفة نائمة، لكنها لم تمت بعد، هي رؤية نفسه شهياً في عيون الآخرين، أو في عيني بدور هذه على الأقل.

قال لها وقد هدأت خواطره، وسرّه، ربّما لأول مرة في حياته، أن يقاوم رغبته، وأن يكون شريفاً، كما تطلب منه:

— هيا، اللعنة على هذه الليلة، سامي ودعيني، سأسكر، ولا أريد شيئاً منك.

— إنني خائفة.

— بم؟

— منك..

— لو أردت شيئاً بالقوة لحصلت عليه.

— ولكنك قد تسكر..

— إذا سكرت أنا في موضعي.. لن أمسك، هذه كلمة شرف مني..

نامت بدور. أعطاها غطاء، واستلقت بعيداً على الخوان، أما هو فظلّ

يشرب، وراح يغني، وبعد منتصف الليل نام.. نام دون أن يمسها، وشعر
بسعادة لأنه، لأول مرة في حياته، لا يكون نذلاً كما اعتاد أن يكون عندما
يسكر.

في الصباح الباكر أفاق. غلى القهوة وأيقظ بدور. كانت هذه تعب من
الليلة البارحة. صحيح أنها نامت نوماً عميقاً، لكن الخوف كان يصدع
رأسها. رغبت في مزيد من النوم، في الاستلقاء دون حركة. في التمسك
بوسن يتعقد في جفنيها. غير أنه أصر أن تنهض، وأن تغادر معه البيت قبل
أن يفيق الجيران، وزيادة في الحرص أن يبعث غسلة في وجهها. ومنعها
من مغادرة الغرفة، حتى لقضاء حاجة، وقال لها، حين شربت قهوتها:

— هيا، يجب أن نخرج باكراً.

— إلى أين؟

— إلى القرية..

— ولكن ماذا يقولون عنا ونحن في الصباح؟

— لن نصل في الصباح.. سنخرج، في طريقنا، على أحد الكروم، فنمكث
فيه إلى الضحى.

— أحسن بثقل في رأسي.

— هذا من التعب، والقلق، وأثار السجن.

— ومن الخوف أيضاً.

— كنت خائفة؟

— خفت أولاً، ثم غمت..

— هذا أفضل.. انسي كل شيء عن ليلة أمس، وانسي، خاصة، كل شيء
عن السجن، لا تتحدثي بما وقع لك.

— وأنت، ألن تقول لأحد؟

— وهل جنتت؟ من جهتي كوني مطمئنة.. ثم لم يحدث شيء.

— ألم أبق معك في غرفة واحدة؟

— وماذا يعني هذا؟ تحدث مثل هذه المصادفات.

خرجوا من البيت خفية . انسلًا انسلالاً ، تقدّمها في الزقاق ومضى باتجاه حيّ العوينة ، لكنه لم يلبث أن عدل عن الطريق ، خشية أن يراه أصحاب الجمال ، ويكون بينهم مصطو . اتّجه شمالاً ، من ناحية الشكّة ، فلما صاروا في ظاهر المدينة توقّف حتى لحقت به ، وسارا من هناك قاصدين الفاروس ، فطريق كسب ، إلى قرية وح .

كان ، خلال الطريق صامتاً ، لكنها هي ، عادت تتحدّث عن السجن :

— لا اصدّق أنهم أطلقونا .

— صدّقي . .

— لولاك ماذا كنت أفعل ؟

— ما يريد الله . .

— لقد كنت رجلاً . .

— في السجن أم في البيت ؟

— في الاثنين . .

— وكنت أنت رائعة . .

— أنا لم أع ممّا حدث شيئاً .

— لم يحدث أيّ شيء . .

— يعني أنت لن تغضب مني .

— ولماذا ؟

— تسأل بعد أن رفضت أن . .

— هذا يحدث بين الرجل والمرأة دائماً .

— لكنه غريب . .

— لا غرابة في الصدق . . كنا صديقين ، أليس كذلك ؟

— من جهتي أنا معجبة بك جدّاً .

— ما فعلت إلّا ما كان يجب أن أفعل . .

— وإذا اعتدى عليّ المطعون ثانية ؟

— أقف إلى جانبك من جديد . .

كان الصباح جميلاً، إلى درجة أن الأسى الرقيق، الذي غلّف الكلمات، سرعان ما تبخر. . هو وهي الآن، يسيران على الدرب في الاتجاه الذي جاءا منه مهرولين، والكرباج في ظهريهما. ما أهون الإنسان في هذه الأرض! كلمة واحدة، من فم مسؤول أو متنفذ، تغير مصيره. لاحقاً، لا عدل، لا ضمانة، فالقوة، أبداً لمن يملك. في حال كهذه كان هذان الإنسانان في منتهى الضعف. وقال الوالد في نفسه: «ما أظلم الأسباد!» وتولاه حتى شديد. أما بدور فقد كان الابتهاج يعلو وجهيها كلما تقدّمت خطوة باتجاه القرية. لقد عادت أخيراً. عادت وهي تعرف أكثر مما كانت وهي تذهب. . السجن فتح عينيها على أشياء كثيرة. من الصعب، بعد اليوم، أن تتعامل مع من حولها كالسابق. نظرتها إلى النساء تبدّلت، رأت نساء من صنف آخر. سمعت قصصاً كثيرة. كانت، قبل أن تذهب إلى هناك، تعيش في حدود القرية، لا تعرف ما وراءها، لا تدرك ما يجري في المدينة. لا تعرف ما يدور في السجن، الآن عرفت، وهذه المعرفة تؤرقها، محال أن تبقى الأشياء ذاتها في نظرهما. غداً ينتهي موسم الزيتون. النواظير يرجعون إلى المدينة. المطعون يذهب. . الشواصي يبنى. . هل نمة أمل أن يلتقيا ثانية؟

سألها:

— بماذا تفكرين؟

— لا أفكر بشيء محدد. . لماذا بقينا أمس في المدينة؟

— كيلا نعود ليلاً. .

— ها نحن نعود. .

— وستنسى متاعبنا. .

— لم تكن لدي متاعب. .

— لأن الإنسان ينسى بسرعة.

— أنت لا تدري كم هو صعب أن نفترق.

— ومن قال إننا ستفترق؟

— الموسم في نهايته، وأنت لن تأتي وتسكن الضيعة، لن تكون فلاحاً مثلنا،
ومن الخير ألا تكون، عيشة الفلاح مرّة.

— سأتي لزيارة الضيعة.

— من الصعب ذلك.

— وأنت ستزورينا في المدينة.

— وهذا أشدّ صعوبة. أعرف فلاحات لم يغادرن الضيعة.

— اسمعي، إننا، الآن، صديقان، ازددت احتراماً لك، وازدادت احتراماً
لنفسي. لا أدري ماذا حدث. لا أعرف كيف أقول. إنما في رأسي
بياض، هناك، في الدماغ، نقطة بيضاء، أنت التي اكتشفتها.

— أنا سعيدة إذن.

— وأنا سعيد مثلك.

ارتفعت الشمس وهما يسيران. بدت في السماء توشيحاح من بياض
فاتح. طولانية، تتدلّى نحو البحر. وهناك في الطبقات العليا، سحب
متفرقة، تنفخها الريح فتدحرجها وتكاد تذروها، والأفق سديمي، كثيف،
والحرارة شديدة، رغم الخريف الذي عصفت ريمه بالأوراق وأسقطتها تحت
الأشجار. بدا الجو، من حولهما، في أقصى صمته، كأنّ الطبيعة التي يحسّان
بأنهما قد غابا عنها، قد خاصمتها. كانت مشاعرهما، الآن، فيّاضة.
فالمواجهة المقبلة، مع كل الذين فارقهما، تعطي للتوقع معنى البهجة.
وليس عليهما، وهما يقتربان، إلا مداراة هذه المشاعر، وترتيب ما سوف
يقولان، كلّ لعائلته. وبانتظار ذلك لاذا بالصمت، وتقدّما، بخطى وثيدة،
إلى كرم على جانب الطريق، حيث ينبغي عليهما أن يمكثا وقتاً ما كافياً،
لجعل عودتهما من السجن طبيعية.

قالت بدور متسائلة:

— ألا تخشى أن يرانا أحد؟

— وماذا في ذلك؟. نعود من السجن وقد تعبنا، فعرجنّا على الكرم
نستريح.

- لكن الطريق غير طويلة . .
- لا تنسي أننا نخرج من سجن . .
- هل تأتي معي إلى الضيعة؟
- وماذا أفعل فيها؟ ننترق عند طريق البورة، ونلتقي بعد الظهر. سأذهب إلى الشوباسي من كل بدّ.
- ونمرّ علينا في طريقك؟
- هذا ما لا أعرفه . . يجب أن أزورك، لكن لا أدري متى . . لنعد ذلك الآن.

افترقا. بدّور ذهبت إلى القرية. الوالد يمم شطر البورة. تلبّست كلاً منها صورة غير التي كانت له قبلاً. اصطنعا هيئة من يخرج من سجن، رغم أنها لا يعرفان كيف تكون هذه الهيئة، إذ لا مرآة معها. جذفاً في بحر من ضياء، دق القلبان من شوق وغبطة. بكت بدّور. كانت مستعدّة للبكاء، ولم يعرف أحد السبب، ردّوه إلى لهفتها، إلى فرحها ببيتها، أولادها، زوجها، لكنها هي، في أعماقها كانت تمارس إحساساً آخر، ووجدت في البكاء متنفساً وطريقة للتنويه. أما الوالد فقد أعفى نفسه من هذا الواجب الثقيل. تصرّف كرجل ليس من حق أحد أن يحاسبه. عاد وكلّ ما فيه طبيعي، كأنه لم يقبض عليه، ولم يسجن أو يضرب. كان، في أعماقه، قد أدّى المهمة التي انتدب نفسه لها. لقد وفّق بانتزاع إعجاب بدّور، وحتى لو لم يوفّق، فقد كان الأمر لا يختلف لديه. لامبالاته هي نفسها، في الذهاب وفي الإياب، وحتى الحقد على المطعون ما كان يعمل في ذاته. اقترب من البورة بهيئة من لم يفارقها. كلّ ما فيه كان سالماً، سوى قدميه اللتين فيهما بقايا ورم. كان يضع يديه وراء ظهره، كأنه قام بجولة في أطراف الكرم وعاد. ومنذ رآه الفلاحان على البورة اضطربا، سعيا بالخبر إلى المطعون. دخل هذا خيمته وأخرج مسدّسه الصغير من تحت الفراش. تصوّر أنّ الوالد سيهجم عليه ما إن يراه. تخيّل عبوساً، غاضباً، يسعى إلى الانتقام، لكنّ الوالد لم يكن في وارد من هذا، ومع أنه مستعدّ، في هذه الساعة

بالذات، أن يقف موقفه السابق نفسه، وأن يشتم المطعون ويبعثر بيدر الزيتون، ويدخل في معركة، فإن الماضي، بالنسبة إليه كان قد مضى، وليس من سبب لأن يتصرف على غير عادته، فهو ابن لحظته، وليس، في هذه اللحظة، ما يعكّر صفوها.

ركض الفلاحان إليه فسلما. لم يحذقا في عينيه خجلاً، لأن موقفهما لم يكن كما ينبغي. أما هو فقد مشى رأساً إلى الخيمة، وأول ما فعله، منذ بلغها، كان تناول الجرة، ورفعها إلى فمه، ليروي ظمأ الطريق، بعد ذلك دخل الخيمة، وأخرج علبه التبغ فلفّت سيكارة وأشعلها. لم يكن ثمة تغير في البورة، كل شيء كما تركه، والخيمة كانت ذاتها، سوى أن العائلة في الكرم. ولم يكن جانعاً، ولا راغباً في الكلام، لكنّ الفلاحين لحقا به، وكرّرا السلام، ودون أن يسألها شيئاً، أظهرتا كثيراً من المودة والإعجاب. وأمام اهتمامهما الزائد، حافظ هو على هدوئه، كأن شيئاً لم يحدث، كل ما أخبرهما به هو أن بدور عادت أيضاً، وأن سراحهما أطلق صباح اليوم، وأنها كانا بريئين، وقد ظهرت هذه البراءة للمحقق، فأخلى سبيلهما.

— هل عدّوك؟

— ليس كثيراً..

— كيف ليس كثيراً؟ الورم ما زال على قدميك.

— هذا لا شيء.. المهم أن الحفرة التي حفرها المطعون لنا لم نفع فيها.

— لكنّ المطعون يقسم إنه لم يعتمد إيداءك..

— ومن يقول إنه أراد إيدائي؟

— أنت غير حاقّد عليه إذن؟

— ولماذا أحقّد؟

خلال ذلك، كان المطعون يقف وراء الخيمة. كان ينصت للكلام، ويضطرب من خوف. لقد سرّه أن الوالد لا يحقّد عليه، لكنّ لامبالاته أعجزته. لم يفهم، بالضبط، ما يريد أن يفعله، إذ ليس من المعقول أن ينسى بهذه السهولة، وليس من المألوف أن يعفو وهو طليق، وقادر أن يأخذ

حقه. المشكلة أنه إزاء إنسان غريب، له من الخرافة ما يدفعه إلى الوقوف في وجه الدرك، وإلى تحمل السجن والعذاب، ثم يعود مطمئناً كأنه كان في مشوار إلى المدينة.

فوحى بعودة الأب، عادل فرح العائلة كلها. ندوفاً لأول مرة بعد هجرتنا
 طعم الانتصار. صار في وسعي أن أشرح من الحراسة، قبله، أيضاً، صار
 في وسعي، بين وبين نفسي على الأقل، أن أمارس شعوراً بالاعتزاز. لم
 أتوقف طويلاً عند الدافع الذي حداً به الذي إلى حماية بدور، وتعمل
 العذاب والسجن لأجلها. هو نفسه، في كلامه، لم يوح بأنه انتصر للحق،
 أو أنه دفع ظملاً، ولم يقبض كل ما أقوله، أو أفكر فيه، عن العدالة
 وحسرونها. ما فعله انتهى بانتهاء الحادث. لم يتوقف طويلاً عنده، لم
 يدحرج، لم يزد، ولم يضحك ما لا فاه، كأننا كل ذلك كان عادياً إلى درجة لا
 يستحق تعب روايته. سكنت عن ذكر بدور، لم يفصح عن شعوره تجاهها.
 ولم يظهر، عندما كانت تأتي إلى البوابة، أنني اهتمام خاص بها، وكاد يقتضي
 أنه لم يفعلها لأجلها، لولا أنه، بعد أسبوع من عودته، شرع يتردد على
 القرية، ويتغيب، أحياناً، في أول الليل، حين يكون جميعاً على البوابة، ولا
 حاجة لحراسة خاصة يقوم بها، باعتبار أن النظارة تبدأ بعد أن نام، ولا
 ينفي من يسهر على الزيتون. وكنا نردّ تغيبه إلى حاجته للشرب، في حانة
 القرية، وهي عبارة عن كوخ يُدعى دكاناً.

وحين حياة السجن، لم يأت عليها في أحاديثه، من ناحية الظلم
 الاجتماعي الذي تمثله. أفاد منها أفاضل بروسيا بسليقته القصصية.
 صارت مادة في الكلام على ما فيها من طرافة. وكنت أفقر فمي وأنا أسمع

راوياً، صانعاً من واقعة صغيرة، من خير لا قيمة له، مادة قصّة قصيرة أو طويلة، لا يستطيع المرء، وهو يسمعها، إلا متابعتها بشوق، لما فيها من إيضاح، ومن تقطيع. ومن معلّمة في إبراز الجانب الأهم، والتوقف عند اللحظة المازومة، اللحظة التي هي مركز الحادثة، خطها الرئيسي، الذي يعطي لبدائته ونهايته أهميّة تتجلى في خبرة قاصّ، يمسك الحيوّط، ويمركزها، ليعقدّها، يحلّها، ويخرج منها بقصة جيدة، مقبولة، قُبِنَتْها في صياغتها، وعنصر التشويق فيها، بأكثر مما هي في قيمة الحدث في ذاته.

ولقد راقبت الفلاحين، عزيز ويونس، ودهشتها أمام هذه القصص. كانوا، في إصغائهم التام، وانغماسهم بما يسمعون، يكشفان عن قدرة القصّ على التوصيل الكامل. وإذا كان الوالد، في هذه القصص عن السجناء، وحياتهم، ومشكلاتهم، وموقفهم منها، وتقلّهم لها، أو ندمهم على ما اقترفوا، وإحساسهم بالظلم، وتوقعهم الفرج، لا يعطي رأياً شخصياً، فإنه كان يترك، في سامعيه انطباعاً دلالياً، هو الذي يترك أثراً بليّناً، فنحن، ونحن نسعه، بالظلم، وبجور الأغوات والسادة، ويعقد المشاكل الاجتماعية، ودوافع الواقع وراء تصرف هؤلاء السجناء، عند ارتكاب الأفعال، وعند نزول القصص بهم جرّاءها.

لاحظت أنه أكثر مني قدرة على الإقناع. كل ما أعرفه، وأرفضه، عن الظلم الاجتماعي، عن فساد الحياة، عن سوء الواقع، بقوله هو، لكن بطريقة الخاصة، الحالية من الانفعال، من الوعظ، من إعطاء حكم، من تحييد أو تنكير، فكأنه بنفس بحيادية ليس فيها أثر لما عاينه، يرسم، بالكلمات، تجسّماً للسجن، للزلاّ فيه، لقضاياهم، تُعَلِّك نعيش ما عاشه، تعان ما عاينه، من خلال الحدث، وليس من خلال إقحام رأيه الشخصي، في تصويب أو تحطّط ما كان وما جرى.

في تلك الأيام، ومن خلال أحاديثه، اكتشفت فيه ملكة قصّ أصيلة، وموهبة على تناول حدثه من النقطة المثيرة، وإدخالك في جمّوه، ثم تشويقت، وأخذك معه إلى حيث الخاتمة، تاركاً لك أن تستنتج بنفسك،

ملهاة هذا الحدث أو مأساته، مثيراً فيك قدرة على التخيل، بمقدار ما فيه، هو، من قدرة على التخيل، وتلوين الواقعة، ورفعها إلى مستوى قصة لكاتب موهوب.

ولكم تساءلت، بيني وبين نفسي، عن سرّ هذه المعلمية في سرد حكاياته، وعن صدور ذلك عنه بعفوية، حتى كأنه لا يفقه كنه ما يفعل، وغنيت أن يكون له بعض الوعي، بعض الفهم للأسباب والدوافع، حتى يكون في صفّ الذين لا يكتفون بوصف الظلم، بل يعملون على رفعه. وأعترف، الآن، أنه كان في تبشيعه للظلم، وتقبّيح نتائجه، ورسمه بإيحاء بدعو للسخط عليه، لمقاومته، أفضل مني حين أنكلم على الأشياء مباشرة، فيظهر من كلامي تحريض مباشر، لا يكون له الوقع الذي كان لتحريضه هو غير المباشر، المتروك لدلالة الحدث.

وأذكر أن رجلاً سجن في مدينتنا إسكندرون، لسبب لم أعد أذكره، كان يشتم السجن، بعد خروجه، ويصوّره في أقيح صورة. والذي لم يقل شيئاً، عاش الفترة التي قضاها سجيناً كما يعيش في بيته، ولم يكن للقلق إليه سبيل، وكان يأكل، وينام، ويتحدّث، تماماً كما يفعل خارج السجن. وقد قال، ونحن نتأوه للظلم الذي حلّ به: «ولكن ماذا حدث؟» كأنّ الأشياء سواء لديه، وكأنه لم يعمد إلى مقاطعته كما فعلنا نحن، وكلّ ما فعله أنه أظهر استخفافاً أكثر ببهورته وأدعائه، ولم يُقْصَبْ عن السهرات، ولا طلب أن نعامله بشكل يختلف عمّا كنّا نعامله به أوّل حضورنا إلى «البورة».

ورداً على تودّعات المطعون، وتأكيداته المستمرة أنه لم يكن السبب في سجنه، ولا أراد إلحاق أيّ أذى به، كان يصمت، غير مصدّق، ولكن غير مبالٍ أيضاً، كأنما يعوّل على الفعل لا الكلام، وحتى هذا يقوله في أوانه، ويقول بهجراً كاملة، غير مكترث بالنتائج، الأمر الذي أُرهب المطعون أكثر، ودفعه إلى الإلحاح في الكلام على الحادث، والاعتذار عنه، ليعرف ما سيكون موقف الوالد منه مستقبلاً.

لقد بهزني والدي، في تصرفاته تلك، بعد خروجه من السجن كنت على يقين أنه لن يفلح عن السكر، والترحال، والمغامرة، والتهالك على المرافة. لكنه، مقابل ذلك، يعرف أن ينصرف بكياسة لا تنقصها الحرافة، وهو قادر أن يكون أياً، دون إظهار كثير من العواطف، وبغث العمل، لكنه لا ينتفخ، ولا يستمر فيه، ولا يعدم الشعور بالمسؤولية العائلية لديه، لكنه لا يجعل هذا الشعور أقنوماً له، وسهولة كبيرة، يتجاهله وينساه.

ولقد كان لي، حلال وجودي في الربف، وحول البورة، وفي كروم الزيتون، وقت كثير للتفكير فيه، لمحاولة فهمه، لتعديل الصورة السخنة التي تكونت له في نفسي، وجرت صدفاً أن أفهمه وأن أعذره، وأحبته، لكن ذكريات الماضي كانت تعنادني، فتحول بيني وبين أن أرى فيه ذلك الأب الذي أعزّه وأفاخر به. وإذا كنت قد أعجبت بشجاعته، فإن هذا الإعجاب كان مصروفاً إلى الشجاعة بذاتها، وموقفني منها كموقفني من شجاعة أيما رجل آخر، ورغم أنني اكتشفت، أو كشف هو نفسه بساطته، أن دفاعه عن الفلاح السجين صخر، وحايته لبذور، ونصديقه، إلى درجة التهور، لكل بادرة سوء تصدر عن المظعون، فإنه ما كان يفعل ذلك صدوراً عن مبدأ، بل عن طبيعة، ثم لا يبالى بما يقال حول فعلته، فهو، من هذه الناحية، لا يكثر برأي الناس فيه، ولا يتوقعه، أو يعينه أمره.

قال لي ونحن أمام الخيمة، نشرب القهوة:

— إذن قمت بحراسة البورة بدلاً عني.

— هذا ما يجب، حتى لا تترك للمضعون فرصة للتحرش بنا وإبعادنا عن البورة، أو طردنا من الكرم كله.

— وهل خفت؟

— شعرت بخوف، بعض الأحيان، لكنني قاومته.

— وماذا هناك لتخاف؟

— لا أدري، ولكنني خفت أحياناً.

- أنت ما تزال ابن مدرسة .

أضاف :

- ستعلم من الأيام . . لا شيء يستاهل الخوف ، أو التفكير .

- لكنني لا أستطيع إلا أن أفكر . .

- لأن رأسك محشور بما لا أفهم من وساوس . . أنت من طبيعة أفك .

- أنني طيبة

- لا أقول غير ذلك . ولكن ماذا يعني الطيبة وحدها؟ اسطرحتك . هي طيبة أيضاً ، لكنها جريئة ، ورأسها خال من الوسواس .

- هل الوسواس عيب؟

- ليس عيباً إلا أنه مصيبة . هذه هي مصيبة أفك . وأنت طائع مثلها . كأنك لست ابني .

- أنا لا أريد أن أكون مثلك في كل شيء . .

حدق في بنظرة صارمة وقال :

- أفهم ما تعبه . . ليس من الضروري أن تشبهني . . أنا في الخطائي ، عاداتي السيئة ، لكنني لا أخاف الحياة . مرات عديدة رأيت الموت بعيني . في بر الأناضول . رفضت خدمة الغنمانيين . رفضت السخرة والشهيد وسوء المعاملة . هربت من العسكرية . كنت أهرب كلما مسحت في الفرصة . ما أكد أعود إلى الخدمة حتى أفر منها . الأتراك أعداء للعرب . هذا رفضت خدمتهم . وحللت قراري المشكور فعممت للموت أكثر من مرة . . كنت أفع بين أيديهم . فيقبضون علي . ويعيدوني إلى الخدمة . وما هي هذه الخدمة؟ إنها ليست حمل السلاح . إنها سخرة . العمل في شق الطرقات ، ومد السكك الحديدية ، وحراسة المنحدرات . وكنا حفاة عراة جوعاً . كانت القروانة ، وهي الوحيدة الوحيدة في اليوم . عبارة عن ماء مغلي فيه جبات من العدس . عيشاً كئيباً يبحث عنها في

فرجع. كانت تلك حياة قاسية. فترة مهلكة، وقد رفضتها، وكنت أدبر
 طريقة للهروب، ما إن يقبض علي وأعاد إلى الخدمة. وكان الحرب في سر
 لأصول. صعباً، يحتاج إلى جرأة، ومغامرة. كان علي أن أحتج في
 النهار وأمشي في الليل، وكانت الحال هي العزوب التي أسكنها، ومرة
 فطس عليها أنقبا، وفرروا بعدامي غصوا عيني، ورسطوني إلى
 شجرة، ثم حوسو سادهم نحوي. وفي اللحظة الأخيرة عدلوا عن
 قتل، غيروا رأيهم. كانوا من الفارين أمثالي. وقد أخذوا علي عهداً ألا
 نغول أبني وأبنيتهم. لو أفلح عن مكابهم. وانقسمت على ذلك. وأظنقوا
 سراحي. منذ كان موقفك لو كنت مكانك؟ قل أنت. كنت ثبوت
 حبيب. ولماذا تخوف؟ الإنسان يموت مرة واحدة. الموت أنشرف من
 الرصوح لنظم. مع ذلك لم أنت. ها أنت أمامك كل ذلك ثم يؤثر
 على انحصري. لم يدخل الموسومة إلى حدي، بحلاف ألتك التي ترغب
 من خيافا. وأنت من أنت؟ نسخة عن أمك، وكنت أريدك، أنت
 ابني الوحيد، أن تكون مثلي، أحبك ثم تكبر. أملك جعلت منك اس
 مدبرة، وفي رأسك أفكار. أناست ضد أفكارك. لكنها لا تهجي
 كثيراً. أنا سعيد أكثر منك.

— لکھنؤ لاہور بمبئی —

— عَزَّ وَجَلَّ وَجَدَ نَفْسَهُ

- من أجل هذه الحالة، تجد التفسير

— 1992 —

• **الحقوق والواجبات** (Rights and Duties)

ولا تفتنهم في أموالهم ولا في أبنائهم ولا في أبنائهم ولا في أبنائهم

مع تصديفاني، وإذن فأنا صادق، وهذا هو المهم.

— أوبريخيك أن نشرد في الريف من جديد، ونعمل في جمع الزيتون؟

© 2004 by Blackwell Publishing Ltd, *Journal of Internal Medicine* 255: 105–112

يده صنعة، ماذا يفعل في هذه الهجرة؟

- وقبلها، في السويدية، والأكبر، وإسكندرونة؟

- ألا نحل؟ تريد أن نحاسبني؟ هل نطّل أبي كنت ألعب هناك؟

- أنا لا أحاسبك، لكنني كنت أتمنى لك توفيقاً أكثر.

- لو كان لي مال، سند، لتوفقت..

- لو كنت تثابر على عمل، وتحسن المهنة التي تشتغل فيها..

صاح بي:

- أنا حانب. ماذا تريد أكثر؟ أربي شطارتك. ها قد أصبحت شاعر.

وابن مدرسة.

- لا أريد خاصيتك ولا لومك. ما حربي حربي.. هذا نحن وهذا

واقعتنا.

- قل هذا لنفسك..

- فنته أنت تذكر أنني اشتغلت، وأنا في المدرسة.. سأشتغل غداً.

وستغير حالنا.

- سنشتغل كلنا.. البيت لا ينهض على عمود واحد.

- إذا كان العمود قوياً، راسخاً، يكون دعامة البيت، جسره..

أنا نعلمه قولني أشعل سبكارة قبل أن يرد بسرعة عصب

- كن أنت هذا العمود غداً..

- سأكون... لكنني سأفعل في مثل الفصل الذي... أنا أواصل تعلمي هذه

الحلقة.

- وأن موافق... ولكننا... ومما يريد أن لا يلهي

النجاح؟

فالفا ونهض. هذا أول حديث صحيح بيننا، لا أعرف ماذا سيشتغل والدي في اللاذقية بعد انتهاء موسم الزيتون، والأرجح أنه سيعود إلى بيع حلوى «المشبك»، ولن يوفق بأكثر مما وفق في اسكندرون، ولكن ما العمل؟ هذا كل ما بحسبه، ويكفي، بعد الآن، أن نستقر في اللاذقية ولا نعود إلى التشرّد في الريف. إنني لا ألوم الوالد. هو نفسه قال: «هذه طبيعتي، ولم يبدل. ولن يبدل أيضاً. أيّ جهد لتغيير هذه الطبيعة اللامبالية، والأمل الوحيد، أن يكون في اللاذقية، بين شقيقه. وأن يكفّ عن إهماله وترحاله. لكن ذلك لن يصير، وهذا ما أعرفه، ولا أحتاج إلى التنبؤ به.

عندنا إلى جمع الزيتون، عاد هو إلى النظارة على البورة، لم تقع مشاكل جديدة بينه وبين المنطعون، أظهر الوالد انضباطاً أكثر في تصرفاته. لعلّه أحسّ أنني كبرت، وأنني سأحول بينه وبين ضرب أمي، أو تعذيب أختي، وتغديمها عند الناس. المصارحة بيننا كانت ضرورية. فهم أنّ ماضيه كان سيئاً، وأنني أعرف ذلك، وعلّه رغب أن يتخلّى عن نزواته، ومن المفروغ منه أنّه لن يستطيع ممارستها هنا في البورة، وكل ما يفعله أنه يشرب قليلاً، يشرب مساءً، بحضورنا وعلسنا، أو يتردّد على حمّارة القرية. كان يغيب، أحياناً، لبعض الوقت، دون أن يقول أين كان، ودون أن يسمح لنا بمساءلته عن هذا الغياب. كل ما قدرته، أنه يذهب إلى الحمّارة، ولم يكن هذا مزعجاً لنا، وقد راقبت الوالدة فألفيتها غير مكترثة بغيبابه المتقطع، ولعلّ شعورها القديم، في النفور منه، والامتناع عليه، والتظاهر بأنّ العلاقة بينهما كزوجين قد انتهت، كان هو ذاته الآن. وهذا فإنّها لم تأبه، ولم تغضب لغيبابه نهائياً أو ليلاً.

ما عدا ذلك بدا مستقيماً. كان يرافقنا إلى الكرم، ويبرر لنا الزيتون، ويحاول أن يجمعه معنا، لكنّه لا يصير صبرنا، فيغادرنا إلى البورة، متذرّعاً بضرورة تواحده عليه، ولو أنّه، كلّما جمعت كيساً من الزيتون، كان يستعير حملاً وينقله عليه إلى البورة، محفّفاً عنا هذا العناء الذي كابدهناه، أختي وأنا، خلال سجنه.

ذات يوم ، بعد عودته بأسبوع ، ناداني وقال :

— ستذهب معي اليوم إلى القرية .

— وماذا في القرية ؟

— تتعرف إليها ، وتسلم على الشوباصي .

أضاف :

— من واجبي أن أزوره ، فقد كان ، رغم كل بطشه ، رفيقاً بنا . أبقي عليكم في البورة ، ولم يكن راضياً عن سجنني ، وأعلن ذلك صراحة ، ولم يكتف غضبه على المطعون .

فكرت في عرض والدي . ترددت في إعلان رأيي ، كنت أريد أن أرى القرية ، لكنني أهاب مقابلة الشوباصي ، وأدرك هو ما طاف بخاطري ، فقال لي مشجعاً : إن أبا إسكندر سأله عني ، وكان مسروراً لكوني أقرأ وأكتب ، ونصحني أن يتيح لي تعلم مهنة الخلاقة التي بدأها .

قال :

— الشوباصي سيكون مسروراً من هذه الزيارة . المجاملة ضرورية ولي غاية فيها ، هي أن أشعره أنني أحترمه ، وأفرق بينه وبين المطعون .

أضاف :

— أبو إسكندر ذكي ، رجل ملء ثيابه ، كنت أتوقع الأذى منه ، فإذا به يأتي من المطعون . لقد راعى الشوباصي خاطرنا . عاملنا بطيبة غير متوقعة . قدّر ظروفنا . أدرك أن الهجرة هي التي دفعت بنا إلى هنا ، ولم يشأ أن يزيد في متاعبنا ، وهكذا نجونا من بطشه الذي لا ينجو منه فلاح في كل هذه الديرة . .

• قبلت أن أذهب مع والدي إلى قرية «ح» . . كنت أراها من نخم كرم الزيتون . أقف عند المفترق المؤدي إليها . أشاهد تجمع البيوت القليلة على

الرابية. هذه البيوت التي يقوم بينها، وعلى مستوى أرفع، البيت الحجري ذو القرميد الأحمر الذي يتوسطها، أو يشكل ما يشبه الخوص فيها. هنا كان بيت الأسباج، الذين باتون ملأماً، وفي أوقات مساعدة، للإطلاع، للإشراف، لفضاء شغل، ثم يعودون. وكان للشوباسي غرفة أرضية في هذا الضيق، وتقوم البيوت الطينية الواطنة، التي يسكنها الفلاحون، من حولها. وهي تحيط بساحة كبيرة، ترابية، على أطرافها بعض الأشجار، وفي هذه الباحة بعض النسيم للحمر، وفيها دكان ريفي لبيع بعض اللوازم من ملح وكبريت وسكر وزيت وكاز، وعرق. وكانت غربة الحظور، أو الكرؤسة، وأحياناً السيارة، تأتي إلى القرية، وتدخل الباحة إلى الضيق، وتترك، في النصف، رابعة من الغار وراءها، وفي الشتاء، إذا جاءت، تشق الدواليب درأ لها في الأوحال.

قرية دح، هي قرية الأسباج فيها الشوباسي، والمختار، وأحياناً الوكيل، وتراوح بيوتها بين العشرين والثلاثين، وهي محطبة بين القرى الأخرى، التابعة للسادة أنفسهم، والبعيدة، على مسافات متباينة، حول هذه القرية التي هي المركز. كان الشوباسي، هو السيد الفعلي، المباشر، على كل هذه القرى، وعلى الأملاك التي لا تأخذ حوطاً. وما من فلاح، يحفر له الشوباسي في يال، إلا ويرتعد، بسبب من قسوته، بطنه، مظلته، التي تتجاوز كل حدود، لتصل أحياناً إلى ضرب الفلاحين، وعدم بيوتهم، وتهجيرهم، وقتلهم أيضاً.

ذهبنا إلى هذه القرية في الضحى، كان شكلها، ترتيبها، جوها، على خلاف ما تصورت. صحيح أنها تشبه القرى الأخرى، في بيوت الفلاحين التي هي أوكاز طينية، وفي الباحة التي يروح فيها الدجاج، وترتبط الخيول والأبقار، لكن الضيق القرميدي، ذا الطابقين، يعطيها ميزة على القرى الأخرى، قل جاهلاً، سواء في الباحة التي تخترقها درب مرصوفة بالأحجار والحصى، أو في الحديقة المشجرة حول القصر.

فصدنا، فور وصولنا، غرفة الشوباسي، أو جناحه الأرضي، ورأينا

فرسه مربوطة إلى معلنها، وبعض الفلاحات اللواتي ينطقن الباحة، ويجمعن روث الفرس، ليضعن منه الجلة التي تحفظ وتحفظ للنساء، كان فلاح عجوز يسقي الأزهار والشجيرات، كان محدودياً، منهجاً، أعفى من العمل الزراعي لأنه عاجز عن مزاولته. لم أر سواه في الباحة، ولم أجد أيما أثر للرجال الذين ذهبوا إلى الحصاد أو الحراثة أو جمع المواسم، وحدث الله لي لم أشهد أيما فلاح يجلد، حسب التصور الذي أحمله من الحكايات التي سمعتها. وكان الشواصي في غرفته، بفرم التبغ على لوح خشبي صغير، مستطيل. سميك، بسكين حادة، يلمع نصلها، وبحركات فيها دقة ومهارة.

طلبنا من العجوز أن يطلع الشواصي أننا جئنا لزيارته. دخل عليه وعاد يطلب منا الانتظار. تخيل إليها أنه لما يبرح فراشه، أو لم يبرند ثيابه، أو أن غرفته غير مرتبة لاستقبال الزائرين، لكن شيئاً من ذلك لم يكن، فهو، كما قال لنا، يستيقظ باكراً، ويقوم، راجلاً أو على فرسه، بجولة في الأراضي والكروم. وينتبع صاحباً بجبات من الثين الأخضر أو اليابس، وهذا كل فطره.

حسبت بادئ الأمر أنه أبنانا منتظرين اصطناعاً للوجاهة. إشعارنا بمكانته وهيبته وصعوبة الوصول إليه، لكن ذلك كله كان تصوراً غير حقيقي، فهو يراجع بعض دفاتره، وحين فرغ منها، وياشر فرم التبغ، إذن لنا بالدخول ردّ تحيتنا كما يجب، لكنه لم يرحب ولم ينضم. كان، حسبنا انطبع في ذهني، أقرب إلى العيوس، ولم ينهض لنا، وتشاغل بفرم التبغ عتاً، وكان في كامل ثيابه، وعلى رأسه الطربوش المغربي المعسوب كمادته.

سأل الوالد دون أن يلتفت إلينا:

- متى خرجت من السجن؟
- منذ أسبوع، وحضرتك تعرف ذلك.
- نعم أعرف. . . عدت لامبالياً، كأننا كنت في رحلة إلى قرية أخرى.

قال الوالد :

— استغفر الله . . العين لا تعلق على الحجاب، ولم يصدر مني في حقكم إلا كل مليم .

— وفي حق المطعون؟

— أنا لا أشاكلة . أقوم بالنظارة على البورة، وعائلتي تجمع الزيتون، ونحن تحت أنظاركم، وقريباً ينتهي الموسم .

— لكننا قد نلتقي في المدينة، ولا أرى سبباً لاستمرار العداوة بينك وبين المطعون .

— أنت تعلم أنه البادي .

— أنا لست قاضياً، ولا أحقق معك، ولا يهمني من البادي . المهم أن تنتهي المدة الباقية من الموسم على خير .

— إن شاء الله . . كل ما تقوله يا أبا اسكندر أعمل به، وسأعمل به أكثر .

— ليس من السهل . . أنت مشاكس . . من تظن نفسك؟ كيف تجرات على المطعون؟ ولماذا حيت بدور، كان يجب الرجوع إليّ، أم أنك لا تحسب لوجودي حساباً؟

• ضاق صدري من هذه اللهجة الاستبدادية، من هذا التهديد. والوعيد المبطنين. من هذا «الوالي العشوائي» الذي نصب نفسه حاكماً مطلق الصلاحية في رقاب وأرزاق الفلاحين، والذي يعامل الوالد كفلاح في إقطاعه الكبيرة. كان الآن غيره على البورة. كان كمن يجلس على كرسي العرش، والوالد أحد عبيده. وقد عجبت من تواضع الوالد، تضاوله أمامه، وكدت لا أصدق عيني ولا أذني، وتصوّرت حال الفلاحين اليأساء معه، وضروب الإهانة والإذلال التي ينزلها بهم .

قال لوالدي بعد صمت:

— قل لي، بصراحة كاملة، وبيننا غمماً: كانت بدور سارقة؟

— أنا لم أفشها، لكنني أمتنع ذلك ، هذه وشاية من المطعون، كان نجوم حولها، وكان يزيد لها في الوزن، ثم فجأة انقلب عليها، عاملها بجفاء عدة أيام، أنقص لها في الوزن، ثم اتهمها بسرقة الزيتون، جرى كل ذلك أمامي، كنت أراقبه، عيني لا تغفل عما يجري في البورة. . أحسب أنه كان يريد منها شيئاً وأبث. . لا أخطأ في ذمّي، لكنه التفسير المعقول لسلوكه. . إنه. . ماذا أقول؟، تعرفه أكثر مني.

— أعرفه في المدينة وفي القرية وعلى البورة. لا تخفي عليّ خافية. في اللاذقية، خلال الشتاء، يعمل في أحد النوادي التي يلعبون فيها القمار. شغلته خدمة اللاعبين. يستزف، لكنه، إضافة إلى هذا يقوم بكل ما يُطلب منه، وقبل الظهر يدور على البيوت، يحضر مجالس النساء، يشترك في الصبحيات، بنجم، يرى البحث في الفنجان، يعمل أي شيء تريد، لكنه لا يترك جانب الخواجات. . هو، من هذه الناحية، زلمتهم، وهم يثقون به. . شكاته بحقك كادت تؤدبك في داهية، لولا أنني تدخّلت. . أنا لا أؤمن عليك، لا أقول هذا لتعرف، غير أن وضعكم في الريف، ألّمني، وجاء السجن ليزيد الطين بلةً.

— أنت مشكور على كل حال يا أبا اسكندر، لولاك كنت في السجن الآن.

— ليس الأمر كذلك. موقفك الصلب ساعد في إنقاذك، لم تعترف بأن بدّور سرق، وأنت ما قمت في تفتيشها، وهكذا عجزوا عن إثبات التهمة عليك. هذا الموقف منك أرضائي. أثبت أنك رجل، أنا أحب الرجال، المطعون هذا طرطور. رخوا أمام النساء، يضحك عليه. مجالسه معهن مشهورة، يدعوته إلى الصبحيات ليتسلبن عليه، وهو ليس أكثر من خادم في بيت الخواجة «د».

— لاحظت ذلك، أدركت أنه تحرّش بدّور فاستعصت عليه.

نظر الشوابصي الى والدي، رمقه بنظرة جانبية لسبر دخيله وقال:

— وأنت. . هل لانت معك؟

— القردة بالله. هذه ليست شعاعتي.

— أنا لا أقول ذلك رأيتك، أو لم أرها، هي التي سألتك بذلك.

— إلى؟ لا علم لي ولا خبر. انصت.

فأطعمه الشوبانجي.

— لا أقسم.

ارتبك الولد. فاجأه الشوبانجي لما حاول أن يلقبه بما يهين الآخرين
أفهمته أنه غير ساهية. قال له ما يجب أن الوقت المناسب. وضعه في الزجاجة
الصفيدة. وحين أنكر الشهور، كان الشوبانجي يعرف لمن هو. ويكره
الكذب، وله عين في كل مكان. وغير راحته لكل الأشياء، يطلع على ما
يجري في مملكته، ويظهر بالحدس بعبر وجهه. سلال خطاط، رحت
أراقب والذي أحذف في عيبي، في وجهه، في حركاته، شاعر بأنه هو هو،
ذلك الأب الذي عرفته، ذلك الزوج الذي دأبت التي على يديه للويلات،
لكنني صدقت قسما، تقول أن بولي الشوبانجي أني النساء. أكره والذي،
طوال فترة الصمت التي ساء، لم يلتفت إلي. نجح طرقي اعترافه
بالدهاء إلى المظلمة أريدك. كان يؤثر ألا أقول معه، وطلي أنه لم يحس
حساب هذه القاحلة، وإلا ما اصطحنني معه.

قال الشوبانجي بحوته الخس، الصارة، الشبح بالرهة.

— لماذا سكنت يا مصري؟

— وماذا أقول يا أبا إسكندر أكثر مما قلته؟

— أنت لا تذكر ليرمذك عن الصبغة إذن؟

— لا أنكر، ولكنني أذهب لتناول كأس من الدكان.

— أصغر إذن. لا تتردد كثيرا عن الحناء، ودع السكر الطاهر فليس هذا
لواحد.

أضاف:

- لو عرفت فعل ما فعلت ، انما كنت شرفياً على الاخلاق ، ولكن
 ان كنت غريباً ، ولا ارباباً ان تستمر احبوك مباحي ، وانتم عدائكم
 من الشدة ، ولا احب انكم الهمة امام الشرايين ، لا تصنع موقوفك
 الصبح خطاً من هذا الطريق ، كنت حتى الان ، على الخيال ، انما الله
 الدخول والهدى . سكت في السطع لربما السرك ، ولولا ذلك كنت
 تعرف من انا ، وكنت تؤمن ، على يدي ، ان الله حق .

قال والدي :

- لا تريد الدفاع عن نفسي .

لقد الشواهي بحسب الحسنة : الزمعة في الوقت نفسه .

- ان لا استطع الدفاع عن نفسي .

احسب بغير ميل الى التحفظ من ليرة العبد .

- احسب بالهكوت ، لم تكلمت ، لم حاولت التمسك ، لو انكوت انك

تروى على الضميمة لكلا في معك حساب كثر .

لقد رأت بعدا على سمات المولد ، تحييد في طبعه الخفية ،

الشك ، اللامبالية .

قال :

- كنت في ريادة فترت ان الواجب يفرسها . سمعت كلامك وسكت .

كنت على الراس والعين ، لكن للضمي نهاية . اني احترمك . كنت الاكبر

سأ . ولكني اريد ان اقول كلمة واحدة انما كنت

- فلما تريد . اني السمك

- يكفي هذا الضريح ، اني اعرفك . سمعت الكثير عنك ، حلتني اني ،

شفت ليد في وجهك والعزم في حركاتك ، لكني لم اسكت امامك هذا

فقط ، بل لاني احبك . انما تبحر ، تعامل في الدنيا ، احب لرجلك

واللهم مثلك ، لكني من جهة اخرى ، لا احتمل الضيم . ليس

للهمزة عندى حسنة . . . ولقد راجعت فى حياتى محاسن وانتدلت بحسن
شعرى . . . وليس للعقبة عندى حسنة . . . كما فى نصيب . . . وأنت لثوب
على .

قال الشوبامى جتهداً أن يكلم غبطة :

— هذه تلى أو تلت مرة طار لي . . . أو سطر شعري . . . أنت كنت فى البيت
وأنت سطر . . . لحسب ألا هذا قصة عجب ؟

— أقول هذا لأنك تعرف البحارة وعمل الميناء . . . وربما نكر لهم رذاً .

— لا رذ عندى للمذنب . .

— وهذا قبيح ؟

— نسال بعد ؟

— أسأل لأنى يرى . . . لفتاى يذور ليس له أية غاية سنية . . . ويحدث

مصادفة . . . كما تتم . . . فاحرف . .

— ويؤلفك من الطغور ؟ والكلام من إسكندرونة ؟

— ماها إسكندرونة ؟

— لا أعرف . . . يطول السمعون بأنكم قد جردوا . . . به . . . الحيوانات . . . إلى ألسنة

الكلاب . . . وهناك يأتى الناس القاصيات . . . وهو يسمونه . . . ويطلقون . . .

أسماء على هذا الكلام . . . إنه قبيح . . . بأنكم تخرصون الأسماء . . .

وهذا فى الدنيا تخرصون العمال . . . بما تحسب . . . أنكم ؟ على الدنيا

فأنت ؟ أليس من حكومة ؟ أليس من ينف ضد أعمالكم هذه ؟

— أما لا أذكر أنى قلت شيئاً من هذا . . . وإن كان ما قلته من إسكندرونة
واقعاً .

— على أنك لم تذكر . . . هو والله لا يكفل من التمسك بحسن . . . أستطيع أن

أهم نسبة ما قلته . . . أسألكم . . . ألم تعلموا فى التمسك بالسموة

سوى . . . والشوبامى يعيد . . . والمفاجئ صحيح . . . ولو كنتم فى غو غيبا

الكلام . . . وعرفتم الوثائق . . . والشواهد . . . بالأحوال الأخرى . . . ورائكم

كيف يعاملون الصالحين، تعرفتم أننا هنا، رحماء، في قلوبنا إيمان.

كشاه حتى هذه اللحظة ملكة السبع بوند أن أصبح مصري ، وورد أن
تصارع حتى حركة اشتداد ، إيمان ، والله مايعودنا بعض الترواوي ، وقد كنت
الآن ، الآن ، على سكون ، ثم أرحني التسلية ، لكنه من ، وكنتي ، لا يتم
الاحتياط ، ولا يكثر الحذر الكبير من إستهلاكه والكثافة ، والعصر أن
ما كنت ، أو كانت أخرى ، قد بلغ الترواوي ، وربما كنت الطغوى هو السلي
فعل ذلك ، وربما عبادة الشاطور ، والمذ ريفة ، أو أحد الفلاحين على
البورق ، ومن الخبر أن والذي سحر بنهمة حياية بدور وليس بنهمة تحريف
الفلاحين ، فمثل هذه التهمة ، في نظر الفرنسيين المحتلين ، عقابها السجن
والعقوبة ، والاعطاف القليلة ، بغير الشهادة ، أما كلام الترواوي على
الأممات الأخرى ، وعلى الكلاسيك ، فهو صحيح ، وإذا كان أو إستكبر
رحيما كما يدعي ، لماذا يفعل غير بالفلاحين ؟ يا له من ظلم !... آفة حياية
شك في هذا الصراح الذي لا يملك الصبر ، ولا الصبر ، والآفة في ترواوي
أعني ، وعلى التهمة ، ترواوي مرسدة ، وبود ، ما كن من السوء الإسلامي ؟
ما كن الترواوي ؟ أن لي طوق بومر الصراح في قلمه ؟ أن
سلط من الآلام بومر قد ترواوي أن ما إليه أحد به الإستكبر ، ولم يسلط
عصا ، وسط هذا الجول ، والعصر ، أن يكون الصراح ، يعني حبه ، به أن
بمثل من أحد التمسير ، هذا ، عجمية بومر التمسير ، لا يكثر الصراح
أصا أن بومر هذا الصراح ، بومر التمسير بومر أن التمسير الترواوي ، أو التمسير
أن ترواوي الصراح في هذا التمسير ، ترواوي أن التمسير بومر الترواوي
والتمسير ، أن التمسير التمسير ، أعني في التمسير ، ولا تعني أن هذا التمسير
وليس في التلافة كلها ، حتى ولا في شركة الرعي ، نقابة .

أشبهت لابي الحبيب والفقير وحشد الترابي - من جهة أخرى، شعرت
بضرورة غشني، استعاج كقول الشوق لابي حبيب، التي قد أراها سمعت مثله،
بهذه الصراخ:

وكان الشواشي يحكم فيها الحاكم كان يكون الواسي

— إذا سمعتم نصيحتي، فاتركوا هذه الأفكار. دعوا الفلاحين وشأنهم.
لقد خلقوا لما هم فيه، فلماذا اعتراضكم؟

وافق والذي على هذا الكلام، أسفت لأنه فعل ذلك. لكنني لم أدهش،
هو نفسه غارق في الجهل، دنياه لقمة وخارة. وفي إسكندرونة، حين كان
الناس يضربون أو يتظاهرون، كان هو يسكر. كنت أستنكر موقفه، ألومه
عليه في نفسي، أعجل منه، إلا أنه كان موقفه، وعبثاً حاولت أن أحمله على
الإقلاع عنه، وعبثاً تميت أن يكون كالآباء الآخرين، الذين يتكلمون على
وضع الناس، ويتألمون لبؤس الفقراء، ويتضامنون مع العمال، ويصفون لما
يقوله الآخرون. كذلك تذكرت أنه لم يكن. يقتنع مع أسبيرو الأعور، أن
عليه أن يدافع عن حقه، كعامل، أو يكثرث للذين اعتقلوا من أجل
أفكارهم، أو يشترك في وفد يراجع بشأنهم. كان من طينة أخرى. لا
يصغي لأبما شكوى، لا يصغي حتى لشكواتنا نحن، زوجه وأولاده، وبدلاً
من تحسين سلوكه، كان يغمس أكثر فأكثر في السكر، وفي الشرذ، ويشركنا
لرحمة الأقدار.

لم يكن من تناقض بين الشوباسي ووالدي. كان التناقض معي أنا،
فالشوباسي يمكن أن يغفر، بل هو غفر فعلة والدي، لكنه، مشحوناً بعداء
فكري لكل ما مثله كلماتي، كان ينقم عليّ.

هكذا انفتحت عيناى على واقع بالغ العنت، في النظرة إلى الفلاح، وفي
مقاومة كل كلمة تؤدى إلى إيذاؤه. لقد أخطأوا في قبولنا في قرية وح، وفي
حراسنا على البورة، وفي وجودنا في الكرم كله. وهذا الخطأ أدركه
الشوباسي. وعلم بأمره عبدالله الناطور الذي نقل كلامي إليه. لكن
الأسباج، في المدينة، لم يعرفوا به بعد، وإلا ما خرج البالد من السجن.

انتهت الزبارة شيء من المحاملة بين الشوباسي ووالدي. لم يكن هو
المقصود، وقد علمت، فيما بعد، أنه هو، الشوباسي، من طالب والدي
باصطحابي إليه، ليقول لي ما قال، وينهذني، ويعاتب والدي على فعلته،
وبذلك يضرب عصافيرين بحجر واحد. كنت أنا العصفور المقصود، وفي

نحولي، وصغري، وصمتي أمامه، استهان بالعصفور الذي كنته، وسوى
حسابه مع الناطور الذي كانه الوالد، ورأيتهما، بعد الزجر والتعنيف،
يتبادلان علبة التبغ، بل إن الشوباسي، أصرّ على والدي أن يئلا علبته من
التبغ الذي فرمه، وأوصاه بالانضباط، وحسن معاملة المظعون، وأبلغه أن
القطاف العام سيبدأ قريباً، وأن الزيتون سيجمع كلّه خلال أسبوعين على
الأكثر.

أبلغت אחتي بكلّ ما سمعته وما رأيته في هذه الزيارة. لم تعلق على ما
سمعت. لكنها أدركت بحسّها السليم أن الشوباسي سينقل ما سمعه إلى
بيت «ف» كما نقل عبدالله الناطور والمظعون ما سمعاه إليه. وجومها أيقظني
على الخطر. ربما، بالنسبة إليها، كان الأمر يسيراً. أما بالنسبة إليّ، إذا ما
تابعت الكلام على أفكار في اللاذقية، فسيكون الخطر حقيقياً. وزاد في
المها أننا عائلة فقيرة، مهاجرة، وأن المهاجرين الآخرين، الذين بينهم من
يحمل صورة إسكندرونة المتمردة في دمه، سيكون عسيراً عليهم أن يذروا
أفكارهم في أرض بور، إذا لم يقيم من أهل اللاذقية بالذات، من عمّاه،
فقراها، مثقفيها، من يحمل مثل هذه الأفكار، فيشرّ بها بين العمال
والفلاحين، في محاولة لإيقاظهم. لقد كان حبّ العمال والفلاحين في دمتنا،
وما نريده هو الخير لهم.

سألتي وهي تغمرني بنظرات طافحة بالود:

— خفت؟

— ممّ؟ الشوباسي لم يتجاوز التهديد.

— في اللاذقية سيتجاوزونه...

وبعد وقفة:

— أما رأيت أحداً من المهاجرين الطيبين الذين كانوا يتردّدون على حيّ

العزاز في إسكندرونة؟

— لم أصادف أحداً منهم.

— ربما هاجروا إلى مدن أخرى... وربما كانوا يعيشون، هنا أيضاً.

متخفين، حذرين كما كانوا في إسكندرونة.

— ربّما..

— اليس عجيباً أن اللاذقية لم تنجب أمثالهم؟

— عجيب حقاً.. لكننا نجهل ما في قاع المدينة، ربما هناك وعي بين العمال.

— هذا صحيح.. غير أنّ اللاذقية خالية حتى من نقابة واحدة.

— وهذا ما أدهشني وأحزني معاً.

— كان علينا الآن ناتي إليها..

— وأين نذهب؟

— إلى بيروت أو الشام..

— ليس لنا أقرباء هناك..

— وماذا فعل لنا أقرباؤنا هنا؟ أنا شعرت بالغيرة عنهم، كما شعوري بالغيرة عن كل أهل اللاذقية.

— ستزول مشاعر الغيرة هذه..

— متى؟

— أنا لا أستعجل زواها.. يكفي، في البدء، أن نحصل على عمل..

تفكرين أنهم يقبلونني في الريحي؟

— إذا سَمُوا رائحتك فلن يقبلوك..

— وأنت كذلك..

— أنا امرأة.. لا يتوقعون شيئاً من امرأة، ولا يحسبون حساباً لوجودها

أصلاً. ثم إنني أحب العدالة، أرفض الظلم، وهذا كل شيء، فليس لي أفكار كأفكارك، ولا أحسب أنني سأشارك في أي عمل نقابي كما قلت لك..

— لماذا؟

— لأنني أمية، لا أقرأ ولا أكتب، ولا أميل إلى المشاركة في أي عمل، وليس للنساء دورٌ كالرجال.

— سيكون لمن دور.

— حين يصير ذلك أفكر..

تأملت אחتي ملياً، كانت روحاً متمردة لذاتها. من الصعب أن تفهم أفكارى التي أكاد، أنا نفسي، لا أفهمها. والمرأة، في حياتنا، لم تعمل، وليس لها عمل في أيما مكان، لانعدام الصناعة، وحتى الحرفية منها. الرئيسي هي الشركة الوحيدة التي تعمل فيها بعض العاملات. ولم يقيض لأختي، أن تعمل فيها يوماً، حتى ولو بشكل موسمي، لهذا فهي تحب العدالة لذاتها، دون أن تقوم بأي عمل للتعجيل بها، ودون أن تعرف ما سوف يكون مصيرها شخصياً.

في تلك الأيام، من خريف عام ١٩٣٩ وخلال وجودنا في قرية «ح»، كنت أنا نفسي أجهل ما سوف يكون مصيري.. كنت أنساءل، كما غوركي: «ماذا تكونين يا نفس وماذا يتحتم لك الغد؟» وستمضي أعوام على ذلك، قبل أن أتعرف إلى «الطبيين». وأدخل نقابة الخلافين.

في مساء ذلك اليوم جاء الشوباسي إلى البورة. بتدقيته في كتفه، وعصاه في يده، لابساً غنبازه التفتا، المقلّم، وطربوشه المغربي المعصوب، وكلّ المظهر اللائق، المهيب، والأناقة التي يمكن أن يوقرها زيّه العربي. تنحج عن بعد، كانت هذه عادته. لا يأتي الناس غفلة، لا يتلصص، ويرعى حرمة النساء الموجودات على البورة.

كان الآن، في المساء، غيره في الصباح. هناك، ونحن لديه، اتخذ وضع المسؤول، غير الراضى عما فعل الوالد. أو عفاً قلت أنا. أدّى الدور الذي يريده. كان يعرف، ويؤمن، أن ما طلبه من الوالد سيصير، وأن تكرار الكلام ليس من عادته، ولا يرى فيه فائدة، ومهمته الاستطلاعية هذه تأتي في ختام جولة قام بها اليوم، على الأراضي والكروم وكل أملاك بيت «ف» غير المحدودة، فهوو يريد، هنا، أن يشرف، يراقب، يعاين ما يجري، ويستريح، قبل العودة إلى القناق.

المطمعون خفّ للقاءه، تلقّاه بحفاوة مبالغ فيها. أوقف التقيين، وركض إلى الخيمة فأناه بكرسيّ، فأشار له الشوباصي بيده علامة الرفض. كان ريفياً حقيقياً، فهو يرفض، أو يجلس على حجر، أو على كرسيّ واطئ ويجد في ذلك راحته، وكان الوالد قد ترك عمله على البورة. جاء للسلام عليه، ولم يقترب الفلاحان خوفاً، أما الأم فقد خرجت وحبّته بخفر وحياء، وظلّت الأخت في الخيمة، ولم أبرح مكاني على البورة.

كانت أوقات المساء تلك تفتني، الغروب الوشيك، والشمس تسحب أشعتها الذهبية كعروس تحرّ الذيل وهي تخطو مبتعدة، وطراوة الجو، ونثيث الأرض، ذو الرائحة العطرة، العابقة بالصعتر والزهور البرّية، وصفاء الدنيا، التي استحضت بالشمس، وهذات من ضجّة النهار، وتقاطع الألوان في الأفق، والنضوء المودّع في ذرات بلّورية، تنغشاه العتمة شيئاً فشيئاً، وإحساس ما قدسيّ يصعد ابتهالات إلى الأعلى.

كانت الجمال تصل في مثل هذا الوقت، للقيام بأخر نقلة من الزيتون المعبأ بالغرارات. ناتي في تنابع، كأنها تعلّمت نظام الدور والتزمته، يتقدّمها حمار يركبه الجمال مصطو. وحين كانت تهلّ من بعيد، قادمة بين صفوف الزيتون، يسبقها رنين الأجراس، كنت أنتعش. أشعر أن يوماً من العمل قد انقضى، أن نهاراً من التعب يمضي مؤذناً بالراحة، وكانت إطلالة الجمال حلوة، أسعد بها، لفرط ما أكنّ من مودة لهذه الحيوانات الأليفة.

وقف مصطو الجمال أمام الشوباصي محبباً. وكمادته، مدّ هذا الأخير علية تبغ الملائى ودعاه إلى لفّ سيكارة. سأله عن حالة الجمال، عمّا إذا كانت تعلّف جيّداً، وتقطرون كما ينبغي، في الأماكن المحتاجة لذلك من أبدانها. كما سأله عن المعصرة، وسير العمل فيها، ومقطوعة الزيت من الزيتون، وجودة العصير، وحمّة العمال في الشغل، وإدارة المشرف على المعصرة، وحسن قيادته للعسل، وأخيراً، طلب منه أن يزيد عدد الجمال، وعدد النقلات، لأن القطاف العام سيبدأ خلال أسبوع، تحسباً للطقس، وتحسباً للمطر الذي لم يعد مفيداً، وقد يشكّل سبباً يحجّوف الزيتون المتناثر.

كنت أقف على مبعدة. وقامت الوالدة بتقديم القهوة. شكرها على ذلك وسألها عن الصحة والشغل، وقال لها: «أصبح الموسم في آخره، فردت الوالدة: «كل عام وأنتم بخير». كانت أساريرها متفرجة الآن. تلاشي خوفها الغريزي. أدركت أن الشوباصي لم يأت مغاضباً، وأن ما جرى على البورة، وسحق الوالد، والشجار بينه وبين المطعون، أصبح في حكم الماضي. وأن كل شيء سيكون على ما يرام. ولقد ارتعت بدوري، وازدادت إعجاباً بشخصية الشوباصي. هذا الذي تمثله الرجولة ثباته، ويزار إذا غضب. ويطش بغبر رحمة إذا ما صادف خروجاً على إطااعته أو تمأهلاً في تنفيذ أوامره. لكنه كما يعرف أن ينثر إلى درجة مرعبة، يعرف أن يهدأ ويكون كبساً، مسابراً. طيباً عند اللزوم، ومع علمي، نقلاً عن الوالد، أن الشوباصي يشرب، وله عطله في الفناق، وفي بيته في المدينة، فإنه كان يرفض أن يتناول ولو جرعة واحدة مع الوالد على البورة، أو مع المطعون، أو يسمح لنفسه بدخول أي خمار في قرية «ح» أو القرى المجاورة.

إنهى التقيين. حملت الجمال ومضت، أشعل اللوكس، وجاء الوالد ففرص إلى جانبه، ونادى الشوباصي للمطعون أن يدع حساباته للغد ويأتي إليه. كان واضحاً أنه يريد مصاحبتها، لكنه لم يقل ذلك، ولم يدفع أحدهما لتفصيل الآخر، سألها عن النظارة، وجمع الزيتون، والكميات التي تنقل إلى المعصرة، وقال كمن يقرر واقعاً:

— تتعاونان جيداً، أليس كذلك؟

قال الوالد:

— نعم يا أبا إسكندر.

وقال المطعون:

— المصري أخي.. لو لم..

قاطعه الشوباصي:

— لا داعي للكلام على الماضي، سيرة انطوت. الموسم في نهايته، وغداً، في المدينة، تلتقيان..

- لكنني، عدم المؤاخذه، أريد أن تتصافى. .
- قال الوالد:
- خلاص، قلبي صفا، لم يعد فيه أثر لما كان.
- أما أنا، عدم المؤاخذه، فأريد تبرئة ذمتي. .
- صاح به الشوباصي:
- دغ ذمتك بحالها. . العمى، الرجل ساعك، فماذا تريد أكثر؟
- ناح المطعون:
- ساعني الآن، أمامك، وغداً في المدينة. . أولاده قالوا إنه سينتقم مني.
- قال الوالد:
- ساعتك نهائياً. . ولا أفكر بأي انتقام.
- أنا غير مرتاح من ذلك.
- هذا لا دخل لي فيه. . أنت أسأت إلى الفلاحين، وحسابك معهم.
- حسابي مع هؤلاء؟ إنهم، عدم المؤاخذه، لا يرفعون رؤوسهم أمامي، فكيف في المدينة؟ الفلاح. في اللاذقية، يطلب الجيرة، يطلب السترة. .
- لذلك الفلاح لا ينسى. . أم نظرت أنك من طينة أخرى؟
- نعم من طينة أخرى. . ابن المدينة من طينة أخرى. . ماذا نقول يا أبا إسكندر؟ اتساوى أنا والفلاح؟
- قال الشوباصي بنبرة زجر:
- لا أريد أن اسمع هذه النغمة. . الفلاح إنسان مثلنا. .
- أبداً، وأقولها من كل قلبي.
- قال الوالد:
- أنت لا تعرف الفلاح إذن. .
- أعرفه جيداً. . منذ سنوات وأنا على البورة. .
- قال الشوباصي بحسم:
- لا تتمرجل. . أنت هنا بحماية السادة، وحاييتي. .
- بحماية دراغي. . الرجل منهم، عدم المؤاخذه، يرفع رأسه.

- كفى! صاح به الشوباسي، ولا كلمة أخرى.. انتهى الموضوع..
لنستعد للقطاف، سيبدأ منذ الاثنين المقبل.

- بالنسبة لي كل شيء جاهز.. لبأت الفلاحون من القرى فنبدا، أستطيع
أن أنجز عملي مهما توارد الزيتون.. القبان حاضر، وسأعمل نهارا
وليلًا..

- عليك أن تتسلم الزيتون وتسلمه.. عدد الجمال سيزداد، وكذلك عدد
النقلات.. يجب أن نسبق المطر، وعلينا أن ننتهي من الزيتون لنبدأ
البذر والفلاحة.

- ضع رجليك في ماء بارد.. أعطني فلاحين آخرين ليعملا معي على
البورة، وكل شيء سيكون على ما يرام.

- إدارة العمل تحتاج إلى سياسة، إلى قدرة على تشغيل الذين معك.
بالنسبة لي، عدم المؤاخذه، سياسة العصا هي الناجحة، ليجرب واحد
منهم أن يرفع رأسه.

التفت الشوباسي إلى والدي وسأله:

- ما رأيك يا مصري؟

- ماذا أقول يا أبا إسكندر؟ أبو نعمة أقدم مني. يعرف شغله.. أنت أقدر
على الحكم على كلامه.. علمتني الحياة أن الذي يقول لا بفعل.. من
يستخدم العصا لا يتحدث عنها.. ثم إن الفلاح بشر.. عشت طويلاً
بين الفلاحين في ريف أرسوز وأحببتهم، ولم أسمع من الوكلاء هناك ما
أسمعه هنا..

قال المطعون:

- كل شيء لديكم، عدم المؤاخذه، يختلف.. هناك الوكلاء جبناء..
وأنت وحدك الشجاع؟
- غداً ترى..
- ما دمت واثقاً فلا محل للكلام إذن.. بإشارة من يدك يتم كل شيء..

انت تأمر وهم يطيعون . .

قال الشوباصي :

— أبو لعمبة رجل . كنفوز . شجاع . . وهذه شهادتي . فهل تريد أكثر؟

— تكفيني هذه الشهادة . . إلا أن تكون مزحة!

نظر الشوباصي إلى والدي نظرة خاصة وقال :

— مزحة . . ؟ لا . . جدّيتك لا تترك موضعاً للمزاح!

جاءت القهوة من حديده . وشرع الوالد في حديث عن آيانه الخوالي . وكان الشوباصي . رغم خشونته . يلبس حين يسعه . . كان الوالد يقصّ ما مرّ معه من أحداث . بالمهارة المعهودة عنه . والشوباصي بصفي . بسريدي . يندهش . يبتسم . أو يطرح سؤالاً لاستعادة ما يسمع .

ولأنني سمعت قصص الوالد هذه . فقد دخلت الخبسة واستنقبت مفكراً . فما سمعت . وما قاله الشوباصي اليوم . وما قاله المطعون الآن . ورثت حال الفلاح . ثم حللي التداعي إلى رثيعة . فتساءلت : ماذا تعمل الآن؟ كنت أراها لاما . ولم تكن شكلم على أسياننا السافنة . انتهت العلاقة القصيرة . الخبيسة . التي قامت بسنا . عاهدت نفسي أن أقطع حلقي بها . أن أختق الحب الذي حفر به قنبي . وقد وفيت بعهدي . كنت مطلقاً مع نفسي . وأعزير ما حدث لصالحها . قاومت كل رغبة في زيارتها . كرهت والدها . . قدوت أنه هو الذي نقل كلامي إلى الشوباصي . كان فقيراً وفي صفّ الأغنياء . كان أجيراً ومع السادة . ولم أكن . في ذلك الوقت . أعقد الناس أو أحد في حسابي دوافعهم الناشئة عن الجهل . وكنت غير قادر أن أعقر للناس أحقادهم . وبعد قليل انقضت . وبقي الآخرون ساهرين على النوبة .

في بداية الأسبوع انتهى تغرّدنا بنير وجمع الزينون حيث شاء من الكروم. انطبق هذا علينا كما على سائر السواطير وعائلاتهم. لقد بدأ القطاف العام. نزل الفلاحون من قرية «ح» والقرى المجاورة، في ثيابهم المثيابة الألوان، الفاقعة والصارخة غالباً، واشترك الرجال مع النساء في عملية القطاف، التي أشرف الشوباصي بنفسه على انطلاقتها. كان هناك عدد كبير من الفلاحين، معهم السلال والأكياس والأطباق القشبية المقعرة. وقفوا في صف واحد طويل، يعرض الكرم، وتسرع هذا الجمع الكبير، المتجمع من قرى قريبة، مختلفة، والذي لا يعمل كله لدى بيت «هـ»، في عملية قطاف تستمر إلى أن ينتهي جمع الزينون كله، وعندئذ يغادرون للقطاف في كروم أخرى.

كان هذا العمل الجماعي جديداً عليّ. إن الجماعية، بحد ذاتها، تشكل لونا من الجماهيرية التي تبعث على البهجة. فمعص الفرح لا يظهر إلا مع الكثرة، وبمقدار ما يتكاثر الجمع، يفتح سد الفرح ليدفع كتفه، جازفاً معه كل ترسبات الكآبة والانكماش والضييق. لأنه في جمعيته، ينحوّل إلى عرس، مهرجان، أو شيء من هذا القبيل. لا يستطيع المرء معه، ومهما كان سلحفياً، إلا أن يخرج من صدفته، ويتدمج في التيار العام. مع ذلك أحسنا، للوهلة الأولى، شيء من غربة، سببها أننا نحن فقط

بقوم لا نعرفهم، وأن علينا أن نتطف الزيتون مثلهم، في صف واحد طويل، يتقدم بشكل متساو تقريباً. لقد قدنا، الآن، الامتياز الذي كان لنا في اختيار الشجرة الحامل، المثقلة الأغصان، دون التقيد بصف، أو جهة، أو تلقى الأمر، أو نخضع للسرايين الذين يأتون بعدنا، ويعانون حسن القطاف، ونبر الأشجار نبراً كاملاً، وجمع الزيتون دون أن نترك حبة شاردة، أو غثينة تحت حجر أو مدرة، أو بين العشب والشوك. كان على القطافين أن ينظفوا الأشجار والأرض والأحاديث وكل المساحة التي يعملون فيها جيداً. إنه القطاف الأخير، التام، التاجز، وعلى القطافين أن لا يدعوا زيتونة واحدة وراءهم أو أمامهم.

لكن إحساننا هذا، ما لبث أن تبدد بسرعة، فاندمجنا بالفلاحين، وشاركناهم العمل والفرحة، وكانت أختي أكثر فرحاً واحتفاء بعيد القطاف هذا. أما بالنسبة لي، فقد كان هذا المهرجان، هذا العيد، بكل ما فيه من ألوان وأصوات، ووقع المروابط على الأشجار، وضجة، وغناء، شيئاً جديداً، طريفاً، يقدم أول مشهد للعمل الجماعي، وللتنافس، والترافض، ومحاولة السبق، وجمع أكبر كمية ممكنة من الزيتون. لكن طرافة المشهد، كرنفاليته، مازجها شعور بعدم القدرة على الاندماج بهذا الرهط العامل، المنقطع، المتصايح. كنت هكذا دائماً، أستشعر، للوهلة الأولى، نوعاً من الانكماش في الجو الجديد الغريب عليّ. لقد غاب صفاء اللوحة القديمة. انعدم الهدوء الذي كان يسود الكرم. انتفت وحدانية الرجدان مع الطبيعة، صار عليّ أن ألقى بنفسي في ما شغل به الناس أنفسهم. ترتب عليّ أن أعمل. وأن أحمل المرواط، وأنبر الشجرة التي في الصف، لا تلك التي أختارها أنا. كان الترويط صعباً، لأنه من غير المسموح أن أترك زيتونة في دغل من الأغصان، أو في أعلى فرع من القمة، وعلى العائلة، أن تنظف الأرض كما أنظف أنا الشجرة، وأن تفعل ذلك بحمية، سرعة، اندفاع، كيلا نتأخر في العمل، فنتخلف عن الصف الذي يتقدم من طرف الكرم إلى طرفه الآخر المحدد.

وخلافاً لما حسبته وحشة دائمة، بين ناس لا نعرفهم، وبين فلأحين مدرّبين على ترويض الأشجار، ونير الزيتون، وجمعه في جماعات قشيّة صغيرة، فقد ظهر أن وحشني، كانت موقفة . . إذ سرعان ما اندمجنا بالعمل، ولقينا مساعدة ممن حولينا، وخاصّة في النير الذي لم أكن أتقنه، وكان يتعبني بسرعة . كان القطّافون يتقافزون، يسراكضون، يبيرون، يجمعون، يندفعون بحماسة، لم تلبث أن أعدتنا، فصرنا مثلهم، واختلطنا بهم، وتقدّمنا، مدفوعين بالروح الجماعية للعمل الذي اتخذ الآن شكل احتفال، طقس، رفصة شعبية، بين وقوف وانحناء، وتقدّم وتصايح، وغناء انطلق من رجل في المقدمة، تبعته الرديّات اللازمة، وزغرذت امرأة، وتبعتها أخرى، فأحسنا بانتعاش، بفرحة، بلعب جماعي، كأننا احتفالية القطاف قد نظمت نفسها بنفسها، ووزعت الأدوار على كلّ من المشاركين فيها، بمن فيهم نحن .

هكذا لم نلبث أن أحببنا هذا الانبعاث الجسدي والروحي . هذا الدوران، الرقص، الغناء، الضرب الايقاعي على الأشجار، اهزير المطري للزيتون، الخشخشة التي تحدثها الأقدام في الأعشاب والأشواك اليابسة . نسينا الوقت، أنفسنا، انعزاليّتنا، وجومنا . تهلّل كل شيء، فينا، مضينا في هذا الصخب العامّ، وأمّحت الحدود بيننا كأبناء مدينة، والآخرين كأبناء ريف، وصرنا عائلة واحدة، عائلة العمل الواحد والفرح الواحد .

وقالت الأم :

— هذا يشبه الحصاد ولقط السنابل .

— يشبه العرس . .

— بل هو العرس بعينه . .

— كأنما الناس إخوة . .

وقلت في نوع من الارتياح :

— بل هم أخوة حقيقيّون .

- لم نكن نعرف أن شيئاً من هذا سيصير .
- لأننا لم نكن نعرف الفلاحين على حقيقتهم .
- رأينا هم من خلال كلام المطعون . .
- المطعون الآن غارق في العمل حتى أذنيه . .
- وسيتلاعب بالقبآن كما يريد . .
- وماذا في يدنا؟
- لا شيء . . نحن لن نبلغ أن نحول بينه وبين الغش في القبآن . .

قالت الأم:

- لكنه، بالنسبة إلينا، لن يغش . .
- وقالت الأخت:
- ربما، لكنه، بالنسبة للآخرين سيغش دون شك .

قالت الأم:

- الشوباصي أرحم . .
- وقلت لها، متذكراً ما سمعته منه:
- لا رحمة في قلوبهم جميعاً: الأسياد، والشوباصي والوكيل، كلهم، ضدّ
الفلاح، وكلهم يتعاونون عليه .
- أصرّت الأم:

- الشوباصي أرحم . . نحن لم نرمه سوى الخير . .
- ولم أشأ مناقشتها، كان عليّ أن أسرع إلى شجرة أخرى، أمانا، والمرواط
في يدي، فقد كنت، الآن، لا أنبر بل العب. صار العمل، نتيجة
احتفاليته الأسيرة، ضرباً من لعب، ينتفي معه التعب. ولم نشعر بالحرّ،
برغم أن أجسادنا تئذت، فقد انفرزت السموم البدنية، وتغلغل، في

المسام الدقيقة، هواء العافية، وتبدت السماء، في عليائها، في زرقتها، شيئاً
جَمِيلاً، رائعاً، حبيباً، وغدت بلورات الضوء النهارية كرمشالية، تنموج فيها
الألوان، والفضاء اتسع، كأنما نحن تحت سقف غايي، يمتد ويمتد،
وتترجع، في الجهات الأربع، أصوات وصيحات وضحكات مفعمة بحبور
اخضر كلون الزيتون الذي نعمل في أشجاره المباركة. اعترف أنني أخرج
من جلدي في حالات كهذه. تنتفي كآبتي، أصير أنا ذاتي، الإنسان الذي
هو جزء من كل. أستعيد مرجي الطبيعي، وإنساني التي تنشرني في
الوحدة.

وفيما نحن نواصل رقصتنا الجماعية، في احتفالتنا المسرحية، التي لم
يورّع أحدٌ علينا أدوارها، بل ارتجلناها واندغمنا فيها، تعالت من حولنا
صرخة مدوية، أخافتنا، وأرجعتنا إلى الواقع الذي نسيناه.

سمعنا ولولة، وصوتاً يصيح:

— حية، عضتها الحية!

تراكض الناس، تجتمعوا حول فتاة ملقاة على الأرض، بينما اندفع آخرون
لقتل الحية التي انسابت بين الأعشاب، وتعقبوها بحرص بالغ، حتى تمكنوا
منها، وعندئذ ارتاحت الوالدة، وكان مبعث ارتياحها أن السم سيتوقف
الآن عن السريان، لأنه يسري في الجسم ما دامت الحية تسعى في الأرض.

كانت اللدغة في الإصبع السبابة. كان الدم يجري، ونيوب الأفعى
تركت علامتها ظاهرة، وجاء فلاح بحبل فربط ساعد الفتاة، كي يوقف
سريان السم وبلوغه الجسم، ونادوا على أحد الشيوخ، فجاء ويسمل، ثم
وضع فمه على الإصبع وراح يمتص الدم والسم ويبصقهما. وأحضر شاب
مدية حادة فتناوها الشيخ وراح يشطب الإصبع والكف والساعد، والدم
ينفر من الشطوب، وفلاح كبير السن يحاول إبعاد المتجمعين من حول الفتاة
الملدوغة، وسط هرج ومرج كبيرين، ذهب برونق العرس الذي شكله
القطاف.

القطافون قمصانهم الخارجيّة، أو تخففوا من ملابسهم، لكن النار الكاوية
لشمس الخريف الحادة، كانت تلهب الأجسام. وراح العرق يتحبّب
ويتفصد، من جباه وصدور الذين يبنون الزيتون، والمراقبون الذين عيّنهم
الشوباصي، بدورون حول الأشجار المنبورة، يتفرسون فيها، يعاينونها من
جميع الأطراف، وبعضهم يقلبون الأحجار، والمدرات، ليروا ما إذا كان
تمة خبّ متخلف، ومن يترك زيتونة على شجرة، أو حبة ضائعة، أو طائشة
في أرض الكرم، كان يُعاقب، أو يوبّخ، ويصرخ في وجهه، أو يعاد إلى
وراء، لتنظيف البقعة التي تجاوزها.

ومع اشتداد الحرّ، ووصولنا إلى مرتفع جبلي، تكثر فيه الحجارة
والمدرات، انساب نسق من الأنواع ذات الألوان والأحجام المختلفة.
كانت تهرب إلى أمام، وترحف في خطوط ملتوية وهي تنلع بأعناقها، وترفع
رؤوسها، منضّطة بالسنتها، خلفه وراءها فحيحاً وخشخشة في الأعشاب.
فيصرخ الناس، ويتراكم الرجال وبأيديهم العصي، وتنصب القمامات
مذعورة، وتعود أُمّي إلى التوسّل كي نترك القطاف ونعود إلى خيمتنا في
البورة، لكن الأخت ترفض، متحدّبة كل خطر، مصرة على البقاء بمفردها.
إذا نحن غادرنا الكرم إلى البورة، وهكذا كنّا نضطر إلى البقاء، وإلى النبر،
والجمع، والتنفذ مع الصفوف، وابتلاع خوفنا، والدخول في تلك المباراة
الكبيرة القائمة من حولنا.

تناولنا طعامنا ونحن نعمل. الآخرون، الفلاحون، لم يأكلوا شيئاً، تخلّوا
عن وجبة الظهر، كي لا يفوتهم الوقت، محتملين جوعهم إلى المساء، وهم،
كما قالوا، اعتادوا ذلك، فوجبة الطعام الرئيسية بالنسبة اليهم هي العشاء،
بعد العودة من الكرم، حيث يعملون آخر ما جمعه إلى البورة، وبعد تقبيله
وشئيمه يعودون مصروفين إلى قراهم، حيث ينظرونهم عملي آخر، هو إشغال
النيران، وحيث التناوب ووزت الماشية وحلبها، ثم تسأل ما ليسر من
طعام، والكوم، كغداً الفق، إلى الصباح، وفيه يستألفون ما بدأوه أمس.

يوم القطاف الأول هذا، دام إلى الغروب. كان الشوباصي قد فسر أنّ

ينتهي من هذه المهمة بسرعة، وأمر باستمرار العمل، طالما كان في المستطاع
نير الزيتون وجمعه في ضوء الغروب. ومنذ العصر، حين مالت الشمس إلى
المغرب، دبت في الناس فرجة عارمة، كأنما تكاتفوا جميعاً على بذل ما تبقى
من طاقاتهم، مع ما تبقى من النهار. ومع أننا توقفنا، قبل الآخرين، فقد
بقينا هناك، في الكرم، نشهد العيد الذي بلغ ذروته مع اقتراب المساء،
حيث خفت الحر، ونشطت حركة الناس، وازداد لهوهم وضحكهم، وازداد
سباقهم غير المقترن بأي رهان، وعاد فلاح إلى الغناء، بصوت حلو، قوي،
جهوري، يخترق الأمداء، ويؤرث الهمم.

وبعد أن نال حظّه من العتابة، في مواويل ريفيّة، حلوة، بهيجة، أتبعها
بالميجانا، ثم انتقل إلى أغاني ريفيّة فولكلورية، كان يحفظ منها الكثير ونفخ
رجل في مزماره، وضرب آخر على الطبل، وغنّوا على دلعونا، وساعة
التوقف عن العمل، عقدت الدبكة في فسحة بين الأشجار، وشارك فيها
الفتيان والفتيات، في اندفاع حقيقي، يرافقه دق الأرض بالأقدام، وتمايل
الأجسام، وترقبص الاكتشاف، واهتزاز الصدر، مما حول هذه الرقصة
التقليدية التي أعرفها، إلى نوع وجدّي، عنيف، غاضب، فرح، وخرج بها
عن رتابتها إلى قفزات في الهواء، وصرخات تنخية، وزغردات، وترديد
هادر للأزمة، مع اشتداد وارتفاع صوت الزمر، وتفجّر ضربات الطبل،
كأنما ضاربه قد أخذته حال من النشوة المجنونة.

بعد ذلك انتقل الناس إلى البورة، تعاون أفراد كلّ عائلة، وشارك
الرجال والنساء في تعبئة المحصول، واندفع الفتيان في حمل الأكياس، على
الظهور وفوق الدواب، واتجهوا في خطوط طويلة، متعرجة، اخترقت
مسنوف الزيتون، إلى حيث البورة وعليها القبان والوكبل، وبيدر كبير كبير
من الزيتون لم أشهده من قبل.

كان الشوباصي ثمة، يربض على طرف البورة يراقب، وكان هناك الوالد
والفلاحان عزيز ويونس، وقام آخرون بإرجاع الناس إلى وراء قليلاً،
وطلبوا منهم الاصطفاف، وحين هبطت العنمة أشعل اللوكس، لكن ضوءه

أنار بقعة محدودة، وعندئذ أحضرت لا أدري من أين، قطع مرخ^(١) بطول الزند وثخانتة تقريباً، وأشعلت وهي مرفوعة فوق الرؤوس، فيها الظلمة تهبط. وتعالّت من هذه المشاعل الصنوبرية، الأنوار والدخان، واتخذت البورة، بدورها، مظهر العيد الشعبي الليلي، وعلت ضجة كبيرة، تداخلت فيها الأصوات بالنداءات برنين أجراس الجمال، ودام ذلك إلى العشيّة، حين غادر آخر القطّافين البورة، بعد أن وزنوا وسلّموا ما جمعوا في نهارهم.

هذا المشهد الاحتفالي، لمهرجان القطاف، في الأصل وبعد الغروب، في الكرم وعلى البورة، صنع لي بهجة غامرة، خاصة وأن رثيفة كانت هناك، وكان والدها يساعد في العمل على البورة. وقد شاءت الصدفة أن نلتقي، وأن يقترب أحدهما من الآخر، وأن ينظر كل منا في عيني الآخر، نظرة فيها عتب، وفيها حنان، وفيها شعور بالفراق القريب الذي ربما لا لقاء بعده.

سألتهما:

- أين كنت اليوم يا رثيفة، ألم تشهدي القطاف؟
- شهادته كلّ، من الصباح حتى الآن.
- لكنني لم أرك. . هل اختبأت مني؟
- كنت في الطرف الآخر من الصفوف، ورأيتك من بعيد، لكنك لم تبذل أية محاولة للاقتراب مني.

قالت لها بلهجة أسبانية، فيها ما هو فوق العتب، وفيها أكثر من حنين. لقد كانت عتبة، وما زالت كذلك، وكانت تنأّم، في حين أمكنني السلوان، مما عزّ عليها، فتلوّنت كلماتها بحزن شفاف، وانعكست في البؤبؤين رؤى النيران المتوقّعة، وخيّل إلي أنها استشيرت، وأن وجنتيها تضرّجتا، فأخذني إشفافاً عليها، رغبت في الاعتذار عنه دون أن تطاوعني الكلمات.

(١) «المرخ» أجزاء مقطوعة مكسرة من جذوع الصنوبر.

عدت أسألهما:

- مشتركين غداً في القطف أيضاً؟
- لا أدري، والذي لا يرى في العمل مع هذا الحشد الكبير فائدة تذكر.
- هل عاونك في النبر وجمع الزيتون؟
- كان يراقب وراء الصفوف، خوفاً من سرقة الزيتون.
- الشوباصي أوصاه بذلك؟
- ربما. لكنه قال لي إنه لا يأمن جانب الفلاحين.
- ومن نبر لك الزيتون؟
- هو. كان يتردد علي، وبعض الفتيان ساعدوني أيضاً.
- كان علي أن أفعل ذلك بنفسني.
- وتركت عائلتك؟
- أنسرق بعض الوقت.
- من الخير أنك لم تفعل..
- لماذا؟
- هكذا. ما دمت لا تريد، فلماذا تغضب نفسك؟ الآن انتهى كل شيء حقيقة.. سنعود إلى المدينة..
- قلت:
- لكن الذكريات لا تنتهي، بل هي تبدأ الآن.
- قالت:
- لم تكن ذكريات حلوة ولا سعيدة..
- كيف؟ ولقاءاتنا؟
- تذكرتها كثيراً، وتأملت، ثم ישست، وغداً ينسى كل منا الآخر.

أضافت فجأة:

— اسمع! والدي يناديني.. سأذهب، الوداع..

وقلت بغصة:

— الوداع يا رقيقة.

ولم أرها بعد ذلك أبداً..

أما العائلة، فقد كان عليها كل صباح، أن تشارك في القطف الذي استمر اسبوعاً ونيفاً. وكان هذا القطف، مثله في اليوم الأول، عيداً خاصاً من أعياد الريف. ولم نحس بالوئ، بالضجر، بالتعب، ولا بالخوف من الزواحف، خاصة الأفاعي، التي أمدتنا الشجاعة الجماعية، بمقاومة كل ما كان يداخلنا من رعب منها. ألفنا أن نراها، وأن نطاردها، ونقتلها، وحتى في الحالات التي كانت تلدغ فيها بعض القطفين، كان الأمر يبدو طبيعياً، وكانت الاسعافات ذاتها تتخذ، ومع أنها أولية وبدائية، فقد كانت تنقذ بعض الملدوغين، ولم نعد نحس حسابها. نسيناها في غمرة مانسينا من أمورنا وهواجسنا الخاصة، عندما اندغمنا في الحشد الكبير، ومضيئنا معه في رقصة القطف والكفاح البشريين، اللذين هما لون من ألوان الحياة الماتعة في الريف، أو التي تصوّرتها كذلك.

لكن حادثاً وقع، قبل انتهاء القطف بيوم واحد، بدّل صورة العيد، وأحاطها بهالة مأساوية دامية، فكان وقعها شديداً في نفوسنا، نحن الذين على البورة، من فرط ما تخلّلها من اضطراب، ومن لغط، ومساءلة، وتحقيق، وملاحقة.

وقع الحادث في المساء، عند العشيّة، حين كانت جموع الفلاحين توشك على الانتهاء من وزن ما جمعت من زيتون وتسليمه، استعداداً للانصراف إلى القرى.

الشواصي لم يكن موجوداً، والعمل على البورة، كان في عزّه، وكان ثمة

نور اللوكس، وأنوار أعواد المرخ، ولم يقع الحادث في دائرة البورة، ولا حدث اختراق للحلقة البشرية المحيطة بها، بل كان هناك ترصد، وراء أشجار الزيتون، ربما تكرر ليالي بطولها، لكنه لم يبلغ غايته إلا في تلك الليلة المشؤومة، حين أوقف المطعون التقيين، ومضى خارج البورة، بين أشجار الزيتون لقضاء حاجة. وفي اللحظة التي خرج فيها من حلقة المتجمهرين، وصار وحيداً، على تخوم الضوء والظلمة، انطلق عيار ناري، وسقط المطعون وهو يتخبط في دمه.

دُعر كلٌّ من على البورة. الوالد، الفلاحان عزيز ويونس، الأم، الأختان وأنا. دُعر كذلك الفلاحون، وفي لحظة كان الحادث قد تمّ، وهرع الجميع نحو مصدر الصوت، وكان المطعون، الذي أصيب في صدره، يتمرّغ على التراب والشوك، وحين استعاد الموجودون روعهم، التفّ فريق منهم حول القتيل، وطارد فريق آخر مطلق النار، الذي غاب في الظلمة، وحجبه أشجار الزيتون الكثيفة عن الأنظار.

تلك الليلة، عاينت الموت عن قرب، وقفت حياله وجهاً لوجه.. كنت أرتجف لهول الفاجعة، ولم أجرؤ على ملاسة القتيل، وسمعت أعيرة نارية في البعد، من النواطير الذين أفرغوا رصاصاتهم في الفضاء، إرهاباً ومحاصرة للقاتل، لكن ذلك بقي دون جدوى، وظلّ المطعون طريحاً حيث هو، إلى أن وصل الشوياسي، وطار الخبر إلى اللاذقية، وفي سيارة عسكرية، تابعة للدرك، وصل رجال السلطة، وشرعوا بالتحقيق، مع كلٍّ من كان تلك الليلة على البورة.

من حسن الحظ أن الوالد، وقت الحادث، كان يعمل في تعبئة غرارات الزيتون، وكان الفلاحان عزيز ويونس يساعده، وكانت الجمال تنتظر، والجمال مصطو حاضراً، وهكذا شهدوا جميعاً، وأثبت الوالد مكان وجوده خلال الحادث، فطرح عليه الأسئلة، وأخلي سبيله، لأنه لا علاقة له بما وقع، وقد ثبت أن الفاعل كان يترصّص في الظلمة، فأطلق النار وتوارى.

وفي اليوم التالي شاع خبر صدم الجميع. كان الخبر موجزاً، مفاجئاً،

دهش له الناس، وقد ورد من المدينة، صادراً عن تقرير من إدارة السجن، مفاده أن الفلاح صخر، أطلق سراحه من السجن يوم مقتل المطعون بالذات، وعندئذ تذكر الجميع، ذلك الفلاح الذي ظلم، وعُذّب، وسجن، وكان المطعون وراء كل ذلك... وهكذا انحصرت به الشبهة، وانطلق الدرك إلى بيته فلم يبقوا فيه شيئاً إلا قلبوه، وخربّوه، وأوقفوا زوجته واستجوبوها، لكن صخر كان قد غاب، وقال بعضهم إنه توارى في الجبل واعتصم فيه.

وبعد يومين غادرنا البورة. تركنا الريف وراءنا. وقالت الوالدة ونحن في الطريق إلى المدينة:

— تذكر ولا تُعاد.

وقال الوالد..

— لعل الله يكتب لنا رزقاً في المدينة..

وقلت في ذاتي:

«كانت هذه تجربة مفيدة على كل حال..»

أما الأخت فقد لزمت الصمت، لأنها كانت تشكّ في قدرة الوالد على الصدق، والاقلاع عن الترحال، وفي خلاصنا من التشرّد معه حيثما ارتحل.

دمشق ١٩٨٥/١٢/٢٩